


الكتاب العربي السعودي ٤٥

أمين مدني




الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م
الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م



بسم الله الرحمن الرحيم



الناشر
**تهامة**
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

## الإهداء

إلى ..

كل عربي بناء .. سطر

ويسطر في سجل الزمن

مجداً عربياً

أمين مدني

# محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

# مقدمة الطبعة الثانية

لا اخالنى مبالغا ان قلت : ان مؤسسة تهامة قد اصبحت مع المقدمة التى اسهمت فى النشاط الثقافى السعودى فى عهده الذهبى الحديث ـ اقول فى عهده الذهبى الحديث وانا اعنى ما اقول .

فلقلب الجزيرة ثلاثة عهود يعتز بها تاريخها الثقافى :

الاول : وهو الذى لا يأتى الزمن بمثيل له ـ عهد الذين اسسوا : الثقافة الاسلامية فى فجر الاسلام .

الثانى : عهد الرشيد والمأمون الذى عرف فى التاريخ بالعهد الذهبى .

الثالث : العهد الذى نعيشه ـ عهد التطور والانطلاق .

انا لا انكر : ما بذله ابناء قلب الجزيرة ـ من جهد فى ابراز ثقافة عريقة فى عروبتها بعيدة عن كل المؤثرات ، وانا لا انكر : ان الحرمين كانا فى الدولتين التركية والهاشمية ـ حافلين بعلماء عباقرة ـ مثل البرزنجى والبرى فى المدينة واليمانى والدحلان فى مكة ـ ولقد نبغ فى المدينة شعراء كبار ـ مثل الاسكوبى والعمرى وعشقى وبرادة ـ نظموا الروائع فى السياسة والاجتماع وفى غيرهما ، ولكننا اذا ماقارنا مانظم وما الف فى النصف الاول من القرن الرابع عشر من الهجرة ـ بما نظم فى النصف الاخير من هذا القرن نجد المقارنة تؤكد لنا الاسباب التى تجعلنا نقول : إن سنى النصف الاخير من هذا القرن تعتبر عهد اشراق وانطلاق .

ولعل حماس مؤسسة تهامة لنهضة المملكة الثقافية هو الذى جعلها تحسن الظن فى مؤلفى : التاريخ العربى وبدايته ـ فتلح علىَّ فى اعادة طبعه .

فانا عندما اشكر لهذه المؤسسة : حسن ظنها لا يفوتنى ان استرعى انتباه القراء الى ما يأتى :

إن الكثير من القراء كان يسألني عن الجزء الاول ليكمل به الجزء الثاني والثالث ـ اعتقادا منهم : أن مؤلف ( العرب فى احقاب التاريخ ) سلسلة مرتبطة الحلقات اذا ما فقدت منها حلقة انفرط بضياعها تسلسل الاحداث . والواقع ان كتاب ( العرب فى احقاب التاريخ ) مؤلف من اجزاء كل جزء منها قائم بذاته غير مرتبط بالآخر ـ فمثلا : « بداية التاريخ العربى » غير « مصادر التاريخ العربى » ، « ومصادر التاريخ العربى » غير « جغرافية التاريخ العربى » وكذلك بقية الاجزاء .

وملاحظة ثانية لا اكتمها ـ لقد فاجأتنى المؤسسة بطلبها تصحيح واضافة ما قد يبدو لى ثم تحرير مقدمة للطبعة الثانية ـ فاجأتنى بذلك فى الوقت الذى حددت لى فيه ـ جامعة الامام محمد بن سعود : وقتا لتقديم : البحث الذى طلبته منى لمؤتمرها المزمع انعقاده بعد رجب من هذه السنة . ألا وهو ( الثقافة العربية وحواضرها ) .

لذلك لم اجد الوقت الكافى لاعادة النظر فى كتاب صدر قبل ستة عشر عاما ، وانما وجدتنى اختصر التقديم واختمه بهذا الاعتذار ، وارجو من المؤسسة : تنظيم فهرست للاعلام وفهرست للامكنة ليسهل على المراجع الوصول الى الموضوع الذى يريده ـ فلقد تداركت هذا النقص فيما طبعته بعد هذا الجزء .

اما غير ذلك فاننى ارجو من القارىء ان يتغاضى عما قد يبدو له .

والله الموفق .....

امين مدنى

المدينة المنورة فى ١٤٠٠/٣/١ هـ

# تقديم

بقلم فضيلة الأستاذ

**محمد محمد المدني**

الأستاذ بجامعة الأزهر
والعميد السابق بكلية الشريعة

صديقنا العلامة الأستاذ أمين مدنى رجل بحاثة بطبعه ، عرفته وعرفت فيه هذه الصفة ـ الى صفات أخرى سامية كثيرة ـ أيام كنا نلتقى على الموارد العذبة من العلم والأدب والشعر فى « ندوة الأصفياء » التى كان يجمعنا اليها أخونا المجاهد فى سبيل الله ، الذى رفع الى جوار ربه منذ أشهر معدودات : الأستاذ الشاعر الكاتب المغفور له محمد على الحومانى ، طيب الله ثراه .

لقد كانت هذه الندوة بمثابة سوق من أسواق العرب التى كانت تعقد للعلم ، وللشعر ، وللخطابة ، والتى كان يتوارد عليها أئمة البيان وحكماء العرب وشعراؤهم قبيل الاسلام ، حين كانت العقول تجد لها متنفساً فى عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، وحين كانت هذه الأسواق مواسم علم ، ومجالى أدب ، ومعارض فن ، ومؤتمرات تهوى اليها الأفئدة ، وتشد اليها الرحال .

كأنما كانت « ندوة الأصفياء » هذه هى عكاظ العروبة فى مصر يجتمع اليها المصرى واللبنانى والحجازى والأردنى والعراقى والسورى والمشرقى والمغربى ، ويلتقى عليها الأحرار المجاهدون ، والعلماء المجددون ، والشعراء المجوِّدون ، والقواد الذين صنعوا التاريخ ، وكسبوا المعارك ، والشيوخ المجربون الذين ذاقوا حلو الحياة ومرها ، وعاصروا أحداث العروبة فتفهموا عن كثب أسرارها .

لم يكن هؤلاء يسمرون كما يسمر الناس بلهو أو لعب ، ولا يجتمعون على قال وقيل ، ولكنهم كانوا يثيرون البحوث العميقة عن كل مشكلة من مشاكل العرب والمسلمين ،

فيعرضون لتاريخها وتفاصيل حوادثها ، ودخائل أسرارها ، ويلقون عليها الأضواء فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ويضعون لها الحلول ويصفون الدواء ، كل ذلك فى أسلوب من البحث الأصيل ، والنقاش الهادىء الجميل ، والتعاون على تجلية الحقائق ، وتصفيتها من الشوائب ، توعية وتبصرة وشحذاً للهمم ، وتعبئة لكل قوة من قوى الجهاد والاستعداد .

لله تلك الليالى الحافلات ! ما كان أبعدها أثراً ، وأطيبها ذكرا ، واكثرها عبراً !

كان الأستاذ أمين مدنى أحد الزملاء فى هذه الندوة « ندوة الأصفياء » وكنت أراه بينهم طويل الصمت ، عميق التدبر ، لا يميل الى مقاطعة أو مسارعة ، فاذا تكلم أجاد فى الخطاب ، ونطق بالصواب ، واسترعى الأسماع والأبصار والقلوب ، كاشفاً عن حقيقة ، أو مبيناً لسر ، اومفضيا برأى ، أو موجها لناحية هامة من نواحى الحديث ، كل ذلك فى أدب جم ، وتواضع محمود ، وأداء هادىء رزين ، يستريح اليه من خالفه ، كما يستريح اليه من وافقه ، وقلما كان يخالفه احد ، لأنه ما كان يعتبر نفسه فى وقت من الأوقات مناظراً يبتغى الغلب ، ولكن باحثاً يبتغى الحقيقة ، ويعين على الوصول اليها ، ولا يهمه أن تظهر على لسانه أو على لسان سواه .

فكنت أغبطه على هذا الخلق الذى هو أجمل ما يتحلى به أهل العلم ، كما كنت أدرك أنه سيتهدّى على ضوئه الى عمل نافع يقدمه لأمته ، تتجلى فيه طبيعة الباحث الأصيل ، غير المتطفل ولا الدخيل ، فلما أنبأنى بأنه مشغول باعداد بحث واف عن « العرب فى أحقاب التاريخ » بدأت أتوقع تحقّق فراستى ، ودعوت الله له بالتوفيق .

واجتمعنا ذات يوم فعرض علىَّ فكرته فى بحثه ، ومنهجه الذى يسير عليه ، وتقسيم هذا البحث الى اقسامه التى يرى أنها ستستوعب خمسة أجزاء ، منها هذا الجزء الأول فى « التاريخ العربى وبدايته » وانه سيعالج كل موضوع من موضوعاته على شريطة التثبت قبل ابداء الرأى ، وعدم الانخداع بالظنون الجوفاء ، التى عسى أن تصادفه عن مستشرقين أو مستغربين ، أو التى يتخبط فى أوديتها حطاب الليل من المؤرخين القدماء أو المحدثين ، وأنه سيعمل جاهداً على تصحيح الكثير مما أضيف الى تاريخ العرب قبل

الإسلام وبعده ، معتمداً على المصادر الصحيحة وفى مقدمتها كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مع الحذر كل الحذر من الروايات المصنوعة ، والآراء المدخولة التى لا دليل عليها ، وليس فى لفظ القرآن أو معناه أو إشاراته ما يؤيدها .

وها هو ذا يبدأ فى تحقيق ما وعد به ، وهأنذا أقرأ الجزء الأول الذى أودعه ثمرات اجتهاده فى التعرف الى بداية التاريخ العربى ، قبل ان يقدمه للطبع حتى يعرف رأيي فيه كقارىء له صلة بجوانبه الدينية ، وكأخ يرى فيه أخوه مرآة نفسه .

وما من شك فى أن تاريخ العرب القديم منطو على كثير من الغيابات والمجاهل التى ترهق السالكين ، وتحير المدلجين ، وأنه قد توارد على الكتابة فى هذا التاريخ أصناف من الناس ، منهم الذين لا يرون فى العرب إلاَّ أوزاعاً من الخلق كانوا فى قديم الزمان أصحاب اشعار وأوبار ، وسكان بواد وقفار ، تدور حياتهم بين حل وارتحال ، وليست لهم جامعة تجمعهم ، ولا أهداف تدفعهم ، وإنَّما همهم أن يجدوا ما يقيتهم ويعيشهم ولو كان فيما يصيدون من حيوان ، او يحرشون من ضب .

وأكثر هؤلاء من الذين انحازوا الى الشعوبية الجائرة ، فجردوا العرب من كل مزية فكرية ، ولم يثبتوا لهم من المواهب الا موهبة الشعر والخيال ، كالهائم التائه الذى يتعلق بالسراب والآل .

ومنهم الذين بعثهم الاستعمار رواداً له ، ومقدمات ثقافية بين يدى حملات صليبية أو استغلالية ، فكان أكبر همهم أن يصوروا العرب لأنفسهم أمة من القعدة العجزة الذين خلقوا ليقادوا ، ولا يصلح أمرهم الا بأن يساسوا .

وقليلٌ أولئك الباحثون المنصفون الذين عرفوا فضل العرب ، وحاولوا ان ينفضوا عن تاريخهم ذلك الغبار الذرىّ المعنوى الخانق الذى نشره اعداؤهم وحسادهم ، ولكنهم كانوا فى كثير من الأحيان متحمسين أو ملقين للقول على عواهنه ، يدفعهم الحب لقومهم العرب على ان يتقَبَّلوا كل ما يساق إليهم من ثناء عليهم ، وتصوير لبالغ عظمتهم .

ولذلك جاء بحث الأستاذ أمين مدنى هادفاً الى الحقيقة فى ذاتها ، لا يميل الى التعصب لأحد أو على أحد ، فنراه يقف وجهاً لوجه أمام الآراء المتصارعة ، ويناقشها فى

أسلوب العالم المنصف الذى لا سلطان لشىء عليه الا الحجة والمنطق ، فاذا هو كالدليل الماهر الذى يقود متبعيه الى الطريق المستقيم ، مانحاً اياهم الطمأنينة إليه ، بأسلوب فعلىً مُباشر دون طنطنة أو ادعاء .

وقد رأيت بعض الباحثين يستدل بآيات من القرآن الكريم على بعض ما يورد من قضايا وأحكام تاريخية ، ولكنه ينزلق الى الروايات التى تتصل بهذه الآيات ، فيعطيها من الثقة ما يجعله يخرج عن النطاق القرآنى متوسعاً أو متضيقاً ، ومن حق القراء حين ذاك أن يتساءلوا : هل هذا المنهج مستقيم ؟

أما مؤلفنا « الأمين » فانه اذا عرض للاستدلال بآية من آيات الكتاب الكريم ، وقف عندها ، ولم يخرج عن نطاقها وما تدل عليه بنفسها ، فتراه يستوحيها الحقائق ، ويستنبئها الأنباء فى لباقة وحسن تناول ، وتراه يصدع بها مؤمناً بما تهدى اليه ، غير متشكك ولا متحير ، ولا مؤثر ما وراءها مما يعارضها أو يصادم حقائقها .

وبحثه عن « إرم ذات العماد » يتيح للقارىء مثالا واضحاً على منهجه فى دراسة تاريخها على ضوء ما جاء فى القرآن عن قوم عاد وفى حذر شديد مما أحاطته به الروايات التى اتصلت بذلك .

فهو ينقد ما أجاب به كعب الأحبار معاوية بن أبى سفيان حين سأله عن حقيقة ما يقوله ابن قلابة عن إرم ذات العماد ، ويبين ما فيه من ادعاء ظاهر ، ومن تظاهر بالعلم أمام معاوية ، ويزيف مارواه عن التوراة ، مبيناً أنه ليس فيها شىء عن شداد بن عاد ولا عن إرم ذات العماد . إلخ .

ثم يذكر حقيقة الأمر فى نطاق القرآن وآياته ودلالاته ، فيقرر حقاً أن قوم عاد برزوا فى الجزيرة ، وأنهم كانوا أصحاب قوة وبأس شديد ، اذا بطشوا بطشوا جبارين ، وأنهم كانوا أغنياء مترفين يبنون فى كل ريع آية ، وأن ذلك قد يشير الى أنّ نفوذهم امتد على كثير من ربوع البلاد العربية ، ولا يبعد معه أن يقيموا مدناً فى شمالى الحجاز ، وفى أطراف العراق ، وفى قلب اليمن ، وأن يضفوا عليها مظاهر الأبهة .

ثم يعرض لبعض أقوال المؤرخين العرب الذين يفسرون العماد فى « ذات العماد » بأن المراد بها الأعمدة التى تحمل الخيام . وينقد هذا التفسير قائلا : « إنه بعيد الاحتمال ،

فليس من المنطق أن يبنى قوم عاد قصوراً ضخمة لا يسكنونها ، إنما القريب من المنطق أن تكون العماد أعمدة القصور التى كان العاديون يبنونها ، فلقد أصبح من الحقائق التاريخية أن الأعمدة من فن البناء العربى القديم » .

كما ينقد زعم الذين قالوا : إن إرم مدينة تدور فى الأرض فتارة تكون فى الشام ، وتارة فى اليمن ، وتارة فى الحجاز ، ويعتبره ضرباً من الخيال البليد أو الساذج ، ويقرر أن أصحابه قد اختلط عليهم الأمر دون أن يتنبهوا إلى ما جاء عن قوم عاد فى القرآن الكريم : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ، « ولو تنبهوا إلى ذلك ، وإلى الآثار المنتشرة فى الجزيرة العربية منسوبة إلى عاد ، لقالوا إن لقوم عاد مدنا فى الحجاز ، وفى الشام ، وفى اليمن ، بدلا من قولهم : إن إرم ذات العماد تدور فى الأرض فتكون تارة فى الحجاز وتارة فى الشام وتارة فى اليمن ، وتارة فى مصر ! » .

* * *

وللأستاذ مدنى رأى فى الخلاف الذى قام بين المؤرخين عن الترتيب الزمنى بين معث هود وصالح وإبراهيم : فلا شك أن عاداً كانت قبل ثمود ، وأن نوحا كان قبل هود ؛ فالقرآن الكريم نفسه يقول فيما رواه من قول هود لقومه : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة » ويقول فيما رواه من قول صالح لقومه : « وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض » .

فهذه حقيقة لاشك فيها .

ولكن ما موقع العهد الإبراهيمى من هاتين الرسالتين : رسالة هود إلى عاد ، ورسالة صالح إلى ثمود ؟ أهو بعدهما أم قبلهما ؟

يقول الأستاذ أمين مدنى فى الفصل الذى عقده عن « الأديان فى جزيرة العرب قبل التاريخ » .

« إن المؤرخين الاسلاميين الذين يقولون ان العرب البائدة هم الذين سبقوا بنى إسماعيل ، وإن العرب البائدة هم الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح ـ عاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ـ وإن عاداً وثمود ومن كان فى عصرهم من دول وشعوب ، بادوا قبل هجرة إسماعيل ، يخالفون غيرهم الذين يقولون : إن ابراهيم رفع القواعد من البيت قبل أن

يستغيث وفد عاد عند البيت ، وقبل أن ينزل بعاد العذاب » .

بهذا يصور الأستاذ أمين الخلاف بين الفريقين .

ونحن نعرف أن المشهور بين العلماء أن ابراهيم عليه السلام ، كان متأخراً عن كل من هود وصالح ، وقد جرت عادة القرآن بأن يذكر نوحا ثم هودا ثم صالحا ثم لوطا وابراهيم .

ولكن الاستاذ أميناً يرجح الرأى المقابل ، ويستدل عليه بما ورد من دعاء وفد عاد عند البيت ، مع معرفتنا بأن الذى بنى البيت هو ابراهيم وابنه اسماعيل ، ثم يوفق توفيقا طريفا بين القولين فيقول .

« ونحن قبل أن نبدى ما ظهر من هذا الخلاف ، نلفت النظر إلى أن الإبادة ليس معناها الفناء الكامل فى أيام معدودات ، والى أن فى موضوع الإبادة بحثا سيأتى فى هذا الكتاب ، فلقد عاش الذين آمنوا من قوم هود ، والذين آمنوا من قوم صالح دهورا طويلة مع أبناء عمومتهم العماليق والجرهميين وغيرهم من شعوب الطور العربى الأول الى ما بعد الميلاد .

إن قوم عاد وثمود فى وادى القرى شمالى الحجاز وفى اليمن ، والعماليق فى مكة وفى شمالى الحجاز ، وفى فلسطين وسورية ، وجرهم فى مكة وفى وادى القرى وشمالى اليمن ـ كل هذه أطلق عليها المؤرخون اسم العرب العاربة ، وكل هذه الأمم لم تنته حياتها السياسية ، ولم يتحطم كيانها القبلى فى فجر العصر الاسماعيلى ، وكل هذه الأمم عاشت طويلا بعد إسماعيل ، بل هى عاشت الى ما قبل الميلاد .

فعلى ذلك لا نرى ثمة ما يوجب الخلاف : فقوم عاد الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح ، والذين زادهم الله فى الخلق بسطة ، ومنحهم النعم التى ذكرها القرآن ، لهم تاريخ طويل فى وادى القرى ، بل فى كل أنحاء الجزيرة العربية .. وبعثة هود كانت فى نهاية عاد الأولى حيث انتقل هود ومن آمن به الى الجنوب فورث الثموديون الأرض بعد قوم عاد .

فمن الممكن ـ مع هذا الاعتبار ـ الجمع بين القولين ، بأن قوم هود « عاد » هم الشعب الذى ساد بعد قوم نوح ، وأن هوداً بعث اليهم بعد ان هاجر إسماعيل الى مكة .. وعلى ذلك فان إبراهيم هو أول الأنبياء بعد نوح .. »

ومهما يكن رأى الأستاذ أمين مدنى ، فإنما هو اجتهاد من باحث تأمل طويلا ، وقرأ كثيرا ، ووازن بين المراجع التى قرأها ، واستنبط ما اهتدى اليه من ترجيح ، وهو من أجل ذلك رأى يستحق النظر وان كان يقتضى مزيدا من التحقيق والتدليل حتى يصبح حكما قاطعا .

* * *

وهناك كثير من فصول الكتاب ومباحثه ، كان من الممكن أن نقف عنده ، ونبرز جهد الأستاذ أمين واجتهاده فيه :

هناك البحث الذى عقده لإثبات أن اللغة العربية هى الأصل للغات العالم العربى القديم ، هى الأصل للغات السامية التى تطورت مع الأوضاع فى العراق ، وفى سوريا ، وفى مصر ، وفى شمالى الحجاز وسواحله ، وفى اليمن ، وعمان ، والخليج العربى ، وأن هذا التطور أبعدها عن اللغة الأم المتمسكة بصفاتها الأصيلة فى قلب الجزيرة العربية ، تلك الصفات التى تظهر واضحة كلما بعدنا عن مناطق الاحتكاك بالعناصر غير العربية .

وهناك البحوث التى عقدها عن تاريخ الخطوط التى دونت بها اللغة العربية وأبجديتها .

والبحوث التى عقدها لإثبات عراقة الشعر العربى كعراقة لغته .

ثم هناك البحث الممتع الرائع الذى عقده المؤلف لبيان معالم المجتمع العربى ، والدولة العربية ، فى قلب الجزيرة .

والحديث عن صراع الأديان ، وأنه يؤلف جزءاً مهمّاً فى تاريخ الجنوب والشرق من شبه الجزيرة .

والحديث عن تاريخ العرب وحضارتهم فى وادى النيل ، وعن هذا التاريخ فى العراق ، وفى سورية ، وعن الهلال الخصيب فى التاريخ العربى .. الخ .. الخ .

لقد كان من الممكن أن نقف عند هذا كله ، وعند كثير غيره ولقد قرأناه ، واستمتعنا بقراءته ، واستفدنا منه جديدا كثيرا .. ولكنا نؤثر أن نترك للقراء حقهم فى الاستمتاع بما استمتعنا به ، وفى أن يتدرجوا الى الحقائق مع الكتاب فصلا بعد فصل ، وبحثا بعد بحث ، وفى أن يحسوا بأنفسهم ، وبطريق مباشر بهذه الجهود الجبارة ، وبهذه النتائج

الرائعة التى حققها المؤلف الفاضل .

وإذا كان لنا أن نتوجه الى المؤلف بكلمة تحية ، وتقدير ، فاننا نؤثر أن نجعل هذه التحية دعاء إلى الله جلت قدرته ، أن يجزيه أحسن الجزاء ، على ما بذل فى سبيل أمته وقوميته ، وأن يديم توفيقه ، ويبارك فى حياته ، حتى تفوز المكتبة الاسلامية العتيدة بالأجزاء الباقية من هذا البحث العظيم ، والله هو المستعان وهو ولى التوفيق .

محمد محمد المدنى

الاستاذ بجامعة الأزهر

والعميد السابق لكلية الشريعة

القاهرة فى :٢٣ من رجب سنة ١٣٨٤ هـ ( ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٦٤ م ) ..

# التاريخ ...
# بين الغموض والوضوح

## رأى المؤرخ الكبير الأستاذ حبيب جاماتى
## فى الجانب التاريخى

إنها لمهمة صعبة حقا تلك التى باشر صديقى أمين مدنى الاضطلاع بها ، وإنه لعمل شاق ذلك الذى عاهد نفسه على إنجازه ، وأنجز بالفعل بعضه على أحسن ما يكون . وإنها لخدمة قيمة يسديها إلى طلاب المعرفة فى دنيا العرب وخارجها ، وإنه لسفر جليل هذا الذى يضعه بين أيدى القراء ، بعد أن بذل فى إعداده جهدا مرهقا ، يستحق من أجله التقدير والشكر والاعجاب ! فقد سد به فراغا فى المكتبة العربية ، وحقق به للمثقفين فى كل بلدٍ أمنية عزيزة ، وأضاف به حلقة قيّمة الى حلقات السلسلة التى صاغها الباحثون لاستكمال كتابة التاريخ العربى ، وتدوين التطورات التى مرّت بها جزيرة العرب ، وتسجيل المراحل التى تنقل فيها « العرب فى أحقاب التاريخ » .

والنهضة الحديثة ، التى تدفع فى تيارها الشعوب العربية والمستعربة ، من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن البحر المتوسط شمالا الى سواحل المحيط الهندى وقلب القارة السمراء جنوبا ، هذه النهضة تتطلب ، من بين مستلزماتها الضرورية ـ الإلمام الكافى بالتاريخ العربى من جميع نواحيه ، وذلك بارتياد مجاهله ، والغوص فى بحاره الشاسعة ، وطرق أبوابه كُلّها ، بغية استجلاء معمياته ، وتوضيح غوامضه ، وتبيان معالمه ، والافادة من عبره ودروسه !

فقد كان التاريخ ولا يزال ، بالنسبة إلى سالكى طريق المعرفة ، وإلى المتصدّرين لقيادة الوثبات القومية ، وإلى موجهى طلاب العلم فى شعاب دراساتهم المتعددة ، المعلم الأول ، والمرشد الصادق ، والناصح الأمين ، والينبوع المنعش المتدفّق الذى لا ينضب معينه ! وفى عبر الماضى ودروسه ما فيها من حوافز أو روادع ، يتأثر بها مسلك العاملين من أجل رفعة أوطانهم وإسعاد أقوامهم ، فى الحاضر والمستقبل .

والتاريخ العربى الغارق فى القدم ، غنىّ بحوادثه ، حافل بعظائه مفعم بتلك العبر والدروس التى تتوق إليها الأمم الحيّة فى وثباتها وفوراتها ...

ولم يبعث فى مضمار البحث والتحقيق والتمحيص شك فى أن جزيرة العرب ـ شمالها وقلبها وجنوبها ـ منبت من منابت البشرية ، ومنبع من منابع الفكر ، ومصدر من مصادر اللغات والخطوط والعقائد . فعلى أرضها أنشئت من قديم الزمان دول وارتفعت عروش ، وفى كنفها عاشت أقوام وتجاورت تارة فى سلام وتارة فى خصام ، وتحت أجوائها ترعرعت حضارات وازدهرت مدنيات ، ومنها انطلقت غزوات وفتوحات ، وإليها اتجهت فتوحات وغزوات ...

ولكن ، إذا كان تاريخ جزيرة العرب واضح المعالم تماما منذ ظهور الدعوة المحّمدية وانتشار الإسلام ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الأحقاب الأخرى . فمعالم التاريخ العربى يغشاها ظلال فى الفترة الممتدة من بدء التاريخ الميلادى إلى بدء التاريخ الهجرى . وتزداد الظلال كثافة فيتحول شيئا فشيئا ، فى الأجيال السابقة للميلاد ، إلى ظلام يصعب على الباحث بل يتعذر عليه أن يتبين من خلاله حقيقة الوقائع والحوادث .

تلك الأحقاب الغامضة من التاريخ ، والتى تمتد إلى ما قبل التاريخ ، هى التى يعالج أمين مدنى تطور الكيان العربى على مدار أجيالها ، فى هذا الجزء من المؤلف الضخم الشامل الذى يضعه عن « العرب فى أحقاب التاريخ » .

فمنذ البدء ، يواجه المؤلف أصعب ما فى المهمة الصعبة ، وأشق ما فى العمل الشاق !! فالمراجع التى يمكن الاعتماد عليها ، وإن تكن عديدة ، غير أنها متفاوتة القيمة ، متباينة متضاربة . واستطاعة الاعتماد عليها إما ضعيفة وإما محدودة ، وإما معدومة .

فما هى تلك المراجع ؟

ـ الكتب الدينية ، وأهمها التوراة والانجيل والقرآن ، وما نتج عنها من أحاديث وشروح وتعليقات .

ـ الخرافات والأساطير .

ـ النقوش المحفورة على الصخور وعلى بقايا الآثار القديمة ..

- الروايات المتداولة والقصص المتناقلة جيلا عن جيل والقصائد والأمثال .
- مؤلفات المؤرخين العرب ، الذين نقلوا ما سمعوه أو ما قرأوه ، أو ما رواه من قبلهم مؤلفون من غير العرب .
- أبحاث العلماء والمؤرخين والمستشرقين الغربيين ، الذين اعتمدوا من ناحيتهم على مراجع غير واضحة ، أو نقلوا بعضهم عن بعض .
- الآثار المكتوبة عند الشعوب غير العربية ، والتى قامت بينها وبين سكان جزيرة العرب علاقات وروابط ، من قديم الزمان إلى الآن .
- الأناشيد والأغانى والأهازيج وما جاء فيها عن أعمال البطولة عند الأقدمين .

ولا يوجد بين هذه المراجع كلها مرجع واحد يمكن الأخذ به قطعا ، والاعتماد عليه دون تحفظ ، واعتبار كل ما جاء فيه حقائق تاريخية أكيدة واقعة !

فهل كتب الدين كتب تاريخ ؟ وهل الناحية التوجيهية فيها ، والرموز والمواعظ والأمثال والحكم ، هل هذا كله قد جاء فى تلك الكتب كدرس فى التاريخ ؟ أو أن الحقيقة التاريخية فيه قد أهملت ، أو سُخّرت ، أو حُوّرت فى سبيل الهدف الدينى وحده ؟

والخرافات والأساطير ؟ هل كلها أوهام ، وكلها من نسج الخيال ؟ أو أنها كثيرا ما تكون خليطا من حقيقة وخيال ، وكما يقول المؤلف فى نهاية مطافه : ليس التاريخ الأسطورى مجردا من كل حقيقة ، وليس التاريخ الحقيقى مجردا من كل أسطورة ؟

والنقوش والآثار الباقية فى جزيرة العرب ، مما خلّفه الأقدمون ، قليلة أو ناقصة أو مشوهة ، لا تتفق قيمتها العلمية والتاريخية مع ذلك الماضى السحيق الذى تضيع معالمه فى غياهب العصور السابقة للتاريخ !

والروايات والقصص والقصائد والأمثال ، كالأناشيد والأغانى والأهازيج ، كلها فيها أثر الحقيقة ، وكلها فيها أثر الخيال . فهى فى الواقع تاريخ . وهى فى الواقع أساطير .

بقيت المؤلفات المكتوبة ، القديم منها والحديث ، وهى فى مجموعها لا تقبل على علاّتها ، ولا ترفض على علاّتها ، سواء أكانت لكتّاب شرقيين أم لكتّاب غربيين ، وسواء

أكانت قديمة أم حديثة . فكل من تلك المؤلفات ذخيرة ثمينة من بعض الوجوه ، وكل منها موضع شك وريبة من وجوه أخرى .

وقد قامت بين المؤرخين الذين عالجوا تطور الجزيرة العربية منذ القدم ، مناقشات ، ومجادلات ، ومحاورات ، ملأت مجلدات يزداد عددها دائما مع الأعوام ! وما سبب ذلك غير الغموض الذى يكتنف حقب التاريخ الأولى ، بالنسبة إلى قيام الكيان العربى ، وما وقع من حوادث فى جزيرة العرب ، والتطور السياسى ، والقومى ، والاجتماعى ، والدينى ، والثقافى ، الذى مرّت به الشعوب التى عاشت فى هذه البقعة المحدودة من بقاع الشرق .

آراء متعددة ، ووجهات نظر مختلفة ، واستنتاجات متعارضة ، وأحكام متفاوتة ، تعجّ بها مؤلفات المؤرخين الأجانب الذين عالجوا تاريخ جزيرة العرب بحيث يصعب على طالب الحقيقة أن يعثر عليها ، أو لا يعثر عليها إلا بعد جهد كبير ، بين دفات المجلدات الضخمة التى تركها أشهر أولئك المؤرخين ، أمثال جومار ، وغستاف ليبون ، وروكلو ، وكوسان دى برسفال ، ودفرجيه الفرنسيين ـ ونيبور وريتر الألمانيين ـ وبورخارت السويسرى ـ ومانزونى الايطالى ، وغير هؤلاء ممن لا يتسع المجال هنا لسرد أسمائهم وأوصافهم .

وكثيرا ما يضطر القارىء إلى التساؤل ، وهو يطالع ما تركه الباحثون فى عالم التأليف : أين الحقيقة وأين الخطأ ؟ أين يبدأ التاريخ وأين تنتهى الأسطورة ؟ أين الفاصل بين الواقع والخيال ؟

والمؤرخ الذى يعالج اليوم ما عالجه أولئك المؤرخون بالأمس ، لا ينجو من الاضطرار إلى مثل هذا التساؤل ، فى محاولته التفريق بين الخطأ والحقيقة ، والأسطورة والتاريخ ، والخيال والواقع !

وقد وجد أمين مدنى نفسه فى مثل هذا الموضع ، وهو يعود إلى المراجع التى ذكرناها ، ويتصفح الكتب ويتفحص الوثائق ، ويدوّن ويسجل ويقارن ، ثم يُقدّر ويزن ويخمن ويستنتج ، حتى يخرج من التجربة المثيرة برأى هو خلاصة ذلك كله : هو الحقيقة أو ما يقرب من الحقيقة حسب التفكير السليم المدعم بالأدلة والبراهين !

فقد حاول المؤلف أن يرفع الستار عن الغوامض ، ويمزّق النقاب عن الأسرار ، ويبدّد

الشك الحائم حول كثير من حوادث التاريخ العربى ، منذ أقدم العصور ، بطريقة تحليلية رائعة مبتكرة ، معتمدا على كل ما يتفق مع المعقول والمقبول ، من المراجع العديدة التى ذكرناها ووصفناها ، بما فيها من ميزات وعيوب . ولا يسعنا إلا الاعتراف له بأنـه قام بمجهود غير عادى ، وتوصل إلى نتائج على جانب عظيم من الأهمية ، ووجّه إلى تاريخ العرب فى حقباته الأولى ، أنوارا كاشفة بدّدت الظلمات عن كثير من وقائعه ، وبذل فى بلوغ هذا الهدف أقصى ما يمكن أن يتوفر لباحث مدقق من إمكانيات ومحاولات !

فمن الناحية التاريخية ، وفق أمين مدنى إلى إزالة الغموض عن طائفة من الحوادث والآراء ، والمعتقدات ، والأقوال المتناقلـة ، بالنسبـة الى تلك الحقـب الأولى من كيـان العروبة ، وجمع بين دفتى كتاب واحد ما لم يجمعه غيره قبله من مقارنات وموازنات ، بين ما قيل وما كتب وما نقل عن العرب ، منذ أن طاف ذكرهم على الألسنة .

هذا الكتاب قد وضع حلقات ـ كانت مفقـودة من سلسلـة الأبحـاث التاريخيـة العربية ـ فى محلها ..

فى كل مكتبة عربية ، وفى كل معهد من معاهد العلم ، يجب أن يُعدّ مكان لهـذا الكتاب : « العرب فى أحقاب التاريخ » .

وفق الله المؤلف إلى إعداد الأجزاء الآتية ، بقدر ما وفقه فى إنجاز هذا الجزء الأول ، الذى قلت ، وأكرّر ، أن صديقـى أمـين مدنـى يستحـق من أجلـه التقديـر والشـكر والإعجاب !

القاهـرة　　　　　　　　　　　　　حبيب جاماتى

# توطئة

باسم الله أستعين ، وأصلى وأسلم على محمد وعلى من سبقه من الأنبياء والمرسلين ، الذين حملوا رسالة الخير والحق والمبادىء البناءة ، فأشعلوا النور فى ظلمات الماضى ، وخططوا الطريق المستقيم لكل أمة تريد أن تحمى وجودها فى معركة الحياة التى بدأت منذ الأزل ، ومازالت واسعة المجال للذين كبرت نفوسهم فتطلعت آمالهم إلى ماوراء الأفق الكبير ، أفق دنيا هذا الانسان الذى خلقه الله ليتدبر خلق السموات والأرض ـ ربنا ماخلقت هذا باطلا ! !

فياله من جهد جبار ـ جهد الإنسان الذى صعد بعقله من بطن الغاب إلى ما فوق أجواء الفضاء . ويالها من مراحل طويلة ، مراحل تطوره وتجاربه من بداية عصره الحجرى إلى عصره الذرى الحافل بعظمة العقل البشرى ومعجزاته .

وعظمة العقل الإنسانى ومعجزاته اليوم لاتجحد جهود الماضين ، وماتكبدوه فى سبيل التطور . فلئن أنزل الماضى ستاره على حياة أمم كان لها شأن فى حضارات عفت بطول الزمن معالمها ، فلم تصل معارفنا إلى غير قليل تناقلت عنه الأجيال أنباء غامضة بعثت الإعجاب فى المتقدمين فأطلقوا لتصوراتهم العنان ، وبعثت الشك والحذر فى المتأخرين فتقيدوا بالظنون المترددة ـ إن تضحيات الإنسان القديم واضحة فى هذا الشرق العربى .

أنا لا أنكر قيمة التحقيق المتأخر ، وما يفرضه الشك والحذر من حرص وتريث ، وفى الوقت نفسه أنا لا أعتقد أن بحوثنا التاريخية العربية القديمة كلها بحوث أسطورية تافهة لاوزن لها فى معايير كتابة التاريخ فى العصر الحاضر . فلو كنت أعتقد ذلك لما أقدمت على بذل ما استطعت فى تتبع ماوصل إليه جهد رواد الباحثين عن تاريخ جزيرتنا الغالية الخالدة ، ولما أقدمت على تنقية ماجمعته من بطون مؤلفات التاريخ : الضخم منها والمختصر ، العربى منها والمعرَّب ، ومقابلة الظن الحديث بالرأى القديم ، وتحقيق ما أمكن تحقيقه من هذا وذاك .

ولما أقدمت على ترتيب ما انتقيته وقنعت به فى هذا المؤلف « العرب فى أحقاب التاريخ » الذى أضع الجزء الأول منه « التاريخ العربى وبدايته » بين يدى القراء ليطالعوا فيه مايستحق المطالعة ، ولينقدوا منه مايستحق النقد .

وكذلك أنا لا أعتقد أننى وفيت حق البحوث التى جمعتها وناقشتها على ضوء الأدلة التى حصلت عليها ، فأحداث الجزيرة أحداث تراكمت عليها الدهور فطواها الغموض ، فهيهات أن يعرف ابن القرن العشرين بعد الميلاد كل شىء عن ابن القرن العشرين قبل الميلاد ؛ وأحداث الزمن : القديم منها والجديد مافتئت ملونة بما اقتنع به المؤرخون ، أو بما فرض عليهم الاقتناع به .

فمن النادر جداً أن تجد عصراً من العصور مصوراً فى مؤلفات المؤرخين بريشة واحدة ، أو أن تجد حدثاً من الأحداث اتفقت كلمة المؤرخين فى تفسير أسراره ، وتوحدت آراؤهم فى تعيين أسبابه ، فكيف بالباحث الذى اقتحم أغوار الماضى ليعرف شيئاً عن حياة العرب ، وحياة العرب واسعة الأطراف قديمة العهود ؟ وكيف بالباحث الذى يريد أن يعرف حقيقة التاريخ العربى الجاهلى ، والتاريخ العربى الجاهلى فى جزيرة العرب مشوش لاسيا أخبار أولئك الذين هاجروا بالقومية العربية إلى سهول الهلال الخصيب وجباله ، وإلى صحراء سيناء وضفاف النيل ، فرسموا الحدود السياسية لشبه جزيرة العرب فملكت الأرض العربية على أثرهم دول عربية .

أجل ملكت الأرض العربية دول عربية عُرفت فى بحوث تاريخ العراق القديم بدول : « الكلدان » و« آشور » و« الحضرْ » ، وبدولة « اللخميين » . وعرفت فى تاريخ سورية بدول : « الكنعانيين » ـ « الفينيقيين » ـ و« العماليق » ـ جبابرة الشام ـ و« تدمر » ، وبدولة « الغساسنة » . وعرفت فى مصر بدولة : العماليق أو الهكسوس ، أو الشاسوا ، أو الرعاة ـ وعرفت فى شمال الحجاز ونجد : بدول « العاديين » و« الثموديين » و« المدينيين » و« اللحيانيين » و«طسم » و« جديس » وعرفت فى مكة بدول : « جُرْهم الأولى ـ والعماليق » و« جرْهم الثانية » و« خُزاعة » و« كنانة فقريش » . وعرفت فى الجنوب بدول « معين » و« قتبان » و« أوسان » و« سبأ » و« حمْير » ، إلى غير هذه الدول مما سيأتى ذكرها فى الجزء الخاص بالتاريخ السياسى القديم .

والدول العربية الأولى التى قامت فى أنحاء الجزيرة العربية ـ لم تجد الطريق مفروشاً بالزهور . بل كان عليها أن تضحى بالكثير فى سبيل وجودها . وكان عليها أن تناضل فى مختلف الميادين لتستطيع أن تحافظ على كيانها السياسى ، ويتاح لها أن تنشر عقائدها ، ولغاتها وحضارتها التى عرفت فى بحوث المستشرقين بالعقائد واللغات والحضارات السامية ..

الدول العربية فى جميع عصورها لم تسلم من خصوم ألداء حاقدين ناصبوها العداء السافر ، ومن خصوم متقنَّعين يضمرون فى نفوسهم الحقد والكراهية والدسّ ، كانوا ومازالوا يحاولون إطفاء الشعلة العربية ـ الشعلة التى حملها العرب فأناروا السهل والجبال والأودية . ـ فمثلما اكتسحت دول شمالى الجزيرة غزوات الآريين فى الماضى والحاضر ، اندست بين الشعوب العربية عناصر يغيظها الانتصار العربى فلاتألو جهداً فى تشويه السمعة العربية والحط من مكانة العربى وجهاده ،

فلقد نقمت الشعوبية من الأمة العربية فى العراق ، فبذلت قصارى جهدها لتحطيم المجد العربى . ونقمت منها الشعوبية فى مصر فلم تدخر جهداً لوصم التاريخ العمليقى بالبربرية الضارية وبكل صفاتها : دماراً ، وسفكاً ، وتخريباً .

فما أكثر ماجاء فى آثار الآشوريين عن انتصاراتهم على إمارات ودول عربية ، ولكنها مع كل مبالغاتها لم تستطع إخفاء مواقف جيوش العرب عبْر العراق ، وفى سهول سورية ، وشمالى الحجاز ونجد ، وهى على جمالها أمام جنود آشور الممتطين الجياد السريعة والمدججين بأحدث أسلحة ذلك العصر ـ عندما ذكرت انتصار الآشوريين ـ ولم تستطع إخفاء ثروة الدول العربية مما لايتوافر وجوده إلا لدى الأمم المتمدينة ـ عندما ذَكَرَتْ غنائم الجيوش الآشورية .

فالشعوبية فى العراق ـ ترجع فى رأى إلى العصر الآشورى ـ فمثلما تسلطت العناصر غير العربية على حكومة « بغداد » العباسية ـ كانت هناك عناصر غير عربية مُسلَّطة على حكومة « نينوَى » الآشورية .

ثم جاء العهد الفارسى فى العراق . وأنانية الأكاسرة وعنَجهيَّتهم واضحة فى أيام العرب

مع الفرس ، وفى مواقف « النعمان » وجدوده فى مجالس « أنو شروان » وجدوده .

وكذلك دول الفراعنة فى مصر لم تخل من العناصر غير العربية التى حصلت على النفوذ والسيادة على وادى النيل ؛ فلقد حمل هؤلاء على « الهكسوس » ـ العماليق ـ وشوهوا تاريخهم ، وأخفوا معالم حضارتهم ، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يمحوا من على أرض النيل آثار العرب أو ينكروا انتشار أديان أرض الآلهة ( جزيرة العرب ) فى وادى النيل ، وتعبد المصريين للآلهة السامية ، أو ينكروا حاجة الفراعنة إلى بخور الجزيرة ومعادنها وكل مافى أسواقها التجارية .

حقاً : لقد حملت التوراة على العماليق جبابرة سورية ـ ولكن ما هو الفرق بين العماليق فى فلسطين ، وبين القرشيين فى مكة . أليس موقف العماليق فى فلسطين من ذلك الجمع الغفير الذى تبع موسى وجاء يريد القضاء على عقيدتهم وسلطانهم ، والتحكم فى أرضهم ـ هو موقف أقرب إلى المنطق من موقف قريش من الإسلام الذى سطع نوره من « غار حراء » ودعا إليه من تعرف قريش صدقه وأمانته واستقامته ؟ فهل كان القرشيون كلهم « أبا لهب » و « أبا جهل » و « النضر بن الحارث » ؟ أوَلم يكن فى قريش مثل : قصّى بن كلاب ، وعبدالمطلب بن هشام ، وَوَرَقَة بن نوفل ؟

ولم يسلم التاريخ العربى من الدعاوى المغرضة فكانت الشعوبية فى العصر الإسلامى أكثر دساً وتشويهاً لحقيقة التاريخ الجاهلى ـ فقد كان بين الشعوبيين علماء نابغون وشعراء مجيدون ، اندسوا فى صفوف العرب ودسوا فى تاريخهم الشىء الكثير .

ولم تكن خصومة المسيحيين الذين أعلنوا الحرب الصليبية على العرب والإسلام بأقل خطراً وأقل غرضاً من الشعوبية ـ فما فتئت كتابات المستشرقين عن الإسلام والتاريخ العربى ، تسير وراء الدعاية التى شنتها القسطنطينية لإثارة الحماس الصليبى ضد العرب والمسلمين .

وأخيراً الاستعمار الحديث ـ والاستعمار الحديث قام على حطام الحقائق فلم يدخر جهداً فى تبرير : الاستعمار ، والوصاية ، والانتداب . هذه الأقنعة التى تقنعت بها مطامع الغرب

فى الشرق . فبرز بها وجه الاستعمار بعد أن انجلى غبار الحروب التى شهدتها سورية ، والعراق ، ومصر ، والجزائر ، ومراكش ، وكل بلد عربى غلب على أمره ، ولم ينفعه وقوفه بجانب الحلفاء يبذل النفس والنفيس .

فمن ذلك الماضى الغائم إلى هذا الحاضر الواضح ، وخصوم العرب من شعوبيين ومستعمرين - لم يبرحوا موقف التشهير بأبناء الجزيرة والحط من شأنهم .

أنا لاأعتقد أننى وفيت بحوث هذا الكتاب « العرب فى أحقاب التاريخ » حقها إيضاحاً وتفصيلا - وحقائق التاريخ العربى تغطيها شكوك جمعتها أعاصير الدعاية المضللة ، وزادتها حلوكاً أساطير القصصين حتى خيل للكثير : أن الكلام عنها حديث خرافة .

فلولا ماجاء فى الكتب المنزلة ، ولولا ماجاء على الآثار المكتشفة ؛ لدفن تاريخ الجزيرة القديم إلى أبد الدهر- فالذين يؤمنون بالكتب المنزلة من السميع العليم ، لايستطيعون أن يكذبوا بما جاء فيها من آيات بينات تدل على وجود أمم فى غابر هذه الجزيرة كانت تبنى فى كل ريع آية ، وكانت تنحت من الجبال بيوتاً ، وكانت إذا بطشت بطشت جبارة فتاكة ، وكانت السماء تمطرها مدراراً ، وكانت الأنهار تجرى فى أرضها فتمنحها الخصب والخير العميم - فعاش أبناؤها حيناً من الدهر فى جنات وارفة الظلال ، ونخل طلعها هضيم .

والذين اقتنعوا بالآثار الدفينة - لايستطيعون أن ينكروا ذهب الجزيرة ، ونحاس الجزيرة ، وبخور الجزيرة ، وأسواق التجارة وقوافلها وطرقها فى الجزيرة ، ولايستطيعون أن ينكروا آثار ثمود ، ومدين ، ومدن السبئيين ، والجرهميين ، والعُمانيين ، وقصورهم المزخرفة بالذهب والفضة والأحجار الثمينة ، ولايستطيعون أن ينكروا قدم البيت وطهره وقداسته منذ رفع إبراهيم قواعده وإسماعيل .

فما جمع فى هذا الكتاب من التاريخ الجاهلى القديم نقل أو اقتبس من عديد المؤلفات كلفنى جمعها فى خزانة خاصة جهداً متعباً ، وثمناً غالياً .

وما نقل فى هذا الكتاب عن التاريخ الجاهلى القديم نقل واضح المصدر المنقول عنه ، وواضحة نتيجته التى انتهى عندها البحث ، وواضحة أدلته التى انبنى عليها الاقتناع بما اعتمد عليه مما جاء فى مصادرنا العربية ، ومما جاء فى تحقيقات المستشرقين . ولقد حرصت

على أن أقابل ماجاء فى مؤلفات المستشرقين بما فى مصادرنا العربية كلما وجدت لذلك سبيلا .

والذى جمعته من مؤلفات المستشرقين هو المؤلفات المعرَّبة . فمسؤولية ماوجدته فيها ترجع على المعرب . ولاأظن معرباً يجهل مسؤولية الترجمة ، أو لايقدر أمانة التعريب .

ولاأقول : إن ماجمعته من مختلف المصادر وقابلته وحققته ـ يرسم صورة كاملة واضحة لعصور الجزيرة القديمة ـ وانما هو فى اعتقادى خطوط أولية ، وقد تجدّ معلومات فى الغد تتمم رسم الصورة وتظهر معالمها أكثر وضوحاً ، مثلما جدّت معلومات لم يعرفها من مضى مع الأمس .

ولقد رأيت أن يقسم هذا الكتاب « العرب فى أحقاب التاريخ » إلى قسمين : القسم الأول ـ عصور ماقبل الإسلام ـ والقسم الثانى عصور مابعد الإسلام . وبحمد الله قد انتهيت من تسويد القسم الأول مصنفاً فى خمسة أجزاء :

**١ ـ الجزء الأول :**

« التاريخ العربى وبدايته » وهو هذا الجزء الذى تم طبعه ـ وموضوعات هذا الجزء تجدها مفصلة فى بيانات بحوثه . ولقد بينت فى كل بحث الأسباب التى دعت للكلام عما جاء فيه ـ فالدين ، واللغة ، والخطوط ، والشعر ، والحضارة ، والنشاط الاقتصادى ـ كلها من علامات التاريخ ، فلا يمكن لأمة أن تبدأ تاريخها مالـم تكن متمدينـة ذات دين ومجتمع . فمتى بدأ التاريخ العربى ؟

**٢ ـ الجزء الثانى :**

« التاريخ العربى ومصادره »[1] ـ وسيطبع قريباً إن شاء الله مع بقية الأجزاء . ومن موضوعاته : القصص ، والقصة ، والأمثال فى القرآن الكريم ، والتوراة وأخبارها ، والمصادر اليونانية ، ومن أين وصلت إليها أخبار العرب فى الجزيرة ؟ ومصادر التاريخ العربى فى العصر الجاهلى ، والآثار ، والمستشرقون ، وأقطاب التاريخ فى عصور مابعد الإسلام .

**( ١ ) تم طبع الجزء الثانى ـ أو الحلقة الثانية ـ حيث أن كل حلقة من حلقات هذا المؤلف قائمة بذاتها ـ وقد تم طبع الجزء الثانى أوالحلقة الثانية فى مطابع دار المعارف عام ١٩٧١م .**

**٣ ـ الجزء الثالث :**

« التاريخ العربى وجغرافيته »[١] ومن موضوعاته : حدود الجزيرة العربية . أقسام الجزيرة الطبيعية : الحجاز . نجد ، تهامة . اليمن . العروض . الهلال الخصيب . ومصر العمليقية ـ وهى : سيناء والصحراء الشرقية من مصر . عصور الجزيرة الجيولوجية . وكيف عرفت هذه الجزيرة باسم الجزيرة العربية ؟ وهل هنا فرق بين الاسمين : الجزيرة ، وشبه الجزيرة ، ومنها ثروات الجزيرة المعدنية والزراعية . وطرقها وثغورها التجارية ـ الى غير ذلك .

**٤ ـ الجزء الرابع :**

« التاريخ العربى وشعوبه » ومن موضوعاته : حقيقة أنساب القبائل العربية . والهجرات وعواملها . والأسماء التى جاءت فى المصادر الآشورية واليونانية . وكيف حملت القبائل العربية أكثر من اسم واحد . ومن هم الشعوب البائدة ؟ وما معنى الابادة ؟

**٥ ـ الجزء الخامس :**

« التاريخ العربى ودوله » ومن موضوعاته : دول الإرميين فى العراق ، وفى سورية . والعماليق فى مصر ، ودول قلب الجزيرة وجنوبها ، وصلات هذه الدول بعالم ذلك الزمن ، والحروب التى خاضتها الدول العربية ذوداً عن وطنها وحماية لمصالحها .

وأنا عندما أذكر بعض موضوعات الأجزاء القادمة لا أقصد الاعلان عنها . وإنما أذكرها مقدمة لإيضاح الأسباب التى دفعتنى الى بذل هذا الجهد .

إن لكل عمل ـ مهما كان بسيطا أو خطيراً ـ دوافع وأسباباً . والدوافع لمناقشة هذه الموضوعات وتقديمها مصنفة فى هذه الأجزاء : كثيرة . فلقد كان من رحلاتى الى بعض الأقطار التى تعتز بتاريخها فى داخل المملكة السعودية وفى خارجها من البلاد العربية ، والى الهند وأوربا وأمريكا خارج البلاد العربية ـ ما جعلنى أهتم بكل ما يقال عن ماضى الجزيرة العربية القديمة فى البحوث التاريخية . واهتمامى بما يقال عن الجزيرة جعلنى ألاحظ على المؤلفات الاسلامية ، عندما نتكلم عن الجاهلية والجاهليين : اتجاه أكثرها الى ناحية

---

( ١ ) طبع هذا الجزء فى مطابع دار الكتاب سنة ١٩٧٦ م ويلاحظ أن أسماء الأجزاء التى تمّ طبعها بعد الطبعة الأولى لهذا الجزء الأول صححت اسماؤها هكذا التاريخ العربى ومصادرة بدلا من مصادر التاريخ العربى والتاريخ العربى وجغرافيته بدلا من جغرافية الجزيرة العربية .

واحدة مما جاء فى القرآن الكريم ـ ألا وهى ضلال قوم عاد وثمود ، والعذاب الذى حل بهم ـ واقتناع أكثرهم بما جاء فى الأسفار عن العماليق جبابرة الشام ـ فلقد شط بعضهم فى حكمه على تلك الشعوب ، وفى فهمه تفسير ما جاء فى القرآن الكريم ـ فظن : أن الله لم يبق من عاد وثمود باقية ـ وشط آخرون فى وصفهم الحياة العربية من فجرها الى ظهور الاسلام ـ فتخيل العرب فى تاريخهم الطويل ، وحوشاً مشردة فى فيافى الجزيرة العربية .

ولقد لاحظت على المؤلفات العربية المتأخرة تعلقها بآراء المستشرقين فيما يخص التاريخ العربى القديم ومصادره التى ورثناها من بُحَّاثٍ كرسوا حياتهم فى جمع الروايات وتسجيلها . فمن الباحثين المتأخرين من أخطأ فى حكمه على أصدق المصادر العربية : القرآن الكريم ـ فقال عن القصَص القرآنى ، كما قال المستشرقون : إنه قصَص « بلغ من الأدب الرفيع مرتبة المعجزة ـ وهو ككل قصَص لا يمكن أن يتضمن حقيقة تاريخية » ـ وما يقوله المستشرقون اليوم قاله بالأمس المكذبون من قريش : « إن هو إلا أساطير الأولين » وذلك كما نراه مفصلا فى الجزء الثانى : « التاريخ العربى ومصادره » .

والغريب فى الأمر : أنك تجد الذين أعجبوا بالمنطق المستشرقى ، يعنون بشكوك المستشرقين أكثر مما يعنون برجوعهم الى بعض الحقائق ، فقليل أولئك الذين اهتموا بما قاله « غوستاف ليبون » فى كلامه عن حضارة العرب ، و« ديتلف نيلسن » فى كتاب التاريخ العربى القديم وغيرهما : عن المصادر العربية التى أظهرت صدق الكثير من أنبائها عن الجنوب العربى ـ البحوثُ الأثرية ؟

فعلى هذا النحو أهمل تاريخ قلب الجزيرة العربية فى البحوث التى تعرضت للتاريخ العربى القديم ـ فلم يعر الباحثون ما جاء فى مصادرنا عن الماضى العربى كبير اهتمامهم ـ فضاعت بذلك حلقة هامة من حلقات التاريخ العربى القديم . وضياع هذه الحلقة الهامة سبَّب عدم ترابط تاريخ الجزيرة وتسلسل الأحداث العربية .

وعلى هذا أصبح جمع الأخبار المتناثرة فى بطون المؤلفات ومقابلة الخبر القديم بالتحقيق الحديث ، والرواية العربية بالبحث المستشرقى ، والخروج بعد ذلك بنتائج تنير ، ولو بعض الشىء ، جوانب الماضى القديم ـ مهمة صعبة لا يغرى على تحملها الكسب المادى ـ وإنما

الذى يشجع عليها الواجب . واجب الذين ينتمون لهذه الجزيرة ، ويفخرون بمنعتها ، ويعتزون بماضيها ، ويعملون لمستقبلها ، واجب اولئك الذين رضوا بها وهى جرداء بلقع ، يعوىَ فى صحاريها الذئب وتصفر فى أوديتها الريح - حتى فجَّر العلم من أعماقها ينابيع البترول ، وأخذت الأبحاث الجيولوجية تكتشف كنوزها المعدنية . فأشرقت شمس يوم جديد فى حياة الجزيرة الخالدة - الجزيرة التى أنجبت محمداً ﷺ وكفى به فخراً ، وعزة ، ومجداً .

إنه الواجب وحده هو الذى يشجع على تحمل هذا العبء الثقيل فى صبح هذا اليوم المشرق . فحرىّ بنا أن نعرف ماضينا لنقوّم حاضرنا ونبنى مستقبلنا - وحرىّ بتاريخنا ألا يكون قيد نظريات المستشرقين وظنونهم - نأخذه عنهم قضايا مسلماً بها دون الرجوع الى تراثنا - وحرىّ بتراثنا أن يحقق وينقى من الخيال الذى علق به - ومن مبالغات القدامى التى لا يقرها المنطق - فمن ذا الذى يصدق : أن الحميريين كانوا يعيشون مئات السنين ؟ ومن ذا الذى يصدق أن لقوم عاد أجساماً كالتى صورتها بعض الروايات العربية المتأثرة بالقصص الاسرائيلية والفارسية ؟

إن أحداث الجزيرة العربية لها شأنها الكبير فى تاريخ هذا الشرق وأممه من فجر الحياة - فلقد تحملت الجزيرة جزءاً كبيراً من مسؤولية التاريخ العربى منذ أذن إبراهيم بالحج بجانب البيت العتيق ، ولقد تحمل أبناء الجزيرة العبء جميعه ، منذ نزل القرآن بلسان عربى مبين - ( وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً . أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس أسمعوا قولى وأعقلوه تعلمن : أن كل مسلم أخ للمسلم . وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم - اللهم هل بلغت ؟ )

أجل - لقد بلغ محمد ﷺ الرسالة وحمل المسلمين واجبها ؛ فلا وثنية فى ربوع الجزيرة ، ولا صد عن البيت الحرام ، ولا طغيان ، ولا فساد ، ولا فرق بين عربى وأعجمى ، ولا فضل لهذا على ذاك إلا بإيمانه ، وتقواه ، وأدائه واجبه - وما أكبر واجب المسلمين نحو دينهم ونحو مجتمعهم ونحو تاريخهم .

وما أكبر ما قام به السلف الصالح من أبناء الجزيرة الذين حملوا الشعلة ، ودافعوا عنها . ورفعوا راية العدالة ، والحق ، والأخوة ، خفاقة عالية .

فما هذا المؤلف إلا دعوة عملية الى معرفة تاريخنا الكبير وكفاحنا الطويل الذى شهده كل جزء من أجزاء عالمنا العربى الفخور بماضيه الجدير بما ينتظره فى مستقبله بفضل إيمان شعوبه وترابط دوله ، وخيرات بلاده .

وما هذا المؤلف على ما بذلت فيه من جهد غير دراسة أولية تنتظر من يوسع

وما هذا المؤلف على ما بذلت فيه من جهد غير دراسة أولية تنتظر من يوسع نطاقها ويجد فى تحقيقاتها ـ ولعل الله يبعث همم المسؤولين عن تاريخنا فتتجه للبحث الأثرى فى أرجاء الحجاز ونجد ، مثلما اتجهت همم المسؤولين فى العراق ، وفى مصر ، وفى سوريا للبحث الأثرى .، فكانت تلك النتائج الضخمة التى زادت المعارف العربية . فلئن كانت الظروف القاسية التى مرت بقلب الجزيرة قد حالت فى الماضى بين المسؤولين وبين هذا الواجب العظيم ـ إن وضعنا اليوم أفضل من الأمس بكثير . فلدينا من الامكانيات ما يزيح العقبات عن طريق البحث والتنقيب .

**والله أسأل أن يحقق الأمل الكبير .**

أمين مدني

البحث الأول :

# التاريخ ومعناه

من موضوعات البحث :

١ ـ كيف نشأ علم الفلك ؟ وأين نشأ ؟

٢ ـ كلمة ( التأريخ ) فى الأصل معناها التوقيت ثم استعملت لتؤدى معنى تسجيل الأحداث .

٣ ـ تحديد الزمن من أعقد مشاكل التاريخ .



# التاريخ ومعناه

التأريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله[1] وأصل اللفظ العربى ( تأريخ ) يرجع الى اصل سامى ( ورخ )[2] والتأريخ يعنى التوقيت فى المؤلفات العربية علم عرف من عهد إدريس عليه السلام[3] . وإدريس فى التاريخ العربى ولد ببابل وانتقل إلى مصر[4] ، قبل الطوفان بقرون طويلة .

١ ـ ودراسة الظواهر الفلكية فى مؤلفات اليونانيين علم تَمخضَ عنه العقل الانسانى فى وادى الفرات . والعقل الإنسانى فى وادى الفرات قال عنه ( ديودوروس ) و ( هير ودوتس ) و ( سترابون ) و ( أرسطو ) وكثير من فلاسفة اليونانيين ومؤرخيهم : [ إن نمو العقل البشرى كان مترعرعا وكاملا فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل ][5] .

ففى سهول الفرات الفسيحة الأرجاء تطلع ( الكلدانيون ) ـ باستغراب ودهشة الى السماء الشديدة الزرقة تارة والموشاة بالسحب تارة أخرى ، وإلى الشمس التى تبزغ من المشرق لتأفل فى المغرب ، وإلى النجوم البراقة ، وإلى القمر الذى يعود كما بدأ مثل العرجون القديم ـ وأخذوا يفكرون فى كل ذلك ، وأخذ التفكير يتطور من إعجاب ودهشة إلى تفهم ومعرفة . فكان مولد علم الفلك فى تلك المراصد الهرمية الصاعدة فى السماء بجانب القصور الملكية الكلدانية حيث قبع علماء ( الكلدان ) يدرسون الظواهر الفلكية من تلك المراصد ثم يرفعون نتيجة بحوثهم فى صورة تقارير لملوك بابل .

ولقد وصل البحث والتنقيب إلى بعض تلك التقارير . ولقد استطاع خبراء الآثار

---

( ١ ) اللسان مادة أرخ ( ٢ ) دائرة المعارف الاسلامية ٤ / ٤٧٣ ( ٣ ) قصص الأنبياء للنجار ص ٢٦
( ٤ ) نفس المصدر ص ٢٥ ( ٥ ) حضارة بابل وآشور لغوستاف ليبون ص ٥٢

قراءتها وقدموا لنا نماذج منها ، وهذه صورة من تلك التقارير : [ فى اليوم السابع والعشرين اختفى القمر ، ولقد ظللنا بعد ذلك إلى اليوم الثلاثين نبحث عن سبب اكفهرار الشمس من غير كسوف ، أما فى اليوم الأول من الشهر ( دوزو ) يونيه فقد رأينا القمر يقطع السماء فوق ( نابو ) عطارد الذى أرسلت إلى سيدى الملك فيما سلف خلاصة بحثى عنه ][1] .

ويقول غوستاف ليبون : [ ومما لا شك فيه أن الكلدانيين والإغريق من بعدهم يرتدون بأبحاثهم الفلكية إلى ( ٤٧٠,٠٠٠ ) عام قبل التاريخ ، ونحن لا يمكننا إلى الآن التسليم بهذا الرقم الخرافى . والتاريخ الوحيد الذى نعرفه يقينا هو تاريخ سرجون القديم الذى يرجع إلى سنة ٣٨٠٠ ق . م ][2] .

فلقد كان البابليون يعلمون أن السنة الشمسية ٣٦٥ يوما وربع يوم ، ولكنهم فى أحوالهم المدنية كانوا يعمدون الى السنة المركبة من اثنى عشر شهرا قمريا حيث يكملونها فى أوقات ثابتة بشهر إضافى .

ومن بعد الشعب البابلى أخذت كل أمة تنظم توقيتها الزمنى مبتدئة تاريخها بأهم أحداثها . وما زال العرب داخل صحرائهم إلى ما قتى نـجرة النبوية يؤرخون بأشهر الأحداث التى مرت بهم كعام الفيل وحرب الفجار .

وعلى أساس التوقيت البابلى أخذت الدراسات الفلكية تسير بعلم الفلك من مرحلة إلى أخرى حتى بلغت به إلى ما هو عليه اليوم وما زالت تسير فى طريق البحث والمعرفة .

٢ ـ ثم أصبحت كلمة ( تاريخ ) تعنى تسجيل الأحداث : سياسية واجتماعية واقتصادية إلى غير ذلك من نواحى الحياة البشرية ، وأصبحت المكتبات العلمية مليئة بالبحوث التاريخية التى عنى مؤلفوها بأحداث الزمن الطويل : تسجيلا ودراسة وتحقيقا ، فتقصى تسجيلهم ونقاشهم جوانب الحياة التى مرت بالإنسان منذ عهوده القديمة .

ولقد حرص المتأخرون على ألا يتركوا خلفهم تراثا من المعلومات مشوشامضطربا

---

( ١ ) بابل وآشور ص ٥٤ و ٥٥ ( ٢ ) نفس المصدر ص ٥٥ .

كالتراث الذى ورثوه عن أسلافهم . وهذا هو التطور الذى يمثله اليوم :تحقيق التـاريخ وتنقيته من الخرافة والمبالغة ومؤثرات ذوى النفوذ والسلطان ، وليت كل مؤرخ اليوم وغدا يقدر مسؤولية التاريخ ، فيحرص على أن يكون التاريخ الذى يقدمه للأجيال : سجلا سليما من تضليل الدعاية وتبرير الأغلاط والأغراض التى تسود عالمنا اليوم ، وبالذات العالم العربى الذى يتجاذبه التطرف والجمود .

فإن كان المؤرخ بمعناه المتداول بالأمس هو : المسجل للأحداث ، فقد أصبح اليوم المحقق الذى يهمه إبراز الأحداث على حقيقتها لا يشوبها الغرض والتهويش ـ وإن كان التاريخ بمعناه الكامل يعنى البحث فى مراحل الحياة التى اجتازتها عوالم هذه الأرض فى طريق تطورها ، وتحقيق الأحداث التى مرت بها الإنسانية عصرا بعد عصر ، فأقامت عوالم وأطاحت بآخرين ، وأنشأت حضارة على إثـر حضـارة ، فإن البحـث فى الحياة البشرية وتطور الإنسان من عصره الحجرى إلى عصره الذرى ، هو من أهم موضوعات التاريخ العام وأكثرها تعقداً ، واذا كانت البلاد العربية التى تعددت مصادر تاريخها ، هى جزءًا من أرض الله الواسعة ، فإن هذا الجزء هو من أهم أجزاء الأرض وأقدمها تاريخا وحضارة وأخطرها أحداثا ـ ففيه أينعت أولى حضارة الإنسان ، ومنه أشرقت المبادىء المصلحة التى كان لها الفضل فى تحديد الاتجاهات البشرية وتقويمها من بداية تطورها ، واذا كان هذا الجزء من الأرض فى عصرنا الحاضر مجالا واسعا للاقتصاد العالمى تمخر عباب بحاره السفن التجارية ، ويصدر عن أرضه البترول ، فكذلك كان من قبل مجالا واسعا لاقتصاد عوالم العصور الغابرة تجوب فيافيه القوافل التجارية ، ويصدر من أرضه النحاس والذهب والبخور والأخشاب .

فبلاد هذه مكانتها المعنوية ، وهذه قيمتها الاقتصادية ـ لا بد أن يكون لها تاريخ حافل بكل ألوان الحياة وضروب الأحداث من أقدم الدهور .

ولئن اختلفت أقوال المؤرخين فى بداية التاريخ العربى ـ فلقد اتفقت كلمتهم على تقسيم تاريخ العرب إلى قسمين : تاريخ أسطورى ، وتاريخ حقيقى . وإذا كان الخلاف

شمل قسما كبيرا من التاريخ الحقيقى ، فإن الخلاف فى أنباء التاريخ الأسطورى أبعد مدى وأوسع مجالا ولا سيا بعد أن تعددت مصادر التاريخ الأسطورى بما أظهره البحث عن الآثار وبما وصلت إليه دراسات علماء الجيولوجيا .

* * *

٣ ـ وإن من اعقد مسائل التاريخ الأسطورى تحديد الزمن ، فلقد كان التحديد الزمنى الذى يعتبر اليوم من أوليات المعلومات التى يعرفها الطفل الناشىء : من أصعب المسائل التى لم يصل إلى حلها الانسان إلا بعد جهد وطول تفكير . فلم يصل الإنسان الى تحديد الزمن بهذه المواقيت التى تعين لنا الفواصل الزمنية بين الأجيال ، ونعرف بها كم مر من عمر الزمن الطويل ، الا بعد تفكير عميق وملاحظة دقيقة . فلم يصل الانسان إلى تحديد هذه المواقيت وتنظيم حسابها سنين وأشهراً وأسابيع وساعات ودقائق وثوانى ، إلا بعد تجارب قامت على أساس نظريات تتبعت التقلبات الجوية حسب مطالع الشمس ، وتتبعت الشمس من مطلعها إلى مغربها ، وتتبعت القمر كيف يبدو هلالا ثم يعود كما بدأ .
السنة الهجرية والسنة الميلادية يبلغ أحد عشر يوما ، فقد يكون هناك فرق فى تحديد المواقيت بين الفلكيين فى عهد ( حمورابى ) البابلى وبين الفلكيين فى عهد الإسكندر الأجيال والدول ، ومن الطبيعى أن يكون هناك اختلاف فى حساب المؤرخين يقل ويكثر تبعا لاختلاف المقاييس التى يعتمد عليها كل واحد منهم . فنحن اليوم لا نزال نلمس فرقا بين التاريخ الاسلامى الهجرى وبين التاريخ المسيحى الميلادى ـ فإذا كان الفرق بين السنة الهجرية والسنة الميلادية يبلغ أحد عشر يوما ، فقد يكون هناك فرق فى تحديد المواقيت بين الفلكيين فى عهد حمورابى البابلى وبين الفلكيين فى عهد الإسكندر المقدونى . فإن تعدد التوقيت عند الكلدانيين حسب الأغراض التى حررت لها مواقيتها يرجح الظن فى وجود تفاوت فى تحديد الزمن عند الشعوب[1] .

لذلك فإن من لوازم البحث فى التاريخ العربى القديم إلقاء نظرة عابرة على عهود ما

---

( ١ ) راجع فصل : دول ما قبل التاريخ فى الشرق العربى وسنو حكمهم ، فى هذا الجزء .

قبل التاريخ ـ لعلنا نعرف من أين بدأ التاريخ ؟ وكيف بدأ ؟ ومتى بدأ ؟ .

وعلى ذلك إن علينا أن نستعرض ما قيل عن آدم عليه السلام وعن خلفائه قبل الطوفان ـ فقد نجد فيما جمعه لنا المتقدمون ما ينير لنل بعضاً من جوانب ذلك الماضى المجللِ بالأساطير الخيالية ، ويكشف لنا شيئا عن أممه وعصورهم . والله المستعان .





البحث الثانى :

# بداية الإنسان : آدم وخلفاؤه

من موضوعات البحث :

١ ـ هل آدم أول من سكن الأرض ؟
٢ ـ أين هى جنة آدم ؟
٣ ـ حضارة ما قبل الطوفان فى المصادر العربية .
٤ ـ الآثار تؤكد حضارة ما قبل الطوفان .
٥ ـ اعتراف المستشرقين بقصة الطوفان .



# بداية الإنسان : آدم وخلفاؤه

ليس من المستغرب أن تتباين الاستنتاجات فى تاريخ غارق فى القدم لم تتحدث عنه الكتب المقدسة إلا بقدر ما تدعو إليه الموعظة من حياة الأولين ، ولم تصل إلى كل آثاره معاول المنقبين التى ما زالت تبحث وتنقب .

١ ـ فمن الطبيعى : أن يختلف استنتاج الذين آمنوا بما جاء فى الكتب المقدسة فى بحوثهم عن بداية العالم الأرضى ، وهل كان آدم هو أول من سكن الأرض ؟ أوكان قبل آدم عالم يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ؟ .. وفى الجنة التى هبط منها آدم بعد أن أكل هو وزوجه من الشجرة ليكونا ملكين أو يكونا من الخالدين : هل هى الفردوس الأرضى الذى لا خلد فيه ، ولذلك حرص آدم وزوجه على أن يأكلا من الشجرة ليكونا من الخالدين ؟ أم أنها جنة خلقها الله لآدم بين السماء والأرض حاولت الملكة الأسطورية ( سميراميس )[1] أن تضاهيها بجناتها المعلقة ؟ .. أوهى جنة الخلد قدر الله لآدم وزوجه ألا يخلدا فيها فأزلهما الشيطان ووسوست لهما النفس فأكلا من الشجرة التى نهيا عنها ؟

٢ ـ لقد تفرقت الآراء بالباحثين فيما ورد عن آدم ، وزوجه ، وجنته ، فاعتنق كل فريق رأياً من هذه الآراء التى مرت بنا . ولعل الذين يقولون بأن جنة آدم من جنات الدنيا : يفسرون الهبوط بأنه هبوط معنوى من الحياة الروحية الى الحياة المادية ، فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة[2] .

---

( ١ ) يعتقد الكثير أن ( سميراميس ) وقصتها من نسج الخيال . ومن رأيى كما ترى فى الفصول الآتية أن أكثر القصص التاريخية الخيالية لا بد أن يكون فيها شىء من الحقيقة ـ وقد بحثت فى فصل القصص القرآنى عن معنى الأساطير ، وأن الأساطير تؤدى معنى الخيال القصصى وتؤدى معنى ما سطر أى كتب .

( ٢ ) راجع تفسير الطبرى والنيسابورى وابن كثير فى تفسير الآيات التى تحدثت عن آدم . فمن الذين يقولون : إن جنة آدم من جنات الدنيا : أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الأصفهانى . ويرى الأستاذ فريد وجدى أن الهبوط ليس معناه النزول من السماء الى الأرض ، ويستشهد بقوله تعالى ( اهبطوا مِصراً ) ـ دائرة المعارف مادة آدم ـ ولقد سردت دائرة المعارف الاسلامية ما قالته المصادر العربية والإسرائيلية وقالت أخيرا : ( وتتفق هذه الأخبار المختلفة مع ما ورد فى القصص السريانية ) مادة آدم .

ويرجح رأى الذين قالوا : إن جنة آدم هى من جنان الأرض التى حرم اهلها من الخلود ، حرص آدم على الأكل من الشجرة ليكون من الخالدين .

ومن الطبيعى : أن تختلف بحوث علماء الجيولوجيا ، ومحققى تاريخ الجنس البشرى ، تختلف نظرياتهم فى الانسان البدائى الذى لم يعرف كيف يستفيد من مواهبه الانسانية الا بعد مراحل طويلة وتجارب مريرة ، مثلما اختلف الذين آمنوا بالكتب المنزلة فى فهم ما جاء عن آدم ، وفى فهم ما وصل إليهم عن عالم ما قبل التاريخ . فلقد تفرقت النظريات المبنية على تطور العقلية والمعارف بهؤلاء كما تفرق الاجتهاد بمن سبقهم .

ولقد حاول البعض التوفيق بين آراء المفسرين والمؤرخين والجيولوجيين فقال : إن العالم الأرضى عندما أصبح صالحا لإنشاء الحضارة الانسانية خلق الله آدم خليفة فى الأرض يهدى الى الطريق القويم ، فافترض الملائكة فى آدم أن يكون كغيره من سكان الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء شأن الأقوياء فى الأدغال . فعلى ذلك إن آدم ليس هو أول من سكن الأرض بل هناك عوالم سبقته إلى هذه الأرض لم يصل البحث إلى معرفة عنصرها ، فكل ما يعرف عنها : أنها ذات دماء تسفك ، وأن منها ذا خلق شرساً ظالماً شريراً .

٣ - ثم يأتى من بعد آدم وخلفاؤه قادة الإنسانية الأولون ، وأبرزهم فى تاريخ الشرق الأدنى إدريس عليه السلام[١] . ففى تاريخ إدريس تتوسع روايات المفسرين عن عصر إدريس والشريعة التى كان يدعوها ، وعن الحياة التى كان يعيشها ، وعن رحلته من بلاد ما بين النهرين - العراق - إلى بلاد النهر الكبير - مصر - فيروون قصصا عن العالم الذى عاش إدريس بين ظهرانيه ، وما وصل اليه من عمران يتمثل فى مائة وثمانين مدينة أنشئت فى زمنه ، وما بلغه من ثقافة تتمثل فى اثنتين وسبعين لغة كانت أمم ما قبل الطوفان تتكلم بها[٢] - من ( بابليون ) الى ( بابل )[٣] .

---

( ١ ) إدريس هو تعريب ( أخنوخ ) الذى ذكر فى التوراة ويعزى اليه سفر لم تثبته الكنيسة الكاثوليكية بين الأسفار - راجع التاريخ السورى للدبس ١ / ٦١ ( ٢ ) بحثت دائرة المعارف الاسلامية فى الأقوال التى وردت عن إدريس والشكوك التى تحوم حول تلك الأقوال - راجع مادة إدريس ( ٣ ) بابل معناها النهر فى اللغة السريانية وبابليون اسم مركب فى السريانية من بابل النهر ويون الكبير أى النهر الكبير .

ويقول ياقوت الحموى : إن ( نينوى ) هى مدينة إدريس[1] ـ وجاء فى تاريخ ابن خلدون : [ وليس لدينا من أخبار آدم وذريته إلا ما وقع فى المصحف الكريم : وهو معروف بين الأئمة . واتفقوا على أن الأرض عمرت بنسله أجيالا بعد أجيال إلى عصر نوح عليه السلام وأنه كان فيهم أنبياء مثل : ( شيث )[2] و ( إدريس ) وملوك فى تلك الأجيال معدودون وطوائف مشهورون بالنحل .. مثل الكلدانيين ـ ومعناه الموحدون ، ومثل السريانيين وهم المشركون . وزعموا أن أمم الصابئة منهم . وأنهم من ولد « صابىء بن لمك بن أخنوخ » إدريس ـ وكان نحلتهم فى الكواكب والقيام لها واستنزال روحانياتها . وأن من حزبهم الكلدانيين أى : الموحدين . وقد ألف ( أبو إسحق الصابىء ) الكاتب مقالةً فى أنسابهم ونحلتهم . وذكر أخبارهم أيضا ( داهر ) مؤرخ السريانيين . و ( البابا الصابى ) الحرانى ـ وذكروا استيلاءهم على العالم وجملا من نواميسهم وقد اندرسوا وانقطع أثرهم[3] .

٤ ـ ولقد أثبت البحث الأثرى الكثير مما اتفق عليه الأئمة ، واكد الكثير مما هو فى رأى ابن خلدون زعم لا أكثر ولا أقل ـ ففى كتاب قصة الحضارة بحث طريف يؤكد الأثريون فيه : أن أرض بابل حفلت بحضارة ذهبية فى عصور ما قبل الطوفان[4] . وكذلك مؤلف كتاب « بلاد ما بين النهرين » يؤكد : وجود حضارة قديمة فى العراق وسورية وشواطىء الخليج العربى ، وفى قلب الجزيرة ـ كما أكدها مؤلف كتاب قصة الحضارة . وسيأتى الكلام عن قدم الحضارة فى قلب البلاد العربية .

وكذلك أسهب الاخباريون وتحدث الأثريون فى قصة ( نوح ) عليه السلام وبحثوا عن عالم ما قبل الطوفان ، وعن مساكن قوم نوح على شواطىء الفرات ودجلة ، واختلاف سحن الذين كانوا يعيشون على سفوح الجبال عن سحن الذين كانوا يعيشون على ضفاف الأنهار ، وعما كان عليه قوم نوح من حضارة غالى بعضهم فى تقديرها فاستنتج مما قيل عن التنور وفورانه فقال إن : الانسان على عهد نوح استخدم السفن البخارية !!

---

**( ١ ) لم يأت ياقوت بدليل يثبت قوله ان نينوى مدينة إدريس . راجع المعجم ( ٢ ) اسم ( شيث ) معناه عطية الله ( ٣ ) راجع تاريخ ابن خلدون ١ / ٥ طبعة النهضة بمصر ( ٤ ) راجع الفصل الاول والثانى من الجزء الثانى من كتاب قصة الحضارة .**

٥ ـ ثم تأتى قصة الطوفان . وقصة الطوفان بالأمس كانت كما يؤكد ابن خلدون غير معروفة فى غير تاريخ الجزيرة العربية : [ واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط][١] ـ أما اليوم فقصة الطوفان كما يؤكد ( المطران الدبس ) : تقول بها غالبية الأديان . فالهندوكيون يعتقدون : أن (مانو ) هو نوح الذى نجّتَ السمكة سفينته . والصينيون يعتقدون : أن ( فحّا ) هو الذى نَجا من الطوفان العظيم . ويعتقد الايرانيون : أن ( إيما ) هو صاحب السفينة . وفى اعتقاد اليونانيين : أن ( د كليون ) هو نوح الذى لم يغرق فى الطوفان[٢] .

أجل ! .... لقد ظلت قصة الطوفان فى رأى الكثير أسطورة من أساطير ما قبل التاريخ الخيالية إلى أن أخذت البحوث الجيولوجية من جهة والبحوث الأثرية من جهة أخرى تعترف بقصة الطوفان ، فآمن به اكثر من كان يساوره الشك فيه ، وانصرفت الأبحاث تهتم بما يقال عنه ، وهل هو أول طوفان سلّطه الله على البشرية المتمردة ؟ أو دهم البشرية أكثر من طوفان واحد ؟ فالبعض يتمسك بنظريات علماء الجيولوجيا التى تقول بأن طوفان نوح لم يكن أول طوفان منيت به البشرية ، والتى تستشهد بما وصل إليه التحقيق المبنى على تحليل عظام حيوانات مائية عثر عليها فى رؤوس الجبال ، وتؤكد : أن آثار طوفان وجدت فى أمريكا .

والذى يهمنا من قصة الطوفان فى هذا البحث ـ هو : النتائج التى ترتبت على ذلك الطوفان ، فمما لا شك فيه : أن طوفان نوح قد أثر بنوع خاص على البلاد العربية وقلب أوضاعها ، وأن عصر ما بعد الطوفان يعتبر بداية حياة جديدة استأنفها الانسان فى البلاد العربية .

---

( ١ ) تاريخ ابن خلدون ١ / ٧ ( ٢ ) تاريخ سورية للدبس ١ / ٨٨ وراجع تعليقات شكيب أرسلان على تاريخ ابن خلدون ١ مجلد ٢ ص ٤٥ .

البحث الثالث :

# قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته

من موضوعات البحث :

١ ـ من هم شعوب الجزيرة العربية قبل الطوفان ؟
٢ ـ العنصرية لم تتبلور إلا بعد الطوفان .
٣ ـ الإنسان فى قلب الجزيرة تجاوز الحياة البدائية من قبل الطوفان .
٤ ـ فى قلب الجزيرة نشأت الحضارة الأولى .

# قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته

١ ـ تحدث المؤرخون القدامى عن عالم ما قبل الطوفان : عن بنى ( شيث ) وبنى ( قابيل ) وكيف اختلط العنصران ؟ وكيف كثر بنو قابيل فملكوا الأرض ؟ وكيف كفروا بأنعم الله فأغرقهم الله بالطوفان ؟ ـ وتحدث المؤرخون الذين جاءوا من بعدهم عن أنسابهم . ونقلوا ما قاله نسابو الفرس عن أجدادهم وأن آدم هو : ( كيومرث ) الذى إليه ينتهى نسب الفرس . وأن ( أفريدون ) الملك فى آبائهم هو : نوح ، وأنه بعث لازدهاق ـ وهو « الضحاك » فسلبه الملك وغلبه[1] . ونقلوا ما قاله نسابو العرب مما تجده مفصلا فى الجزء الخاص بدول االجزيرة وشعوبها من هذه الموسوعة .

٢ ـ ويرى الطبرى : أن الجاهلية الأولى المعنية فى قوله تعالى : [ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ] هى : جاهلية ما قبل الطوفان . وجاهلية ما قبل الطوفان لم يعن بها غير قلة من المؤرخين لم تصل بهم بحوثهم القصيرة وتحقيقها المختصر فى أجناس قوم نوح ومن سبقهم ـ إلى غير اختلاف سحنتهم ، وإلى أنهم من عنصرين شيثى وقابيلى . أما الأجناس البشرية فلم تحقق عنصريتها إلا بعد نوح . فبعد نوح عرفت السامية ، والحامية ، والآرية ، إلى غيرها من عناصر الشعوب . وفى الجزء الخاص بجغرافية البلاد العربية القديمة من هذا الكتاب ـ بحثان فى تاريخ كلمتى : عربى وسامى ـ الأول عن اسم العرب الذى عرفت به هذه الجزيرة أو شبه الجزيرة ـ والثانى : فى مدلول الكلمتين : سامى وعربى ـ وأنهما اسم لأمة واحدة . وأن الفرق بينهما ينحصر فى هذه الحقيقة التى أثبتها البحث هناك : أن كل سامى عربى بعنصره . وليس كل عربى ساميّاً بعنصره . حيث وجدت شعوب اعتبرت عربية بتقادم عهدها فى البلاد العربية . واختلاط دمائها بالعرب ـ فهى عربية جنساً لا عنصراً . وكذلك قد تكون شعوب عربية تجنست بغير

---

( ١ ) تاريخ ابن خلدون ١ / ٧

جنسيتها ، فأصبحت فى عداد الأمم التى اختلطت بهم ، وأن السامية اصطلاح محدث أطلقه العالم ( شلاستر سنة ١٧٨١ ب .م ) .

أما هنا فليس للبحث فى كلمتى : السامية والعربية مكان .

٣ ـ ولقد ظلت الجاهلية الأولى ـ على رأى الطبرى ـ وحكايات ما قبل الطوفان فى نظر محققى التاريخ القديم إلى منتصف القرن التاسع عشر ـ لا تعدو القصص الخيالية التى لا محل لها فى دراسة التاريخ البشرى . ولقد ظلت أخبار ما قبل الطوفان مزاعم تحدث عنها ضعاف الإخباريين كما ألمح إلى ذلك ابن خلدون ـ إلى أن ظهرت فى مجال البحوث التاريخية نتائج الكشف الأثرى ، ونظريات العلم الجيولوجى ، فأخذت كل من هذه وتلك تؤيد الكثير مما قاله المؤرخون المتقدمون من : يونانيين ، وفرس ، وإسرائيليين ، وعرب ـ عن عالم ما قبل الطوفان ، وتصحح كثيراً من الخيال الذى صور ذلك العالم خاضعاً للجن . فالجن كانوا فى رأى أولئك المؤرخين يشاركون الإنس فى كل شىء حفلت به الحياة . وأخذ محققو التاريخ منذ نهاية القرن التاسع عشر ينشرون الفينة بعد الفينة : بحوثاً عن الماضى تتفق فى أكثر من موضوع مع ما قاله المؤرخون السابقون . فلقد أثبتت البحوث التى عقدها « غوستاف ليبون » فى كتابه « حضارة بابل وآشور » والبحوث التى عقدها « و . ل . ديورانت » فى كتابه « قصة الحضارة » . والبحوث التى عقدها ( ل . ديلا بورت ) فى كتابه « بلاد ما بين النهرين » أن سكان أرض الرافدين كانوا خليطا من مجموعة عناصر لكل عنصر ملامحه التى تميزه عن غيره ، وأن من تلك الملامح ما يشبه سكان القوقاز ، ومنها ما يشبه سكان الخليج العربى . وهذا يشبه ما قاله المؤرخون العرب عن سكان العراق قبل الطوفان ، وعن اختلاف صور الجبليين عن صور السهليين ـ وعن الكلدانيين الموحدين والسريانيين المشركين وأنسابهم بعد الطوفان .

وكما بعدت أقوال أولئك المؤرخين القدامى بسكان العراق إلى ما قبل الطوفان ، إلى آدم وزوجه حواء وجنتهما التى كانت بأرض بابل ـ فى رأى البعض ـ وإلى أن أرض بابل هى وطن نوح كما يؤكد الكثيرون ـ كذلك تجاوزت ظنون هؤلاء المؤرخين المحدثين إلى عصور ما قبل الطوفان فمدوا تاريخ السوموريين إلى ما قبل الطوفان معتمدين على دراسة

---

( ١ ) راجع موسوعة التاريخ العام ١ / ٥٣ وتاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ٢ .

الآثار التى ظهر عليها ما يشير إلى ملوك سوموريين يرجع تاريخهم إلى أسر ما قبل الطوفان . ولقد استدل علماء الجيولوجيا بما وجدوه فى إعماق أرض بابل من مخلفات العصور السحيقة ، على وجود حضارة قامت قبل الطوفان اعتبرت العصر الذهبى لتلك البلاد[١] .
وهذا يشبه ما قاله المؤرخون الإسلاميون عن مدن إدريس وحضارة قوم إدريس .

وإذا كانت البحوث الأثرية والبحوث الجيولوجية المتأخرة قد أثبتت حضارة فى بابل قبل الطوفان ، وأثبتت حضارة فى مصر قبل الميلاد بأكثر من أربعة آلاف عام ، فإن القرآن الكريم أشار الى تلك الحضارة فيما قصه علينا عن عقلية قوم نوح ، وجدلهم الذى لا يصدر إلا عن فهم تجاوز طور السذاجة الفطرية والحياة البدائية ، ألـزم أن يفـكر فى خلـق السموات والأرض .

وفيما قصه علينا عن حياة قوم نوح الذين استخدموا الحيوانات ، وطحنـوا القمـح وعجنوه وخبزوه فى التنور .

[ ألم تروا كيف خلق الله سبْعَ سموات طِباقاً . وجعل القمر فيهن نُورًا . وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يُعيدكم فيها ويُخْرِجكم إخْرَاجاً . والله جعل لكم الأرض بسَاطاً . لتسلكوا منها سُبُلا فجاجا )[٢] ].

٤ ـ واذا كنا نجد فى بحوث الأثريين ما يؤكد حضارة العراق ومصر فى عصور ما قبل الطوفان ـ فإننا نجد كذلك بحوثا تؤكد : أن قلب البلاد العربية وجنوبها كانا أسبق إلى الحضارة من العراق ومصر . فلقد أكد ( شوينفـرت ) أن زراعـة الحبـوب واستخـدام الحيوانات المستأنسة قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب وبلاد اليمن ومنها انتشرت إلى الفرات والنيل[٣] . واستنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة هى الخطوة الأولى فى طريق الحضارة . ويقول « ديورانت »[٤] : إن السوموريين كانوا يستوردون النحاس والأخشاب من البلاد العربية من اقدم العصور . واستخراج النحاس

( ١ ) قصة الحضارة ص ١٦ / ٢ ( ٢ ) سورة نوح آية ١٥ وما بعدها . ( ٣ ) قصة الحضارة لمؤلفه ( و . ل . ديورانت ٢ / ٤٣ ) ( ٤ ) يعرف الدكتور حسين مؤنس فى هامش كتاب العرب قبل الاسلام لجرجى زيدان ص ٥٧ : السوموريين بأنهم جس هندى أوروبى أقبل من قلب آسيا . والكثير غير الدكتور حسين مؤنس يرون : أن السوموريين هم أنفسهم لا يعرفون شيئا عن اصلهم ولا عن وطنهم الأول لأن انتقالهم من وطنهم الأول إلى العراق استغرق أجيالا طويلة أنستهم وطنهم وكل صلةٍ به .

من بطن الأرض ، والاتجار بالأخشاب لم يصل إليها الانسان إلا بعد عمر طويل قضاه فى الحضارة .

وإذا كنا نرى المؤرخين اليوم : يذكرون بكثير من الأهتام ما يقال عن القارة التى تنام فى قاع المحيط الأطلسى من آيسلندا شمالا إلى القطب الجنوبى ، ويتخذون منه دليلا على المدنيات المفقودة ، فيبعثون من جديد نظرية أفلاطون التى تتحدث عن قارة محاطة بالماء بين أوروبا وآسيا ضاعت بين عشية وضحاها ـ فإننا نرى المؤرخين اليوم يذكرون كذلك بكثير من الاهتام ما يقال عن أنهار قلب الجزيرة التى كانت تنساب فى هذه الأودية الماحلة فتجعل منها مصدر خير وبركة ـ ويبعثون من جديد أقوال المؤرخين العرب الذين تحدثوا عن خصب الحجاز فقالوا : كان أكثر بلاد الله أشجارا وماء .

واذا كنا نرى البحوث العلمية : قد أخذت طابع الجدية عندما تتكلم عن مدنيات ما قبل التاريخ فى العراق ، وفى سورية ، وفى مصر ـ فها نحن أولاء نرى كثيرا من البحوث الجدية تناولت التاريخ القديم فى جنوب الجزيرة وشرقيها مستضيئة بما كشفته حفريات الأثريين فى اليمن ، وبما عثر عليه الرواد فى « نجد » و « العروض »[1] من آثار الانسان فى عصره الحجرى ، وما عثروا عليه فى « عمان » من آثار الحضارة فى العصر النحاسى ، وما عثروا عليه فى « وادى القرى » من آثار القصور التى شيدها قوم عاد فى كل ريع ، ونحتها قوم ثمود فى بطون الجبال فى عصور النحت والبناء . فلقد جاء فى كتاب روح الحضارة العربية : ( أن اكتشاف « دوثى » بعض الأدوات المتخلفة من العصر الحجرى الجديد فى أقصى شمالى بلاد العرب . واكتشاف « برترام توبس » لأخرى غيرها من ذلك العصر نفسه فى الجنوب ـ يدل على أن وجود الانسان ببلاد العرب منذ عهد متقدم جداً . وإن كان لا يعلم حتى الآن متى وجد ؟ وما مقدار المساحة التى استوطنها ؟ وما هو نوع

---

حسين مؤنس يرون : أن السومورين هم أنفسهم لا يعرفون شيئا عن اصلهم ولا عن وطنهم الأول لأن انتقالهم من وطنهم الأول إلى العراق استغرق أجيالا طويلة أنستهم وطنهم وكل صلةٍ به .

( ١ ) العروض الأرض الممتدة على الخليج العربى مثل تهامة الممتدة على البحر الأحمر . راجع الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية القديمة من هذا الكتاب .

الحضارة التى أنشأها ؟ )[1] .

ولا ينفرد « دوثى » و« برترام توبس » بهذه النتيجة التى تثبت : أن الأنسان عاش فى « نجد » وفى غير نجد من شبه الجزيرة منذ العصور الحجرية ، وأنه أشعل قبس الحضارة عندما كان الحجاز أكثر بلاد الله أشجاراً ، وعندما كانت الأنهار تُروى صحاريها فى تلك الأزمنة الجليدية التى جثم الجليد فيها على جنوبى أوروبا ، وعلى شمال الشرق الأدنى[2] . فهناك من يقول : إن العربى فى قلب الجزيرة وجنوبها ـ كان السابق لأستنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة ، كما كان السابق لعبادة الله فى جوار بيت الله . فأرض الجزيرة هى بلاد الآلهة كما كان يقول قدماء المصريين . ومكة : أقدم معبد وأشرفه كما كان يؤكد قدامى اليونانيين من قبل الميلاد . ومن ارض الجزيرة كان يصدر النحاس ، والذهب ، والخشب ، والبخور ـ كما يؤكد ذلك الأثريون حدثاء وقدامى ، والمستشرقون خصوما للعرب والأديان وأصدقاء لهم ولها .

إذا كنا نرى كل ذلك ونسمعه فما الذى يدعونا لأن نتجاهل خصْب الجزيرة العربية وثروتها الزراعية التى حدثنا عنها القرآن الكريم[3] .

[ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مِدْرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قَرْنا آخرين ] .

وما لنا نذهب مع الشكوك فلا نذكر من تاريخ الجزيرة العربية القديم غير الجانب القاحل الغارق فى الجهل والفقر والوحشية ؟ .

إذا كنا نرى كل ذلك ونسمعه فما الذى يدعونا لأن نتجاهل حضارة البلاد العربية ، ونكذب ما قاله المؤرخون العرب عن ثروة الجزيرة وحضارتها ودولها ذات الأبهة والسلطان الكبير[4] . ولا نكترث بما قيل عن البيت الحرام ، وعن قوم هود ، وقوم صالح ، وأصحاب

---

( ١ ) روح الحضارة لمؤلفه ـ شيدر ـ ص ١٢٧ و ١٢٨ .

( ٢ )راجع البحث فى حضارة قلب الجزيرة بعنوان : « معالم الدولة والمجتمع » فى هذا الجزء من هذا الكتاب .

( ٣ ) سورة الأنعام :٦ .

( ٤ ) يراجع الجزء الخاص بدول شبه الجزيرة العربية وسياستها من هذا الكتاب .

مدين ، وما قيل عن إدريس ومن عاش فى عصره ، ولا نهتم بما يقوله المؤرخون المتأخرون عن أسبقية قلب الجزيرة وجنوبها إلى زراعة الحبوب وتربية المواشى فى قلب الجزيرة وجنوبها ، وعن قدم التعدين فى عُمان وفى اليامة ، وقدم الأسواق التجارية فى كثير من البلدان العربية ؟ .

لماذا لا نأخذ بشيء من الاعتبار روايات المؤرخين الذين يقولون : إن آدم وضع أساس البيت الحرام ، وإن خلفاءه من بعده رفعوا على ذلك الأساس البناء . ويقولون : إن آدم سكن مكة وعبد الله عند بيته الحرام ؟ .. فمن هؤلاء الذين يقولون بذلك ؟ ابن عباس . ومن الذين أثبتوا هذه الروايات ؟ ابن جرير الطبرى[١] . فآدم الذى علمه الله الأسماء كلها لا أظنه يجهل الوادى الذى اختاره الله لبيته ، ولا أظنه يفضل عليه واديا على وجه هذه الغبراء فيتخذه وطناً له .

فنحن إذا ما ربطنا ما جاء فى كتاب قصة الحضارة عن سكان قلب الجزيرة وجنوبها ، وأنهم سبقوا سكان الواديين الفرات والنيل فى استنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة[٢] ـ بما جاء فى تفسير الطبرى : ان آدم أمر بحرث الأرض لأستنبات الحبوب[٣] ، يطالعنا شيء من الحقائق المبنية عليها روايات المؤرخين القدامى .

ونحن وقد اخذنا بقول الذين يؤكدون : أن أرض الحجاز ونجد كانت فى العصور الثلجية أطيب مناخا من الأرض التى تغطيها الثلوج ، ومن الأرض التى تجاورها جبال الثلوج ـ لا نستكثر على قلب الجزيرة الأسبقية إلى الحضارة . وإذا كان مؤلفو تاريخنا لم يقدموا الأدلة المادية التى تثبت شكهم وريبتهم . بل هم على العكس قد اعترفوا بخطئهم فى كثير من شكوكهم . ولقد قال ( ديتلف نيلسن ) : ( ولولا هذه الآثار ما استطعنا إدراك كنه ما جاءنا فى المصادر العربية وما يحدثنا به العرب عن اليمن وحكامها ، أبراجها وقصورها )[٤] .

---

( ١ ) تاريخ الطبرى ١ / ٨٨ وتاريخ الاعلام باعلام البيت الحرام ص ٣٤ .

( ٢ ) قصة الحضارة ٢ / ٤٣ .

( ٣ ) تفسير الطبرى ٨ / ٤٢ .

( ٤ ) التاريخ العربى القديم ص ٣٠ .

والذين كانوا لا يصدقون بما جاء فى القرآن الكريم عن عاد وثمود ـ لأن عاداً وثمود لم يذكرا فى التوراة ، ولم يذكرا فى المصادر اليونانية ـ عادوا أخيرا مصدقين بوجود قوم عاد وقوم ثمود وبحضاراتهم ، ومؤكدين باقتناع : أن وادى القرى واليمامة وسواحل الخليج العربى قد كان كل بلد من هذه الأرض يزهى بحضارات قديمة كان بعضها فى طليعة حضارات الماضى البعيد ، وأن بناة هذه الحضارة التى زهت فى عصور ما بعد الطوفان هم الإرميون ، والعماليق ، والكنعانيون ، فهذه الشعوب هى التى أنشأت حضارات الساميين فى العراق وفى سورية ولبنان وفى مصر . ولقد أكد مؤلف كتاب مصر من أقدم العصور[1] : أن أول هجرة للساميين الذين جاءوا من البلاد العربية وانتشروا فى أرض النيل شماليها وشرقيها ـ الدلتا والصحراء العربية ـ ونشروا اللغة السامية ـ كانت قبل التاريخ : [ أما تاريخ الهجرة السامية الأولى فيرجع بلا مراء إلى ما قبل العصور التاريخية المعروفة ][2] .

فمحال أن تكون تلك النقوش وذلك النحت الثمودى فى مدائن صالح ـ أثراً لحضارة حديثة العهد بالنسبة لحضارات الماضى القديم . إن ذلك النحت دليل مادى يشهد بآثار حضارة قديمة بدأت من أقدم العصور السامية ، كما يسميها المستشرقون ، بدأت من عصر ( عاد ) التى ورثت الأرض بعد قوم نوح والتى شيدت فى كل ريع آية .

وليس خطأ فى اعتقادى : أن يصدِّق الباحثون بما يقال عن الإنسان العربى وسبقه للحضارة فى هذه الجزيرة العربية التى كانت فى العصور الجليدية تتمتع بمناخ معتدل خصب . وإنما الخطأ أن تتسلط على أفكارنا الشعوبيةُ فتشوه لنا الصورة الرائعة التى تمثل الجزيرة العربية فى عصور الأنهار الجارية والمطر المدرار .

فما أضخم تراثنا القديم وما أقل الذى نعرفه عنه .

---

( ١ ) مصر من أقدم العصور ص ١٨

( ٢ ) لقد أثبت المحققون : أن الساميين هم العرب ، وأن الساميين جميعهم انتقلوا من قلب الجزيرة العربية إلى أطرافها وإلى شرق أفريقية ـ الحبشة وما حولها ـ وفى بحوث هذا الجزء الأدلة التى تظهر هذه الحقيقة التى اعترف بها المستشرقون واقتنعَ بها كتاب التاريخ القديم فى القرن العشرين الميلادى مثل جرجى زيدان وفيليب حتى وجواد على وغيرهم .



البحث الرابع :

# دول ما قبل التاريخ في الشرق العربي وسنو حكمها

من موضوعات البحث :

١ ـ كيف تأسست الدولة ؟

٢ ـ سنو ما قبل التاريخ فى تقدير الكلدانيين أصح من تقديرها فى المصادر الإسرائيلية .

٣ ـ عدد السنين فى جداول النصوص القديمة لا يعنى الملوك وانما يعنى الدول .

٤ ـ المجتمع العربى فى قلب الجزيرة عرف الدولة من قبل التاريخ .



# دول ما قبل التاريخ في الشرق العربي وسنو حكمها

١ ـ من المتفق عليه : أن الدولة فكرة سارت فى طريق النشوء والارتقاء ـ بدأت باعتراف الأسرة بسلطة ربها الذى يعتبر أقوى أعضائها والمسؤول الأول عن حمايتها وعن تأمين ضرورياتها . ثم سارت خطوة أخرى فتضافر أرباب الأسر على دفع المخاطر عنهم ، وتعاونوا على حل ما يقابلهم من مشاكل ، فبدأ بذلك عهد الجماعة الذى ما لبث أن تدرج إلى العرف القبلى ـ ولئن كفل العرف القبلى حقوق الفرد بعض الشىء فلقد عجز عن أن يحد من نزوات الأقوياء ، فتطور العرف إلى نظام ، وتطور الزعيم إلى ملك .

٢ ـ وفى الملخص التاريخى الذى نظمه ( ل . ديلا بورت ) فى كتابه « بلاد ما بين النهرين » لتاريخ بابل قدر « ل . ديلا بورت » المدة التى استغرقها الانسان فى طريقه من الانفرادية إلى الدولة بنحو ( ٢٢٣,٢٠٠ ) سنة عنونها بزمن الفوضى . ثم اضاف إليها نقلا عن ( بروسوس ) المؤرخ الكلدانى الذى تحدث عن دول ما قبل التاريخ ( ٤٣٢,٠٠٠ ) سنة وضعها أمام عشرة ملوك حكموا قبل الطوفان . وحدد بعد الطوفان أزمنة للأسر التى حكمت فى ( أكدا ) و ( سومير ) و ( عيلام ) و ( كيش ) و ( الفرات الأوسط ) و ( أورك ) وقال عن هذه الدول : إنها تسمى أسر التاريخ الأسطورى . ووضع لكل دولة عددا من السنين ما عدا أسرتين : واحدة من دول كيش ، والأخرى من دول أورك ـ فكان مجموع السنين ( ٢٤,٨٢٤ ) ومن هذه الدول : أسرة لم تتجاوز سنوها أكثر من سبعة أعوام ، ومنها : أسرة بلغ عدد سنى حكمها ٣٧٩٢ عاماً . وفى الاضافات والتصحيحات المذيل بها كتاب « ما بين النهرين » بحث عن وثيقتين محفوظتين فى متحف ( الأشموليان ) توضح كل وثيقة اسم كل ملك من الملوك الذين حكموا قبل الطوفان . ومدة كل واحد منهم . ففى إحدى الوثيقتين ذكرت أسماء عشرة ملوك حكموا فى ست مدن خلال مدة قدرها ( ٤٥٦,٠٠٠ ) سنة . وفى الوثيقة الثانية ذكر ثمانية ملوك حكموا فى خمس

مدن ولم يتعد المجموع الاجمالي لسنى حكم الملوك الثمانية أكثر من ( ٢٤١,٢٠٠ )[١]

ونظم جرجى زيدان فى كتابه العرب قبل الاسلام : جدولا بسنى الملوك العشرة الذين حكموا قبل الطوفان . وبسنى الدول التى سبقت العصر التاريخى حسب الرواية المنقولة عن ( بروسوس ) التى نقل عنها ( ل . ديلا بورت ) حسبما تقدم . وعلق جرجى على ذلك الجدول الذى نظمه نقلا عن بروسوس قائلا : إن رواية بروسوس كانت موضع نقد المؤرخين لما فيها من مبالغات عن عصور ما قبل الطوفان ، وإن ما يقال عن الدول التى سبقت دولة ( مادى ) يعتبر خرافة[٢] .

ودولة « مادى » فى جدول جرجى زيدان تأتى بعد دول ما قبل الطوفان التى بلغ عدد ملوكها عشرة ملوك ، وبلغت مدة حكمها ( ٤٣٢,٠٠٠ ) ، وبعد الدول التى قامت بعد الطوفان والتى يبلغ عدد ملوكها ( ٨٦ ) ملكاً وتبلغ مدة حكمها ( ٣٤٠٨٠ ) سنة . ودولة مادى فى جدول جرجى زيدان سبقت دولة الكلدان بقرون ظهرت فى خلالها دول ضاعت أرقامها كما يقول جرجى زيدان . ودولة مادى فى جدول جرجى زيدان حكمت ٢٢٤ سنة . وتأتى بعد دولة مادى ـ دول أخرى قال عنها جرجى زيدان : لم يعرف عدد سنيها ـ ثم تأتى دولة الكلدان ـ وعدد سنى حكمها : ٤٥٨ ـ ثم تأتى دولة العرب ـ الحمورابية .

إن ما جاء فى كتاب بلاد ما بين النهرين ، وإن ما جاء فى كتاب العرب قبل الاسلام عن بروسوس وروايته ، وما جاء فى وثيقتى الأشموليان ـ يلزمنا أن نقف قليلا عند رواية بروسوس التى تتفق كثيراً مع وثيقتى الاشموليان وما جاء فيهما عن عدد السنين والملوك .

فأولا : إن بروسوس الذى توفى سنة ٣٠٠ ق . م . لم يكن أول مؤرخ عرفناه . فلقد سبقه ( هيرودوتس ) الذى توفى سنة ٤٠٦ ق . م . والذى عرف بأنه أبو التاريخ . و ( ثيوفراست ) الذى توفى سنة ٣١٢ ق . م . وإن بروسوس الذى عاصر الاسكندر ـ كان عالماً باللغة اليونانية فهو قد نقل تاريخ بلاده إليها . وإن بروسوس العليم باللغة اليونانية

---

( ١ ) راجع كتاب بلاد ما بين النهرين ص ٧٢ ، ٢٣ والاضافات والتصحيحات المذيل بها الكتاب .

( ٢ ) العرب قبل الاسلام لجرجى زيدان ص ٥٢ .

كانت له صلة بملوك ذلك العهد ، وكان معتزّاً بتاريخه فهو فى رأيه يستحق أن يكون هدية تُقَدّم إلى ( أنطيو خوس ) ملك سورية .

ومن المحتمل : أن بروسوس لم يعتمد على ما جاء فى التوراة عن عالم ما قبل التاريخ . بل كانت لديه مصادر أخرى لم نعرف عنها شيئا لأن كتابه قد ضاع ، فما عرف عنه عرف من نصوص نقلها عنه المؤرخون فى القرن الأول قبل الميلاد . فلعل من مصادره مؤرخين سبقوه وآثاراً كانت بارزة فى عهده . فما جاء به بروسوس عن سنى الدول يختلف عما جاء فى التوراة عن عمر الإنسان فى هذه الأرض .

ولقد تحمس الذين تمسكوا بالرواية الاسرائيلية التى تقول : إن عدد السنين التى تفصل بين آدم ونوح لا يزيد على بضعة وعشرين قرنا ـ وحاول بعضهم التوفيق بين رواية بروسوس ، وبين ما جاء فى الأسفار ـ ومن هؤلاء : المطران الدبس الذى قال فى كتابه تاريخ سورية : إن التقويم الزمنى عند الكلدانيين كان على قاعدتين : ١ ـ حساب فلكى ٢ ـ حساب مدنى . وإن الوحدة الزمنية عند الكلدانيين فى كلا الحسابين المدنى والفلكى كانت تسمى ( سارا ) . ويحسب الكلدانيون للسارا الفلكى : ثلاثة آلاف وستمائة سنة ، ويحسبون للسارا المدنى : ثمانية عشرة سنة وستة شهور قمرية . فالمائة والعشرون ساراً تساوى ـ كما يقول الدبس ( ٢٢٢٢ ) سنة .

ويرى الدبس : أن المؤرخ بروسوس الكلدانى بنى تقديره للمدة التى حكم فيها ملوك ما قبل الطوفان على أساس التقليد البابلى الذى كان يقسم تلك المدة إلى مائة وعشرين قسماً وإعتبار كل قسم من المائة والعشرين قسماً ساراً فلكيّاً ـ فيكون مجموع مدة حكم أولئك الملوك على هذا الاعتبار : ( ١٢٠ × ٣٦٠٠ = ٤٣٢,٠٠٠ ) .

ويقول الدبس : لو أن بروسوس بنى حسابه على أساس السارا المدنى لكانت النتيجة هى : ( ٢٢٢٢ ) سنة ولما كان هناك خلاف يذكر بين جدول بروسوس ، وبين الرواية الاسرائيلية[١] .

ويستشهد الدبس فى كلامه بما قاله ( سويداس ) اليونانى عن السار ـ وإننى هنا أزيد استشهاد الدبس تأكيدا بما قرأته فى كتاب حضارة بابل وآشور لغوستاف ليبون عن

( ١ ) راجع تاريخ سورية للدبس ١ / ٦٧ .

حساب الزمن عند الكلدانيين ـ فهم[1] . كانوا يعلمون : أن السنة الشمسية ($365\frac{1}{4}$) يوماً وربع اليوم ، ولكنهم فى احوالهم المدنية كانوا يعمدون إلى السنة المركبة من اثنى عشر شهراً قمرياً ، وأنهم كانوا يعتبرون الشهر أربعة أسابيع ، ويضيفون فى أوقات ثابته شهرا يتمم عدد أيام السنة وأن تقاويمهم متنوعة : فمنها ما هو خاص بالعبادات والأعياد المدنية . ومنها ما كان خاصًا بسير الفصول وشروق الكواكب وغروبها . ومنها ما يرجع إليه لمعرفة التغيرات الجوية وحالة الحاصلات وما يعتريها من الجدب والخصب . فعلى ذلك فإن دورة الفصول بالنسبة لشهور السنة القمرية والسنة الشمسية تستغرق ثمانى عشرة سنة تقريباً .

ولكن مع كل ما فى محاولة المطران الدبس للتوفيق بين رواية التوراة ، وبين ما نقل عن بروسوس ـ من ملحوظات مفيدة ، ومع ما قرأته فى كتاب غوستاف ليبون ـ بابل وآشور ، فإننى لا إخال بروسوس وهو المؤرخ الكلدانى يلتبس عليه الفرق بين الحساب الفلكى والحساب المدنى ، فيقع فى مثل هذا الخطأ . فبروسوس ـ كما يظهر مما قيل عنه ـ مؤرخ مطلع خول له علمه باللغة اليونانية أن يضيف إلى مصادره ما وصلت إليه مدرسة أرسطو من معارف .

وإننى لا أرى : أن مصادر التاريخ فى عصر بروسوس هى هذه المصادر التى بين أيدينا . فلا شك فى أن مصادر عصور ما قبل التاريخ فى زمن ما قبل الميلاد هى أكثر مما وصل إلى المطران الدبس ـ وقد تكون أصح . فلقد أثبت البحث الجيولوجى صحة ما جاء فى رواية بروسوس ـ ففى عدد يوليو سنة ١٩٥٩ ، من مجلة المختار بحث تحت عنوان ( تاريخنا بالكربون ) منقول عن مجلة الجغرافية القومية بقلم ( ليان برتجر ) ما يؤكد : جدول بروسوس إلى حد بعيد ، فلقد جاء فى هذا المقال : [ تُرى كم عمر الأرض ـ لقد كتب شكسبير فى مسرحية ( كما تريد ) يقول : إن الأرض المسكينة عمرها حوالى ( ٦٠٠٠ ) ستة آلاف سنة ويبدو أن هذا الرأى كان يجد تأييدا من الجهات الدينية فى تلك الأيام التى لم تدم طويلا . ففى حوالى سنة ١٩٠٠ حسب العالم الأيرلندى ( جولى ) عمر الأرض عن طريق قياس كمية الملح فى المحيطات فقال : إنه لا بد من حوالى مائة مليون سنة حتى تستطيع الأنهار والقنوات صب هذا الملح فى المحيطات . ثم جاءت

( ١ ) بابل واشور ص ٥٦ .

الاكتشافات الجديدة الجيولوجية والنشاط الاشعاعى - فأخذ العلماء الجيولوجيون فى عام ١٩٣٠ يضاعفون تقدير جولى عشرين مرة ، إذ أصبح الرأى السائد يؤكد : أن عمر الأرض حوالى الفى مليون سنة ، وفى وقت حديث قدر العلماء أكثر من ضعف هذا الرقم لعمر الأرض . ودلت التقديرات الجديدة التى عملت على أساس تآكل المواد المشعة فى الصخور على أن نظامنا الشمسى بما فيه الأرض يبلغ حوالى ( ٤,٥٠٠ ) مليون سنة « أربعة آلاف وخمسمائة مليون عام » !! أما الانسان نفسه فلم يظهر إلا فى نصف المليون عام الأخير من لزمن الجيولوجى ] .

٣ - وكذلك أنا لا اعتقد : أن بروسوس قصد فى كلامه عن دول ما قبل الطوفان وملوكهم : أن عشرة ملوك حكموا ( ٤٣٢,٠٠٠ ) عام - فمعنى ذلك أن كل ملك من اولئك الملوك حكم ( ٤٣,٢٠٠ ) سنة ، فهذا ما يرفضه المنطق فى كل جيل من الأجيال . ولقد وقع فى مثل هذا الفهم كثير من مؤلفى التاريخ القديم . فنحن نسمع عن ملوك فى اليمن وملوك فى فارس حكم كل واحد منهم قرونا عديدة .

فأنا لا أستبعد أن يكون بروسوس ، وكل مصدر من مصادر التاريخ يشير الى الأسر الملكية . أو الى شعوب سادت مثل : الشعب العدنانى ، والشعب القحطانى اللذين سادا فى جاهلية ما قبل الاسلام - لا إلى أفراد عاشوا هذا الدهر الطويل .

فلقد تتابعت الأدلة تؤكد وجود شعوب سادت فى عالم ما قبل الطوفان - فنحن إذا رجعنا إلى ما ورد فى القرآن الكريم عن دعاء نوح :

[ ولا تذرُن وَدًّا ولا سُواعا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسراْ ] نجد الزمخشرى يفسر هذه الآية بأن وَدًّا ، وسُواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراْ . هى : أسماء رجال صالحين من ولد آدم أغرى إبليس معشرهم بنحت صورهم تماثيل احتراماً لذكراهم ، ثم تطور الاحترام إلى الاعتقاد بأن عبادتهم تقرب إلى الله . ونجد ابن جرير الطبرى يقول عن قوم « نوح » ومن سبقه انهم اقاموا تماثيل لرجالاتهم البارزين عبدوها فيما بعد ونجد يوسف الدبسً : ينقل لنا عن سفر التكوين : أن عهد إدريس كان بداية لتسمية المخلوقات آلهة[٢] . ونجد ( ل . ديلا بورت ) فى كتابه بلاد ما بين النهرين يتحدث عن الأسطورة التى تحكى : أن

( ١ ) تفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ .
( ٢ ) تاريخ سورية ١ / ٥٩ .

أحد أمراء كيش ( نسرا ) البطل الآلهى رفع الى السماء[1] .

نحن اذا ما رجعنا إلى كل ذلك يظهر لنا : أن أسماء الزعماء الذين أسسوا الدول كانت فى الماضى القديم تظل حية تنتمى إليها دول وشعوب ، كما هو الحال فى جاهلية ما قبل الأسلام ، مثل : قحطان ، ونزار ـ وكما هو الحال بعد الاسلام مثل : أمية ، والعباس ، وعثمان مؤسس دولة آل عثمان .

فعلى ذلك لا يستبعد عن الحقيقة ـ الرأى الذى يفترض : أن بروسوس قصد عدد الأسر الحاكمة التى بلغ مؤسسوها من الشهرة مكانة جعلت هاتيك الأمم تنتسب إلى مؤسسى دولتها كما انتسب الآشوريون إلى ( اشور ) . فآشور فى رأى البعض هو اسم إله . وفى رأى بعض آخر هو اسم بلد . وفى رأى آخرين هو اسم مؤسس دولة آشور . فعلى كل هذه الآراء لم يكن آشور ملكا واحدا تربع على العرش الآشورى طيلة عصور الآشوريين .

ولقد جاء فى كتاب سنى ملوك الأرض لحمزة الأصفهانى عن دولة ( الفيشدادية )[2] . أن عدد ملوكها تسعة ملوك . وأن سلطان هذه الدولة استمر ألفين وأربعمائة وسبعين سنة . ولقد قسمت المصادر التى استند إليها الأصفهانى فى كتابه ـ الألفين والأربعمائة والسبعين عاما ـ على تسعة ملوك قسمة غير متناسبة ، فجعلت بعض ملوك هذه الأسرة يحكم ألف عام . وبعضهم يحكم تسعة أعوام فقط . ولو طال الزمن بين هذه الأسرة وبين المصادر التى رجع إليها الأصفهانى كما طال الزمن بين بروسوس وذلك الرعيل الأول من المؤرخين ، وبين الذين رجعوا إلى روايته لتطورت الرواية إلى مبالغة أكبر مما هى عليه : ففهم منها : أن الفيشدادية اسم ملك أو ملكة حكم مدة ألفين وأربعمائة وسبعين سنة . كما لو كان المصدر الذى رجع إليه الأصفهانى قريباً من عهده لتأكد الأصفهانى مما قصدته مراجعه فى كلامها عن الملك الذى حكم ألف عام . فلعل أصحابها

---

( ١ ) بلاد ما بين النهرين ص ٢٥ وتفسير الطبرى ٢٩ / ٩٩ .

( ٢ ) راجع سنى ملوك الأرض ص ١٦ طبعة مكتبة الحياة ببيروت ، والفيشدادية فى كتاب حمزة الأصفهانى هى أول أسرة فارسية حكمت .

كانوا يقصدون : أسرة ـ مثل أسرة ( مروان ) فى العهد الأموى ـ لا ملكاً واحداً .

فالذى يتبين لنا على ضوء كل ما تقدم : أن رواية بروسوس صحيحة من حيث عدد السنين . وأن الذى يفهم منطقيّاً من عدد الملوك الذى جاء فى رواية بروسوس ، وفى وثيقتى الأشموليان ، أن الأرقام ( ٨,١٠ ) تعنى كما يظهر من الشواهد والأدلة التى تقدمت : عدد أسر تاريخية ـ لا أفراداً حكم كل واحد منهم ثلاثة وأربعين ألفاً ومائتى عام .

٤ ـ وكذلك أنا لا اعتقد : أن قوم نوح ومن سبقهم من شعوب وقبائل انحصرت جموعهم فى أرض الرافدين ، وأن الحجاز ونجداً وشواطىء الخليج الاسلامى[1] والبحر الأحمر وبلاد اليمن السعيدة وحضرموت ـ كل هذه البلاد عاشت طيلة عصور ما قبل الطوفان خلاء بلقعاً لا تعرف الانسان .

أنا لا أعتقد ذلك بعد الذى قدمته فى فصل ( قلب البلاد العربية المهد الأول للانسان وحضارته ) .

وأنا لا أستبعد أن يكون ذلك العالم الذى عاش فى قلب الجزيرة وجنوبيها : أسس دولا من اقدم الدهور ورثها الإرميون ، والعماليق ، والكنعانيون ، والجرهميون ، وغيرهم ممن قال عنهم المؤرخون العرب : إنهم كانوا أصحاب دولة وحضارة .

فنحن إذا كنا نجد اليوم من يبحث عن دول ما قبل الطوفان فى بلاد ما بين النهرين ، ووجدنا خلافا فى سنى حكمها ـ فإننا لا نجد من يبحث فى دول قلب الجزيرة قبل الطوفان ! فجميع البحوث التى وضعت فى تاريخ قلب الجزيرة لا تتجاوز ما قيل عن هجرة إسماعيل وبناء البيت الحرام ، وما يجر إليه البحث عندما يتكلم مؤلفو التاريخ فى العصور المتأخرة عن الآثار التى تظهر عفواً ، أو التى يكشف عنها التنقيب عن الثروات المعدنية فى منطقة الخليج الإسلامى ، وشرقى نجد ، وفى اليمامة ، وشمالى الحجاز ، وفى بلاد اليمن ، وحضرموت .

وعلى ضآلة المعلومات عن عالم ما قبل الطوفان فى شبه الجزيرة العربية ، فإن الباحث فى التاريخ القديم لا يمكنه أن يتجاهل الآثار التى وجدت فى داخل الجزيرة والتى يرجع

---

**( ١ ) ان تسمية الخليج الذى اطلق عليه غير العرب اسم الخليج الفارسى ، واطلق عليه العرب الخليج العربى ، ان تسمية هذا الخليج بالخليج الاسلامى ينطبق على واقعه فكل سواحله إسلامية .**

تاريخها إلى العصر الحجرى ، ولا يمكنه أن يتجرد من الظنون التى ترجح له وجود دول عربية قامت قبل الطوفان داخل شبه الجزيرة العربية مسقط رأس الحضارة الانسانية . وترجح له : أن ودًّا ، وسواعاً ، ويغُوث ، ويعُوق ، ونسرْاً ، شعوب انتشرت فى طول البلاد العربية وعرضها ، وأسست هنا وهناك دولا كان لها شأنها فى مقدرات هذا الشرق العربى ، سيما دول قلب الجزيرة ـ فمناخ هذا الجزء فى العصور الثلجية هو افضل من غيره الغارق فى الثلوج والمتعرض لعواصفها . وفيما سنقدمه لك فى الجزء الخاص بدول البلاد العربية وسياستها ، الأدلة التى ترجح وجود الدولة فى الجزيرة العربية من قبل التاريخ .



البحث الخامس :

# نهاية ماقبل التاريخ بداية التاريخ

من موضوعات البحث :

١ ـ الإنسان استأنف حضارته بعد الطوفان .
٢ ـ تحديد بداية التاريخ لم يكن واقعياً إلا من منتصف الألف الأخيرة قبل الميلاد .
٣ ـ بداية تاريخ الأمم تتفاوت بتفاوت عصورها .
٤ ـ الحلقات المفقودة فى تاريخ الأمم .
٥ ـ تاريخ الأقطار العربية لم يبدأ فى عام واحد .
٦ ـ عصر التاريخ الحقيقى فى البلاد العربية .
٧ ـ ليس التاريخ الحقيقى مجرداً من المبالغات .

# نهاية ما قبل التاريخ بداية التاريخ

١ ـ كل ما قيل أو يمكن أن يقال عن عصر ما قبل الطوفان ، يقال أو يمكن أن يقال عن الفترة التى سبقت نشوء الدول بعد الطوفان ، فمن المفروض بعد تلك الكارثة أن تمر بالانسان فترة من الزمن يستأنف فى خلالها حياته الحضارية من جديد . وهذه الفترة التى بدأ الإنسان فيها حياته من جديد ، لا نعرف عنها غير الظنون والنظريات التى تحوم حول ما وجد فى طبقات الأرض العميقة ، وتبلغ هذه الفترة فى تقدير ( بروسوس ) أربعة وثلاثين ألفاً وثمانين عاماً ( ٣٤٠٨٠ سنة ) وقد ألحق المؤرخون هذه الفترة بزمن ما قبل الطوفان ، ، واعتبروها من التاريخ الخرافى .

٢ ـ وفى موسوعة تاريخ العالم رأى جدير بالعناية والاهتمام . فلقد وضع أصحاب هذا الرأى قاعدة صحيحة للفارق بين عصور ما قبل التاريخ وبين العصور التاريخية بالنسبةلكل بلد من بلدان العالم . فلقد جاء فى الموسوعة : [ ويختلف الوقت الذى ينتهى فيه عصر ما قبل التاريخ ليبدأ التاريخ ، اختلافاً واسعاً فى جهات العالم المتعددة . وغالباً ما يمتد التاريخ بمعناه التقليدى إلى الحدود الفاصلة بين الأثنين . والتواريخ فيما قبل التاريخ مسألة تقديرية لم تبلغ أن تكون معالم رئيسية ثابتة كما هو الحال فى التاريخ المكتوب ][١] .

ومن رأى ويلسون : أن التاريخ لم يك واقعيًّا لا يخالطه الشك فى الزيادة أو النقص إلا بعد عام ٥٠٠ ق . م ـ فمن غير الممكن قبل هذا التاريخ تحديد العصر التاريخى بالضبط[٢] .

ونحن إذا استمسكنا بما جاء فى الموسوعة ، وبما قاله « ويلسن » فعلينا : أن ندخل فى حسابنا أن تعيين الزمن لبداية التاريخ هو مسألة تقديرية .

٣ ـ والرأى السائد يجزم بأن بداية التاريخ الحقيقى تتفاوت عصورها بتفاوت تقدم الأمم وتدرجها نحو الحضارة ، وتختلف باختلاف المعلومات التى وصلت إليها بحوث

( ١ ) الموسوعة ١ / ٤ .

( ٢ ) راجع كتاب الحضارة المصرية لجون ويلسن ص ٧ .

المحققين واكتشافات المنقبين ، فإذا كانت الآثار التى وصلت إليها أيدى المنقبين إلى هذا التاريخ تصعد بعصر الدولة فى العراق ، وفى مصر إلى ما فوق الألف الثالثة قبل الميلاد ، فإن بلاد القوقاز لا يعرف شىء عنها إلا بعد الألف الأولى قبل الميلاد . ولا تزال بعض مناطق وسط أفريقيا لا تعرف بداية تاريخها ، ولعل بعضها لم يسجل تاريخه إلا بعد القرن التاسع عشر بعد الميلاد .

٤ ـ ثم لا يفوتنا أن ننبه الأذهان إلى الحقيقة التى تثبت : أن فى تاريخ كثير من الأمم حلقات مفقودة ، وإلى أن كثيرا من الحلقات المفقودة وسع دهورا طويلة حجبها ظلام دامس ، فمن النادر ، أن نجد أمة من أمم الأرض العديدة ، أو بلداً من بلاد الله الواسعة ـ استمر تاريخها منذ بدايته مشرقاً واضحاً ، فكثير من الأمم وكثير من البلاد انطوت معالم تاريخها القديم فى طيات الزمن . ثم هيأت لها الأقدار حياة جديدة غيرت كل شىء فيها ، وفرضت عليها أسماء جديدة عرفت بها دولها ، وعرفت بها بلادها . وإننا لنجد الأمثلة على ذلك كثيرة إذا ما رجعنا إلى معاجم البلدان وقرأنا أسماء أرضين لا تعرف فى غير المعاجم . بل أكثر من ذلك الأسماء التى كشفت عنها البحوث الأثرية ، فهذه لا تعرف حتى فى المعاجم . وكذلك نجد حال الشعوب والقبائل إذا ما رجعنا إلى معاجم أمم الجزيرة وقبائلها . فمن البلاد التى انقرض تاريخها القديم : سواحل الخليج الاسلامى . فلقد شهدت عمان والكويت والأحساء فى أيامها الخوالى حضارة ذهبية ، ثم قضى الله عليها أن تعيش زمنا طويلا فى الزاوية المظلمة من التاريخ . وهذه هى فى الوقت الحاضر تبعث فيها الحضارة من جديد فتسترعى انتباه العالم أجمع كما استرعته فى العصور التى سبقت الميلاد بآلاف السنين . ومن القبائل التى عاشت على أرض الجزيرة بأكثر من اسم واحد : الكنعانيون ، والجرهميون ، وعاد ، وثمود ، والعماليق . وإنك لتجد بحثا ضافياً عن هذه القبائل وغيرها فى الجزء الخاص بشعوب البلاد العربية من هذا الكتاب .

فهل اعترافنا بالحلقات المفقودة يوجب علينا أن نتجاهل التاريخ القديم للأمم العربية ، ونعتبر العصور التى سبقت الحلقات المفقودة من العصور الخيالية ؟ إن ذلك ولا شك يتوقف على توافر المعلومات عما قبل الحلقات المفقودة ومبلغها من الصحة ، والمعلومات عن العصور القديمة لم يقفل بابها ، فليست المعارف التى وصلت إليها البحوث الأثرية

هى خاتمة المطاف . فقد تكتشف فى المستقبل آثار فى بلد ما تؤكد قدم حضارته ، وتوضح شيئاً من تاريخه القديم ، فيتبدل رأى المؤرخين فى بداية تاريخ ذلك البلد . كما حدث ذلك فى تحديد تاريخ اليمن . فلقد قال بعض المؤرخين : إن أقدم دولة يمنية هى دولة معين ، وإن أقدم عصر معينى لا يزيد على الألف عام قبل الميلاد ـ ثم عثر المنقبون على آثار جعلت بعض المؤرخين يقول : إن العصر المعينى فى اليمن يبدأ من قبل منتصف الألف الثانية للميلاد .

على أن المعلومات التى استجدت فى التاريخ ، وما ينتظره المؤرخون من جديد يكتشفه الأثريون ، لاتكفى فى نظر المؤرخ ـ فى العصر الحاضر ـ لربط تاريخ ما بعد الطوفان بتاريخ ما قبله ، فالحلقات المفقودة واسعة جداً ، وتاريخ ما قبل الطوفان ، وتاريخ الفترة التى أعقبت الطوفان يكادان يكونان مجهولين تماماً .

وعلى كل حال فإن التاريخ الحقيقى فى البلاد العربية جميعها لم يبدأ فى عام واحد . فإذا كانت سلسلة التاريخ فى اليمن ربطت التحقيقات التى قام بها المؤرخون على ضوء المصادر القديمة البحث ، وعلى ضوء الآثار الحديثة الظهور : حلقاتها من دولة ( معين ) و ( سبأ ) و ( أوسان ) و ( قتبان ) ثم ( حمير ) ثم ( النجاشين ) و ( ابن ذى يزن ) ثم الاستعمار الفارسى ، فلقد اعتبر كثير من المؤرخين : رفع إبراهيم القواعد من البيت ـ بداية التاريخ الحقيقى للحجاز . فمن عهد إسماعيل إلى عصر عبد المطلب عرفت الشعوب التى سادت فى مكة ، والشعوب التى سادت فى المدينة ، كما سنرى ذلك واضحاً فى الجزء الخاص بدول البلاد العربية وسياستها .

أما الأجيال التى سبقت بناء البيت فلم يتجاوز بحث المؤرخين عنها إلى أكثر مما قيل عن موضع البيت الحرام ، وأنه كان أكمة حمراء ، وعن العوالم التى كانت تحج إليه ، وإلى أكثر مما جاء فى بحث أنساب القبائل ومساكنها فى مكة ، وفى المدينة ، وفى الطائف ، وفى مدين ، وجنوب فلسطين . وأما قبائل : جرهم ، والعماليق التى كانت تعيش حول الوادى المبارك ، وفى وادى القرى ، والقوافل التجارية التى كانت تسير من الجنوب إلى الشمال ـ فلم نر من المؤرخين من اهتم بمعرفة شىء من تاريخها حتى بدأ البحث الأثرى الذى كشف

لنا بعضا من تاريخ تلك العصور . ولقد رفض ابن كثير الروايات التي تقول بأن البيت كان مبنيّاً قبل إبراهيم[١] .

وعصر إبراهيم مختلف عليه . وتحقيق الخلاف على ضوء المصادر العربية يقتضى كثيراً من الفروض والتخمين . فالمصادر العربية لم تعن بتحقيق تاريخ العصور كما ينبغى - فليس أمامنا فى المصادر العربية طريق نصل منه الى عصر إبراهيم - فكل ما يمكن الاستدلال به هو ما قاله المؤرخون القدامى عن معد وابنه نزار - وأنهما قاوما الغزو البختنصرى . والغزو البختنصرى كان بين سنة ٦٠٥ و ٥٦٢ ق . م[٢] .

فعلى ذلك فإن الفاً ومائتين وسبعة وعشرين عاماً تفصل بين الغزو البختنصرى والهجرة النبوية .

ومعد هو الجد العشرون لعبد الله بن عبد المطلب[٣] . ومعد هو ابن عدنان . وما بعد عدنان اختلف النسابون على عدد الجدود فبعضهم يقولون : إنهم أربعون جدًّا ، وبعضهم يقولون : إنهم عشرون جدًّا . وآخرون يقولون : إنهم خمسة عشر جدًّا[٤] . وفى سيرة ابن هشام لم يتجاوز عددهم سبعة جدود[٥] . وفى حديث ابن عباس : انه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه الى عدنان قال : : [ من ههنا كذب النسابون ][٦] .

فعلى ذلك ليس امامنا غير ما وصل اليه تحقيق المتأخرين ، وبعض المتأخرين لم يوضحوا الأدلة التي يبنون عليها رأيهم . فجرجى زيدان لم يذكر : على أى دليل اعتمد عندما قال : [ وإسماعيل قبل الميلاد بتسعة عشر قرنا ] - بينا هو نفسه وفى نفس الكتاب يقول : [ وفى اثناء الدولة الحمورابية ظهر إبراهيم ][٧] .

والدولة الحمورابية هى أيضاً مختلف على عصرها - وسيأتى الكلام عن الخلاف على عصر حمورابى فى بحث ( التاريخ العربى فى العراق ) . والدولة الحمورابية فى تحقيق

---

( ١ ) تاريخ ابن كثير ١ / ١٦٣ والاعلام باعلام البيت الحرام للقطبى ص ٣٥ .

( ٢ ) العرب قبل الاسلام لجواد ٢ / ٣٣٤ .

( ٣ ) سيرة ابن هشام ١ / ٢ .

( ٤ ) العرب قبل الاسلام لجواد ١ /٢٩٣ .

( ٥ ) سيرة ابن هشام ١ / ٢ .

( ٦ ) تاريخ ابن خلدون ١ / ٣ .

( ٧ ) العرب قبل الاسلام ص ١٧٦ و ص ٥٧ .

جرجى زيدان : يبدأ عصرها ( فى سنة ٢٤١٦ وينتهى فى سنة ٢٠٨٢ )[١] .

فالمدة التى تفصل بين ظهور إبراهيم وتاريخ إسماعيل على رأى جرجى زيدان تبلغ قرنين تقريبا .

ولقد تحدث المطران الدبس عن اختلاف المحققين فى عصر إبراهيم ثم قال : [ وعلى كل الأقوال ـ فإن إبراهيم بلغ بلد كنعان حوالى ( ٢٠٠٠ ) ق . م ][٢] .

فالذى يظهر من استقراء هذه الآراء : أن ابراهيم عليه السلام ظهر فى سورية والحجاز فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد .

ولقد سبق الكلام فى بداية هذا البحث أن تحديد العصور القديمة لا يعدو التخمين والحدس .

وكذلك ( نجد ) و ( اليامة ) و ( شواطىء الخليج الاسلامى ) ، فإن بداية التاريخ الحجرى التى عثرت عليها بعض شركات التعدين وبعض رواد الآثار فى نجد ، مثل : عبد الله فلبى ، وقبل اكتشاف آثار فى اليامة وفى شواطىء الخليج الاسلامى . أما بعد تلك
الله فلبى ، وقبل اكتشاف آثار فى اليامة وفى شواطىء الخليج الاسلامى . أما بعد تلك
الاكتشافات فقد أرجع المحققون عصر الفينيقيين الذين عاشوا فى شواطىء الخليج الاسلامى الى اكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد .

على ان ما تحدث عنه المؤرخون عندما تكلموا عن العرب البائدة ، وعن مساكنهم فى وادى القرى ، وفى شواطىء الخليج العربى الاسلامى ، وفى مكة والمدينة ، وفى جبلى طيىء بنجد ـ وما جاء فى تحقيق الرواد من الباحثين وتفسير النقاد من الأثريين عن نحاس الجزيرة ، وذهبها ، وأخشابها ، وبخورها ، وهو فى رأى غالبية محققى التاريخ إرهاص للتاريخ الحقيقى .

٧ ـ والتاريخ الحقيقى فى رأى الكثير ليس هو التاريخ المجرد من المبالغات ـ فالتاريخ لم يسلم من المبالغات فى وقت من الأوقات ، فنحن اليوم إذا طبقنا ما تنشره صحافة البلاد العربية ، وما فى الكتب التى تنشر للدعاية ـ على واقع البلاد العربية ـ نجد : الفرق شاسعاً بين الخيال الذى يغطى واقع الأمم العربية ، وبين الحقائق المشاهدة .

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام ص ٥٧ .  ( ٢ ) تاريخ سورية ٤١ .

وبعد فنحن بعد أن تتبعنا الآراء التى انطلقت تبحث عن العصر التاريخى وبدايته ، لا يمكننا أن نترك القارىء دون نتيجة تقربه من المرحلة الأولى للتاريخ العربى . ونحن إذا أردنا أن نقرب القارىء إلى المرحلة الأولى للتاريخ العربى فعلينا أن نبحث معه فى التاريخ الحضارى للشعوب العربية ، فلقد أنار فجر الحضارة فى البلاد العربية الكثير من معالم تاريخها القديم .

البحث السادس :

# الحضارة هي السطر الأول[1] في التاريخ

من موضوعات البحث :

١ ـ الاستقرار والاستثمار هما دعامتا الحضارة والمجتمع .
٢ ـ قلب الجزيرة لم يتأخر عن موكب الحضارة القديمة .
٣ ـ الحدود الجغرافية لا تفصل الشعوب بعضها عن بعض .



# الحضارة هي السطر الأول في التاريخ

١ ـ إن اختلفت الموازين التى قدر بها عمر الزمن الذى عاشه الانسان على هذه الأرض ، فإن قدم الإنسان فى هذه الدنيا العربية متفق عليه . وإن اختلفت وجهات النظر فى بداية التاريخ ، فإن الآراء متفقة على أن بداية التاريخ لأمة لا تصلح أن تكون دليلا على تاريخ أمة أخرى وبدايته ، ما لم تكن هناك وشائج تربط بين الأمتين . فلو أن الأمم جميعها على مستوى حضارى واحد ، أو كان تدرج البشرية متساوياً ، لما كنا نرى اليوم شعوبًا شارفت القمة وشعوبًا لا تزال فى بداية الطريق .

ولا يدل شيء على تاريخ الأمم أكثر من حضارتها ، فحضارة سورية ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، ومصر ، والخليج الاسلامى ، والحجاز ، ونجد ، واليمن هى التى تحدد لنا تاريخ هذه الأقطار العربية ، كما حددت حضارة مقدونية ، والهند ، والصين تاريخ هاتيك الأقطار . فالتاريخ الحقيقى لا بد أن يسبقه نضج حضارى يهيىء المجتمع ويرسم معالمه . فالاستقرار والاستثمار : زراعة وصناعة وتجارة ، يلزمان الفرد بمعرفة واجبه نحو المجتمع ، فيعرف ما له على المجتمع وما للمجتمع عليه . واعتراف الفرد بواجب المجتمع ، واعتراف المجتمع بحق الفرد يضعان الأمور فى نصابها . ووضع الأمور فى نصابها يتيح للأمة أن تثبت وجودها فى سجل الزمن .

وحضارة الجزيرة العربية انفسح مجال البحث فيها بسبب المصادر التى وفرتها الدراسات الأثرية التى تعمقت فى أغوار الماضى البعيد لتعود بجديد من المعلومات وتقابله بما تكتنزه المكتبات من روايات المؤرخين الذين سبقوا هذه الدراسات بعشرات القرون .

٢ ـ ومما لا جدل فيه : أن بلاد الهلال الخصيب ، وأرض وادى النيل ، أكثر البلاد العربية مصادر يمكن الاعتماد عليها فى فهم تاريخها القديم بفضل جهود المنقبين التى انتزعت من أرض مصر والهلال الخصيب سرها الدفين .

وفى الأيام الأخيرة أخذت حُجب الماضى تنجاب عن اليمن بعد أن وصل إلى أيدى خبراء الآثار بعض من مخلفات الأمم التى عاشت على أرض اليمن فى الزمن القديم ، وأخذ الباحثون يعيدون النظر فى تاريخ جنوب البلاد العربية ، وشواطىء الخليج العربى الاسلامى بعد أن كانوا يعتبرون ما قاله المؤرخون العرب عن تلك البلاد نوعا من الخيال الساذج .

أما قلب البلاد العربية فقد كان الرأى العام يجزم بأنه صحراء قاحلة تسكنه قبائل لم تعرف شيئاً عن الحضارة فى عهود ما قبل الاسلام . وما زال هذا الرأى تعتقده الأغلبية إلى زمن قريب . فنادر من المؤرخين من كان يظن أن قلب البلاد العربية كان يسير فى مقدمة ركب الحضارات القديمة .

لذلك فإن البحث عن الماضى البعيد للعراق وسورية ولبنان وفلسطين ومصر لا يُعْوز الباحث أن يجرى وراء الآراء والنصوص ويتتبع البحوث ليجمع الخيوط ويوصل بعضها ببعض حتى يكمل نسيج البحث ، كما يُعوزه الأمر إلى كل ذلك إذا ما بحث فى ماضى قلب الجزيرة .

فالشعوب العراقية والسورية والمصرية جمع شتات تاريخها الحضارى ، وحقق أكثره بحيث إنك تجد تاريخاً للآشوريين ، والكلدانيين ، والفراعنة ، والفينيقيين لا ينقص عن التاريخ الفارسى والرومانى - بينما لا يزال تاريخ الحضارة العربية فى قلب الجزيرة العربية بدائياً يخيم عليه الظلام . ولا يزال تاريخ الثموديين ، والعاديين ، والجرهميين مجهولا لا يعرف عنه الكثير .

فإذا كانت اللمحة الخاطفة على الحضارة العربية فى العراق ، وفى سورية ، وفى مصر تكفى بحثنا ، فإن الأمر على العكس من ذلك فى موضوع الحضارة فى قلب البلاد العربية .

وإذا كان علينا أن نعرف بداية التاريخ فى البلاد العربية . فإن الأمر يستدعى البحث عن الحضارة فى كل لون من ألوانها . وفى كل ركن من أركان الجزيرة العربية . ولقد قال « غوستاف ليبون » من قبل : [ إن من الصعب أن نتعرف فى التاريخ على أمة من الأمم ذات شأن كبير فى التجارة من غير أن تكون متمدينة ][1] .

---

( ١ ) حضارة العرب ص ٩٥ .

ولقد قال « استرابون » الذى عاش قبل الميلاد : [ كل عربى سمسار أو تاجر ][1]

٣ ـ وجدير بنا هنا أن نعرف أن الحدود الجغرافية لا تعنى انفصال كل قطر من أقطار البلاد العربية عن القطر الآخر حضارياً أو ثقافياً كما هو الحال اليوم ، وأن التقسيم الجغرافى القديم كان يعنى طبيعة الأرض ـ فمثلا ( نجد ) هى الأرض المرتفعة ، و ( تهامة ) هى الأرض المنخفضة ، و ( الحجاز ) هو الجبل الفاصل بين تهامة ونجد .

وفى التاريخ القديم نشأت دول ضمت أكثر من قسم من أقطار الجزيرة العربية . فاختلطت حضارة الشعوب التى جمعتها دولة واحدة ، ولذلك نجد الباحثين عن الحضارات العربية القديمة يذكرون آثاراً لعاد وثمود فى عدد من أقطار الجزيرة العربية . وهـذا ما نلاحظه اليوم واضحاً فى الآثار البارزة على وجه الأرض . ففى الحجاز آثار للمصريين ، وفى مصر آثار للحجازيين من القديم .

ثم جاءت جاهلية ما قبل الاسلام بنعرتها القبلية ، والفوضى التى زادها عنفواناً الجدب الذى منيت به غالبية أرض الحجاز ، ونجد ، وتهامة ، وسواحل الخليج العربى الاسلامى ـ فتضاءل النظام السياسى فى الجزيرة ، واستوحش المجتمع ، وأصبحت أغلبية الدول العربية فى قلب الجزيرة االعربية قبائل تفرقت فى البلاد تحتل كل قبيلة منها قسماً من الأرض لا تُقَيِّده حدود سياسية وجغرافية معترف بها . فكل ما فى الأمر هو الأسم الذى يطلق على تلك الأرض . فيقال : أرض بنى فلان أو ديار بنى فلان . وقد تكون ديار بنى فلان تشمل جزءاً من الحجاز وجزءاً من نجد . ولا تزال القبائل العربية داخل الدولة على هذا الوضع إلى يومنا هذا .

والبحث فى هذه الناحية تجده واضحاً فى الجزء الخاص بجغرافية البلاد العربية من هذا الكتاب . أما هنا فالذى تهمنى الإشارة إليه ـ هو : معرفة السبب فى تقسيم البحث فى الحضارات العربية على النحو الذى تراه . فلقد حرصت على أن يكون التقسيم على أساس المعلومات التى توصلت إليها فى بحث الحضارات القديمة . فقبل البحث عن هاتيك الحضارات ومعرفة ما وصلت إليه حضارة كل قسم من أقسام الجزيرة ـ يتعين علينا أن

( ١ ) الاسلام والحضارة العربية ـ كرد على ص ١٢٠ جزء ١ .

نعرف شيئاً عن الأديان فى بلاد العرب . فالأديان هى الخطوة الأولى فى تنظيم المجتمع الانسانى ، وفى تعاون الجماعات على بناء الحياة الحضارية . ومن الأديان ورسلها الهداة عرفنا جانباً مهماً من جوانب التاريخ العربى القديم .



البحث السابع :

# الأديان في جزيرة العرب من قبل التاريخ

موضوعات البحث :

١ ـ العقل هو فضيلة الإنسان .

٢ ـ آدم هو المؤسس الأول للحضارة .

٣ ـ الأديان فى قصص المفسرين .

٤ ـ بعض المستشرقين يشكون فى ابراهيم ، موسى ، وعيسى .

٥ ـ النضج العقلى فى مجتمع نوح وهود عليهما السلام .

٦ ـ البيت الحرام دليل قاطع على قدم الدين فى قلب الجزيرة .

٧ ـ إبراهيم عليه السلام لم يُمدين الشعوب العربية وإنما وجهها إلى النور والعزة .

٨ ـ الإنسان العربى سبق غيره إلى التدين .

٩ ـ التوحيد هو الدين الأول فى الجزيرة العربية .

١٠ ـ شعوب عاد وثمود وجرهم عاشت قبل الإسماعيليين المستعربين واستمر أحفادها إلى عصر الميلاد .

١١ ـ إبراهيم عليه السلام هو أول المجاهدين من الأنبياء والرسل بعد الطوفان .

١٢ ـ إبراهيم عليه السلام أبرز شخصية عرفت قبل الإسلام .

١٣ ـ قصص الأنبياء أنارت جانباً كبيراً من ماضى الجزيرة .

١٤ ـ الوثنية خطأ متأخر أضل المؤمنين برب السماوات والأرض .

١٥ ـ فكرة الثالوث المقدس فى أديان الجزيرة العربية قبل الميلاد .

١٦ ـ الوثنية فى الحجاز .

١٧ ـ صراع الأديان فى جزيرة العرب .



# الأديان في جزيرة العرب من قبل التاريخ

١ ـ لم ينتقل الانسان من طور البدائية ويخرج من احراج الغاب ليسكن أكواخاً تقيه وابل الأمطار ، وعاصف الرياح ، وهجمات الضوارى إلا بفضل الموهبة التى ميزه الله بها عن غيره من سكان هذه الأرض ألا وهى : العقل ـ فالعقل هو الذى سار به من مرحلة إلى أخرى إلى أن اتجه به لمعرفة سر الحياة وسر وجوده فيها . فأخذ يبحث عن القوة التى تتحكم فى كل ما فى وجوده ، القوة التى لا يراها ولكنه يشعر بوجودها فى كل شىء . يشعر بها فى الأرض التى تقله ، ويشعر بها فى السماء التى تظله ، ويشعر بها فى الهواء العليل ، وفى الجبال الشامخة ، وفى البحر الهادر ، وفى الكواكب اللامعة ، وفى الشمس المشرقة ، بل يشعر بها فى نفسه ، فى قوته وأحلامه وآماله ، وفى ضعفه ويأسه وآلامه .

وما هذا الشعور بتلك القوة التى نظمت هذا الكون العظيم إلا نتيجة التفاعل الحضارى الذى تطور بعقله فكان من نتائجه الأولى البحث عن رب هذا الوجود .

وهذه هى إرادة الله التى أهَّلَت الانسان أن يتأمل فى خلق السموات والأرض . وينظر إلى الابل كيف خلقت ؟ ! وإلى الأرض كيف سطحت ؟ ! ويبحث عن سر هذا الكون العظيم بالعقل الذى وهبه الله له .

فلقد وُجد الانسان فى هذه الحياة مجرداً من كل شىء ما عدا عقله الذى أخذ يتدرج به ويوسع له آفاق حياته . ولقد كانت أطوار نمو العقل الانسانى تشبه الأطوار التى تمر بها حياة الانسان من الطفولة إلى الشيخوخة . فكما بدأ الطفل يدْرِك حقيقة الأشياء باللمس فيعرف المؤذى الضار من المفيد النافع . كذلك بدأ الانسان يتعرف بما يحيط بحياته ويميز النافع من الضار بالأدلة المادية . فلما شبَّ عن طوق الأدلة المادية ـ أخذ ينظر إلى الحياة على ضوء أدلتها المعنوية . فتفكير الانسان فى سر الحياة . وفى سر وجوده فيها هو الدليل القطعى على بداية نضج العقل الانسانى .

٢ ـ وأنا لست مع الذين يؤمنون بنظرية ( داروين ) التى تقول بنشوء الانسان وارتقائه من شكل القرد والحياة الحيوانية إلى صورة الإنسان والحياة البشرية ، وإنما أنا مع الذين يقولون : إن الله خلق آدم وبعثه فى هذه الأرض يؤسس الحياة الإنسانية عندما أصبح هذا الوجود صالحاً لإنشاء الحضارة الإنسانية .

فآدم هو الانسان الأول الذى بدأ يسير فى طريق الحضارة ، لا يسفك الدماء ولا يفسد فى الأرض ، كما كان يفعل الذين سبقوه إلى هذا الوجود . وهو الإنسان الذى بدأ بتأسيس المجتمع والدعوة إلى الله . أما ما هو نوع عالم ما قبل آدم ؟ فهذا كان وما زال موضوع خلاف الباحثين . والخلاف فى نوعية عالم ما قبل آدم لا يهم بحثنا هذا ، وإنما معرفة المرحلة الأولى التى بدأ الانسان فيها يثبت إنسانيته ويؤسس حضارته هى التى تهم البحث هنا كما أشرنا من قبل .

٣ ـ والبحث فى أديان الجزيرة العربية يرجع بنا إلى تلك القصص التى حدثنا بها المفسرون وتناقلتها البحوث المستندة إلى ما فى الأسفار ، وإلى ما فى تراث التاريخ الكلدانى واليونانى ، والتى تصور لنا الحضارة الأولى التى أشرقت أضواؤها فى عصر إدريس ، وتخبرنا كيف كانت بداية انتكاس الأديان بإقامة التماثيل ثم عبادتها من دون الله .

فإن دلت هاتيك القصص على شيء فإنما تدل على أن الإنسان فى عهد ما قبل الطوفان بلغ من النضج : أن عرف الله تعالى ، وعرف كيف ينظم المجتمع على ضوء هذه المعرفة ، ومعرفة الله والتشريع للمجتمع الفاضل لم يصل إليهما الإنسان إلا بعد أن مر بمرحلة الانفرادية فى طريقه إلى الحياة الاجتماعية وما تتطلبه من تعارف ، وتعامل ، وخضوع للواجب ، واحترام للحقوق . ولا يتم كل ذلك فى مجتمع ما ، ما لم تربط الأفراد والجماعات فيه مبادىء يقدسها الجميع ويحترمون شعائرها ويخضعون لها .

فهذه القصص التى رواها لنا المفسرون ، وجاءت فى مصادر الإسرائيليين ، كانت جميعها ، وما زال بعضها فى بحوث المستشرقين ومن سار خلفهم ، حكايات خرافية على الرغم مما اظهره التنقيب فى طرفى الهلال الخصيب : العراق وفلسطين ، من آثار أثبتت أن عصور العراق قبل الطوفان كانت عصوراً ذهبية .

٤ ـ وقصص أنبياء ما قبل الطوفان ليست هى كما يقوله عنها المستشرقون ، وليس

من اصالة البحث إن نحن نظرنا إلى تاريخ الماضى البعيد من النافذة التى نظر منها المستشرقون وحدها . فنحن إن أخذنا بمنطق المستشرقين وظنونهم وآرائهم نمحو الكثير من تاريخ الشرق الأدنى ، فبعض المستشرقين لم ينكروا أنبياء ما قبل الطوفان فحسب ، بل من ذلك البعض من أنكر إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ،[١] .فالمستشرقون فى الفصول التى عقدوها للتاريخ العربى القديم لم يخرجوا من صوامع شكوكهم فيما ينسب للتوراة وللانجيل . وفيما جاء فى القصص القرآنى وتحدث به المؤرخون القدامى إلا بعد أن ظهرت آثار الماضين من أمم البلاد العربية ، مصدقة لما بين أيدينا من أسانيد المؤرخين القدامى الذين تحدثوا عن عصر إدريس ونوح وعالم ذلك الماضى البعيد .

٥ ـ وما جاء فى تلك الأسانيد يؤكد لنا : أن مجتمع نوح وصل به التفاعل الحضارى إلى مستوى عال بالنسبة لحياة الإنسان البدائى . وإننا لندرك المدى الذى بلغه مجتمع نوح من الجدل الذى دار بين نوح والذين كفروا برسالته : [ فقال الملأُ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بَشرًا مثْلنا وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا بَادِىَ الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتمْ إن كُنْتُ على بَيِّنةٍ من رَبِّى وآتانى رَحْمَةً من عنده فعُمِّيتْ عليكم أنُلْزِمُكُمُوها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجْرِى إلاَّ على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم مُلاقو رَبِهِّم ولكنى أراكم قوماً تجْهَلون ][٢] .

فهذه الرسالة بهذه الأدلة المنطقية لا توجه إلى مجتمع بدائى لا يزال فى طور الأدلة المادية . وهذه الرسالة تدل على أن النكسة لم تنحدر بقوم نوح إلى المستوى الذى انحدر إليه قوم موسى فى وادى النيل الذين لم يؤمنوا إلا بالدليل المادى الذى تمثل فى الحية التى لقفت ما صنع السحرة أمام فرعون وملئه .

وكذلك نحن نجد فى رسالة ( هود ) إلى قومه ( عاد ) دليلا قويّاً يؤكد ، أن قوم هود لهم تاريخ دينى قديم ، وأن الأنتكاس الذى منيت به عقلية ( عاد ) قوم هود لم يتدحرج

---

( ١ ) عبقرية المسيح للعقاد ص ٨٠ .

( ٢ ) سورة هود آية ٢٧ وما بعدها .

بهم إلى مادية قوم موسى . ففى سورة الأعراف ، وهود والشعراء ، وفصلت ، والأحقاف ، والذاريات ، والقمر ، والحاقة ، والفجر : آيات بينات تدل على أن قوم عاد بلغ بهم التطور إلى حد هذا الجدل المنطقى : [ أوعَجِبتُم أن جاءكم ذِكْرُ من رَبكم على رجل منكم ليُنْذركمْ واذْكروا إذ جعلكم خُلَفاءَ من بعد قوم نوح وزادكم فى الخَلْقِ بَسْطَةً فاذْكُروا آلاءَ الله لعلكم تُفْلحُون ][1] ،[ وما أسألُكُمْ عليْه مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرى إلا على رب العالمين . أتبْنون بكُلِّ ريع آية تَعْبَثُون . وتَتَّخِذُونَ مَصَانِع لعلَّكم تَخْلُدُون . واذا بطشتمْ بطشتُم جبَّارين . فاتقوا الله وأطيعونِ . واتَّقوا الذى أمَدكمْ بما تعْلَمُون . أمدكم بأنْعامٍ وبَنِين . وجنات وعيون . . إنى أخَافُ عليكم عذابَ يوم عَظيم . قالوا سواء علينا أوَعَظْت أمْ لَمْ تَكن من الواعظين إنْ هذا إلا خُلُقُ الأولين . وما نحن بمُعَذَّبين . . فكذَّبوه فأهْلَكْنَاهم إنَّ فى ذلك لآيةً وما كان اكثَرُهُمْ مؤمنين . وإن ربَّك لَهُوَ الْعَزِيز الرَّحيمُ ][2] .

٦ ـ وقصة إبراهيم وإسماعيل ورفع قواعد البيت الحرام فى القرآن الكريم أكثر وضوحاً من قصة إدريس ونوح ، وقصة إبراهيم فى كتب التفسير وإن كان فيها شىء من الغموض لم يحاول المفسرون إزاحته عن بحوثهم ، فهى على كل تدلنا على قدم التاريخ الدينى فى قلب الجزيرة العربية وتمركزه فى الحجاز ، وتؤكد ما ذهبنا إليه فى موضوع قوم هود وقوم صالح وانتشارهم فى الوديان التى تحيط بمكة حيث البيت الذى عبد الله عنده آدم وخلفاؤه المصلحون . وإن مساكن قوم عاد الأولى كانت قريبة من مساكن قوم ثمود بوادى القرى ، حيث تجد ذلك مفصلا فى البحوث التى وضعت لقوم عاد وقوم ثمود ، فى الجزأين : شعوب الجزيرة العربية ، والدول العربية وسياستها ، من هذا الكتاب .

٧ ـ فلقد جاء فى قصة إبراهيم : أن مكان البيت أكمة حمراء.وقال بعض المفسرين : إن

---

( ١ ) سورة الاعراف آية ٦٩ .

( ٢ ) سورة الشعراء آية ١٢٧ وما بعدها .

العرب كانوا يقصدون تلك الأكمة ويتبركون بها ويدعون الله عندها ـ ولقد سبق البحث فى فصل ( قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته ) فأشرنا إلى ما قيل عن مكة وعن البيت الحرام ، وإلى ما قيل عن قدم الانسان فى ذلك الوادى المبارك .

ومن قصة إبراهيم فى فلسطين نعرف : أن إبراهيم وجد فى فلسطين مجتمعاً منظماً له عقائده وله شرائعه ، ووجد دولا يترأسها زعماء وملوك ، كما وجد فى الحجاز تجاوباً مع ملته فلم يعارضه العماليق ، والجرهميون ، والارميون وغيرهم الذين كانوا أهل الحجاز ، والذين كان منهم سكان مكة ، وسكان المدينة ، وسكان الطائف ، وسكان الحجر ووادى القرى جميعه .

ومن قصة إبراهيم فى مصر وما قيل عن فرعونها العمليقى[٢] نعرف : أن إبراهيم وجد فى مصر حول فرعونها علماء على جانب من المعرفة ، ناظرهم إبراهيم وناظروه فكسب إبراهيم احترام فرعون ورفده ، واحترام فرعون لابراهيم يدل على أن رسالة إبراهيم وجدت طريقها إلى ضمير فرعون . وعلى أن المجتمع المصرى الذى كان مهيأ لقبول دعوة إبراهيم ، لم ينحدر الى المادية التى وصل إليها الفراعنة فى زمن موسى .

٨ ـ ومن قصص الأنبياء : نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وهود ، وشعيب ، وصالح عليهم السلام ، نعرف أن الإنسان العربى سبق غيره إلى الأديان . فـ ( البوذية ) الهندوكية لم تظهر إلا بعد أن استوطن الآريون الأقاليم الغربية فى بلاد الهند حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م . والبوذية بمذاهبها التى شاعت فى الصين ، وفى اليابان ، وفى التبت ، ونيبال ، وجاوة ، وسومطرة ، وبورما ، وسيلان ، لم تنتشر فى هذه الأقطار إلا فى غضون الألف عام قبل الميلاد ، وفى غضون الألف عام قبل الميلاد قطعت الأديان فى البلاد العربية دهورا طويلة .

فجهاد الأنبياء فى الشرق العربى جهاد قديم ، جهاد استمر من قبل الطوفان ومن بعد الطوفان ، ولقد بدأ بعد الطوفان بملة إبراهيم الحنيف فى بداية الألف الثانية قبل الميلاد . ففى كل صقع من أصقاع البلاد العربية بعث الله الأنبياء والرسل يوقظون الوعى ويرفعون المشاعل كلما تبدلت حال الأمم من جهاد وبناء وعمل نافع الى ميوعة وترف وترد

( ١ ) محمد صلى الله عليه وسلم لحسين هيكل ص ٨٥ .

فى الملذات . إلى أن بعث خاتم الأنبياء فترك للعالم جميعه القرآن الكريم والسنة المحمدية يكفلان الهدى الى الطريق المستقيم .

٩ ـ ولقد وصل بحث ( ويليم شميد )[١] وغيره من العلماء الغربيين الذين درسوا تاريخ الأديان فى جزيرة العرب الى أن العرب جميعهم كانوا فى الأصل موحدين ثم حادوا عن التوحيد . وعلى ذلك قامت النظرية التى أطلقوا عليها : التوحيد القديم .

وهذا الذى قاله العلماء الغربيون : يشبه ما قاله المؤرخون الإسلاميون عندما تكلموا عن الكلدانيين والسريانيين .

إن المؤرخين الإسلاميين الذين يقولون : إن الجاهلية الأولى هى جاهلية قوم نوح ، يؤكدون : أن الجاهلية الثانية هى الجاهلية التى استمرت المعركة بينها وبين الأنبياء والرسل : إبراهيم ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، ويوسف ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، والمسيح صلوات الله عليهم ـ إلى أن أشرقت شمس الإسلام فلم تجد الجاهلية بعد محمد صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية ركناً مظلماً تكمن فيه .

١٠ ـ وإن المؤرخين الاسلاميين الذين يقولون : إن العرب البائدة هم الذين سبقوا بنى إسماعيل ، وإن العرب البائدة هم الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح ، عاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وإن عاداً وثمود ومن كان فى عصرهم من دول وشعوب ، ، بادوا قبل هجرة إسماعيل ، يخالفون غيرهم الذين يقولون : إن إبراهيم رفع القواعد من البيت قبل أن يستغيث وفد عاد عند البيت وقبل أن ينزل بقوم عاد العذاب .

ونحن قبل أن نبدى ما ظهر لنا من هذا الخلاف نلفت النظر إلى أن الإبادة ليس معناها الفناء الكامل فى أيام معدودات ، وإلى أن فى موضوع الإبادة بحثاً سيأتى فى هذا الكتاب[٢] فلقد عاش الذين آمنوا من قوم هود ، والذين آمنوا من قوم صالح دهوراً طويلة مع ابناء عمومتهم العماليق ، والجرهميين وغيرهم من شعوب الطور العربى الأول إلى ما بعد الميلاد .

---

( ١ ) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد على ٥ / ٧٦ .

( ٢ ) راجع الجزء الخاص بالشعوب العربية من هذا الكتاب .

إن قوم عاد وثمود فى وادى القرى شمالى الحجاز ، وفى اليمن ، والعماليق فى مكة ، وفى شمال الحجاز ، وفى فلسطين وسورية ، وجرهم فى مكة ، وفى وادى القرى وشمالى اليمن - كل هذه الأمم أطلق عليها المؤرخون اسم : العرب العاربة . وكل هذه الأمم لم تنته حياتها السياسية ولم يتحطم كيانها القبلى فى فجر العصر الإسماعيلى . وكل هذه الأمم عاشت طويلا بعد إسماعيل ، بل هى عاشت إلى ما بعد الميلاد .

فعلى ذلك لا نرى ثمة ما يوجب الخلاف - فقوم عاد الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح والذين زادهم الله فى الخلق بسطة ومنحهم النعم التى ذكرها القرآن ، لهم تاريخ طويل فى وادى القرى ، بل فى كل أنحاء الجزيرة العربية كما سيأتى البحث فى ذلك عندما نبحث فى دول البلاد العربية ، وبعثة هود كانت فى نهاية عاد الأولى حيث انتقل هود ومن آمن به إلى الجنوب فورث الثموديون الأرض بعد قوم عاد .

فمن الممكن - مع هذا الاعتبار - الجمع بين القولين : بأن قوم هود ( عاد ) هم الشعب الذى ساد بعد قوم نوح . وأن هوداً بعث إليهم بعد أن هاجر إسماعيل إلى مكة . وعلى ذلك يكون العالم العربى فى داخل الجزيرة لبث يؤمن بالوحدانية التى دعا اليها نوح ونادى بها إبراهيم إلى ما بعد الألف الثانية قبل الميلاد ، حيث بدأ الظلام يخيم من جديد وبدأت مشاعل الأنبياء ترفع فى أنحاء الجزيرة .

١١ - وعلى ذلك فان إبراهيم هو أول الأنبياء بعد نوح ، وهو الذى بدأ جهاد الأنبياء بتحطيم أصنام آزر وقوم آزر ، وإن إبراهيم كما يقول فريد وجدى : ( يعتبر هذا الرسول الكريم فى تاريخ الأديان العامة من كبار أولى العزم . فيعتبره اليهود كرأس شعبهم المختار ، ويعتبره النصارى على قدر العلاقة الموجودة بين المسيحية وبين تاريخ العبرانيين ، ويعتبره المسلمون جدا للعرب الذين منهم خاتم النبيين - وقد نص الكتاب الكريم على أنه أول من سماهم المسلمين )[١] .

---

( ١ ) دائرة معارف وجدى ، مادة ابراهيم . والأدلة التى استندنا إليها فى ترجيح تقدم عهد ابراهيم على عهد هود وصالح هى :

١٢ ـ حقّاً : إن إبراهيم من كبار أولى العزم وأفذاذ الهداة المصلحين ، وإن قصة إبراهيم ، وجهاد إبراهيم ، ودعوة ابراهيم ، كل ذلك كان موضوع نقاش ومصدر عبر فى الماضى والحاضر ، ولقد كنت أوثر أن أجد النقد الموجه لقصص الأنبياء التى جمعها الأستاذ عبد الوهاب النجار لا يحتكره موضوع ( سارة ) زوج إبراهيم ، وهل يعتبر قول إبراهيم فى مصر : إن سارة اخته ، كذباً ؟ وكيف طابت نفس إبراهيم بذلك الزعم الذى يزج بسارة زوجه فى مأزق حرج ؟

فنقاش العلماء الأزهريين ، وإن كان مفيداً إلى حد بعيد ، فهو لم يخرج بالتحقيق والنقد إلى البحث عما كان يستهدفه إبراهيم فيربط الحوادث بعضها ببعض ، ويصل بالقارىء الى الغاية التى من أجلها أخذ إبراهيم يتنقل من العراق إلى فلسطين ومنها إلى مصر وإلى الحجاز .

ما كان إبراهيم جباناً عندما حطم الأصنام فى ( أور ) ! وما كان إبراهيم رعديداً عندما جادل قومه وطاغيتهم فى الأصنام التى يعبدونها ، وعندما إعلن أنه هو الذى حطمها !! حتى يخاف من بطش فرعون وزبانيته فيتعمد الكذب الرخيص ، ويعرض شريكة حياته الى ما يندى له الجبين .

---

( أ ) أن ما جاء فى قصة عاد عن وفد السقيا يدل على أن البيت كان معروفا .

( ب ) فلو كان مكان البيت معروفا فى فترة ما بعد الطوفان ، ، لما استغربت القبائل التى كانت حول الحرم ، والقوافل التى كانت تمر من حوله ، حينما رأت الطير لزم التحليق فى سماء الحرم فقالت : ما لزم الطير التحليق الا أن فى الوادى ماء ، فمعنى ذلك أنها كانت تجهل الوادى وهل فيه ماء أم لا ؟

( ج ) ولو كان مكان البيت معروفا بعد الطوفان لاستدل عليه إبراهيم من العرب الذين مر بهم فى طريقه الى الأكمة الحمراء فى الوادى الحرام ، أو استدل عليه من العرب الذين كانوا فى ظاهر مكة .

( د ) أن الذى أذن بالحج فلبى الناس الآذان هو ابراهيم ( وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ) وفى الحديث النبوى عن وادى عسفان : أن هودا وصالحا كانا يمران به يلبيان ويحجان البيت العتيق .

( هـ ) أما ترتيب ذكر نوح وهود وصالح وابراهيم فى القرآن الكريم فليس المقصود من الترتيب هو ترتيب عهودهم ، فلقد جاء ذكر قوم ثمود بعد قوم نوح فى سورة ( المؤمنون ) .

( و ) أما ما جاء فى بحوث الأنساب عن جدود إبراهيم وجدود هود وأن جدود إبراهيم أكثر عددا من جدود هود فلا يصلح أن يتخذ دليلا فمن بعد « عدنان » كذب النسابون .

هذا ونلفت نظر القارىء الى أننا لا نجادل فى قدم عصر قوم عاد وانما البحث فى عصر إبراهيم وهود . والى أن لهذا الموضوع بحثا فى الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها من هذا الكتاب .

لا شك فى أن ابراهيم يحمل رسالة عظيمة أعده الله للأضطلاع بأعبائها ومواجهة أخطارها . ولا شك فى أن حكمة الله التى اختارت خاتم الرسل من صميم قريش زعماء الوثنية فى قلب الجزيرة ، وأن حكمة الله التى أدخلت يوسف وموسى فى حياة فراعنة مصر - هى حكمة الله التى اختارت إبراهيم بن تارح صانع الأصنام أو سادنها : نبياً يدعو لتحطيم الأصنام ، وأوجدت المناسبة التى كفلت لإبراهيم الوصول الى فرعون مكلوءاً بالآية التى أيقظت ضمير فرعون فى خلوته مع سارة[1] . وهيأت لإبراهيم الأسباب ليناظر حكماء فرعون ويصل الى الغرض الكبير الذى من أجله هبط مصر ، فيعترف حكماء مصر بعبقرية إبراهيم ، ويقدر سيدهم المبادىء التى يحملها إبراهيم ، فيعود إبراهيم من مصر موفور الكرامة محملا بكل ما ينشده ، وبكل ما يساعده على توطيد الصلات بين الشعوب التى بعث إليها .

والذى يلفت النظر فيما قيل عن إبراهيم الصور المختلفة لسيرة إبراهيم . فالأقوال التى تنوقلت عن هجرة إبراهيم تصوره لنا إنساناً عادياً يسير مع أسرة متوسطة الحال أخذت طريقها مع قوافل الآموريين المهاجرين إلى بلاد كنعان . والأقوال التى تحدثت عن إبراهيم فى فلسطين تصوره لنا زعيما تحتفى به الجماهير ، يملك المدن وينشىء المذابح ، وقائداً يجر الجيوش يتعقب ( كدر لا عومر ) الذى انتصر على حلف فلسطين وأوشك أن يحطمه ، ويعقد الاتفاق السياسى مع ( مليكصادق )[2] .

والأقوال التى نبأتنا عن إبراهيم وتركه زوجه ( هاجر ) وابنه ( إسماعيل ) فى وادى مكة ، تصور لنا إبراهيم شيخاً يسير فى الفيافى والقفار ومن ورائه زوجه هاجر محتضنة وحيدها الرضيع صامتة لا تحاول معرفة ما يبحث عنه إبراهيم عندما تراه يتلفت ذات اليمين وذات الشمال كأنما هو يبحث عن ضالة لم يهتد إليها إلا فى ذلك الوادى الذى تسوره الجبال ، وبجانب تلك الربوة الحمراء المباركة التى لا ماء حولها ولا ناس ، فيترك زوجه وابنه ثم ينقلب راجعا وهو مطمئن القلب بأن هذا الوادى سوف يكتظ بأفئدة من الناس وسوف تمتلىء أسواقه من كل الثمرات ، وبأنه سوف يعود ليتم رسالة ربه ويبنى

( ١ ) راجع الفصل الخاص بجغرافية مصر يوسف العربية فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ففيه جمعت الأدلة والنصوص التى تثبت اجتماع إبراهيم بفرعون مصر .
( ٢ ) راجع الجزء الخاص بالدول العربية وسياسة دولها .

البيت الحرام .

ويعتبر ( شبرنجر ) : أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم مرت بأطوار[١] .

أجل !! أليست هذه المعاني التى تعبر عنها تلك الصور التى مرت بنا تلوح لنا بتاريخ طويل حافل بالجهاد والتضحية والسير وراء الاهداف السامية مهما كانت التضحية ، وبحياة حافلة بالعمل على جمع الكلمة وإنارة الطريق للجميع مهما كانت العقبات والمتاعب ؟

أليست تشير إلى ذلك التطور الكبير الذى شمل البلاد العربية فى الألف الثانية قبل الميلاد ؟ ... أو لم نر المؤرخين فيما تقدم يكادون يجمعون على أن هجرة إبراهيم كانت فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد[٢] ؟ .. ولقد أوشك المؤرخون أن يجمعوا أيضا على أن ذلك العصر كان عصر قوة ونشاط بالنسبة لشعوب الجزيرة العربية ودولها . وأوشكوا أن يجمعوا على أن التاريخ الحقيقى لقلب البلاد العربية أخذ يظهر فى صورة واضحة وإن لم تكن كاملة من ذلك التاريخ حيث بدأت الأمم العربية تتجمع حول البيت الحرام وتعقد مؤتمراتها فى حج كل عام .

أجل ! إن إبراهيم ـ أبا الأنبياء ـ هو المؤسس الأول للعقيدة الحقة والمبادىء السامية التى قاربت بين أهداف العرب فتفاهمت القلوب وتوحدت الآمال وسارت الأكثرية فى طريق العزَّة والمجد .

وإن شريعة إبراهيم أبى الأنبياء وتعاليمه ، احترمها الأنبياء بعده والرسل ودعوا لها وحاربوا كل ما يشذ عنها فى حياة الأجيال التى بعثوا لها . فالأديان الكبرى التى شاء الله لها الانتشار والبقاء طويلا هى : يهودية موسى وخلفائه من بنى إسرائيل ومسيحية عيسى بن مريم والأسباط من بعده ـ فلقد جاءت اليهودية والنصرانية تؤيدان ملة إبراهيم ، وتحترمان البيت الذى أقام إبراهيم قواعده إلى أن ظهر الاسلام ، فلم يرض المسلمون أن تدنس المسجد الحرام أصنام الوثنيين الذين يجعلون لله أنداداً كما رضى من قبلهم اليهود والنصارى .

( ١ ) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٢ / ٢٧ .

( ٢ ) سبق أن تعرضنا لتاريخ هجرة إبراهيم التى أكد تاريخها المطران الدبس فى تاريخ سورية بقوله : وعلى كل الأقوال بلغ إبراهيم بلاد كنعان حول سنة ٢٠٠٠ ق . م جزء ١ / ٤ .

بيد أن ذلك النضج العقلى الذى ارتفع بالبلاد العربية الى مستوى جد عال بالنسبة لعالم القرن العشرين قبل الميلاد . والذى قال عنه جرجى زيدان : ( فهى نهضة عربية منذ نيف وأربعة آلاف سنة تشبه نهضة العرب فى صدر الاسلام . وللأمم أدوار تشب فيها وتغلب )[1] ـ لم يكن بكاف لأن تتحمل الشعوب العربية مسؤولية تاريخها . وتقدم للعالم ثروة حضارية خالدة . كما تحملت مسؤولية التاريخ فيما بعد وقدمت للعالم حضارة ما زال العالم أجمع ينظر اليها بعين الاعجاب والتقدير . فلئن بعث إبراهيم الوعى الروحى فى أرجاء البلاد العربية ردحاً من الزمن . ولئن أقام إبراهيم كعبة الاسلام لتجتمع حولها القلوب المسلمة وتتعارف وتتفاهم . فإن الوثنية لم تلبث بعد ابراهيم أن عادت أكثر مما كانت عليه فوضى وخرافة . وأقوى مما كانت عليه نفوذاً وسلطاناً .

ولم تكن دعوة الأنبياء والمصلحين بعد إبراهيم إلا انتفاضات للوعى الخلقى يهدى الله بها من يشاء من عباده ثم لا تلبث أن تتصرف بها الأهواء وتحرفها الضلالة وتبدل الكلم النافع والتشريع الصالح إلى أن أنبلج نور محمد « صلى الله عليه وسلم » فأنزل الله الذكر وحفظه من التحريف والتبديل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2] .

١٣ ـ أجل ! إن قصص الأنبياء أنارت جانبا كبيراً من ماضى الجزيرة قبل الطوفان وبعده . فعندما يتحدث المؤرخون عن الأنبياء قبل الطوفان . لا يألون جهداً فى جمع ما قيل عن آدم وكيف أسس الحياة الانسانية . وما قيل عن ابنيه هابيل وقابيل . وكيف أسس بنو قابيل وبنو شيث الأسرة الاجتماعية فى جبال الجزيرة وسهولها . وما قيل عن إدريس الذى تقول عنه الأكثرية : إنه من أنبياء ما قبل الطوفان . وكيف أسس الحضارة فى الشرق الأدنى . وما قيل عن نوح وكيف وجد قومه قد ضلوا سواء السبيل فى عبادة الله وإقامة تعاليمه .

وهذه هى مراحل التطور التى قطعها الانسان فى زمنه الطويل قبل الطوفان : ومجال هذا التطور فى حديث المؤرخين لم ينتقل من شمالى الجزيرة العربية إلى قلبها وجنوبيها

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام ص ٧٠ .

( ٢ ) سورة الحجر آية ٦ .

إلا بعد الطوفان . وعذر المؤرخين فى قصر الحديث على هذه الشخصيات وعنها ، وجعله فى هذا النطاق الضيق ، يبرره أن ما جاء فى القرآن الكريم عن العالم القديم ، وما نسب الى الأسفار لم ينوه بغير هذه الشخصيات ، ولم يفسح لها مجالا أكبر من هذا النطاق . وأكثر من هذا : أن التوراة لم تذكر هودا ولا قومه ، ولم تذكر صالحاً ولا قومه ، وهم من عالم ما بعد الطوفان .

والذى يتدبر القرآن الكريم يجده لا يذكر من أسماء الماضين غير الأسماء المعروفة ، ولا يتحدث عن عبر الماضى بغير الأحداث التى ما زال صداها تردده الأجيال ، لأن الغرض الأول من ذكر احداث الماضى هو الموعظة والعبرة . فالقرآن تحدث عن آدم وهابيل وقابيل ، وإدريس ، ونوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ويوسف ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ولقمان ، وغير هؤلاء من الأنبياء والرسل والحكماء الذين كانت فى حياة كل واحد منهم موعظة تناقلت الأجيال شيئاً من أخبارها .

ولما كان القرآن الكريم لم ينزل لأمة دون أخرى نراه يشير إلى بعض الأحداث غير العربية . ولما كانت أحداث الجزيرة العربية ، أرض الأنبياء والرسل ، منها ما هو مجهول عند غير العرب كأحداث عاد وثمود ، ومنها ما هو مختلف عليه مثل أصحاب الأخدود ، ومنها ما اشتبه فيه مثل ما قيل عن داود وسليمان إلى غير ذلك ، نجد القصص القرآنى يتحدث بشىء من التفصيل عن قوم عاد وقوتهم وحضارتهم ، وعن قوم صالح ونحتهم من الجبال بيوتاً ، وعن قصة داود وسليمان ، وعن حادثة الأخدود والنار ذات الوقود .

أما التوراة والمصادر الإسرائيلية ، وأما مؤرخو الكلدان والمصادر اليونانية ، فهذه جميعها قد عنيت بالأحداث المتصلة بالهلال الخصيب التى خاض غمارها أنبياء بنى اسرائيل وملوك بابل وآشور . وأباطرة مقدو نية . فلذلك لم يأت ذكر فى التوراة عن قوم عاد ونبيهم هود ، وعن قوم ثمود ونبيهم صالح . وأكثر من هذا أن المصادر اليونانية المعاصرة للمسيح لم تذكر المسيح كما كان ينتظر منها . فما هو موقف التحقيق الذى لا يأخذ الا بما جاء بأقوال المستشرقين ؟

فهل معنى ذلك : أن هوداً وقومه ، وصالحا وشعبه ، والمسيح بن مريم لم يكن لهم وجود

فى هذه الحياة ، لأن المصادر اليونانية لم تذكرهم ولأن بعض المستشرقين شك فى وجودهم[1] ؟ إن النصوص التى لا شك فيها تؤكد : أن هودا وصالحاً وعيسى أنبياء لا ريب فى حقيقتهم ، وهل معنى ذلك : أن العرب فى قلب الجزيرة العربية من عهد آدم الى عصر إبراهيم أهملوا دون تشريع ينظم حياتهم تقوم على أساسه الأسرة ويبنى عليه التعامل والتعاون ، ويربط بين الزوج وزوجه وبين الفرد ومجتمعه ! ؟ لعل ( ديتلف نيلسن ) هو من القلائل الذين يؤكدون : ( أن الدين العربى القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلى الآشورى المعقد )[2] .

حقاً إن فى المصادر العربية والاسرائيلية أنباء غامضة ولكنها على غموضها تلوح منها أدلة تثبت : أن مشاعل المبادىء قد أضاءت قلب الجزيرة من اقدم عصوره . ولقد سبقت فى بحث ( قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته ) الأدلة التى رأينا فيها ما يوضح جزءاً من تلك الأنباء الغامضة .

وإن ما فى بعض هذه الأنباء الغامضة ، ومافى قصص الأنبياء من مواعظ وعبر ، قد اضاء لنا ولا شك جانباً كبيراً من تاريخ العرب القديم ، وإن هذا الجانب الواضح فى قصص الأنبياء أكدت قسماً كبيراً منه تحقيقات الأثريين فى الجنوب وفى الشمال .

١٤ ـ فنحن إذا ما رجعنا إلى تلك الانباء الغامضة التى نجدها فى المصادر الاسرائيلية ، وفى المصادر العربية مبعثرة حسبما تقتضى المناسبة التى تدعو الى ذكرها ، والتى تحدثنا عن عصر إدريس الذى أنجب من المصلحين أفذاذاً بلغ احترام الجماهير لهم النهاية المفروضة لكل احترام يغالى فيه بالأسلوب الذى يتسلط على عقلية العامة ، نجد تلك الأنباء تؤكد لنا : أن الدين الأول هو التوحيد ، وأن الوثنية على قدمها ظهرت متأخرة ، وأنها ـ كما تجمع المصادر اليهودية والمصادر العربية ـ نتيجة احترام تماثيل العظماء المصلحين الذين برزوا فى عصور ما قبل الطوفان .

---

( ١ ) عبقرية المسيح للعقاد ص ٨٠ و ٨١ ، فى الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربى تحقيق فى هذا الموضوع ، وانما ضرورة البحث هى التى جعلتنا نسبق ذلك التحقيق بهذه الإشارة .

ونحن إذا ما رجعنا الى قصة نوح نجد فى الجدل الذى دار بين نوح والذين كفروا من قومه ما يوضح لنا عقلية ذلك الجيل ، وأنّه كان لا يجهل الإله الأعظم الذى عنده خزائن لا تنفد والذى من خلقه الملائكة المقربون : [ ولَقَدْ أرسلنا نُوحاً الى قومه إنِّى لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ . أن لا تعبدوا الا الله إنِّى أخاف عليكم عَذَابَ يَوْمٍ أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بَشَراً مِثْلَنا وما نراك اتَّبعك الا الذين هم أراذِلُنا بَادِىَ الرأى وما نرى لكم علينا من فَضْلٍ بل نظنكم كاذبين ] ، [ ولا أقول لكم عِنْدى خزائن الله ولا اعلم الغَيْبَ ولا اقول إنى مَلَك ولا أقول للذين تَزدَرى أعينكم لَنْ يوتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنْفُسهم إنِّى إذاً لَمِنَ الظَّالمين ][1] .

ونحن بعد هذا الذى نجده لا يخامرنا شك فى أن النتيجة التى وصل إليها ( ويليم شميد ) فى العصور المتأخرة والتى وضحها ( ديتلف نيلسن ) عندما قال : [ أما تعدد الآلهة الذى طرأ فيما بعد فهو خروج على الدين الأصلى التوحيدى القديم ][2] ، قد سبقه إليها المفسرون ورواة أخبار الماضى القديم الذين قالوا : إن قوم نوح جيل سبقته أجيال عبدت الله وحده وأجيال جاءت بعدها ضلت الطريق إلى الله تعالى كما ضَلَّت الأجيال بعد نوح ، بعد أن تطاول العهد ونسى الناس دعوة نوح .

ولقد جاء فى بحث ( جواد على ) فى الأديان السامية القديمة : [ ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من اشكال التوحيد عند القبائل السامية البدائية ][3] . وجاء فى بحث ( ديتلف نيلسن ) وتحقيقه فى الديانة العربية القديمة : [ وتتفق الآلهة الشمالية مع الآلهة الجنوبية فى وجود إله مسيطر ][4] .

إذن فالوثنية على قدمها لم تكن البداية فى تاريخ الأديان فى جزيرة العرب ، والوثنية

---

( ١ ) سورة هود آية ٢٥ وما بعدها وآية ٣١ .

( ٢ ) التاريخ العربى القديم ص ١٧٦ .

( ٣ ) تاريخ العرب لجواد ٥ / ٢٨ .

( ٤ ) التاريخ العربى القديم ص ١٧٦ وما بعدها و ١٨٦ .

فى جزيرة العرب هى انحراف تمثله تلك الأصنام التى اتخذها الوثنيون وسطاء بينهم وبين الله الذى ملأ الوجود كله ، والذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى يسمع ويجيب دعوة الداعى إذا دعاه دون وسيط .

وكذلك وثنية ما بعد الطوفان لا تنفى وجود الله . وإنما هى تجعل له أنداداً شركاء .. ولم تكن عقلية الوثنيين بعد الطوفان أوسع أفقا من عقلية الوثنيين قبل الطوفان . فمثلما جادل نوحاً قومه جادل هوداً قومه : [ قالوا أجِئتنا لنعبد الله وحده ونذرَ ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تَعدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادقين ][1] .

ولقد جاء فى تفسير الطبرى : أن ( وَدّاً ) و ( سواعاً ) و ( يغوث ) و ( يعوق ) و ( نسراً ) آلهة كان يعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك فكان ود لكلب بدومة الجندل ، وكان سواع لهذيل برُهاط ، وكان يغوث لبنى غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببَلخع ، وكان نسر لذى كلاع من حمير[2] .

ولقد كانت نزار تقول إذا ما أهلت : ( لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك ) .

ولقد تعثرت الصابئة بفكرة تأليه النجوم وتفرقت بهم هذه العقيدة الى ملل يشير إليها القرآن الكريم[3] فيما قصه عن إبراهيم :

[ فلما جَنَّ عليه اللَّيل رأى كَوكبا قال هذا رَبّى فلما أَفَلَ قال لا أحبُّ الآفلين . فَلَمَّا رَأى القمر بازغاً قال هذا رَبّى فلما أَفَلَ قال لئن لم يهدنى ربِّى لأكونَنَّ من القـوم الضَّالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا رَبّى هذا أَكْبَرُ فلما افلت قال يا قوم إنى برىء مما تُشرِكُون . إنى وجهت وجهى للذى فَطَرَ السَّمـوات والأرض حنيفـا ومـا أنـا من المشركين ][4] .

---

( ١ ) سورة الاعراف آية ٧٠ .

( ٢ ) تفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ ، وسيرة ابن هشام ص ٧٨ جزء ١ .

( ٣ ) فى بحث القصص القرآنى رد على نقد المستشرقين موضوع تكرر الآيات والقصص فراجعه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

( ٤ ) سورة الأنعام آية ٧٦ وما بعدها .

وينقل الأستاذ البتنونى عن ( رولنسون )[1] : أنه كان يوجد فى بابل هيكل يسمونه برج نمرود ، وكان مبنياً من سبع طبقات ارتفاعها اثنان وخمسون ياردة ، كل طبقة ذات لون خاص يرمز الى كوكب من الكواكب السبعة .

ولم تكن عبادة الكواكب محصورة فى ( بابل ) و ( أور )[2] بل هى قد انتشرت مع الوثنية فى جميع البلاد العربية ـ فالكواكب الإلهية فى مصر لها الصدارة بين الآلهة المصرية فالشمس كانت تسمى الالهة ( آمون ـ أو ـ أزوريس ) والقمر الإله ( إيزيس ) كما كان لها شأن فى سورية وفى اليمن .

ويعتقد الكثير : أن عبادة الكواكب انتقلت من بابل الى مصر عن طريق سورية التى أقامت للإلهة الشمس التى أسمتها ( بعل ) هيكلا أسمته ( بك ) . ولا تزال مدينة بعلبك اللبنانية تعرف بهذا الاسم إلى اليوم .

١٥ ـ وعبادة الكواكب وإقامة التماثيل لها ، قديمة فى الجنوب فالشمس والقمر والزهراء من آلهة الشعوب اليمنية ، وعندما تحدث ( ديتلف نيلسن ) عن عبادة الكواكب فى جنوب الجزيرة ذكر الثالوث الكوكبى : الأب ويمثله القمر والأم وتمثلها الشمس والابن وتمثله الزهراء .

وكأنما ديتلف نيلسن عندما قال : [ أما تعدد الآلهة الذى طرأ فيما بعد ، فهو خروج عن الدين الأصلى التوحيدى فى القديم ] كان يعنى وجهة نظر المؤرخين الإسلاميين ولكنه على كل حال لم يخرج عما قاله ( ويليم شميد ) : إن العرب كانوا فى الأصل موحدين .

ولئن استغرب ( ديتلف نيلسن ) من إهمال القرآن الوثنية القديمة ، ومن عدم اهتمامه بذكر آلهة كثيرة كانت لها شهرة كبيرة فى جاهلية العرب [ ومن ثم فالآلهة التى ذكرت هى عادة آلهة عصر الاضمحلال والتدهور الذى سبق الاسلام .

---

( ١ ) راجع الرحلة الحجازية للبتنونى ص ١١٠ .

( ٢ ) جاء فى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة ( الرها ) مجلد ٩ / ٢٦٦ : أن الرها هى ( أروقة ) ويعتقد بعض المؤرخين : أن ( أور ) هى أروقة ، وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن الرها فيما قبل المسيح كانت مركزا لعبادة الكواكب شأنها شأن حران ، وفى بعض الروايات يقال : إن ( حران ) هى بلد إبراهيم وحران اشتهرت بصفة خاصة بأنها قصبة الصابئة .

أما فيما يتعلق بعصرها الذهبى فالمصادر العربية الإسلامية تجهلها جهلا تاماً كما تجهل العصر العربى الذهبى الجاهلى )[1] فإننى لا أستغرب معه من ذلك ، وإننى قد أدليت بما وصلت إليه فى القصص القرآنى والغرض منه فى الفصل الخاص بالقصص القرآنى فى الجزء الثانى ( مصادر التاريخ العربى ) من هذا الكتاب .

١٦ ـ فالوثنية على مختلف أنواعها ، ومتعدد صورها ، ومتفاوت عصورها ، لم تكن بداية التدين فى بلاد العرب ، وإنما كانت انحرافاً عن الطريق القويم لعبادة الله . وإن ظهور الوثنية فى البلاد العربية سبق التاريخ الحقيقى بدهور طويلة . فلقد بدأ الصراع بين الرسل وبين الوثنية من فجر الحياة العربية . وما فجر الحياة العربية منا بقريب ، إنه يرجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد .

والوثنية فى الحجاز لم تذكر إلا بعد إبراهيم . ولم يكن لها مكان فى مكة إلا بعد عمرو بن لحى . وزمن عمرو بن لحى يعتبر من أواخر جاهلية ما قبل الاسلام . فمع العهد الخزاعى فى مكة ظهرت الوثنية فى حرمها . أما قبل ذلك فلم نسمع أن إبراهيم حطم أصناماً فى ( أم القرى ) مثلما حطم أصناماً فى ( أور ) ، ولم نسمع أن سكان الحجـاز ناوَءوا إبراهيم وإسماعيل فى رفع القواعد من البيت ، ولم نسمع أصواتاً عارضت إبراهيم عندما أذن فى الناس بالحج ، أو عن وثنيين صدوا الذين لبوا النداء فأقبلوا يهللون ويكبرون .

فكل ما جاء فى المصادر الإسلامية عن الوثنية قبل عصر خزاعة محصور فى قصص عاد ، وثمود ، وأصحاب مدين ـ فى وادى القرى وأرض مدْين ـ ولقد سبق فى البحث عن عصور ابراهيم ، وهود ، وصالح أننا مقتنعون برأى الذين يقولون : إن إبراهيم سبق عصره عصر هود وصالح .

والبحث فى وثنية ابن لحى يسوقنا الى شمال الحجاز ، الى ( الحجر ) عاصمة ثمود لنعلم : أن آلهة الثموديين تشارك آلهة قريش فى اسمائها ، ولنعلم : أن من آلهة ثمود صنما اسمه ( ودّ ) ، و ( ودّ ) من الأصنام القديمة التى عاصرت نوحاً ، أو هى من قبل نوح ، و ( ودّ ) اسم اطلق على اصنام يمنية[2] ، ونحن إذا عَلِمنا كل ذلك يظهر لنا أن الوثنية

( ١ ) التاريخ العربى القديم ص ١٧٧ .

( ٢ ) راجع التاريخ العربى القديم ص ٤٣ و ٤٤ والجزء الأول من سيرة ابن هشام ص ٣٧ .

انتشرت حول مكة دهوراً طويلة ولكنها لم تدخل الحرم المكى إلا فى عهد عمرو بن لحى .

والبحث فى قصة عمرو بن لحى يؤكد : أن ابن لحى نقل الوثنية من ( مآب ) . من أعمال البلقاء ، إذن فإن الوثنية التى جاء بها عمرو بن لحى الى مكة هى سليلة وثنية ثمود . فحديث الأثريين عن الثموديين يؤكد انتشارهم فى شمال الحجاز وجنوبى سورية وصحراء سيناء ، وهذه المناطق فى عهودها القديمة سكنها الإرميون الذين جاءوا من العراق بعد أن عمروه وأقاموا فيه حضارة انصهرت فيها حضارة الشعوب التى كانت تعيش فى العراق من قبل التاريخ ، مثل : « الشعب المعينى » الذى سكن شمالى الحجاز حقبة من الدهر ثم استوطن اليمن[١] .

فعلى ذلك تكون وثنية الثموديين قد تأثرت بوثنية بلاد ما بين النهرين منذ وصل المعينيون الى وادى القرى .

ولقد وصل بحث ( ديتلف نيلسن ) فى أديان الشعوب العربية القديمة المستند إلى النصوص الأثرية إلى : [ أن الثالوث الآلهى عند المعينيين الذين سكنوا ( دادان ) - الاسم القديم للعلا - المكون من ( عشتر ) و ( ود ) و ( نكرح ) - الشمس والقمر والزهراء - هو نفس الثالوث الالهى عند الجاهليين فى اليمن[٢] ] .

والوثنية التى جاء بها ابن لحى الى مكة لم تنل من مكانة الكعبة فى نفوس العرب وغير العرب ولا من شرف مكة القديم الذى نوه به المؤرخ الرومانى ( سيسلاسى[٣] ) الذى عاش قبل الميلاد بخمسين عاما بقوله : ( ان مكة أشرف معابد الشرق وأقدمها ) .

ويقول المؤرخون : إن مما ساعد على انتشار الوثنية فى قلب الجزيرة ، حرص بنى اسماعيل على تعظيم البيت الحرام والتبرك به والتعبد عنده . فهم كانوا شديدى التعلق به والتعبد عنده والتبرك بحجارته . فإذا ما اضطرتهم الظروف على البعد عنه حملوا معهم

---

( ١ ) راجع بحث معين فى الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية من هذا الكتاب ولقد عثر الأثريون بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ ق . م على نصب عليه نقوش مسمارية جاء فيها أن « نرام سين » حمل على ( معان ) - وجاء ذكر هذه الأمة أمة ماليق فى آثار بابل سنة ٣٥٠٠ ق . م . العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان ص ١٣٣ .

( ٢ ) التاريخ العربى القديم ص ٤٢ وما بعدها .

( ٣ ) قوافل العروبة ومواكبها لبيهم ص ٣٢ جزء ١ .

حجراً من حجارة الحرم . فحيثما نزلوا وضعوا الحجر وطافوا به كطوافهم بالكعبة . فمن هنا وجدت فكرة الوثنية طريقها إليهم . فلم يلق ابن لحى معارضة عندما أتى بالأصنام من البلقاء وأقامها حول البيت .

فعلى هذا لم تدخل الوثنية إلى مكة إلا بعد إبراهيم بأجيال . وبدخول الوثنية إلى مكة ساد نفوذها على الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، فانتشرت بيوت الأصنام فى الأحياء العربيّة الحجازية وفى نجد واليمامة .

وكان من جراء هذا الانتكاس أن تردت عقيدة العربى فى حضيض من سخافات نقدها الكثير من عقلاء العرب الجاهليين مثل ( قس بن ساعدة ) و ( ورَقة بن نوفل ) و ( عبد الله بن جحش ) و ( عثمان بن الحارث ) و ( أمية بن الصلت ) ـ بل هزأ منها الأعرابى فى صحرائه وسخر من خرافاتها بصورة تتجلى فى هذا النقد اللاذع :

وهل سعد إلا صخرة بتنوفه ... من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد ؟

أرَبٌّ يبول الثعلبان برأسه ؟ ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب !

ويحدثنا الشهرستانى عن تبلبل العقيدة العربية فيقول : [ إن العرب أصناف . فمنهم معطلة ، ومنهم محصلة نوع تحصيل . ومعطلة العرب أصناف منهم : من أنكر الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى وإليهم أشار القرآن : ( وَقَالُوا مَا هِى إلاَّ حَيَاتُنا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيا وما يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ )[1] ، ومنهم : من أقر بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكر البعث والإعادة وهم الذين أشار إليهم القرآن : ( وَضرب لنا مثَلاً ونَسِى خَلْقَه قَال منْ يُحْى العِظَامَ وهِى رَميم )[2] ، ومنهم من أقر بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة ، وأنكر الرسل ، وعبد الأصنام وزعم أنهم شفعاء عند الله فى الآخرة ، وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا لها بالمناسك والمشاعر ، وحللوا وحرموا . وهم الدهماء من العرب . ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول : ( إذا مات الإنسان او قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيراً ( هامة ) فيرجع إلى رأس

---

( ١ ) سورة الجاثية آية ٢٤ .

( ٢ ) سورة يس آية ٧٨ .

القبر كل مائة سنة ) . ويؤكد الشهرستانى : أن من العرب من كان يميل إلى النصرانية ومنهم من يصبو إلى الملائكة فيعبدونهم . ومنهم من كان يعبد الجن ويعتقد أنهم بنات الله .

ويفتتح أبو إسحاق إبراهيم النجيرمى رسالته « إيمان العرب فى الجاهلية » بقوله : [ وكانت العرب فى الجاهلية على مذاهب ، فكان معظمهم يدين لله تعالى ذكره ويتمسك بإرث من ملة إبراهيم ، ويحج ، ويتأله ، ويعظم الحرم والأشهر الحُرم ، ويضع أوزار الحرب ، وإن ظفر بعدوه فيها لم يمسسه بسوء . وكانوا أخيافاً . فكان منهم : من يستحل فى الحرم المحرم ، ومنهم من يحرم المحل والمحرم ، ومنهم من يحل عن المحرم ويحرم عن المحلل ] .

ولقد جاء فى كلام صاحب المستطرف عن انتشار الأديان فى جزيرة العرب : [ فكانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض من قضاعة . وكانت اليهودية فى نجد وكنانة وبنى الحارث بن كعب ، وكانت المجوسية فى تميم ] .

١٧ ـ فمجموعة هذه العقائد والنحل التى تحدث عنها الشهرستانى والنجيرمى والأبشيهى وغيرهم إن دلت على شىء فإنما تدل اولا على صراع الأديان فى أرض الأنبياء ـ ذلك الصراع القديم الذى شهدته هذه الأرض منذ عصورها الأولى . ومن المفروض أن تختلف فلسفة المعتقدات حسب تطور الحياة العربية وملابسات العصور . وذلك ما نراه واضحاً فى البحوث التى تعمقت فى معرفة العقائد التى كان لها تأثيرها على عوالم الماضى البعيد . وفى البحوث التى تحدثت عن وثنيّة ابن لحى .

والخليق بالإشارة اليه هنا : هو ما يلاحظ على سكان قلب الجزيرة العربية . فهم على الرغم من صراع العقائد العنيف الذى كان على أشده عشية ظهور الاسلام ، وعلى الرغم من الهجرات اليهودية واحتمائها بسلطان التبابعة فى الجنوب ، وبأهداف المطامع الكسروية فى الشرق وعلى الرغم من انتشار النصرانية فى الشمال واعتزازها بإمبراطورية الروم التى تدين بها على الرغم من كل ذلك ، فلقد كانت الأكثرية فى قلب الجزيرة العربية متمسكة بإرث من ملة إبراهيم ، تحج وتتأله وتعظم الحرم والأشهر الحُرمُ وتضع أوزار الحرب وإن ظفر بعضهم ببعض فيها لم يمسسه بسوء .

فلقد نزحت اليهودية من فلسطين إلى الحجاز ، فاستوطن اليهود فى ( تيماء ) ، و ( المدينة ) ، و ( خيبر ) ، و ( فدك ) ، و ( وادى القرى ) . ومن المدينة رحلت اليهودية إلى اليمن مع « تُبَّع » الذى كسا الكعبة استجابة لاقتراح أحبار اليهود الذين عاد بهم من المدينة إلى اليمن[1] . ولقد كثرت هجرة النصارى الى بلاد العرب فانتشرت النسطورية فى ( الحيرة ) ، وانتشرت اليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام ووصلت الى ( نجران ) ، ولقد كانت المجوسية دين الدولة ذات السيادة على العراق ـ الفارسية .

ولقد كان لهذه الأديان شأنها فى مقدرات البلاد العربية السياسية إبان الصراع الذى استمر طويلا بين فارس والروم .

ومع هذا كله فإن اليهودية التى وجدت طريقها الى داخل شبه الجزيرة ، والتى كان الأكاسرة يتخذون منها عوناً لدعايتهم ضد الروم ـ لم تستطع أن تحل محل ملة إبراهيم كما كان ينتظر لها ولا سيما أنها ديانة تقوم على توحيد الخالق . بل هى لم تؤثر على الأوس والخزرج الذين جاورهم اليهود واختلطت مصالحهم بمصالح اليهود التأثير المنتظر منها فى المدينة ، ولم يستطع اليهود أن يلفتوا نظر قريش إلى اليهودية ، فى الوقت الذى كان اليهود يَتَعَبّدون عِند البيت ويحترمون الكعبة ويقدسون حرمها[2] . وكذلك لم يكن للنصرانية التأثير المنتظر بالنسبة لقوة أنصارها وأحزابها ، وبالنظر إلى أنّ عقيدة الثالوث المقدس عقيدة قديمة انتشرت فى شمالى الجزيرة العربية وجنوبيها ، وبالنسبة لنشاط المبشرين بها ، فلقد جاء فى تاريخ الطبرى : أنه وجد نقش على قبر فى قمة الجماء ـ جبل فى المدينة المنورة ـ قرأه بعض الذين يعرفون الخط المسند من الفرس ، فإذا هو : هذا قبر رسول رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل هذه البلاد[3] .

أما المجوسية وأسوأها مذهب المزدكية ـ فلا غرو إن كان تأثيرها على القبائل العربية ضئيلا جداً . فالمجوسية دين الأكاسرة لم يكن لها من المكانة بحيث تستطيع أن تقف أمام

---

( ١ ) سيرة ابن هشام ٢٠/١ مطبعة الحلبى سنة ١٩٥٥ .

( ٢ ) الرحلة الحجازية للبتنونى ص ١١٣ وما بعدها .

( ٣ ) تاريخ الطبرى ٤٣٧/١ .

نصرانية الروم ، وذلك ما دعا الأكاسرة أن يتخذوا من اليهودية نصيراً إزاء المسيحية .

وإذا كانت مكة تشرفت بالبيت الحرام ، وإذا كانت جبالها رددت صدى نداء إبراهيم ، فكذلك قد شهدت مدنٌ حجازية غير مكة جهاد الأنبياء والرسل . فلقد شهدت الأحقاف بعثة ( هود ) وشهدت الحجر دعوة ( صالح ) وشهدت مدين رسالة ( شعيب ) وشهدت فلسطين كفاح أنبياء بنى إسرائيل ـ وغيرهم من دعاة الاصلاح والخلق الفاضل .

وهذا الذى شهدته أودية الجزيرة العربية وجبالها ورمالها ـ دليل محسوس يؤكد بصراحة لا غبار عليها وبمنطق لا لبس فيه : أن العقلية العربية ، صَقلتها من أقدم عصور الانسان تشريعات الأنبياء ، فعرفت الحياة وواجب الانسان فيها ، وعرفت كيف تنظم المجتمع الفاضل ، وكيف تؤسس الحياة العزيزة .

واذا كانت الأوضاع العربية لا سيما فى قلب الجزيرة قد تدهورت أخيراً متأثرة بأحداث الزمن الطويل . وبما أحاط بعالمها من شرور الأطماع السياسية ـ فالبلاد العربية كما تعرضت لكوارث الطبيعة التى قدرها الله لها ، كذلك كانت هدفاً لأطماع كل من حلم بالسؤدد والنفوذ على الشرق الأدنى ، فهى من ذلك كله ذاقت حلو الحياة ومرها . فبعد أن كانت تسود هذا الشرق العربى جميعه من الفرات إلى النيل ، أصبحت تدافع عن حياضها فى عقر دارها فى « ذى قار » وفى « مكة » ، وبعد أن كانت مشاعل الأنبياء تضىء أرضها ، أمست فى ظلام دامس من الفوضى والجهل واختلاف الكلمة ، إلى أن تداركها الله برسول العالم محمد « صلى الله عليه وسلم » فأشرق النور ، ووضح الطريق ، وتجلت الفضيلة ، فكان لهذه الأمة العربية فضل الجهاد فى سبيل الحق والنور . وكان لقلب الجزيرة فضل القيادة الرشيدة العادلة .

وإذا كان هناك من لا يصدق بهذه الحقيقة البينة ما لم ير الدليل المادى فليرجع إلى التاريخ العربى الاسلامى ويقارن ما بين عصر السلف العزيز بإيمانه ، القوى بتآزره ، الوثاب باخلاصه وصدقه وتفانيه ؛ وبين عصور من خلفهم ممن أضاع كل ما يفخر به التاريخ العربى .

وإذا كان لنا أن نستشهد بما يؤكد قدم الحضارة فى قلب الجزيرة ، فإن قدم الأديان فى مهابط الوحى أوضح شاهد يؤكد لنا : سبق هذا الجزء للحضـارة ، وقـدم مجتمعاتـه فى التاريخ ، كما أن تراثنا الثقافى لغة وشعراً أنار لنا جانباً آخر من جوانب الحضارة العربية فى هذه الربوع .





# البحث الثامن:

## اللغة العربية هي الأصل للغات العالم العربي القديم

## لسان جرهم وعاد هو لسان مضر وإياد

**من موضوعات البحث :**

١ ـ البحث عن أم اللغات السامية سار فى طريق البحث عن الأرومة السامية .

٢ ـ الجزيرة العربية هى مهد الساميين .

٣ ـ قدامى المستشرقين يؤكدون : أن اللغة العربية هى أم اللغات السامية ، والمتأخرون يرفضون البحث فى أم اللغات السامية ! !

٤ ـ آراء جرجى زيدان وولفنسون وجواد على فى أم اللغات السامية .

٥ ـ أم اللغات المفقودة هى الأصل الذى تفرعت عنه أم اللغات السامية .

٦ ـ وجهة البحث فى أم اللغات السامية .

٧ ـ الحقيقة فيما يقال عن اللغة العبرية وأنها الأصل للغات السامية .

٨ ـ أخطأ الذين ظنوا أن اللغة العربية الأولى بادت مع العرب العاربة .

٩ ـ تطور اللغة العربية حقيقة لا ريب فيها .

١٠ ـ لغة الشعوب العربية فى الوقت الحاضر .

١١ ـ اللغة العربية فى الماضى القديم تأثرت بلغة الأمم التى جاورتها .

١٢ ـ لم يكن للغة العربية حصن غير قلب الجزيرة .

١٣ ـ لقد كانت هناك لهجات عامية فى الماضى القديم مثل ما فى الحاضر من لهجات يختص بكل واحدة منها قطر من الأقطار العربية .

١٤ ـ الخطوط القديمة وأبجدياتها عامل مهم من عوامل اختلاف اللغة العربية فى أقطارها العربية .

١٥ ـ إن التطور لم يخرج اللغة العربية عن أصلها .



# اللغة العربية هي الأصل للغات العالم العربي القديم

لسان جرهم وعاد هو لسان مضر وإياد

١ ـ لقد سار البحث عن أرُومة اللغات التى كانت تتكلم بها أمم من العرب فى الزمن القديم ـ أطلق عليها المستشرقون فى القرن الثامن عشر الميلادى اسم[1] : الأمم السامية ـ فى الطريق الذى سار فيه البحث عن الأرُومة العنصرية لهاتيك الأمم العربية[2]

فكما أن البحث عن الأرُومة السامية سار فى طريق التردد والشكوك طويلا قبل أن يصل إلى الحقيقة التى تؤكد : أن الأمم السامية هى أمم عربية من عنصر عربى ، وأن مهدها الأول هو الجزء الذى يحده الهلال الخصيب شمالا من جزيرة العرب ، كذلك سار البحث عن أرومة اللغات السامية فى طريق التردد والشكوك قبل أن يصل إلى الحقيقة التى تؤكد : أن اللغات السامية تفرعت من اللغة العربية .

٢ ـ فاستقصاء الحقائق التاريخية أثبت : أن الكلدانيين ، والآشوريين ، والآراميين ، والفينيقيين ، والهكسوس ـ كل هؤلاء شعوب عربية انتقلت من أواسط الجزيرة العربية إلى شماليها . فأسست فى العراق ، وفى سورية ولبنان وفلسطين . وفى مصر قومية عربية ولغة عربية ، وأثبتت بعد ذلك : أن الأمم العربية قبل الإسلام لم تستطع أن تحافظ على قوميتها وعلى لغتها . فكثيرةٌ هى الكوارثُ التى حطمت قوميتها ، وكثيرةٌ هى الأزمنةُ التى طغت فيها على لغتها صفات ولهجات من لغات العناصر التى احتكت بها فى أنهار ومدن الهلال الخصيب ، وفى دلتا النيل والشواطىء العربية ، فجعلت كل واحدة منها تكاد تكون مستقلة عن الأخرى ، من حيث الأبجدية ومن حيث النطق ، ومن حيث القواعد والخصائص .

واستقصاء الحقائق التاريخية أثبت : أن اللغة التى كان يتكلم بها الساميون فى مهدهم الأول ـ هى : اللغة السامية الوحيدة التى احتفظت بصفاتها الأصيلة لأنها عاشت داخل الجزيرة . وداخل الجزيرة هو البلد الوحيد الذى لم يشارك الساميين فيه غيرهم من عوالم

---

( ١ ) لقد اعتبرنا الاسمين ( سامى وعربى ) مترادفين فلم نتقيد بواحد منهما فى بحوث هذا الكتاب .

( ٢ ) قد دخل فى الامم السامية امم اصبحت ذات عنصر خاص بها مثل الإسرائيليين راجع بحث السامية والعربية فى الجزء الثالث من هذا الكتاب الذى صدر بعنوان التاريخ العربى وجغرافيته .

الماضى التى اكتظت بها ضفاف الأنهار ، وسواحل البحار ، ومدن الطرق التجارية ، فقَلْبُ الجزيرة هو البلد الذى تمتع الساميون فيه بالاستقلال الكامل فى كل عصر من عصورهم ، وفى كل لوْنٍ من ألوان حياتهم ، فلم يدخله عليهم غاز إلا وفشل ، ولم تجاورهم فيه أمة من الأمم إلا واستعربت ، كاليهود الذين استعربوا فى المدينة « يَثرِبْ » وفى « خيبر » وفى « وادى القرى » ولم يحتفظوا بغير عقيدتهم ، وبغير الغريزة الاقتصادية ، وبغير المكر اليهودى السيء .

٣ ـ فمما جاء فى كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون ، وفى كتاب العرب قبل الاسلام لجرجى زيدان ، وتاريخ العرب لجواد على وفى غيرها من المؤلفات التى اعتمدت فى بحثها على الآراء التى سارت فى طريق الشكوك : تظهر لنا صورة التردد الذى سبق الاطمئنان إلى الحقيقة القائلة بأن الجزيرة العربية هى مهد الساميين ، وأن اللسان العربى هو الأصل للغات السامية . فلقد قال « ولفنسون » فى مقدمة كتابه تاريخ اللغات السامية ) [ بقيت هناك مشكلة أخرى لها خطرها فى هذا الموضوع وهى : أى لغة من اللغات السامية أقرب صلة وأقوى شبهاً باللغة السامية الأصيلة ؟ وهذه لم تحل ايضاً حتى الآن بل اختلفت فيها أقوال الباحثين أيضاً واضطربت آراؤهم . فقد كان أحبار اليهود فى العصور القديمة يعتقدون : أن اللغة العبرية هى أقدم لغة فى العالم . وسرت هذه العقيدة من اليهود إلى غيرهم من الساميين حتى إن العرب فى القرون الوسطى كانوا يعتقدونها ، ثم جاء المستشرقون بعد ذلك فذهبوا مذاهب شتى ، فالعالم « أولهوزن » يقول : إن العربية هى أقرب لغات الساميين القديمة ، وأيد رأيه هذا بجملة أدلة ارتاح لها الكثيرون من علماء الإفرنج . وأما المستشرقون الحديثون ، فينظرون إلى هذه المشكلة بعين غير التى كان ينظر بها سابقوهم فهم يرون : أن من العبث أن يبحث المرء فى لغات الساميين عن أقربها من السامية الأصيلة ] [١] .

ثم قال أخيراً مقتنعاً بالحقيقة التى تؤكد : [ أن من مميزات اللغة العربية : أنها تشتمل على عناصر قديمة جدّاً من اللغات السامية الأصيلة . وهذا يدل على أن اللغة العربية كانت موجودة فى مهد اللغات السامية ، أو فى ناحية قريبة منها ، أو أن العناصر التى

( ١ ) تاريخ اللغات لولفنسون ص ٧ .

نزحت إلى البلاد العربية كانت من أقدم الأمم السامية ][1] .

أما المستشرقون المتأخرون الذين قال عنهم ولفنسون : إنهم يرون أنه من العبث البحث عن أم اللغات السامية ، فهؤلاء عندما يبحثون عن لغة من اللغات وصلاتها بأخواتها الساميات ـ يرجحون : أن لهذه اللغات أماً وطنها « الجزيرة العربية » فلقد جاء فى كلام ( هومل ) : [ فمن المحقق الآن أن القرابة قوية جداً بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية ، لكن الخلاف حول درجة هذه القرابة ونوعها . فإما أن الأبجديتين نشأتا من أبجدية واحدة ، أو أن إحداهما تفرعت عن الثانية ، ولكن إلى جانب هذه الاحتمالات وتلك الآراء يجب أن تذكر الظروف المحلية التى قد تزيد المسألة صعوبة ، فعلينا قبل كل شىء أن نسلم بوجود حلقة اتصال مفقودة . ووطن الأبجدية الأصيلة سواء كانت هذه الأبجدية فينيقية أو عربية جنوبية ، مثلا هل هذا الوطن هو شرقى بلاد العرب أو أرض كنعان أو بلاد العرب الجنوبية ؟ ][2] .

ومن رأى ( هومل ) : الاهتمام بالعلاقة الموجودة بين الكتابة المصرية القديمة ، وبين الأبجديتين القديمتين أو إحداهما : [ كما أنه توجد اعتبارات أخرى جديرة بالاهتمام كالعلاقة بين تلك الأبجدية السامية والأبجدية المصرية القديمة التى عرفت حوالى عام ( ٤٠٠٠ ) ق . م . ] [3] .

فهذه الظنون التى انطلقت تبحث عن وطن اللغة الأم ، لم تذهب إلى غير داخل الجزيرة العربية . فأرض كنعان الأولى هى : اليمامة وسواحل الخليج الاسلامى . وأرض كنعان الثانية هى : سورية ولبنان وفلسطين « سورية الكبرى » . ولم يقل أحد : إن سورية هى الوطن الأول للغات السامية ، لأن الكنعانيين هاجروا من وطنهم الأول بكثير من حضارتهم وفنهم فى الملاحة ، وحرصوا على أن يطلقوا على بعض مدنهم فى سورية ولبنان أسماء مدنهم فى الخليج الإسلامى فمن غير المحتمل ان يكون هؤلاء الكنعانيون تركوا لغتهم فى الخليج ليتخذوا لغة جديدة فى لبنان . والعربية الجنوبية لا يتجاوز تاريخها فى

( ١ ) نفس المصدر ص ١٦٨ .

( ٢ ) التاريخ العربى القديم ص ٦٠ و ٦١ .

( ٣ ) التاريخ العربى القديم ص ٦١ .

الجنوب إلى أكثر من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، بينما الأبجديات السامية يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد بكثير .

إن الأبجدية السامية دخلت إلى وادى النيل قبل عصر الأسرات كما أثبت ذلك ( بريستد ) فى كتابه « مصر من أقدم العصور »[1] ، ولذلك قال هومل : يجب الاهتمام بالعلاقة بين الأبجدية السامية والمصرية القديمة التى عرفت حوالى عام ( ٤٠٠٠ ) ق . م .

ثم جاء بعد « هومل » و « ولفنسون » ـ جواد على ، يفند بعض الآراء التى تذهب إلى أن أفريقية الشرقية هى مهد الساميين ، وبذلك تكون لغتها هى أم اللغات السامية ، فقال : [ وهذه نظرية غَضَّتْ الطرف عن الاعتبارات التاريخية . فمن الممكن إرجاع ما لاحظه علماء اللغات من وجود صلات لغوية بين اللغات السامية واللغة المصرية القديمة إلى عوامل الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية ، وعن طريق سيناء إلى أفريقية مثل هجرات الهكسوس ، وهم من أصل سامى جاؤوا إلى مصر من بلاد العرب ، وإذا سوغ علماء النظرية الأفريقية لأنفسهم الاستدلال على أفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية مثلا واللغات السامية ، فإن من الممكن إرجاع هذه القرابة إلى أثر تلك الهجرات السامية فى اللغة المصرية . وأما تقارب الحبشة من اللهجات العربية الجنوبية ، وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند ، فلا يكون دليلا على هجرة الساميين من أفريقية عن طريق الحبشة إلى جزيرة العرب ، إذ يجوز العكس ، وقديماً هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى الحبشة ، والساميون هم الذين كونوا دولة أكسوم التى كانت تتكلم باللغة الجعزية ][2] .

وجاء جواد على يقول عن الأقلام : المسند والثمودى واللحيانى والصفوى [ يتبين من انتشارها فى منطقة واسعة خاصة فى الأرضين التى تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات « بنى إرم » ومن تقاربها من المسند ، أنها تفرعت من « أبجدية » واحدة ، كانت الأبجدية الرائجة فى بلاد العرب قبل الميلاد وبعده ][3] .

---

( ١ ) مصر من أقدم العصور ص ١٧ . ( ٢ ) جواد ١ / ١٥٥ و ١٥٦ . ( ٣ ) جواد ٣ / ٤٢٥ .

ونحن إذا تعمقنا مع الآراء المستشرقة التى جمعها جواد على ولخصها كما يأتى :

( وكان من جملة العوامل التى ألهبت نار الحماسة فى نفوس علماء التوراة والساميات البحث عن اللغة السامية الأولى ، أو أقرب لغة سامية إليها ، القصص الواردة فى التوراة عن سام ، وعن لغات البشر ، والطوفان وما شاكل ذلك . ثم وجد المستشرقون المعاصرون أن البحث فى هذا الموضوع ضرب من العبث . لأن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هى : محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لاتحصى مرت بها حتى وصلت إلى مرحلتها الحاضرة ، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة ، واللغة السامية القديمة لم تكن إلا لغة محكية زالت من الوجود دون أن تترك أثراً )[١] .

نجد جواد على يكرر ما قاله ولفنسون عن المستشرقين المحدثين وأنهم يرون : من العبث البحث عن أم اللغات السامية ، ويزيد عليه السبب الذى من أجله كره المستشرقون البحث فيها ، وأنه يرجع إلى عدم اقتناعهم بما فى بحوث علماء التوراة .

وكذلك جرجى زيدان يرى : ( أما أم اللغات السامية فلاوجود لها الآن ، وقد ظن بعض فلاسفة اللغة أنها العبرانية ، وزعم غيرهم أنها العربية ، وغيرهم أنها البابلية ، ولاتخرج أقوالهم عن حد التخمين )[٢] . لأنه يعتقد : ( أما مسألة مهد الساميين فلاتزال من المسائل الغامضة التى يجب تركها حتى تتسع معارفنا بما يكشفونه من الآثار العربية[٣] والآشورية والبابلية ) .

فهو يربط البحث فى أم اللغات بالبحث فى مهد الساميين ، لأنه يقول بالحقيقة التى لاينكرها باحث : ( فإن الأمم التى تفرقت منه « مهد الساميين » كانت تتكلم عند تفرقها لغة واحدة هى اللغة السامية الأصيلة )[٤] فعلى ذلك فإن أم اللغات السامية لاتعرف فى رأى جرجى مالم يعرف مهد الساميين .

٤ ـ فآراء هؤلاء الأعلام الذين عنوا بالتاريخ العربى القديم : جرجى زيدان ،

---

( ١ ) جواد ١ / ١٦٧ .

( ٢ ) العرب قبل الإسلام ص٤١ .

( ٣ ) نفس المصدر ص ٤٢ .

( ٤ ) نفس المصدر ص ٤٢ .

إسرائيل ولفنسون ، جواد على ، هى كما جاءت فى مؤلفاتهم :

أولا : جرجى زيدان ـ إنه يربط البحث فى أم اللغات السامية بالبحث فى مهد الساميين . وهذا هو المعقول .

ولكن البحث فى مهد الساميين كما رأينا فى رد جواد على ، على الذين يقولون : إن السامية والساميين هم فى الأصل من أفريقيا ، قد انتهى إلى أن جزيرة العرب هى منطلق الهجرات السامية[1] ، وجرجى زيدان نفسه عندما بحث فى عنصرية البابليين وفى عنصرية الكنعانيين ، وفى عنصرية « الإرميين » و« الأنباط » و« التدمريين » . وفى عنصرية « الهكسوس » أكد : أن هذه الشعوب ترجع إلى الأرومة العربية وأنها هاجرت من داخل الجزيرة العربية إلى أطرافها[2] .

إذن : جرجى زيدان الذى قال أولا بضرورة ترك البحث فى أم اللغات السامية لأن الأقوال التى قيلت فى هذا الصدد لا تخرج عن حد التخمين ، والذى يرى : أن أم اللغات السامية هى اللغة التى كانت تتكلم بها الشعوب السامية فى مهدها ، قد رجع إلى الحقيقة التى تثبت أن اللغة العربية هى أم للغات : البابليين ، والكنعانيين ، والإرميين ، والهكسوس ، والتدمريين ، والنبط ، وبطبيعة الحال هى أم لغة « المعينيين » ، و« السبئيين » ، و« الثموديين » ، و« اللحيانيين » فى أطراف الحجاز وأقاصى اليمن ، لأن هذه الشعوب جميعها شعوب عربية أقلتها جبال الجزيرة وأوديتها وهضابها ، وأوّل ماتحركت ألسنتها تحركت بلغة هذه الجزيرة وطن « الإرميين » و« الكنعانيين » و« العماليق » الأولين .

ثانياً : « إسرائيل ولفنسون » ـ وإسرائيل ولفنسون رجع عن تردده عندما قال : إن اللغة العربية إما أن تكون موجودة فى مهد اللغات السامية ، أو فى ناحية قريبة منها ، أو أن العناصر التى نزحت إلى البلاد العربية كانت من أقدم الأمم السامية . ومما جاء فى بحث ولفنسون عن لغتى : البابليين ، والكنعانيين : ( وكما أننا لانعرف بالضبط الموطن الأصلى فى بلاد العرب للجموع السامية التى فتحت العراق ، وكذلك لانعلم بالضبط

---

( ١ ) عناصر شعوب الجزيرة العربية فى الجزء الرابع من هذا الكتاب العرب فى أحقاب التاريخ .

( ٢ ) أكد جرجى زيدان فى كتابه العرب قبل الإسلام : عروبة هذه الشعوب .

الموطن الأصلى للكنعانيين والآراميين من هذه الجزيرة . لكن الذى نرجحه أن نزوحهم من هذه الجزيرة حدث قبل ( ٢٥٠٠ عام ق . م ) حين جرت سيول القبائل الكنعانية إلى بلاد سورية وفلسطين )[١] .

فإسرائيل ولفنسون هنا متفق مع جرجى زيدان فى أن الجزيرة هى مهد الساميين ، وإنما الذى يشك فيه هو الجزء الذى هاجر منه الساميون ، أهو « نجد » وماجاوره ؟ أم هو « الحجاز » وماجاوره ؟ أم هو « اليمن » وماجاوره ؟

ثالثاً : جواد على ـ وجواد على أخذ بِقَوْل ولفنسون عن إهمال المستشرقين المتأخرين البحث فى أم اللغات . وفسر ذلك الإهمال بأنه نتيجة الشك فيما جاء فى المصادر الإسرائيلية ، وهذا وحده لايبرر الإهمال ولايجعل الباحث يتعلق بأقوال هؤلاء المتأخرين من المستشرقين ، لأنهم لم ينقضوا تحقيق المستشرقين المتقدمين مثل ( أولهوزن ) بتحقيق يقنع الباحث ، فإرسال الشكوك وحدها دون أدلة تثبتها لايكفى لإلغاء تحقيقات ذات حيثيات وشواهد .

٥ ـ على أننا إذا مارجعنا إلى ماجاء فى المصادر الإسرائيلية عن عالم مابعد الطوفان وعن عوالم ماقبل الطوفان ، نجد البحوث الأثرية تثبت الكثير مما قاله الإسرائيليون وغير الإسرائيليين من الباحثين القدامى . فما جاء فى كتاب « قصة الحضارة » ، وكتاب « بلاد مابين النهرين » ، وكتاب « حضارة العرب » لغوستاف ليبون ، وكتاب « التاريخ العربى القديم » ،وغيرها من المؤلفات المستشرقة يؤكد ماقاله المؤرخون القدماء عن عوالم الماضى البعيد .

ثم ليكن ماجاء فى المصادر الإسرائيلية فيه مبالغة كبيرة ، وفيه خيال بعيد الاحتمال ، فإن مما لاشك فيه : أن الأجيال التى سبقت الساميين وعاشت فى الشرق العربى قبل الطوفان هم سلف لخلفهم الساميين ، فإن تكن هناك سلسلة من التطورات فإن عوالم ماقبل الطوفان هى التى مرت بها سلسلة تلك التطورات والتقلبات التى لاتحصى حتى وصلت لغتها إلى المرحلة التى وجدها الساميون فيها ، فالحقيقة المنطقية إذن تقرر : أن اللغة الأم للغات السامية هى فرع من أصل ، وهذا الأصل يرجع إلى أم لغات عالم ماقبل الطوفان .

( ١ ) تاريخ اللغات لولفنسون ص ٥٤ .

فما من أحد يقول : إن الساميين هم الجيل الإنسانى الأول حتى يقال : إنهم هم الذين صنعوا اللغة الأم ، وإن هذه الأم السامية طواها الزمن فلاعين لها ولاأثر . فالساميون فى المصادر العربية والإسرائيلية هم أبناء « سام بن نوح » وسام بن نوح ، ونوح من قبله ، هما شخصيتان كريمتان تاريخيتان عاشتا فى عصر سبقته عصور زخرت بعوالم وحضارات ، والساميون فى البحوث المستشرقة هم الشعوب التى هاجرت من داخل الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب وإلى مصر فى أزمنة مابعد الطوفان .

فإذا كانت هناك أم للغات لم تعرف فهى : اللغة الأصل التى تفرعت منها أم اللغات السامية .

فبناء على ذلك فإن ماقاله جواد على عن سلسلة التطورات التى لاتحصى ، وعن اللغة السامية القديمة وأنها كانت لغة محكية زالت من الوجود ، لاينطبق على اللغة السامية الأصيلة التى كان الساميون يتكلمون بها فى مهدهم الذى هاجروا منه إلى العراق وسورية ومصر ، وإنما ينطبق على الأم التى منها تفرعت اللغة الأصل للغات العراقيين والسوريين والمصريين من الشعوب السامية القديمة .

فنحن إذا قابلنا رأى جواد على : ( أن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هى محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لاتحصى مرت بها حتى وصلت إلى مرحلتها الحاضرة ، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة ، واللغة السامية القديمة لم تكن إلالغة محكية زالت من الوجود دون أن تترك أثراً )(١) ورأى ولفنسون : ( ومن مميزات اللغة العربية أنها تشتمل على عناصر قديمة جداً من اللغات السامية الأصيلة )(٢) إلى آخر ماجاء فى كلامه الذى نقلنا نصه آنفاً ـ بما قاله المحققون العرب القدامى : ( إن اللغات الواقعة بين أظهرنا هل ، هى : بالاصطلاح ، أوالتوقيف ؟ إن التوقيف وقع فى الابتداء على لغة واحدة ، وماسواها من اللغات وقع التوقيف عليها بعد الطوفان من الله تعالى فى أولاد « نوح » حين تفرقوا فى أقطار الأرض ، وإذا حصل التوقيف على لغة واحدة جاز أن يكون مابعدها من اللغات اصطلاحاً ، واختلفوا فى لغة العرب ، فمن زعم أن اللغات كلها

---

( ١ ) جواد ١ / ١٦٧ .

( ٢ ) تاريخ اللغات السامية ١٦٨ .

اصطلاح . فكذا قوله فى لغة العرب . ومنهم من قال : هى أول اللغات ، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أواصطلاحاً ، وقال بعضهم : إن اللسان الأول الذى نزل به آدم من الجنة عربى إلى أن بعد العهد وطال ثم حرف وصار سريانياً )[١] .

وقال الإمام الرازى عندما بحث فى أصل اللغات : ( لم لايجوز أن تكون هذه الألفاظ وضعها قوم آخرون قبل آدم )[٢] .

نحن إذا قابلنا هذه الظنون بعضها ببعض نجدها تدور فى فلك واحد ، وحول نتيجة واحدة على مابينها من تفاوت فى العقائد والمنطق . فالحقيقة التى تواجه الباحث سواء سار مع الذين يؤمنون بالطوفان وقصة نوح عليه السلام ، أو سار مع الذين يؤمنون بالنظريات الجيولوجية ، فإذا هو سار مع المؤمنين بنوح والطوفان ، برزت هذه الحقيقة أمامه تؤكد له : أن نوحاً والذين نجوا معه كانوا يتكلمون بلغة يرجع أصلها إلى أم لغات ماقبل الطوفان ، وإذا هو سار مع الذين قسموا الماضى القديم إلى عصور : أولها العصر الحجرى ، ثم العصر النحاسى إلخ ، فإن الساميين فى بحوث هؤلاء ليسوا من الأجيال الحجرية ، وإن الحقيقة التى وصل إليها هؤلاء تؤكد له : أن الساميين ورثوا من الأجيال التى تقدمتهم لغة تفرعت عن أصل قديم .

وإذا كان هناك من يقول : إن الأمم التى ورثت الجزيرة العربية من الأجيال الحجرية تناست لغة أجدادها ، ووضعت لغة لاأثر فيها للغة الآباء والأجداد فإن ذلك يحتاج إلى سبب من الأسباب التى تستلزم أن تترك الأمة لسانها القديم كلياً ، ولم يثبت التاريخ سبباً استلزم أمةً من الأمم فى الشرق الأدنى أن تترك لغتها كلياً مادام لها وجود وكيان . وعلى فرض احتمال ذلك ، فإن العرب فى جزيرتهم قبل هجراتهم كانت لهم لغة يتكلمون بها ، سواء كانت تلك اللغة هى لغة جدودهم القدماء ، أوكانت لغة لاأثر فيها للغة جدودهم القدامى ، وإن هذه اللغة التى تكلم بها العرب فى جزيرتهم قبل هجراتهم هى : اللغة الأم التى تفرعت عنها لغة المهاجرين إلى بابل ، وآشور ، وإلى سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، وإلى طور سيناء ، ودلتا النيل ، والصحراء العربية على ضفاف النيل الشرقية .

---

( ١ ) المزهر ١ / ٢٧ و ٢٨ و ٣٠ .

( ٢ ) نفس المصدر ص ٢٥ .

إن جميع مصادر التاريخ العربى القديم أثبتت : أن الشعوب السامية هاجرت من داخل الجزيرة إلى أطرافها ، وأكدت أن هذه الشعوب التى عرفت باسم : « البابليين » ، و « الكنعانيين » قطعت مرحلة طويلة فى الحضارة قبل أن تهاجر . وأنها كانت ذات أديان وعقائد ، وذات سفن وخبرة بالملاحة ، وأنها كانت تملك مناجم ، وذات علم بالتعدين ـ فشعوب بلغت هذا المستوى من الحضارة لايمكن أن تعيش دون لغة ، ولايمكن أن تجهل الكتابة والقراءة ، فلاتكون لها لغةُ ولاتكون لها أبجدية ولايكون لها خط .

وإن جميع مصادر التاريخ العربى القديم أثبتت : أن العوامل التى أخضعت لغات الساميين فى العراق ، وفى سورية ، وفى مصر ، لمؤثرات العناصر غير السامية ، لم يكن واحد منها موجوداً فى قلب الجزيرة ، فالنتيجة المنطقية إذن : أن لغة الساميين فى قلب الجزيرة التى توارثها الأبناء عن الآباء هى اللغة الأصل للغات الساميين ، واللغة التى توارثها الأبناء عن الآباء فى قلب الجزيرة ، هى اللغة العربية .

٦ ـ وهنا وبعد هذا الحديث الطويل جدير بنا أن نحدد وجهة البحث فى هذا النقاش : إننا نعنى بأم اللغات السامية ، اللغة التى تفرعت عنها هذه اللغات : العدنانية والبابلية ، والآشورية ، والكنعانية ، والارمية واخواتها الشمالية ، والمعينية ، وأخواتها الجنوبية ، وكذلك الثمودية ، وأخواتها اللحيانية ، والصفوية ، وكذلك التدمرية ، والنبطية ، وإننا لاننفى : أن هذه اللغة الأصل للغات السامية قد تفرعت من أصل قديم لايوجد له اليوم أى أثر ، وقد تظهر البحوث فى المستقبل القريب أو البعيد أثراً لهذه اللغة ، يتمنى رؤيته الباحثون ، وقد تظل جميع آثارها مقبورة إلى يوم يبعثون ، وأن نقول : إننا مقتنعون بالأدلة التى تؤكد : أن اللغة العربية هى الأصل للغات السامية التى تطورت مع الأوضاع فى العراق ، وفى سورية ، وفى مصر ، وفى شمالى الحجاز وسواحله ، وفى اليمن ، وعمان ، والخليج الإسلامى . وأن هذا التطور أبعدها عن اللغة الأم المتمسكة بصفاتها الأصيلة فى قلب الجزيرة العربية ، تلك الصفات التى تظهر واضحة كلما بعدنا عن مناطق الاحتكاك بالعناصر غير العربية ، وما زال يبعدها كما يقول « سيديو » : ( وداوم سكان البرارى على

---

( ١ ) راجع قصة الحضارة ٢ / ٢٠٩

التكلم بلغة الحجاز ونجد التى هى لغة العرب العاربة ، وكان أهل اليمن يتكلمون بلغة حمير )[1] .

٧ ـ ومن الجدير بالبحث بعد أن حددنا اتجاهه فى موضوع أم اللغات السامية أن يظهر ما أخفاه قول ولفنسون ومن اقتنع معه : بأن اليهود والعرب كانوا مقتنعين بأن العبرية هى أم اللغات السامية .

فأولا : إن كان من اليهود القدامى من اقتنع بأن العبرية هى أم اللغات السامية وحاول أن يقنع العرب الذين كانوا فى وقت مايثقون بكل مايعزى للتوراة ؛ فإن اليهود المتأخرين أخفقوا فى وضع اللغة العبرية فى مرتبة اللغة الكنعانية ، ولم يجدوا دليلا يثبت سامية اللغة العبرية غير افتراض عروبة العبرية فى الأصل ، وأنها اشتقت من اللغة التى اشتقت منها لغة الكنعانيين ، كما نجد ذلك واضحاً فى بحث العبرية والجعزية الآتى فى هذا الجزء .

ثانياً : إن ماجاء فى تاريخ الطبرى عن العرب البائدة ـ يؤكد : أن لغة الرعيل الأول من أبناء سام كانوا يتكلمون اللسان المضرى[2] ، وماجاء فيه عن لغة المستعربة ( ويقولون لبنى إسماعيل العرب المستعربة ، لأنهم إنما تكلموا بلسان هذه الأمم حين سكنوا بين أظهرهم ) . ويؤكد أن لغة العرب البائدة انتقلت إلى العرب المستعربة قبل أن يهاجر يعقوب إلى مصر وقبل أن يهاجر موسى ببنى إسرائيل من مصر ـ وأن ماجاء فى تاريخ الطبرى من روايات تتحدث عن تبلبل الألسنة فى العراق وقدم السريانية ، فهو لايعدو ماقيل عن الخط القرشى وصلته بالسريانية ، وما هذا الارتجاج الذى نشاهده فى بعض الروايات العربيّة إلا من تأثير الخيال الإسرائيلى الذى تسلّط على بعض الروايات التى اعتمدت على المصادر اليهودية دون أن تدرك ما فى بعضها من أنانية أضاعت قيمة الكثير مما تحمله الأسفار من حقائق تاريخية .

وقد يكون من تأثير الروايات الإسرائيلية اقتناع محمد بن سلام الجمحى الذى كان يعتقد : أن لغة العرب الذين نزل فيهم القرآن هى لغة إسماعيل ، وأن لغة إسماعيل هى لغة غير لغة العرب العاربة لأن لغة العرب البائدة ـ على رأيه ـ قد بادت معهم[3] .

---

( ١ ) تاريخ العرب العام لسيديو ص ٣٢ .　　( ٢ ) تاريخ الطبرى ١ / ١٤٠ و ١٤١ .

( ٣ ) طبقات فحول الشعراء للجمحى ص ١٠ .

٨ ـ فكثيرٌ من الباحثين فى اللغة العربية يعتقد : أن شعوب « عاد » ، و« ثمود » ، و« طسم » ، و« جديس » ، و« جرهم » الأولى ، و« العماليق » قد بادت ولم تترك خلفاً يرثها ولا تراثاً ثقافيًا يشير إلى وجودها . فعلى هذا الاعتقاد لم يتجاوز هؤلاء بتاريخ اللغة العربية إلى ماقبل القرن الخامس للميلاد . وقد أخذ هذا الاعتقاد يؤثر على بحوث بعض المتأخرين مثل الدكتور « عبدالواحد » الذى قال فى كتابه فقه اللغة : ( وعلى ضوء ماوصل إلينا من آثارها ـ اللغة العربية ـ يمكن تقسيمها إلى قسمين : ( ١ ) العربية البائدة ، ( ٢ ) العربية الباقية ـ فالبائدة تطلق على لهجات شمالى الحجاز من حدود « الارميين » وفى داخل هذه الحدود ، والباقية نشأت ببلاد نجد والحجاز وانشعبت منها اللهجات التى نتكلم بها فى العصر الحاضر فى البلاد العربية وقد وصلت إلينا العربية الباقية عن طريق آثار العصر الجاهلى . والقرآن والحديث ، وآثار العصور الاسلامية المختلفة ، وأقدم ماوصل إلينا من آثار العربية البائدة لايكاد يتجاوز القرن الأول للميلاد ، وأقدم ماوصل إلينا من آثار العربية الباقية لايكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد )[١] .

أليس من الغريب أن يعتقد أحد : أن الأرض ابتلعت الشعوب العربية الأولى بكل مقومات حضارتها فأمست كأن لم تكن بالأمس ؟! أو ليس من الغريب أن يصدر الحكم بالإبادة على لغة الرعيل الأول من العرب ، وأن يحدد تاريخ اللغة العربية بهذه السهولة دون التعرض بالنفى أو الإثبات إلى ماقاله المؤرخون العرب الثقات عن اللغة التى كانت تتكلم بها الشعوب التى عرفت فى التاريخ العربى بالعرب البائدة ، ودون الأخذ بالنصوص الأثرية التى تؤكد : أن لغة شمالى الحجاز رغم احتكاكها بعناصر أجنبية مازالت إلى ما بعد الميلاد محتفظة بكثير من عربيتها ـ أو رفضها وتفنيدها وإثبات أخطائها ؟! فإذا كانت تلك حال لغة الشمال فكيف بلغة المدينة ومكة والحجاز ؟!

إن النقوش الثمودية واللحيانية التى ظهرت بعيدة فى تركيب جملها عن اللغة العربية ـ برغم اشتمالها على حروف عربية ـ يرجع تاريخها الى عصور متأخرة ، وفى العصور المتأخرة .

---

( ١ ) فقه اللغة للدكتور عبد الواحد ص ٧٥ .

ازدحمت المناطق الشمالية بالعناصر غير العربية : اسرائيلية ، ويونانية ، ورومانية ، وفارسية ، أما النقوش المعينية الشمالية التى يرجع تاريخها الى ما قبل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد . فقد قال عنها « هومل » : [ ويعتقد أيضاً أن لغة هذه النقوش المعينية قريبة جداً الى العربية القديمة يعنى عربية الشعر الجاهلى إلا أنها أقرب إلى الحبشية ][1] وقرب النقوش المعينية من الحبشية لا يستغرب بعد الذى عرفناه عن الهجرات السامية إلى الحبشة ومنها ، فاللهجات الأفريقية استوطنت جنوب الجزيرة منذ عصورها القديمة .

ولقد جاء فى بحث « ولفنسون » فى لغة الإرمبين بعد احتكاكهم بالعبريين وباليونانيين والرومانيين : أن لغة الإرميين أصبحت رطانة فى مجموعها عبارة عن الآرامية ، والعبرية ، واليونانية ، والرومانية .

لا شك فى أن الأحداث الخطيرة التى اقتحمت الحياة العربية فى الهلال الخصيب كان لها أثرها على لغة العرب الذين أسسوا المجتمع العربى فى العراق ، وفى سورية ، فلقد تتابعت الدول : البابلية ، الحثية ، الآشورية ، الفرعونية ، الفارسية ، اليونانية ، والرومانية ، والكسروية الساسانية ـ وهذه الدول كما تراها مختلفة العناصر ، ومختلفة الحضارات واللغة والثقافة ، واختلاف العنصر والحضارة واللغة لا بد أن يؤثر فى اللهجات وفى الخطوط ، وهذا ما حدث بالفعل فى السنين التى أخذ النفوذ العربى فيها ينكمش الى داخل الجزيرة ، وأخذ المجتمع العربى يعود إلى النظام القبلى . وأخذت الدولة البيزنطية تمد نفوذها من سورية الى شمال الحجاز ، وأخذت الدولة الساسانية تمد نفوذها على ساحل الخليج العربى مهددة « نجداً » وزاحفة إلى « اليمن » تزاحم الأحباش عليه .

فهذه الأحداث وما خالطها من تطورات ، تبين لنا العوامل التى باعدت بين اللغة العربية الأم فى داخل الجزيرة ، وبين لغات الشعوب التى تمركزت فى العراق وفى سورية وسيناء والصحراء العربية الكبرى ـ تلك الأحداث التى تفاقمت آخر الأمر فحطمت القومية العربية فى الهلال الخصيب ، فانعزل العراق وانعزلت سورية بصحرائها عن الجزيرة العربية ، وأصبحت اللغة العربية فى اليمن فى عداد اللغات غير العربية كما قال ابن

---

( ١ ) التاريخ العربى القديم ص ٦٢ .

العلاء : ما لغة حمير وأقاصي اليمن بلغتنا . فضاق نطاق القومية العربية وباتت جزيرة العرب فى رأى البعض لا تتجاوز الحجاز ونجداً واليمامة وبعضاً من تهامة .

فنحن كلما توغلنا فى عصور التاريخ العربى وجدنا اللغة العربية فى شمالى الحجاز ووجدنا شبهها بلغة الشعر الجاهلى يزيد ، وكذلك نحن إذا ما بعدنا عن المدن التجارية والموانىء البحرية نجد اللغة العربية قليلة التأثر بغيرها ، ولكن مع هذا كله لا يمكننا أن نقول : إن لغة عاد ، وجرْهم الأولى ، وثمود والعمالقة هى مثل لغة « حسان بن ثابت » ، وشاعر البردة « كعب بن زهير بن أبى سلمى » . فالقرون الطويلة التى تفصل بين قريش والأوس والخزرج ، وبين جرْهم والعماليق ، لا بد أن تحدث فرقاً فى نطق الكلمات ومعانيها ، وفى الأسلوب والتركيب والاصطلاح ، ومن قبل فرقوا بين العرب العاربة ، وبين العرب المستعربة . ولكن الفرق بين لغة العاربة ، ولغة المستعربين ، لم يبلغ إلى حيث يقال : إن لغة العرب العاربة غير لغة العرب المستعربة ، والدليل على ذلك لغة النقوش المعينية الشمالية التى سبقت الميلاد بأكثر من خمسة قرون ، وما قيل عن الشبه بين لغتها ولغة الشعر الجاهلى رغم وجودها فى منطقة ازدحمت فيها العناصر ولهجاتها .

ومما يسترعى الانتباه ما جاء فى المصادر العربية عن العرب المستعربة . فلقد جاء فى تاريخ ابن خلدون : [ وإنما سمى أهل هذه الطبقة بهذا الاسم العرب المستعربة لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت إليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة بمعنى أنهم صاروا من حال لم يكن عليها أهل نسبهم ، وهى اللغة العربية التى تكلموا بها ، فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم : استنوق الجمل ، واستحجر الطين ، وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم جيلا كانت اللغة العربية لهم بالأصالة وقيل العاربة ][1] .

ولقد شط بعض الباحثين العرب فى تصوره تطور اللغة العربية فى عصر العرب المستعربة ، فقال عمرو بن سلام الجمحى فى تفسيره ما يروى عن محمد بن على بن

---

( ١ ) تاريخ ابن خلدون ص ٧٠ .

الحسين بن على بن أبى طالب : [ أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه ـ إسماعيل بن إبراهيم ، ولكن العربية التى عنى محمد بن على : اللسان الذى نزل به القرآن الكريم وتلك لغة العرب العاربة على ما يبدو من حديثه ـ عربية أخرى غير كلامنا هذا ][1] .

فإذا كانت لغة إسماعيل غير لغة العرب العاربة « على رأى الجمحى » فمن أين تعلمها ومع من كان يتكلم بها ؟؟ إن ابن كثير يؤكد لنا : [ أن اسماعيل تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد اخذها من جرْهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ][2] .

إن مما لا شك فيه : أن الوضع العربى فى الحجاز تطور بعد إقامة البيت الحرام والدعوة للحج إليه ،فلقد توافدت الأمم من كل فج فى هذا الشرق العربى لتؤدى مناسك الحج وتشهد منافع لها ، فكان على الحجازيين ولا سيا اهل مكة وما جاورها أن يستقبلوا وفود الحجاج وأن يختلطوا بهم ويتحدثوا إليهم ، فمن هنا وجدت الألفاظ والأسماء غير العربية طريقها إلى اللغة العربية ، بيد أن العرب كما قلت حرصوا على أن يعربوا ما جد على لغتهم ويخضعوه لمقاييسها ، زد على ذلك التطور العام ، وانسحاب كثير من القبائل العربية من سورية والعراق إلى أطراف الحجاز ونجد ، وهجرات غير العرب الى البلاد العربية مثل : اليهود فى المدينة وخيبر وفى وادى القرى ، ومثل بقايا الفرس فى جزيرة العرب .

٩ ـ لا شك فى أن اللغة العربية ، تطورت وتهذبت واتسعت ولا تزال تتسع ، وأنها فى تطورها سايرت الأحداث والبيئات ، فتطورها واتساعها فى العراق غير تطورها واتساعها فى داخل « نجد » و « الحجاز » . فإذا كان للأحداث والبيئة العراقية شأن فى هزّ قواعدها وتحريف لفظ حروفها ، فإن للأحداث العربية داخل الجزيرة وبيئة قلب العروبة شأنا فى صياغة مقوماتها وقواعدها وخصائصها ونطقها ـ عن التحريف والتغيير .

أما التطور الطبيعى ، فمن الحقائق المسلم بها : أن مفردات اللغة منها الذى يحافظ على وجوده كأسماء الأعلام والكلمات التى لا غنى عنها لحياة الإنسان العامة ، ومنها ما

---

( ١ ) طبقات محمد بن سلام الجمحى ص ١٠ .

( ٢ ) تاريخ ابن كثير ١٢١ .

يبلى ، ويقدم كأسماء مستحدثات الأجيال والكلمات التى تخص حياة قبيلة دون اخرى .
فما من لغة تقيدت بمفرداتها ومصطلحاتها فى كل عصورها بما وضعت من اجله فى الأصل ،
فلا بد للمفردات أن تزداد كلما ازدادت الحياة سعة ، ولا بد لقواعدهـا أن تراعـى فى
المستحدثات : القياس والمصطلحات ، ولا بد للهجتها ومعانيها أن تتطور بتطور البيئات ،
ولا بد لها فى كل أطوارها من أن تحمل معانى مستحدثة ، وتنقل بالاستعارة والاصطلاح :
كثيرا من الكلمات من معنى الى آخر ، ولا بد وان تنسق منها اسماء ، ولا بد وأن يقاس
الجديد منها على القديم ، ولا بد لآدابها أن تحلق مع أخيلة الأجيال ـ ولكن تطور اللغة
شيء ، وموت اللغة شيء آخر .

١٠ ـ إن تطور اللغة العربية لم يقف عند حد زيادة المفردات وضبطها بالمقاييس
اللغوية ، وإخضاع الكلمات المأخوذة عن اللغات غير العربية ، لقواعد اللغة ومقاييسها ،
بل تجاوزه إلى استخدام مفردات اللغة وتجديد أسلوبها وتراكيبها . فنحن اليوم نستخدم
كثيراً من المفردات فى معان بعيدة الصلة بها ، لم يستخدمها العرب فى صدر الاسلام لأداء
هذه المعانى ، ونؤلف حديثاً من كلمات هذه اللغة بأسلوبنا الحاضر على غير ما ألّفها
أسلوب الماضين ولكن كل هذا لم يخرج اللغة العربية عن أصلها العربى .

ولا شك أيضاً فى أن أولئك العرب القدامى الذين انتقلوا من رمال اليمامة ، وهضاب
نجد ، وجبال الحجاز ، وأوْدية تهامة ـ إلى العراق وسورية ، قد تأقلموا هناك بطبيعة الأرض
التى انتقلوا اليها ، وخضعوا فيها لناموس التطور ، فمن الحقائق التى لا ريب فيها : أن
العرب لم يستطيعوا أن يثبتوا القومية العربية بكل مقوماتها فى العراق ، وفى سورية ، وفى
مصر إلا بعد الفتح الإسلامى . فبعد الفتح الإسلامى انتصرت القومية العربية نهائياً
وضمنت البقاء والخلود فى أطراف الجزيرة وانتصرت اللغة العربية لغة القرآن والحديث والفقه الاسلامى.

على أننا نجد اللغة العربية بعد الإسلام وبعد كل تلك الجهود الجبارة التى بذلت
لخدمتها ، والتى بدأها « أبو الأسود الدؤلى » بوضع نواة القواعد العربية وبعد كل ذلك
الاهتمام الكبير الذى تمثل فى حماس الدول الإسلامية العربية للغة العربية وآدابها ، ولتعريب
الإدارة الدولية والعلوم والفنون اليونانية والفارسية ، نجدها مع كل ذلك خضعت لقاعدة
المقايضة : خذْ وهات . فإذا كانت الشواهد التاريخية أثبتت أن الأمة الغالبـة تفـرض

عقائدها ، وتقاليدها ، ولغتها على الأمة المغلوبة . فالناس كما يقولون على دين ملوكهم ـ فإن مما ليس منه بد أن الأخذ مما للمغلوبين من طقوس مذهبية ، وتقاليد اجتماعية ، ومفردات ومصطلحات لغوية ، واقع ـ رضى الغالبون بذلك أم لم يرضوا .

فإذا كانت هذه الحال بعد الإسلام فكيف تكون الحال قبل الإسلام . أيام هاجر العرب إلى بابل و« آشور » والى « سورية » و« سيناء » و« مصر » وهم لا يعتزون بمثل هذا الدين الإسلامى ، وهم لا يحفظون كتاباً مثل القرآن العربى ؟ ! .

فلا عجب إذا ما غشى اللغة العربية ما غشيها فى العراق ، وفى سورية ، إبان العهد الحمورابى فى سواد العراق ، والعهد الكنعانى فى سورية الكبرى ، فظهرت لغة نقوشهم بصورة بعيدة الشبه عن اللغة العربية الأم ، فالساميون الذين أخضعوا السومريين لحكمهم لم يستطيعوا القضاء نهائياً على الدين والحضارة واللغة ، فكان من ذلك أن تأثر الساميون فى العراق بدين المغلوبين ، واقتبسوا خطهم وشوهت لغتهم السامية بعد أن امتزجت بعناصر كثيرة من المغلوبين[1] . فلا عجب أن تطورت اللغة العربية فى قلب الجزيرة أسلوباً وخطاً وسعة فى عصورها الجاهلية ، وأن تطورت أسلوباً وخطاً وسعة فى عصورها الإسلامية .

١٠ ـ ولماذا نذهب إلى الماضى : البعيد منه أو القريب ، وفى الحاضر الأمثلة الكثيرة ؟ ! فالمجتمع العربى اليوم برغم وعيه وانطلاقه ، ورغم اهتمام الدول العربية بالقومية العربية ، وإنشاء المجامع اللغوية التى اهتمت وما زالت تهتم بشؤون اللغة وتعريب ما يجد من مصطلحات ومستحدثات ، إما بالاستفادة من الكلمات النائمة فى بطون القواميس ، وإما بإخضاع الجديد من المستحدثات لقواعد اللغة وصرفها ـ وبرغم أجهزة الاعلام التى تملكها الدول العربية : صحافة ، وإذاعة ، ونشرات ثقافية ، وبرغم تقارب المناهج الدراسية إلى غير ذلك مما قفز بالثقافة العربية من الخصوصية القطرية إلى العمومية القومية[2] ـ برغم كل ذلك نرى الفرد فى هذا المجتمع يتكلم بلغة نصفها عربى ونصفها

---

( ١ ) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ٢٣ .

( ٢ ) لقد نشرت كلمة لى تحت عنوان حول المجمع اللغوى المقترح فى جريدة البلاد الصادرة بعدد ١٦٤٣ فى ٢٠ صفر سنة ١٣٨٤ الموافق ٣٠ يونيه سنة ١٩٦٤ بينت فيه تطور اللغة العربية .

خليط من مفردات ومصطلحات غير عربية ، فما أكثر الكلمات غير العربية واللهجات الدخيلة فى لغة الشوارع والأسواق التجارية ، وفى لغة الصناعة والزراعة والطب والسياسة ، وما أكثر الفوارق بين لغة المجتمعات العربية ! .

ولكن مع هذا هل يمكننا أن نقول : إن لغة امرىء القيس ، وعنترة قد بادت لأن كثيراً من مفرداتها لا يعرفها إلا الراسخون فى اللغة ، ولأن كثيرا من الكلمات جدت على اللغة العربية ، وكثيراً من الكلمات استخدمت اليوم فى معان لم تستخدمها فيه الأمم العربية فى جاهلية ما قبل الإسلام وفى صدر الاسلام ؟؟ . إن دهشة العربى قبيل الاسلام ، وفى صدر الاسلام ـ لو قرأ مثل هذه الرسالة التى هى مألوفة فى العصر الحاضر : [ أبرق الميكانيكى المختص بالخط الحديدى يطلب تقوية الطاقة الكهربائية ليمكن استخدامها فى لحام الأكسجين ] لا تنقص عن استغراب العربى اليوم عندما يقرأ وصف ( أم غيلان ) موقف ضرار بن الخطاب بن مرادس الشاعر ودفاعه عن نفسه : [ ما رأيت نشرة أفكل أقرب إلى حسن جلاد منه ] فالميكانيكى والأكسجين كلمتان أضيفتا الى اللغة العربية كما أضيف من قبل الإستبْرق وغيره .

لا شك أن للزمن والبيئة وتطور الحياة أثراً كبيراً فى لغة الأجيال العربية القديمة منها والحديثة ، وإنما هذا الأثر يقل ويكثر بقدر ما يقل الاحتكاك ويكثر . فلذلك كانت اللغة العربية فى ( تدمر ) متأثرة بلغات العبرانيين ، واليونانيين ، والرومانيين أكثر مما تأثرت بهذه اللغات فى ( بطرا ) .

١١ ـ فاللغة العربية غلبت على نطقها ، وعلى كثير من خصائصها فى شمالى الهلال الخصيب ، وحافظت على كثير من صفاتها فى شمالى الحجاز ونجد ، وتغلبت على غيرها فى جبال الحجاز وفى داخل نجد ، فالعبرية مثلا لم تجد مجالا فى « وادى القرى » ، وفى « يثرب » ، و« خيبر » مثل ذلك المجال الذى وجدته فى فلسطين .

فعن سلامة لغة القبائل التى تعيش داخل الجزيرة العربية من الألفاظ الدخيلة ومن الاختلاف فى مخارج الحروف يقول ( بروكلمان ) : [ أما أهل شمالى تهامة وهضبة نجد فإنهم وإن تقدموا منذ زمن طويل قبل الميلاد نحو سورية وبلاد ما بين النهرين ، فقد

احتفظوا بطابع سلالتهم الأصلى على مستوى انقى . وإن كانت بذرتهم الأولى تتألف من العرب الرحل ، وتؤيد لنا ذلك أيضا لغة شعرهم التى يسهم فيها ( العباد )[١] من نصارى الحيرة ، بمثل رعاة الغنم الوثنيين من قبيلة هذيل فى جبال الحجاز ][٢] .

وعن تأثر لغة العرب الذين جاورتهم جاليات أجنبية بألفاظ ومخارج الكلمات ولهجات تلك الجاليات ، ينقل لنا جواد على عن كتاب ( الطواف حول البحر الأريترى ) الذى عاش مؤلفه فى القرن الأول للميلاد : [ إن سكان سواحل البحر الأحمر الذين كانوا يقيمون بين مدينة ( لويكة كومة ) وبين ( مخا )[٣] على الساحل الحجازى يتكلمون بلهجات مختلفة ولغات متباينة ، قل منهم من يفهمها عن الثانى ، فبعضها بعيد عن بعض بعداً كبيراً ][٤] .

١٢ ـ فقلب البلاد العربية هو الأرض التى ظلت العروبة فيها غير مشوبة بما خالط الحياة العربية فى أطراف الجزيرة شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وسكان قلب الجزيرة العربية هم الذين استطاعوا أن يحتفظوا بالصفة العربية لغة وخلقاً وحرية ، فكل دخيل وصل إليهم انصهر فى البوتقة العربية وانطبع بالطابع العربى ، فبعد أن قام العرب بهجراتهم التى تكلمنا عن أسبابها فى البحث الخاص بالهجرات العربية فى الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وبعد أن التقوا فى مهاجرهم بشعوب آسيا الوسطى وشواطىء البحر الأبيض ، وشرقى الخليج الإسلامى كما التقى بهم المهاجرون إلى أرضهم ، فى سورية ، وفى العراق ، وفى سواحل الخليج الإسلامى من الجزيرة . وشواطىء البحر الأحمر ، وفى اليمن وحضرموت ، وبعد أن اختلطت اللغات والتقاليد والعقائد فى تلك المجتمعات بالمزيج من العناصر : أصبحت اللغة فى سورية رطانة قوامها مجموعة من اللغات واللهجات ، وانتابها فى السواحل تبلبل جعل الجار لايفهم لغة جاره كما قال صاحب ( الطواف حول البحر الأريترى ) .

---

( ١ ) العباد اسم اطلق على نصارى الحيرة .

( ٢ ) تاريخ الأدب العربى ١ / ٤١ .

( ٣ ) حقق موضع هاتين المدينتين فى الجزء الثالث جغرافية الجزيرة العربية القديمة .

( ٤ ) تاريخ العرب لجواد ١ / ٢١٢ .

ومن الثابت : أن الاتصال بين سكان الهلال الخصيب وبين سكان الأجزاء الأخرى من الجزيرة لم ينقطع . فكما كانت جماعات عربية تنتقل من الحجاز ونجد ومن اليمن الى الشمال ، كانت جماعات من الشمال تنتقل إلى داخل الجزيرة . فمع العائدين من أرض الفرات والنيل وسورية : عماليق وإرميين ، دخلت بعض اللهجات وبعض الألفاظ غير العربية فتولاها المجتمع العربى فى قلب البلاد العربية ، أو إن شئت فقل : المجمع اللغوى الفطرى - بالتعريب وفرض قواعد اللغة العربية عليها ، فها نحن نرى الكلمات الأعجمية التى وردت فى القرآن الكريم ، وفى اشعار العرب : اتخذت الصفة العربية ، ولولا الرجوع إلى القواميس والبحث عن أصلها لما عرفت أعجميتها ، وهذا ما جَعَلَ المؤرخين العرب يسمون عرب الطوْر الجاهلى الثانى : العرب المستعربة ، ولا يبعد أن يكون هذا من أسباب اختلاف اللهجات العربية ، واختلاف بعض الكلمات فى الشمال عنها فى الجنوب ، وأن يكون من ذلك الاختلاف - الاختلاف الذى نلاحظه بين لغات القبائل العربية مثل : هذه البئر ذو حفرت وذو طويت أى التى حفرت والتى طويت . ومثل : هل من أم برام صيام فى أم سفر ؟ أى هل من البر الصيام فى السفر ؟

فمما لا شك فيه : أن الصلات التى استمرت فى اليمن بين الأحباش وبين الحميريين زادت فى مسافة الفرق بين لغة حمير ولغة مضر .

فإذا كانت لغة اليمنيين فى الجنوب تختلف عن لغة الحجازيين فى الشمال اختلافاً جعل ( ابن العلاء ) لا يرى الاستشهاد بلغة اليمن فى قواعد اللغة العربية ويقول : [ ليست لغة حمير بلغتنا ولا لسانها بلساننا ]فإن هذا الاختلاف لم يكن إلا بعد أن احتك اليمنيون بالأحباش ، وإن فى بقاء اللهجة ( الأمهرية )[1] فى المناطق المتطرفة من بلاد اليمن إلى هذا القرن الذى نعيش فيه ، دليلا ناطقاً على أن اللغة العربية فى اليمن : قد تأثرت بلهجة الشعوب القاطنة فى السواحل الغربية من أفريقيا ، فكما انتقلت مع المهاجرين اللغة السامية من الجزيرة العربية إلى أفريقية من قديم الزمن ، كذلك انتقلت مع المهاجرين من

---

( ١ ) جاء فى ملحوظات ( اتولتمان ) على كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون : لغة مهرى وشحر ومسقط هى لغات مستقل بعضها عن بعض وهى وسط بين اللهجات العربية الجنوبية القديمة والاثيوبية تاريخ اللغات ص ٢٧٩ .

أفريقية هذه اللهجات التى تلاحظ فى لغة اليمنيين .

١٣ ـ ولا شك فى أن هذا الذى يلاحظ على لغة الجنوبيين وتأثرها بمختلف اللهجات هو نتيجة حتمية للاختلاط ، فمن المفروض أن يتأثر العرب فى تلك المجتمعات المؤلفة من عناصر عديدة بلغات غيرهم كما يتأثر غيرهم بلغتهم ، وأن يجد الكثير من الكلمات الأعجمية طريقه إلى داخل البلاد العربية كما وجد الكثير من الكلمات العربية طريقه إلى خارج الجزيرة ، وأن تختلف مخارج كثير من الكلمات العربية . فلقد استعربت كلمات أعجمية نطق بها العرب بالأحرف العربية وبمخارجها وبلهجتها ، واستعجمت كلمات عربية فنطق العجم بها بالأحرف الأعجمية وبمخارجها وبلهجتها ـ ولقد كان من نتيجة الاختلاط أن تفرعت من اللغة العربية لغات عامية تمتاز كل واحدة منها بلهجة فان امتزجت بها كلمات أجنبية فرضتها على اللغة الأصلية العناصر التى احتك بها العرب . وقد تكون الفوارق بين هذه اللغات العامية فى الماضى اعمق من فوارق اليوم بالنسبة لصلات الشعوب ببعضها ، فلقد كانت هذه الصلات شيئاً لا يذكر إذا ما قيست بوسائل اليوم . فمما لا مراء فيه : أن الصلات الوشيجة التى تربط شعوب اليوم قللت من الفوارق اللغوية ، ولكنها لم تمحها . فإننا ما زلنا نجد فوارق كبيرة بين لغة العامة فى مصر وبين لغة العامة فى العراق .

فإننا اليوم إذا ما استعرضنا لغة العامة فى العراق نجد لهجتها وكثيرا من مفرداتها : مزيجاً من الفارسية والتركية والانكليزية ـ وإذا ما بحثنا عن الكلمات العربية فى لغة الجزائريين نجد نسبتها جد ضئيلة . ونجد الكلمات العربية عند الجزائريين أكثرها بعيد عن لغة قريش ، وقريب من لغة الفرنساويين .

وها نحن الحجازيين ، لا تزال فى لغة سكان المدن منا بعض الكلمات واللهجات الأعجمية ، فلا تزال النسبة التركية مستعملة عندنا فنقول : « القهوجى ، والجزمجى » . ولا نزال نسمى غرفة الاستقبال « سلام لك » إلى غير ذلك من الأسماء والاصطلاحات التركية التى حملها إلينا النفوذ العثمانى ، كما هو الحال فى مصر وفى سورية ، بينما لا تزال

قبائل هذيل تتكلم لغة الشعر والأدب العربى التى نتعب فى دراستها وفهم قواعدها .

فإلى وقت قريب كانت اللهجة التركية والأسماء التركية شائعة فى رسائلنا وفى وثائقنا الشرعية وفى معاملاتنا الرسمية .

فهذه الفوارق التى نشاهدها اليوم بين لهجات الشعوب العربية فى « مكة » و « المدينة » ، وفى « الرياض » و « حائل » ، وفى « الأحساء » و « القطيف » ، وفى « دمشق » و « بيروت » ، وفى بغداد » و « الموصل » ، وفى « الكويت » و « عمان » ، وفى « صنعاء » و « حضرموت » ، وفى « الخرطوم » و « القاهرة » و « تونس » و « الجزائر » و « مراكش » - لا بد أن يجد الباحثون فى اللغة العربية القديمة مثلها وأكثر منها فى « مكة » و « المدينة » و « مدين » ، وفى « اليمامة » و « عمان » ، وفى « سبأ » و « معين » و « حضرموت » ؛ وفى « مصر » و « سيناء » ، و « القدس » و « صيدا » ، و « بابل » و « آشور » - ولا بد أن يجدوا فوارق فى النقوش التى تتفاوت امكنتها وتتفاوت أزمنتها ويتفاوت علم وتفكير الذين سجلوا ذكرياتهم وأخبارهم باللغة العربية .

فبالله عليك تخيل معى مجلسا يضم واحداً من عرب الجزائر وواحداً من عرب نجد وواحدا من عرب عمان وفكر معى كيف يستطيع أن يتفاهم هؤلاء ؟؟

١٤ - ثم الخطوط التى استخدمت فى تدوين اللسان العربى : « المسمارى » و « المسند » و « الفينيقى » و « الكلدانى » و « الإرمى » .. الخ ، وأخيرا « النبطى » الذى تطور - كما يقول أكثر علماء الآثار وخطوطها - إلى الخط العربى ، هل كانت جميعها متقاربة بشكل لا يمكن معه وجود فرق فى مخارج الحروف ؟ - وهل كانت جميعها فى مكان واحد ، وفى زمن واحد ، فتكون الفوارق فى المقومات ، والخصائص ، والأصوات ، والقواعد ، وأصول المفردات ، نتيجة لاختلاف كلى بين لغة الثموديين فى وادى القرى ، وبين لغة الحمورابيين فى وادى الفرات ؟ أم أن تلك الفوارق نتيجة لتفاوت العصور واختلاف الأجناس التى احتك بها البابليون فى العراق واحتك بها الحجريون فى الحجاز ؟؟

نحن إذا ما رجعنا إلى ما قيل عن الخط « المسمارى » - وأنه سومورى الأصل وأن

الارميين « الحمورابيين » استخدموه فى تدوين لسانهم وزادوا فيه حروفاً لم تكن فى السومورية[1] ، لا نستبعد أن يكون تدوين اللغة الارمية بالقلم المسمارى السومورى قد أضاع بعض حروفها وأثر على مخارجها ، لا سيما إذا قرأها غير العربى الارمى بعد آلاف السنين . إن مثل ذلك كمثل الأحرف الفارسية فيما لو اتخذناها لكتابة اللغة العربية ، وها نحن نرى الأسماء العربية التى دونت باللغة الإنجليزية ثم أعيدت إلى اللغة العربية ، تعود لنا محرفة النطق ، فنحن نقرأ اسم ( قتبان ) الدولة اليمنية فى بعض المؤلفات التاريخية كذا ( قطبان ) إلى غير ذلك مما حرفه الناقلون عن المستشرقين ، كما أننا نحن العرب قد حرفنا كثيراً من الأسماء الأعجمية ، بل حرفنا بعض الكلمات العربية واستخدمنا بعضها فى معان لم يستعملها فيها العرب الجاهليون ، ولقد هجرنا بعض الكلمات فأصبحت غريبة فى مجتمعنا ، وأحيينا كلمات أكل الدهر عليها وشرب . فمما لا شك فيه أن الكلمات العربية التى نستعملها اليوم ، وأن الكلمات العربية التى كان العرب يستعملونها فى جاهليتهم هى فى اللغة العربية سواء ، وأن الفرق بين لغة القواميس وبين لغة الصحف ، نشأ من استعمال بعض الكلمات وهجر البعض الآخر ، وبالنسبة للمعانى التى اتخذت لها مفردات اللغة العربية فى الماضى ومعانيها فى الحاضر .

١٥ ـ أجل ! لا بد من ان تكون فوارق بين لغة الحجاز ونجد قبل الميلاد بألف عام وبين لغة الحجاز ونجد بعد الميلاد بخمسمائة عام ، مثل الفوارق التى نجدها اذا ما قابلنا بين اللغة العربية فى الحجاز ونجد فى صدر الاسلام ، وبين اللغة العربية فيهما فى أواخر العهد العثمانى ، ولكن تلك الفوارق لا تحمل على الاعتقاد بأن لغة العرب البائدة : « عاد » و« ثمود » و« العماليق » و« جرهم الأولى » إلخ .. قد بادت وأن اللغة العربية فى أزمنة ما قبل الميلاد لا تمت بصلة الى اللغة العربية فى أزمنة ما بعد الميلاد .

ولا بد أن تكون فوارق بين لغة العرب فى قلب الجزيرة ، وبين لغة العرب فى أطرافها ، ولا بد لهذه الفوارق من الظهور على نقوش الآثار . ولا نستبعد أن تكون ترجمة المستشرقين لها وترجمتها من لغاتهم الى اللغة العربية قد زادت فى تلك الفوارق ولكن تلك الفوارق لا

( ١ ) العرب قبل الاسلام لجرجى زيدان ص ٥٨ .

تحمل على الاعتقاد بأن اللغة العربية لا تصلح لأن تكون الأم للغات السامية .

فكثير من المستشرقين يصرّ على أن لغة النقوش المعينية القديمة هى القنطرة الى البابلية والمصرية القديمة ، وهى قريبة جداً الى العربية القديمة عربية الشعر الجاهلى . إلا أنها أقرب ميلا الى الحبشية ، فالقرابة قوية جداً بين النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية لكن الخلاف فى درجة القرابة ونوعها(١) .

فهذا التحقيق المستشرقى أثبت لنا : صحة ما استعرضناه من قبل وأكد لنا : تأثير الاحتكاك على اللغة ، فالشعب المعينى الذى احتك بالبابليين ، واحتك بالمصريين ، واحتك بالأحباش ، تأثرت نقوشه بلهجات ونقوش تلك الشعوب ، وبذلك أقيمت القناطر التى عبرت بها اللغات واللهجات من مكان إلى آخر .

فمهما طال البحث فى أصل اللغة العربية وأبجدياتها وحروفها ، ومهما جمع البحث من الآراء والنتائج التى وصلت إليها ، فإنّ من المرجح جداً أن اللغة العربية القديمة فى قلب الجزيرة هى لغة العرب التى لم يشبها ما خالط لغة أبناء عمومتهم الذين نزحوا الى المناطق المزدحمة بالعناصر غير العربية والذين عرفوا فى البحوث المتأخرة بالساميين .

ومن المرجح جداً : أن اللغة العربية هى أم اللغات السامية ، ولقد سبقت الأدلة التى تؤكد : ان اللغة التى كان الساميون يتكلمون بها فى مهدهم الأول هى : الأم ، وأن هذه الأم قد احتفظت بصفاتها الأصلية فى البلد الذى لم يشارك الساميين فيه غيرهم من عوالم الماضى التى اكتظت بها ضفاف الأنهار وسواحل البحار ، ولم يكن هناك بلاد تمتع الساميون فيها بالاستقلال الكامل فى كل ناحية من حياتهم غير قلب الجزيرة العربية ، ولغة قلب الجزيرة العربية تتفق المصادر العربية على أنها اللغة العربية .

ومن المؤكد : أن اللغة العربية التى كانت تتحدث بها الشعوب التى عرفت فى التاريخ العربى بالعرب البائدة عاد ، ثمود ، طسم ، جديس ، العماليق ، جرهم الأولى إلخ ، هى

---

**( ١ ) التاريخ العربى القديم ص ٦٠ و ٦٢ ويقول فرتزهومل فى ص ٦٠ عن القرابة بين الأبجديتين فإما أن الأبجديتين نشأتا عن أبجدية واحدة وهى بمثابة الأم لهما وأن هذه الأبجدية الأم كانت موجودة حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . وإما أن الأبجدية العربية الجنوبية تفرعت عن الأبجدية الكنعانية مع تغيير بسيط أو العكس هو الصحيح أعنى أن الأبجدية الكنعانية هى التى تفرعت .**

اللغة التى كانت تتحدث بها « قريش » و « الخزرج » و « غطفان » و « هـوازن » .. إلخ ، وأن ما دفن وتطور من الكلمات التى كانت مستعملة فى عصور العرب البائدة والتى قد تظهر على النقوش الأثرية هو مثل ما دفن من الكلمات التى كانت تستعمل فى جاهلية ما قبل الإسلام ، والتى نجدها فى بطون قواميسنا العربية .

فلقد أكد الطبرى بكثير من روايات المؤرخين[1] : أن ولد إرم بن سام بن نوح ، « غاثر » و « عاد » و « عبيل » و « ثمود » و « جديس » . كانوا قوماً عرباً يتكلمون بهذا اللسان المضرى فكانت العرب تقول لهذه الأمم العرب العاربة لأنه لسانهم الذى جبلوا عليه .

ولقد جاء فى كلام ( بروكلمان ) عن لغة الشعر العربى : [ وقد استوعبت لغة الشعر هذا كل خصائص الأصل اللغوى السامى أكمل استيعاب ، وإن لم تحتفظ فى جميع نواحيها بأقدم الصيغ والقوالب ولم تضارعها لغة من نسبها السامى فى مرونتها ودقتها فى التعبير عن العلاقات التركيبية ][2] .

ولقد مر بنا ما جاء فى تحقيق ( فرتز هومل ) عن اللغة المعينية وقربها جداً إلى العربية القديمة عربية الشعر الجاهلى ـ ولقد أكد هذا الرأى ( أولسهوزن ) فقال :

[ إن اللغة العربية هى أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة ][3] .

ولقد أثبت التحقيق العلمى : أن كثيراً من الكلمات العربية باقية على أصلها القديم يستعملها العرب إلى ما بعد الاسلام مثل : ( اليم ) بمعنى البحر والماء . و ( العم ) بمعنى الخلق الكثير و ( أرخ ) بمعنى وقت إلى غير هذه الكلمات التـى تجدهـا فى البحـوث اللغوية .

هذا ولا يستبعد أن نجد أدلة غير هذه إذا ما بحثنا عن الخطوط القديمة التى دونت بها اللغة العربية .

---

( ١ ) تاريخ الطبرى ١ / ١٤٠ وما بعدها .

( ٢ ) تاريخ الأدب العربى ١ / ٤٢ .

( ٣ ) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ٧ .

البحث التاسع

# تاريخ الخطوط التي دُونت بها اللغة العربية وأبجديتها

من موضوعات البحث :

١ ـ ظنون المستشرقين تخطىء وتصيب
٢ ـ أين كان مولد الأبجدية الأم ؟
٣ ـ لم تكن اللغة العربية ـ إبان الهجرات القديمة ـ اللغة الوحيدة فى الشرق العربى

# تاريخ الخطوط التي دونت بها اللغة العربية وأبجديتها

حق علينا أن نعترف بأن الفضل فى معرفة الخطوط القديمة التى دونت بها اللغة العربية يرجع إلى النصوص التى اكتشفها الباحثون عن الآثار ، وأن الفضل فى اتساع دائرة التحقيق فى الخطوط الأثرية يرجع إلى المستشرقين الذين بذلوا مجهوداً كبيراً فى دراسة الآثار وتحقيق تواريخها .

١ ـ وحق علينا ونحن نعترف بفضل الآثار وبجهد المستشرقين : ألا ننسى أن كثيراً من الآراء المستشرقة فى كثير من بحوث اللغات السامية وأبجديتها وخطوطها ، لا تعدو الظنون التى قامت على الاجتهاد ، وأن المجتهد قد يخطىء وقد يصيب ، زد على ذلك اختلاف الآراء وتعارضها وما يترتب على هذا الاختلاف من ضرورة التقصى للأخذ بالأصح وترك السقيم ، فمن أمثلة هذا الاختلاف ، رأى الدكتور ( ديتلف نيلسن ) الذى يؤكد : [ أن الشبه بين العربية الجنوبية والسامية الشمالية الآرامية والكنعانية ضعيف جداً ولو أنها ترجع جميعها إلى عصر واحد] [١] فهذا الرأى يتعارض مع رأى الدكتور ( فرتز هومل ) : [ فمن المحقق الآن أن القرابة قوية جداً بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية ، وبين الأبجدية الفينيقية ، لكن الخلاف حول درجة القرابة ونوعها ، فإما أن الأبجديتين نشأتا عن أبجدية واحدة هى بمثابة الأم لهما ، وأن هذه الأبجدية الأم كانت موجودة حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . وإما أن تكون إحدى الأبجديتين متفرعة عن الثانية] [٢] .

ويرى « ديتلف نيلسن » : أن الصفويين هم مثل سائر القبائل العربية هاجروا من جزيرة العرب إلى الشمال فسكنوا فى منطقة الصفاة : [ فالصفويون إذن كما يرى « ديسو » فى بحثه عن هذه القبائل لم يكونوا أول ، أو آخر من سار فى هذا الطريق إلى البلاد الموعودة . بل هم أول من خلف آثاراً فى هذا الطريق ـ فالصفويون هم الوحيدون الذين

---

( ١ ) التاريخ العربى القديم ص ٢٧ .

( ٢ ) نفس المصدر ص ٦٠ .

نعرف شيئاً عنهم قبل أن يمتزجوا فى الشعوب السامية [ ، وقد علق « جواد على » على هذا الرأى قال : [ إن كلمة الصفويين لا تعنى شعباً معيناً أو قبيلة معينة وإنما هى اصطلاح أوجده ( هاليفى ) ليطلق على الكتابات التى عثر عليها فى مواضع متعددة ـ لذلك يجب ألا يفهم أننا نقصد فى بحثنا هذا جماعة خاصة أو قبيلة خاصة [ [1] .

فعلى الذى يريد أن يستخلص نتيجة مرتبطة الحلقات تلقى الضوء ولو قليلا على أصل الأبجديات والخطوط التى دونت بها اللغة العربية فى مختلف أقطار الجزيرة العربية ، أن يتذرع بالصبر والأناة فى بحثه عن الأدلة التى تبين كيف تطورت الأبجدية العربية وخطوطها الى الصورة التى هى عليها اليوم ، وأن يدور مع الآراء والظنون بيقظة وانتباه وحذر .

٢ ـ وأول نقطة يبدأ منها الدوران هى : معرفة أين كان مولد أم الأبجديات السامية ؟

فى رأى البعض أن الإشارة هى الأولى التى خاطب بها الانسان أخاه الانسان ثم أخذت الإشارة تتطور إلى رسوم يعبر بها الانسان عن غرضه ، ومن هنا بدأت الأبجدية تتكون ، وبدأت حروفها تتبلور إلى أن وصلت إلى الشكل الذى وجدها عليه الأثريون .

وفى ظنون القدامى من المؤرخين العرب : أن محاكاة الأصوات هى الخطوة الأولى التى حاول فيها الانسان أن يعبر بلسانه عما يجول فى خاطره . فأصل اللغة فى رأى هؤلاء [ إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك [ [2]

على أنه مهما كان أصل الأبجدية ، ومهما كان أصل اللغة فان الشعوب السامية : « البابلية » و « الآشورية » و « الكنعانية » و « الارمية » و « الهكسوس » ـ انتقلت من الجزيرة العربية إلى أطرافها بعد أن قطعت مرحلة طويلة فى الحضارة والثقافة ، واجتازت

---

( ١ ) جواد ٤٣٦ / ٣ والتاريخ العربى القديم ص ٤٧ .

( ٢ ) المزهر ١ / ١٥ .

مرحلة الاشارة ومحاكاة الأصوات ـ فتاريخ المعابد فى داخل الجزيرة العربية ، وتاريخ استخراج النحاس فى عُمان ، وتاريخ الملاحة فى شواطىء الخليج الإسلامى ، أقدم من تاريخ الهجرات السامية ، ومما لا يقبل الشك فيه : أن هذه الشعوب انتقلت إلى مهاجرها قارئة كاتبة بأبجدية وسعت ما يستلزم العبادة من أدعية وصلوات ، وما يستلزم التجارة بالنحاس ، والذهب ، والبخور ، والأخشاب ـ من اعتمادات وعقود ، وما يستلزم النقل البحرى من اتفاقيات ومستندات ، وإن كانت بدائية فهى على كل لا بد أن تكون مستندات وعقوداً تضمن الحقوق .

فلقد افترض ( جواد على ) فى كلامه عن الكتابات : « المسندية » و « اللحيانية » و « الثمودية » و « الصفوية » : أنها متفرعة من أصل واحد [ والأقلام المذكورة ـ حاشا : النبطى المتأخر ، متقاربة بعضها من بعض متشابهة فى رسم الحروف ، تفرعت على ما يظهر من أصل واحد . وهو على الجملة أقدم عهداً من القلم النبطى المتأخر ، يتبين لنا من انتشارها فى منطقة واسعة خاصة فى الأرضين التى تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات ( بنى إرم ) ومن تقاربها من المسند أنها تفرعت من أبجدية واحدة كانت الأبجدية الرائجة فى بلاد العرب قبل الميلاد وبعده [ (١) .

فهذا الذى يفترضه ( جواد على ) فى القرون الأخيرة التى سبقت الميلاد ـ والقرون الأخيرة التى سبقت الخط القرشى بعد الميلاد ـ افترض فى أبجديات العصور المتقدمة « الكنعانية » و « المعينية » ، فحول هذا الافتراض حام جرجى زيدان عندما قال : [ وبسبب ناموس التدرج تشعبت لغة بدو الآراميين إلى اللغات : البابلية والإرمية والسبائية أو الحميرية ولغات عرب الحجاز وغيرها ومن جملتها لغة صدر الإسلام ] (٢) وعن الأبجديتين الكنعانية والمعينية قالوا : إن القرابة بينهما قوية جداً فلا يبعد أن تكون الواحدة مشتقة من الثانية إذا لم تكن أرومتهما واحدة ، ووطن هذه الأرومة إما أن يكون أرض كنعان أو بلاد العرب الجنوبية (٣) .

---

( ١ ) جواد ٣ / ٤٢٥ .

( ٢ ) العرب قبل الاسلام ص ٩٦

( ٣ ) التاريخ العربى القديم ص ٦٠ .

٣ ـ على أن هذا لا يعنى أن الأبجدية العربية وأن اللغة العربية إبان الهجرات السامية الأولى هى اللغة الوحيدة التى سادت منطقة الهلال الخصيب من الجزيرة العربية ، وأن الأبجدية العربية هى الأبجدية الأولى التى عرفها سكان العراق وسورية ومصر .

فلقد أثبت البحث : أن البابليين دونوا لغتهم بالأبجدية السومورية المسمارية ، وأنهم زادوا على هذه الأبجدية بعضاً من حروف أبجديتهم ، واستغنوا عن بعضها بما فى المسمارية من حروف تؤدى معناها [١] .

ولقد اختلف المستشرقون فى أى الأبجديتين الصوريتين أقدم ؟ هل هى أبجدية وادى النيل الهيروغليفية ؟ أو هى أبجدية أرض الفرات المسمارية ؟ ، فمن العلماء من رأى أن الأبجدية الأولى هى التى ظهرت فى العراق فى ( كلديا ) بتأثير عبادة النجوم ، ومن تلك الرموز التى وضعها الكهنة للنجوم أخذت الأبجدية الأولى : « الألف با » التى صارت أماً لمجموعة من الأبجديات . ومن القائلين بهذه النظرية والمدافعين عنها ـ هومل ـ الذى أنكر أن تكون مصر هى المهد الأول للكتابة [٢] .

وبعد فالذى يتبين لنا من هذه الأدلة التى استعرضناها : أن الأبجدية الأم هى أبجدية مهد الساميين ـ الجزيرة العربية ـ الأبجدية التى تنتمى إليها أبجدية الكنعانيين التى عاصرت الأبجديتين الصوريتين : السومورية ، والفرعونية ـ والتى صانها الكنعانيون عما أصاب أبجدية البابليين فى العراق .

والذى علينا بعد هذه الأدلة التى تقدمت هو : البحث فى الخطوط السامية وأبجدياتها التى دونت بها اللغات السامية فى الجزيرة العربية ، لنكون على بينة من هذه الخطوط .

ففى معرفة الخطوط وتواريخها وتطوراتها الكثير مما ينير بعض الجوانب من التاريخ العربى القديم .

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام ص ٥٨ .

( ٢ ) جواد ١ / ٢٠٢ وجاء فى تحقيق « ديورانت » : أن الكتابة التصويرية التى كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومور يين : قصة الحضارة ٢ / ٤٤ .

البحث العاشر

# الخط البابلي الآشوري

من موضوعات البحث :

١ ـ التدوين بالخط المسمارى أثر على اللغة العربية
٢ ـ كيف حرَفت اللغة العربية فى بابل ؟
٣ ـ انتشار الخط المسمارى
٤ ـ اختلاف الرأى فى رسم الخط المسمارى
٥ ـ لم دون البابليون بالخط المسمارى ؟

# الخط البابلي الآشوري

من التكرار الذى لا لزوم له إعادة الكلام عن الساميين فى العراق ، وأنهم من الأرومة العربية ، وأنهم نزحوا من مكان ما فى الجزيرة العربية إلى شماليها وتسموا هنالك بأسماء أُخْتُلِفَ فى أصلها ، فقال بعضهم : إنها فى الأصل أسماء للأرضين التى حلوا بها مثل : آشور وعيلام ، وبابل . فآشور فى اعتقاد البعض اسم أرض أو بلد فى شمالى العراق ، والعيلم فى اللغة العربية الماء الذى علته الأرض [1] ، وقال بعض النسابين : إن آشور وعيلم اسمان لا بنين من أبناء سام .

١ ـ فمنذ استطاع العرب بقيادة ( سرجون ) الأول إعادة العراق الجزء الطبيعى من الجزيرة العربية إلى عروبته سياسياً وحضارياً ، بدأوا يدونون لغتهم بالخط المسمارى السومورى ، وأخذوا يضيفون إليه حروفاً من لغتهم فى الوقت الذى أضاعوا فيه بعضاً من حروف لغتهم ، مثل حروف التضخيم والتفخيم العربية : ( الطاء والظاء والضاد ) ومن حروف الحلق ( الحاء والعين والغين والهاء ) [2] .

واختلاط الأبجديتين العربية والسومورية ، واتخاذ الخط المسمارى للتدوين هوصورة من صور الحضارة العربية التى قامت فى العراق . فلقد نشب فى العراق منذ القدم صراع عنصرى بين العرب والعناصر الأخرى . فبالانتصار العربى الذى أحرزه ( سرجون الأول ) انتصرت الحضارة العربية التى لم ترفض ما وجدته مفيداً لها من الحضارة السومورية ولكنها حرصت على أن تطبعه بالطابع العربى ، ما استطاعت ، وبذلك أتيح للعرب أن يقضوا على كل ما هو سومورى فلم تقم للسومورية بعد ذلك الانتصار العربى قائمة ولم يعد اسم السومورين فى العراق إلى الوجود مرة ثانية . واختفت اللغة السومورية

( ١ ) تاج العروس مادة علم .

( ٢ ) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ٣٩ .

ولم تعد باقية إلا فى الطقوس الدينية [1] .

ولكن العرب مع ذلك الانتصار ، أضاعوا كثيراً من الصفات العربية بتأثير البيئة والعناصر التى كانت تعيش فى العراق قبل الفتح العربى . ففى مقدمة هذه الصفات التى لم يستطيعوا الحفاظ عليها : اللغة . إذ كان من العسير على السوموريين وغير السومورين أن ينطقوا باللغة العربية مثلما كان ينطق بها العرب ، فكان مثل اللغة العربية فى بابل مثل اللغة العربية فى البربر . كما يقول ولفنسون : [ بعد أن تغلب العرب على البرابرة فقد أخذت اللغة العربية تتغير شيئاً فشيئاً بسبب اختلاط العرب بالبربر وجعلت تتأثر باللغة البربرية تأثراً ظاهراً حتى تكونت من النطق المشترك لهجة جديدة بعيدة عن اللهجة العربية الصرفة ] [2] .

٢ ـ ويوضح لنا ولفنسون اتساع الفجوة بين اللغة العربية وبين لغة الآثار البابلية عندما صحح اسم ( حمورابى ) الملك العربى الذى أطلق اسمه على أبرز الدول العربية القديمة فى العراق ، فلقد افترض أن هذا الاسم مركب مزجى وأن أصله بالنسبة للغة العبرية ( عمو ) اسم إله من أقدم آلهة الساميين و ( ربى ) بمعنى ربى فيكون الاسم فى الأصل ( عمو ربى ) أى ( الله ربى ) [3] .

وفى رأيى : أن هذا الاسم بالنسبة للغة العربية هو فى أصله ومعناه العربى : ( رب الشعب ) أو ( سيد الشعب ) فإن هذا الاسم اقرب إلى مركز حمورابى فى الشعب البابلى وفى العقائد البابلية ـ فكلمة ( عامو ) فى اللغات السامية معناها الشعب [4] وحرف الواو ( و ) يزاد فى اللغة البابلية فى آخر كثير من الكلمات علامة للرفع [5] مثل ( عام ـ عامو ، أمة ـ امتو ، وبرق برقو إلخ ) . وفى اللغة العربية ( العم ) جماعة من النـاس كما فى الصحاح وقيل من الحى وزاد بعضهم : ( أن العم الخلق الكثير ) وهذا ما عناه الشاعر عندما قال :

---

( ١ ) بلاد ما بين النهرين ص ٢٠ .

( ٢ ) تاريخ اللغات السامية ولفنسون ص ٣٩ .

( ٣ ) ولفنسون ص ٢٦ .

( ٤ ) العرب قبل الاسلام لجرجى زيدان ص ١ و ٦٧ .

( ٥ ) جرجى زيدان نفس المصدر ص ٧٤ وولفنسون ص ٢٨٣ وما بعدها .

« يريـــغ إليـــه العـــم حاجـــة واحد     فأبنـــا بحاجـــات وليس بذى مال » [1]

فاللغة العربية كما تقدم هى أصل للغة البابلية وفى اللغة العربية كثير من الكلمات التى مازالت حية منذ آلاف السنين مثل ( اليم . أرخ . أم . أخ . أمة .. إلخ ) .

على أنه مهما تكن صحة اسم حمورابى . فإن البحث الذى أثاره ولفنسون فى تفسير هذا الاسم يدلنا على اتساع الفجوة بين اللغة العربية وبين اللغة البابلية ، كما جاءت فى الكتابات الأثرية ، ولقد زاد فى اتساع هذه الفجوة : أن الذين قرأوا نقوش الآثار البابلية لا يعرفون اللغة العربية كما يعرفها مؤلفا « تاج العروس » و« لسان العرب » ، وأن الذين قرأوا هذه الخطوط ليسوا من أولئك الذين عاشوا فى العراق قبل أربعة آلاف سنة ، فكم حرف المستشرقون الأسماء والكلمات العربية القريبة العهد منا ، فكيف بالاسماء والكلمات القديمة العهد ؟؟ . إنهم حرفوا اسم ( أبى على بن سينا ) فقالوا عنه : ( أفيسنا ) واسم ابن رشد فقالوا عنه ( أفيروس ) واسم ابن الهيثم فقالوا عنه ( الهايزيم ) وأبو القاسم فقالوا عنه ( البوكاسيس ) [2] .

٣ ـ والخط المسمارى الذى عاش فى بابل ثلاثة آلاف عام أى إلى القرن الأخير الذى سبق الميلاد والذى انتشر فى : عيلم ، والفـرس . وإرمينيـا ، وفلسطـين . والـذى كان الفرعون المصرى ( حوتب ) الرابع يراسل به أمراء فلسطين ، هو فى بحث ولفنسون أوسع الخطوط القديمة انتشاراً ، ولكن ما اقتنع به ولفنسون فى بحثه الذى جاء فيه : [ ويمكننا أن نقول إن انتشار هذا الخط لم يكن له نظير فى العصور القديمة ، ولم يعرف لخطٍ من الخطوط انتشار واسع كهذا إلا بعد انتشار الخط اللاتينى والعربى ] [3]. لم يقتنع به جواد على الذى يقول : [ وبذلك ثبت علمياً أن الخط المسند كان معروفاً قبل الإسلام فى كل شبه جزيرة العرب ، وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح ] [4] فالخط المسند فى رأى جواد فى زمنه أعم من الخط المسمارى .

---

( ١ ) تاج العروس مادة عم .

( ٢ ) التاريخ الجغرافى القديم المقدمة ص م .

( ٣ ) تاريخ اللغات السامية ص ٤٠ .

( ٤ ) جواد ١ / ١٩٤ .

٤ ـ وكذلك يختلف ولفنسون مع جرجي زيدان في شكل الخط المسماري ـ فجرجي زيدان يثبت بمصادره أن الخط المسماري صوري مثل الهيروغليفي المصري فهو يقول : [ وكان القلم المسماري في أصل وضعه صورياً مثل الهيروغليفي المصري ثم تشوه شكله بالاستعمال وباستخدام المسامير في طبعه على الطين ] (١) بينما يقول ولفنسون : [ وليس يجري الخط المسماري على نظام الخط الهيروغليفي الذي يعتمد على الصور ، ولا على النهج الكنعاني الذي يعتمد على الحروف بل له نظام خاص ليس بصوري وليس بحرفي ، وقد نشأ على نظامه هذا في أحواله الخاصة وتدرج فيه تدريجاً طبيعياً محضاً ](٢) .

بيد أن ولفنسون تراجع أخيراً فلم يذهب بعيداً عما قاله جرجي زيدان عندما قال : [ ويستعمل الخط المسماري على نوعين من العلامات ، ويشتمل النوع الأول منهما على علامات تعبر عن معنى كلمات كاملة كانت في بادىء أمرها صوراً كالخطوط الهيروغليفية ، ولكنها بعد استعمال القلم المسماري انقلب شكلها وصارت خطوطاً لا علاقة بينها وبين الصورة الأصلية التي تعبر عنها ](٣) .

فالذي يظهر مما جاء في كلام ولفنسون عن انتشار الخط المسماري أولا ، وما جاء فيه عن اختلاف الخط الكنعاني ـ الحرفي ـ ثانياً ، أنه يقصد بما جاء في كلامه عن انتشار الخط المسماري في الهلال الخصيب ووصوله إلى مصر أن هذا الخط كان معروفاً وشائعاً في كثير من البلاد العربية ، لا أنه كان خط الشعوب العربية مدى ثلاثة آلاف عام ، وهذا هو المعقول ، وهذا الذي أكده ولفنسون نفسه عندما قال عن الخط المسماري : [ ولا على النهج الكنعاني الذي يعتمد على الحروف ] فالخط الكنعاني معاصر للخط المسماري ، والخط الكنعاني كما سيأتي هو إما أن يكون الأصل للخطوط العربية جميعها ما عدا البابلي المسماري ، والمصري الهيروغليفي ، أو من الأرومة التي تفرعت عنها هذه الخطوط . وذلك

---

( ١ ) جرجي العرب قبل الاسلام ٥٨ .

( ٢ ) تاريخ اللغات لولفنسون ص ٣٤ .

( ٣ ) نفس المصدر ص ٣٥ يوضح ولفنسون النوع الثاني بالحروف في الجداول التي أثبتها في كتابه . وحيث إن المهم هو التراجع الذي ظهر في كلامه عن النوع الأول . نكتفي بهذا القدر من كلامه .

ما سيظهر لنا واضحاً فى البحث الآتى : الخط الفينيقى وأبجديته .

والذى يظهر أيضا : أن الخط المسمارى كان فى بدايته صورياً ، وأنه خرج عن صوريته للأسباب التى ذكرت ، مثلما كانت اللغة البابلية التى دونت به عربية وأنها خرجت عن عربيتها بتأثير أبجدية هذا الخط وبتأثير نطق العناصر التى كانت تتكلم بها .

والذى لا شبهة فيه أن الخط المسمارى هو من أقدم الخطوط التى دونت بها اللغة العربية ومن أشهرها ومن أكثرها شيوعاً .

٥ ـ وإنما السؤال الذى يقتضى البحث : الجواب عنه ـ هو : لمَ ترك البابليون أبجديتهم وخطها ودونوا لغتهم بالمسمارية ؟ ولم لم يفعلوا كما فعل أبناء عمومتهم الفينيقيون ؟

ومما يلاحظ أن العرب الذين هاجروا إلى سورية ـ استطاعوا الحفاظ على لغتهم أكثر مما حافظ عليها البابليون ، لأن العرب فى سورية لم يواجههم وضعٌ كالذى واجه العرب فى العراق . فلقد حفل العراق بحضارة السوموريين التى اعتبرت أقدم وأعرق من الحضارة المصرية . فكان على العرب وقد تم لهم النصر السياسى : أن يحرصوا على الاستفادة من حضارة العراق لإقامة دعائم الحضارة العربية . فالقضاء على الأبجدية السومورية معناه القضاء على ثقافة غنية بموادها ، فلذلك نراهم قد اتخذوا الخط السومورى خطاً للغتهم مع إضافة الحروف التى لابد من إضافتها ـ تاركين لنشوء الحضارة العربية فى ربوع العراق وارتقائها تعريب الخط السومورى . وفعلا أخذ هذا الخط يفقد صوريته بفعل النقش بالمسمار كما علله المستشرقون ، أو بعوامل بابلية كما هو المنتظر من الحضارة التى قضت على كل ما هو سومورى فى العراق . ولقد رأينا كيف اختلف جرجى زيدان ، وولفنسون فى حقيقة الخط المسمارى : أهو صورى مثل الهيروغليفى ؟ أم لا ؟ ولقد رأينا كيف ساد الخط الإرمى أخيراً فى العراق .



البحث الحادى عشر

# الخط الكنعاني . الفينيقي

من موضوعات البحث :

١ ـ كنعان وفينيق اسمان أطلقا على شعب واحد
٢ ـ الشبه بين لغة الساميين فى الهلال الخصيب مثل الشبه بين لغة الساميين فى الجنوب .
٣ ـ ليست الأبجدية الفينيقية مشتقة من الهيروغليفية المصرية
٤ ـ لم يأخذ الفينيقيون الاختزال من المصريين
٥ ـ اللغة العبرية وخطها مشتقان من اللغة الكنعانية وخطها
٦ ـ اليمنيون ينكرون اشتقاق القلم المسند من القلم الكنعانى
٧ ـ اللغتان : الكنعانية والبابلية صنوان
٨ ـ الخط الكنعانى أصل للإرمى
٩ ـ إن التغيير الذى يلاحظ على اللغة الفينيقية وخطها المتأخر هو : تطور لابد عنه .



# الخط الكنعاني . الفينيقي

١ ـ لافرق بين الاسمين ( الكنعانى ) و ( الفينيقى ) . فاسم ( كنعان ) الذى أطلق على سورية ـ فلسطين ـ أصله فى تحقيق الدكتور فيليب حتى : ( حورى ) ومعناه ( الأرجوان ) ، والأرجوان فى اللغة الكنعانية يسمى ( كنع ) ، وعلى أساس ذلك نسبت تلك القبائل التى عرفت الأرجوان وتاجرت به بالكنعانية ـ أى الأرجوانية ـ واسم ( فينيق ) أصله إغريقى ومعناه أيضاً ( الأرجوان ) وقد أطلقه الإغريق على القبائل الكنعانية ، فالفينيقية فى اللغة الإغريقية معناها الأرجوانية كما أن الكنعانية فى اللغة الحورية معناها الأرجوانية ، ثم أصبح اسم فينيقى فى أوائل القرن الثانى عشر مرادفاً لاسم كنعانى[١] .

أما فى غير تحقيق ( فيليب حتى ) فاسم كنعان أصله سامى ومعناه الأرض المنخفضة ، وأما عند النسابين فكنعان اسم الجد الأول للشعوب الكنعانية ، وذلك جرياً على القاعدة التى سار عليها النسابون فى إرجاع كل أمة من أمم الماضى إلى جد واحد أسموه بالاسم الذى عرفت به تلك الأمة مثل : ( آشور ) و ( قحطان ) و ( سبأ ) إلخ .

ومن الثابت فى تحقيق المؤرخين عرباً ومستشرقين : أن الشعوب العربية التى انتقلت من الجزيرة العربية إلى شماليها فى سورية فى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد لم تكن هى تلك الشعوب التى انتقلت من منخفض الساحل الشرقى للخليج الاسلامى وعرفت فى المصادر الإسرائيلية باسم كنعان فحسب ، بل منها العماليق ، ومنها شعوب ذكرتها التوراة بهذه الأسماء : اليبوسى ، والأمورى ، والفريرى ، والحوبى ، والجرجاشى[٢] ، وأن هذه الهجرات الكبيرة سبقتها هجرات التجار وطلاب المراعى من البادية .

---

( ١ ) لبنان فى التاريخ ص ٨٢

( ٢ ) ولفنسون ص ٥٦ وتاريخ القدس لعارف باشا ص ١١ ومابعدها .

٢ ـ وفى رأى بعض المستشرقين : أنه كان بين اللغة الكنعانية واللغة البابلية شبه كبير اعتمد عليه ذلك البعض فاعتبر اللغتين كتلة لغوية واحدة تماثل الكتلة اللغوية الجنوبية المكونة من اللغات السامية فى جنوب الجزيرة والحبشة ، واستنتج ولفنسون من ذلك : ( أن كل تلك القبائل السامية التى نزحت إلى العراق وسورية وأسست فيها الحضارة ، كانت قبل نزوحها فى منطقة واحدة تتكلم بلغة سامية ذات لهجات متقاربة )[١] .

٣ ـ وفى رأى بعض آخر من المستشرقين : أن الأبجدية الفينيقية مشتقة من الهيروغليفية على أساس أن الهيروغليفية أقدم الأبجديات ، وقد عارض ( هومل ) هذا الرأى منكراً أن تكون مصر هى المهد الأول للكتابة ، وذهب مع الذين يقولون : ( إن الأبجدية الأولى ولدت فى العراق فى ( كلديا ) بتأثير النجوم )[٢] .

ولقد اتخذ أنصار الرأى القائل بأن ( الهيروغليفية ) هى أم ( الفينيقية ) ، من الكتابة ( الطورسينائية ) التى عثر عليها مؤخراً فى شبه جزيرة سيناء ، والتى يعود تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ ق . م ، دليلا يرجح رأيهم . فقالوا عن هذه الكتابة : إنها الحلقة المفقودة التى تربط بين الفينيقية والهيروغليفية .

والذى يبدو من تعارض هذه الآراء : أن الفينيقيين الذين نزحوا من شرقى الجزيرة العربية والذين يمثلون الأغلبية فى سورية ولبنان كانوا من الثقافة والحضارة فى مستوى جعلهم فى موقف الند من الحضارتين المعاصرتين السومورية والفرعونية ، وجعل لهم السبق فى ملاحة البحر الأبيض المتوسط .

وإذا نحن لاحظنا : أن هؤلاء الفينيقيين لم يتخذوا أحد الخطين : السوموري ، والمصرى خطاً لهم ، نجد أنفسنا أمام افتراض قمين بالاهتمام ـ يشجعنا على أن نرجح أن الفينيقيين حملوا من وطنهم الأول خطاً حرفياً قد يكون فى مرتبة الهيروغليفى نضجاً أو أكثر ، حرصوا على الاحتفاظ به فى وطنهم الثانى ، مثلما حملوا معهم صناعة السفن وفن الملاحة وتقدموا بصناعتهم فأنتجوا ( القزاز ) وبعض الصناعات التى يعتز بقدمها لبنان .

---

( ١ ) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص٥١

( ٢ ) جواد ١ / ٢٠٢

٤ ـ ونحن إذا ما اعترفنا بكل هذه الحقائق التى قدمتها لنا آثار الفينيقيين ، نقف مترددين فيما قاله بعض المستشرقين عن الفينقيين ، وأنهم أخذوا قاعدة الاختزال من الفراعنة ، لاسيما إذا ما نحن اقتنعنا ولو ببعض ماقاله ( ديورانت ) فى كتابه قصة الحضارة عن الكتابة التصورية التى كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة ، وأنها قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومورييين[١] ، وبما قاله (بريستد) فى كتابه مصر من أقدم العصور : ( والمعروف أن أقواماً ساميين من عرب آسيا غزوا وادى النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة )[٢] وبما قاله ولفنسون : ( فالكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة واهتدوا إلى عمل الزجاج ووضعوا نظام الحساب ، وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسمارى والهيروغليفى )[٣] .

والاعتراف بهذه الحقائق يبعث الشك فيما نقله جواد على عن بعض العلماء الذين يرون : أن الأبجدية الأولى هى وليدة الهيروغليفية ، وأن الأبجدية الفينيقية مشتقة من الهيروغليفية ، ويذهبون إلى أن الفينيقيين الذين كانوا أول من عمم طريقة الكتابة بالحروف الهجائية قد أخذوا أصولها من مصادر مصرية[٤] . لأن الهوة كما يقول جواد على بين الكتابتين كبيرة ، وإذا كانت نقوش طور سيناء التى يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد هى دليل أصحاب الرأى القائل : إن عمال مناجم طور سيناء اهتدوا إلى التدوين بالحروف الأبجدية من الفكرة المصرية فى التدوين ، فإن العكس يمكن أن يفترض أيضاً ـ فيكون العمال قد اهتدوا إلى هذه الأبجدية من الفكرة الفينيقية ، فإن طور سيناء من منازل الساميين منذ القرن الأربعين قبل الميلاد كما جاء فى تحقيق جرجى زيدان وفيليب حتى[٥] ، وأن العلاقات بين سكان بلاد العرب الجنوبية والشرقية وبين

( ١ ) قصة الحضارة ٢ / ٤٤ — ( ٢ ) مصر من أقدم العصور ص ١٧

( ٣ ) ولفنسون ص ٥٢ — ( ٤ ) جواد ١ / ٢٠٣

( ٥ ) العرب قبل الإسلام ص ١٣٤ ، ويقول حتى فى تاريخ العرب ( ٤٠/٤١) : قد سلك طريق سيناء مهاجرون ساميون حوالى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد . ويرجح جواد على : أن مواطن العماليق تقع بين كنعان ومصر فى برية سيناء وتيه بنى إسرائيل وأن العماليق كانوا يسكنون فى أواسط فلسطين ويظن أن المعينيين الذين حاربهم (حزقيال) سنة ٧٢٦ وسنة ٦٩٧ ق. م قد يكونون من المعينيين الذين فى الشمال وقد تكون لهم صلة بموضع معين المصرية تاريخ العرب لجواد ٢/٣٥٠ و٣٥١ و٣٦١

سكان الجزيرة العربية فى الشمال العربى كانت قوية ، ويقول عنها ( هومل ) : ( وهذه الحقيقة لم يتنبه إليها احد من قبل ، وهذه الصلة القوية لم تقدر حق قدرها عندما نعنى بدراسة الفترة السابقة لتاريخ المعينيين ، فمن المحقق الآن أن القرابة قوية جداً بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية ، فإما أن تكون إحداها تفرعت عن الثانية أو أنها تفرعتا من أبجدية كانت موجودة حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م )[١] .

فادلة هذه الشكوك هى التى لاتجعلنا نجزم برأى فى أى الأبجديتين الصوريتين - السومورية أوالمصرية - كانت هى الأقدم ؟ وإن كنا نرجح أن الحضارة فى بلاد مابين النهرين هى أقدم من الحضارة المصرية ، تؤكد لنا : أن الأبجدية الكنعانية ليست من الأصل الفرعونى ولا من الأصل السومورى ، إنها كنعانية من أصل عربى تطورت كما هو المفروض بعد طول إقامتها فى سورية ، وتجعلنا كذلك - كما سيأتى فى البحوث القادمة فى هذا الجزء - لانجزم برأى فى أى الخطين أخذ الاختزال عن الآخر : الخط الفينيقى أوالخط المصرى ، وإن كنا نرجح : أن الخط الفينيقى سبق الخط المصرى إلى منطقة خليج السويس وصحراء سيناء ، لأن الساميين احتلوا هذه المنطقة وانتشروا فى أراضى الدلتا والصحراء العربية ونشروا لغتهم فيها وصبغوها بالصبغة السامية قبل أن يتسع النفوذ السياسى المصرى ، وذلك ماأكده بريستد فى كتابه مصر من أقدم العصور ، وقال به جرجى زيدان .

٥ - ونحن إذا كنا نرى ولفنسون متحمساً فى دفاعه عن اللغة العبرية لحد افتراض مالايفترض ولزوم مالايلزم ، فهو لايرضى بأن تكون اللغة العبرية مقتبسة من اللغة الكنعانية[٢] ، وهو تارة يجعل الآرامية والعبرية صنوين للكنعانية فيقول : ( إذ كيف يعقل أن تكون الكنعانية أصلا والعبرية فرعاً حين يثبت أن الكنعانية والعبرية والآرامية إنما هى فروع لأصل واحد مشترك بينهم )[٣] وتارة أخرى يجعل اللغة الكنعانية هى بعينها العبرية : ( وأما من جهة اشتقاق الكلمات فإن الكنعانية هى بعينها العبرية )[٤] . فإننا لانتحمس معه ، لأننا رأيناه عندما يتكلم عن الخط المسند وصلته بالجعزية يقرر : أن الخط

---

( ١ ) التاريخ العربى القديم ص ٦٠
( ٢ ) ولفنسون ص ٥٥
( ٣ ) نفس المصدر ص ٥٥
( ٤ ) نفس المصدر ص ٦١

العبرى مشتق من الكنعانى : مثلما اشتق منه الإرمى والمسند ( وكما أن الأقلام الآرامية والعبرية مشتقة من الكنعانية فإن أقلام المسند مشتقة أيضاً منها )[١] .

وإننا سوف نتعرض لهذا الموضوع بايضاح أكثر فى بحث اللغة العبرية والجعزية الآتى فى هذا الجزء .

٦ ـ وكذلك نحن نرى اليمنيين ينكرون : أن المسند مشتق من الخط الكنعانى . ففى رأيهم أن الكتابات اليمنية أقدم زمناً من أقدم الكتابات المعينية ، ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى رأى ( هومل ) فى القرابة بين الأبجديتين : الأبجدية المعينية الجنوبية والأبجدية الفينيقية الشمالية ، ولقد وضح جواد على الفرق بين الأبجديتين وذكر الحروف التى تشتركان فيها ، والحروف التى تختص بها كل واحدة منهما ـ ثم قال : ( وليس بمستبعد أن تكون الأبجديتان قد تفرعتا من أصل واحد )[٢] .

وبتتبع المصدر الذى اعتمد عليه جواد على فى رأيه هذا نجده يشير إلى الصفحة ٢٤٢ من تاريخ اللغات السامية لولفنسون ـ وبالرجوع إلى ماجاء فى كتاب ولفنسون نجده يقابل بين رأى ( هومل ) الذى نقله كالآتى : ( لكن العالم هومل قد قال : إن الخط المسند هو الأصل الذى اشتق منه الخط الكنعانى ، ودليله على ذلك : أن نماذج من الكتابات المعينية التى وصلت إلينا أقدم من النماذج الكنعانية ) ـ وبين رأى العالم ( ليتسيرسكى ) الذى نقله كالآتى : ( ينكر صحة هذا الرأى ويقول : إن وجود نماذج معينية أقدم من الكنعانية لايثبت أن الخط الكنعانى مشتق من المعينى ، لأن الكتابات المعينية تستعمل حروفاً يظهر أنها قد انتقلت من حالة بدوية إلى حالة حضرية راقية ، أما الكتابات الكنعانية القديمة التى وصلت إلينا مع أنها متأخرة عن المعينية فهى أقرب إلى الأصل وذلك لأنها حروف بسيطة فى الرسم ولاأثر فيها للتطور والانتقال من حالة إلى أخرى )[٣] .

فلعل جواد على ـ اعتمد فى رأيه على ماجاء فى كتاب ( التاريخ العربى القديم ) عن

---

( ١ ) نفس المصدر ص ٢٤٢

( ٢ ) جواد ١ / ٢١٠

( ٣ ) نفس المصدر ص ٢٤٣

الأبجدية المعينية[1] . فقد كان رأى ( هومل ) هناك : إما أن يكون الخط المسند مشتقاً من الكنعانى وإما أن يكون الخط الكنعانى مشتقاً من المسند أو أن يكونا مشتقين من أصل واحد .

٧ ـ ومهما يكن المصدر الذى اعتمد عليه جواد على ، فإن اشتقاق الخطين من أصل واحد هو الرأى المرجح ، فكل الأدلة تشير إلى وجود أصل للخط الحرفى غارق فى القدم ، وكل الأدلة تشير إلى أن ذلك الأصل القديم يمثل اللغة الأم للغات السامية ، وكل الأدلة تشير إلى أن اللغة الأم التى مازالت موضع البحث والتحقيق فيها حتى اليوم هى : لغة الوطن الأول للساميين ، وكل الأدلة تشير إلى أن الوطن الأول للساميين يقع فى المنطقة الممتدة من الخليج الإسلامى الى البحر الأحمر جنوبى الهلال الخصيب من الجزيرة العربية .

وكل هذه الأدلة تؤكد أخيراً : أن اللغة العربية هى الأم وأن أبجديتها هى الأصل .

إذن فلاغرابة : أن كان هناك تشابه بين الخط الفينيقى ، والخط المسند ، والخط الإرمى ، والخط اللحيانى ، والخط الثمودى ، والخط الصفوى ، والخط النبطى ، وأخيراً الخط القرشى ـ فإن الأصل واحد . وإن العوامل التى جعلت للجنوبيين : المعينيين ، والسبئيين ، والحميريين كياناً مستقلا ، وجعلت للشماليين : الكلدانيين ، والآشوريين ، والفينيقيين ، والإرميين ، ومن خلفهم كياناً مستقلا ، هى نفس العوامل التى جعلت لهذه الخطوط أشكالا تميز الواحدة عن الأخرى .

٨ ـ وإذن فلا غرو : إن اعتبر الكثيرون : الخط ( الكنعانى ) وأبجديته أصلا للخطوط ( الارمية ) التى ظهرت بعدها ، وإن اعتبر الخط الإرمى أصلا للخط التدمرى و ( السريانى ) و ( النبطى ) وبعض خطوط النقوش الثمودية ، واللحيانية ونقوش النمارة التى كتبها اللخميون على قبر امرىء القيس عاهل الحيرة ـ فإن الخط الكنعانى وأبجديته هو أقدم خط حافظ بعض الشىء على أصله العربى ، وإن سكان سورية وشمالى الحجاز كانوا كما يقول ولفنسون : حريصين على لغتهم أكثر من البابليين فلذلك نجدهم لم يتخذوا

---

( ١ ) التاريخ العربى القديم ص٦٠

أحد الخطين : المسارى السوموري والهيروغليفى المصرى خطاً لهم .

وعن الخط الكنعانى يقول ولفنسون : ( فلاغرو أن أصبح الخط الكنعانى أساساً لجميع خطوط العالم المتمدين فى الشرق والغرب )[1] .

٩ ـ وأخيراً لابد لنا أن نوضح شيئاً عن اللغة الفينيقية بالنسبة للغة الكنعانية وهل اللغتان : الكنعانية والفينيقية كالاسمين : كنعان وفينيق يرجعان إلى أصل واحد لافرق بينهما ؟ فنحن بعد أن تحدثنا عن الاسم الكنعانى والفينيقى ، أخذنا نتكلم تحت هذا العنوان ( الخط الكنعانى ـ الفينيقى ) ، عن الخط الكنعانى والفينيقى على أساس أنهما شيء واحد ، ولم نشر إلى الفرق الذى ظهر بينهما أخيراً ـ فلقد جاء فى تحقيق المطران الدبس : ( وتتفرع الكنعانية إلى فرعين : العبرية والفينيقية ، فالفينيقيون وإن كانوا من ولد كنعان فقد كانت لهم لغة مخصوصة قريبة من اللغة العبرانية لكن بين الفرعين فروقاً تجعل كلا منهما فرعاً ممتازاً عن الآخر ـ فيظهر أن العبرانية كانت لغة الكنعانيين سكان الجبال فى فلسطين ، والفينيقية لغة السواحل . وقد دلتنا آثار هذه اللغة على أنها كانت ثلاث لهجات أو فروع : فرع ( جبيل ) وهو الأقرب إلى العبرانية ، وفرع ( صيدا ) وهو الأهم والأكثر انتشاراً ويمكن اعتباره مثالا لهذه اللغة ، ثم الفرع ( البونى ) وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا إلى قرطاجنة )[2] .

والذى يظهر من كلام المطران الدبس : أن اللغة الكنعانية فى آخر أمرها ككل لغة تأثرت بالعناصر التى خالطت الكنعانيين وخالطها الكنعانيون ، فتفرعت إلى فروع منها ما عرف بالفينيقى ـ وأخذ كل فرع يستقل عن الأصل حتى أصبحت اللغة الفينيقية فى رأى جواد على كما رأيت لغة قائمة بذاتها لاتذكر إذا ماذكرت اللغة الكنعانية .

ولقد بحث الدكتور وافى فى اللغة الكنعانية ، فجعل فى كتابه ( فقه اللغة ) عنواناً خاصاً بها كما جعل عنواناً خاصاً باللغة الفينيقية ، ولكنه مع ذلك لم يفصل هذه عن تلك فلم يخرج القارىء من بحثه بغير النتيجة التى تؤكد : أن اللغة الفينيقية المتأخرة هى طور من أطوار اللغة الكنعانية فى الأرضين التى ذكرها المطران الدبس .

---

( ١ ) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ٥٢

( ٢ ) تاريخ سورية للدبس ١/١٤٢ ، ١٤٣

البحث الثانى عشر

# الخط المسند وأبجديته

من موضوعات البحث :

١ ـ الأبجدية الجنوبية وخطها المسند هما فى الأصل شماليان .

٢ ـ الرواية العربية تتفق مع آراء المستشرقين على أن المعينيين والسبئيين سكنوا شمالى الحجاز قبل أن يؤسسوا دولهم فى الجنوب

٣ ـ القرابة بين الخط المسند وأبجديته وبين الخط الكنعانى وأبجديته توشجت أواصرها فى الشمال

٤ ـ لماذا انعدم الشبه بين الخط المسند والخط الارمى ؟



# الخط المسند وأبجديته

١ ـ لقد أصبح من الحقائق الثابتة : أن الأبجدية الجنوبية وخطها المسند كانا من الأبجديات الشمالية وخطوطها ، وأن الخط المسند الذى ولد فى الشمال نما وترعرع واشتد فى الجنوب ، فأول الكاتبين بالخط المسند هم المعينيون كما يسميهم المستشرقون ، والمعينيون كما يرجح هم قوم عاد الذين تحدثت عنهم المصادر العربية ، وأصبح من الحقائق الثابتة : أن المعينيين ليسوا من الشعوب القحطانية[١] ، وكذلك السبئيون لأن المعينيين فى الجنوب أقدم من القحطانيين ، ولأن المعينيين والسبئيين عاشوا طويلا فى الشمال قبل أن ينتقلوا الى الجنوب . ويقول جرجى زيدان : ( وقد جاء ذكر المعينيين فى سفر الأخبار الثانى ٢٦ عدد ٧ ـ واعانه الله « عزيا » على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار « بعـل » وعلى « المعونيين » ويظهر أنهم أقدم من ذلك بكثير لأنهم عثروا على أمة بهذا الاسم ذكرت فى أقدم آثار بابل بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ ق . م ، وقد يتبادر إلى الذهن أنهـم المرادون بقول المصريين القدماء « من » أو « معن » ويريدون بها أمة من الشاسو عمالقة مصر فى أثناء استيلائهم على وادى النيل كما ظن « جلازر » ولكننا نستدل مما وقفنا عليه من أحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية ومن أسماء رجالهم وآلهتهم ـ أن أصلهـم من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين كانوا فى أعالى جزيرة العرب قبل ظهور دولة حمورابى بعدة قرون )[٢] .

وفى تاريخ العرب لجواد على أخبار متناثرة ذكرها جواد فى مناسبات مختلفة . فمما جاء فى تاريخه : أن الكتابة المعينية قد استخرجت من ( الجوف ) ومن ( ديدان ) أيضاً حيث كانت من أهم مواطن المعينيين[٣] ـ و ( ديدان ) يقول عنها ياقوت الحموى : إنها مدينة

---

( ١ ) جرجى زيدان ص ١٣٢

( ٢ ) جرجى زيدان « العرب قبل الإسلام » ص ١٣٢ و ١٣٣

( ٣ ) جواد ٣٨٤/١

حسنة فى طريق البلقاء من ناحية الحجاز .

ومما قاله جواد : وفى وادى القرى مواضع قديمة منها « العلا » وتقع على مقربة من خرائب ( ديدان ـ دادان ) التى كانت مقر المعينيين فى الشمال ، والتى أشير إليها فى العهد القديم[1] ومما قاله : و ( يثرب ) من المواضع التى يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد ، وهى يثرب فى الكتابات المعينية وكانت من المواضع التى سكنتها جاليات معين ثم صارت إلى السبئيين بعد زوال مملكة معين[2] .

وجاء فى تحقيق ولفنسون عن الخط الثمودى والنبطى : [ من رأى « جلازر » أن لفظ ـ معين مصران ـ الذى ورد فى كتابات مصرية ، إنما يدل على بطون معينية وجدت فى مصر ـ هى الشاسو ][3] .

ورأى ( جلازر ) لم يرض به جرجى زيدان كما رأيت ، لأن من رأيه : أن المعينيين هم من عمالقة العراق . وذهب ( هومل ) إلى أن المعينيين أقاموا حصوناً تحمى الطريق التجارى المار بمكة والمدينة والعلا فقال :[4] [ واستتبع هذا النظام خلق المستعمرات المعينية التى نجدها فى « العلا » شمالى « المدينة » ففى ذلك المكان اكتشف ( أوتينج ) خمساً وعشرين قطعة من نقوش معينية دونت فى زمن لن يكون أحدث من منتصف الألف الأولى قبل الميلاد ، وكما يستنتج أيضاً من أسماء بعض الملوك الواردة فى تلك النقوش : أن تلك المستعمرة عمرت فى الشمال حوالى قرنين ] .

أما تاريخ المعينيين فى الجنوب ، فإن الظنون التى اختلفت فى تحديد بدايته لم يتعد بعضها الألف الأخيرة التى سبقت الميلاد بينما ذهب آخرون إلى ان فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، كانت بداية عهد المعينيين فى الجنوب ـ إن هذه الظنون لم تختلف كثيراً فى نهايته ، فهى تكاد تجمع على أن القرن السابع قبل الميلاد كان نهاية سلطان المعينيين ، وبداية السلطان السبئى .

فالسبئيون كما خلفوا المعينيين فى الشمال خلفوهم فى الجنوب . ولقد جاء فى دائرة

---

( ١ ) جواد ١٧٨/٤

( ٢ ) جواد ١٨١/٤

( ٣ ) ولفنسون ١٧٥/١٧٦

( ٤ ) التاريخ العربى القديم ص ٤٢ و ٤٣

المعارف الاسلامية عن سبأ : [ وأقدم ما نعرف عن سبأ هو : الإشارة السامية التى وردت فى النقوش المسمارية ، ويرجع تاريخ أقدم الاشارات الى القرن الثامن قبل الميلاد فى حين أن الوثائق التاريخية ، المستمدة من بلاد الجزيرة ، ترجع بعصر السبئيين إلى سنة ٢٥٠٠ ق.م ، ويرى ( هومل ) أن السبئيين كانوا سكنة الجوف الشمالى وأنهم دخلوا جنوب بلاد العرب أول ما دخلوا من الجوف الشمالى فى القرن الثامن ق . م ][١] .

٢ ـ والمؤرخون العرب فى مؤلفاتهم لم يذهبوا بعيداً عندما تكلموا عن سكان شمالى الجزيرة وجنوبيها ، عما جاء فى النصوص التى اعتمدها المستشرقون . فلقد جاء فى تاريخ الطبرى : [ فعمليق أبو العمالقة كلهم أمم تفرقت فى البلاد وكان أهل المشرق ، وأهل عُمان ، وأهل الحجاز ، وأهل الشام ، وأهل مصر منهم ، ومنهم جبابرة الشام الذين يقال لهم الكنعانيون ][٢] .

وإلى إرم تنسب المصادر العربية الشعب العادى ، والشعب الثمودى ، والشعب النبطى ، وعاد فى المؤلفات العربية بلغ ملكها مصر والشام والعراق وامتدت سيادتها الى نجد وإلى الحجاز ، ويقول المؤرخون : إن عاداً الثانية كانت باليمن ، وإن ثمود انتشرت من وراء مدائن صالح شمالا إلى جبال صنعاء جنوباً ، ولقد جاء فى معجم[٣] ياقوت : ( قرح ) هو سوق وادى القرى . وقيل بهذه القرية مهلك عاد . وبين قرح وبين الحجر ـ حجر ثمود ـ ثمانية عشر ميلا ، وجاء فى نهاية الأرب للقلقشندى عن بادية الشام : [ ومن بادية الشام مدين وكانت منازل العاربة من عاد وطسم وجديس وأميم وجرهم ][٤] .

أما سبأ فينص القرآن على أنها عاصرت سليمان بن دواود ، ويرجع تاريخ سليمان إلى الألف الأخيرة قبل الميلاد ، وحيث إن سبأ لم تنتقل إلى اليمن إلا فى القرن الثامن قبل الميلاد رجح الكثيرون : أن مملكة سبأ كانت فى عهد سليمان فى شمالى الحجاز[٥] .

---

( ١ ) الدائرة ١١/١٦٨ و ١٧١

( ٢ ) تاريخ الطبرى ١/١٤٠

( ٣ ) مادة قرح المعجم و ٨/١٦١ تفسير الطبرى

( ٤ ) نهاية الأرب للقلقشندى ص ٧

( ٥ ) جواد ٢/٣٥٤

فأقوال هؤلاء الباحثين فى تاريخ الشعوب العربية القديم كما تراها تجمع على نتيجة واحدة تثبت : أن كتبة الخط المسند وأصحاب الأبجدية الجنوبية الأولين هم من الشعوب العربية التى انتقلت من وطنهم الأول فى وسط الجزيرة إلى شماليّها فى العصور الغارقة فى القدم ، وكذلك كتبة الخط الكنعانى وأصحاب الأبجدية الشمالية انتقلوا من وطنهم الأول فى جزيرة العرب إلى الشمال فى أزمنة ما قبل التاريخ .

٣ ـ فمن المعقول : أن تنشأ من القرابة العنصرية ومن الجوار ومن المعاصرة ـ القرابة الأبجدية التى لاحظها ( هومل ) ـ بين الأبجديتين الفينيقية والمعينية ، ومن المنتظر أن يحدث الالتباس فى أى الأبجديتين هى الأصل والثانية هى الفرع ؟ فكلا الشعبين : « المعينى » و« الكنعانى » من الشعوب العربية القديمة التى تنقلت فى شمال الحجاز وفى سورية وفى باديتها . وليس بمستنكر إن رجحت الظنون : وجود أبجدية تعتبر أمّا للأبجديتين الفينيقية ـ الكنعانية ـ والمعينية عرفها الشعبان فى وطنهم الأول . فكلا الشعبين هاجر من الجزيرة العربية . والمصادر العربية تؤكد : أن أبناء إرم ـ وأبناء عمليق كانوا يتكلمون بهذا اللسان المضرى[1] ، والمصادر المستشرقية تؤكد : أن لغة مهد الساميين هى أم اللغات السامية وأبجديتها هى الأصل للأبجديات السامية .

فمن الظنون التى أصبحت فى مرتبة اليقين : أن الأبجدية والخطوط الأولى للمعينيين والسبئيين الذين تنقلوا فى الهلال الخصيب وفى مصر واستوطنوا شمالى الحجاز ، وعاشوا فى « وادى القرى » وفى « يثرب » قروناً قبل أن ينتقلوا إلى الجنوب ويكون لهم اليمن وطناً ، هما من أبجديات وخطوط الشماليين ، فمما جاء فى كلام جواد على عن الخطوط العربية [ أما المسند فقد رأى كثير من العلماء أنه اشتق من الأبجديات السامية الشمالية ][2] .

ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن التحقيق يرجح : أن الكنعانية الشمالية والمعينية الجنوبية إن لم تكن إحداهما مشتقة من الثانية فإنهما من أصل واحد ، ومن المفروض أن يتطور الخط المسند والأبجدية المسندية فى الجنوب بعد أن استوطن المعينيون ومن بعدهم السبئيون اليمن . وأسسوا إمبراطورية كان لها شأن لايستهان به فى سياسة البلاد العربية

---

( ١ ) تاريخ الطبرى ١٤١/١

( ٢ ) جواد ٢٠٩/١

وثقافتها وحضارتها ، مثلما تطورت الخطوط الشمالية بفعل الأحداث السياسية والعناصر الأجنبية التى تدفقت على سورية وباديتها وعلى شمالى الحجاز وسواحله . ومن المتوقع أن يحدث التطور هنا وهناك فواصل بين لغة الجنوبيين وأبجديتها وخطوطها ، وبين لغة الشماليين وأبجديتها وخطوطها .

٤ ـ ولكن الذى يلفت النظر هو : لماذا يجمع الباحثون على أن الخط الإرمى بعيد كل البعد عن الخط المسند ما دام الخطان مشتقين من الخط الكنعانى ؟

وبينما التحقيق أثبت : أن ثمود والنبط تجمعهم العنصرية ، فقد كان يقال لقوم عاد فى دهرهم : عاد إرم ـ فلما هلكوا قيل لثمود : ثمود إرم فلما هلكت قيل لسائر بنى إرم أرمان فهم النبط[١] . والشعوب التى تجمعت فى سورية وفلسطين وبادية الشام تحت اسم ( إرم ـ أرمان ) منهم الإرمى نسباً ومنهم العمليقى والجرهمى ـ وأثبت أيضاً : أن الثموديين عاشوا على مقربة من منازل النبط . فمما حققه ( دوتى ) : [ أن الحجر هى موضع ( الخريبة ) فى الوقت الحاضر لا مدائن صالح التى هى فى نظره حجر النبط والتى تقع على مسافة عشرة أميال من موضع الخريبة ][٢] .

فواحد من هذه العوامل : وحدة العنصر ، ووحدة التاريخ ، والوحدة الجغرافية ، يكفى لأن يجعل بين الشعبين صلات لغوية وخطية ، ولكن مع كل هذه العوامل لم تتبين للباحثين صلة بين الخط « الإرمى » و « النبطى » الحديث وبين هذه الخطوط ـ فقالوا : إن الخط المسند واللحيانى والثمودى والصفوى من أرومة واحدة . وإن الخط الإرمى والنبطى من أرومة واحدة .

إننى لم أجد تعليلا لذلك فيما اطلعت عليه من بحوث المحققين فى الأبجديات السامية وخطوطها . وإننى بما وصلت إليه فى بحثى بين المصادر المختلفة يتبين لى أن الإرميين فى غربى الهلال الخصيب امتزجت بهم عناصر كان لها نفوذها فى سورية مثل : الإسرائيليين الذين استطاعوا أن يؤسسوا ديانة ودولة فى زمن أنبيائهم ، ومثل الرومانيين الذين احتضنوا ( أذينة ) و ( الزباء ) زمناً ثم أطاحوا بالدولة العربية التدمرية . ولقد سبق السلطان الرومانى الغزو الاسكندرى ، والغزو الفارسى ، وغزوات الآشوريين الذين كانت سياستهم

---

( ١ ) تاريخ الطبرى ١/١٤٣

( ٢ ) جواد ١/٢٤٩

تقوم على الفتك وتشتيت العدو واحلال الموالين مكانه ، والحروب التى كانت سجالا بين العراقيين والمصريين والتى كانت سورية ميدانها الدامى . فكل هذه الأحداث جعلت اللغة الارميّة فى هذا الصقع من الجزيرة تنمو نمواً ليس من صالحها ، فكانت كما قيل عنها : رطانة تخالطها كلمات يونانية وكلمات رومانية .

وكل هذه الأحداث جعلت لغة وخطوط الإرميين المتوغلين فى شمالى العراق تنمو نمواً أصح من لغة الإرميين السوريين ، ولكنها فى تقدمها المطرد أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً - لا عن الخط المسند ولغة الجنوبيين فحسب ، بل عن خطوط ولغة : اللحيانيين ، والثموديين وغيرهم من شعوب شمالى الحجاز - فاتساع الفجوة بين الخطين اللذين سار كل منهما فى واد ، محا كل شبه بينهما ، فلقد تطور الخط الإرمى الى الخط السريانى ، وأخذت لغة الارميين تستوعب أخيلة الشعراء ، وفلسفة اليونان ، فى الوقت الذى أخذت اللغة الجنوبية وخطوطها تعتز بامبراطوزية المعينيين والسبئيين - الذين أخذوا يعنون بلغتهم وبخطهم ويحرصون على أن يكون له ولها صفات ممتازة حتى قيل : إن الحميريين كانوا لا يسمحون بتعلم الخط المسند إلا لمن يحظى بإذن منهم .

فإذا كان انتقال المعينيين والسبئيين إلى جنوب الجزيرة أنشأ فوارق بين الخط المسند ، وبين الخط الثمودى واللحيانى ، برغم الصلات السياسية والاقتصادية التى تربط بينهم الى العصور المتأخرة ، فحرى بتوغل الإرميين فى الشمال ، وتوغل المعينيين والسبئيين فى الجنوب ، بأن يحدثا مثل ذلك الاختلاف بين الخطين .

ولذلك بقى الشبه واضحاً بين الأبجدية الكنعانية الشمالية والأبجدية المعينية الجنوبية ، وانعدم بين الإرمية التى توغلت فى الشمال ، وبين المعينية التى توغلت فى الجنوب ، فإن أحداثاً وأجناساً طورت تاريخ الإرميين ولغتهم وخطهم فى الشمال كما طورت أحداث وأجناس تاريخ الجنوبيين ولغتهم وخطهم فى اليمن وما حوله .

إن الحقيقة التى تستشف من الأقوال التى جمعناها من مختلف المصادر تؤكد لنا : أن الخط المسند هو فى الأصل خط شمالى تفرع من أصل الخطوط الثمودية واللحيانية والكنعانية ، ثم بنزوح المعينيين إلى اليمن أخذ الخط المعينى يتطور ببطء فى زمن المعينيين ،

وبسرعة فى زمن السبئيين ، فلما جاء الحميريون تم تطوّره وزخرفه[1] ، وتؤكد لنا كذلك : أن الخط الذى تحمس لتطويره وتحسينه عواهل اليمن ، عاد متطوراً مع قوافل معين وسبأ وحمير ، ومع حاميات الحصون التى أقامتها الامبراطوريات اليمنية على الطريق التجارى ، فزادت صلته بالخطوط : الثمودية ، واللحيانية ، والصفوية التى هى بدورها تطورت بعد أن نزح المعينيون ومن بعدهم السبئيون إلى الجنوب ، أما الخط الإرمى الذى اختلط بالعبرية والرومانية واليونانية فى غرب الهلال الخصيب والذى توغل فى الشمال الشرقى من الهلال الخصيب ـ فقد كان بعيداً عن كل مؤثر جنوبى .



( ١ ) جواد ١٩٩/١



البحث الثالث عشر

# الخط الإرمي

من موضوعات البحث :

١ـ هل هناك فرق بين الاسمين : « إرمى » و « آرامى » ؟

٢ ـ من متاعب البحث فى لغة الإرميين اضطراب التحقيق فى عنصرية الإرميين واصل لغتهم

٣ ـ اللغة الإرمية تغلبت على اللغة العبرية منذ القرن الثانى قبل الميلاد

٤ ـ الإرميون عرب فى بعض التحقيقات وغير عرب فى تحقيقات أخرى !!



# الخط الارامي

١ - لم يعتمد جرجى زيدان فى تحقيق اسم « إرم » إلا على المصادر غير العربية فقال : ( كان الساميون فى أعلى جزيرة العرب قد خيم بعضهم فى البادية بين العراق والشام ، وكان سكان المدن يسمون أهل تلك البادية ( آراميين ) أى أهل الجبال ، وأهل ما بين النهرين يسمونهم ( عمورو ) أى أهل الغرب ، ثم إن اسم عمورو تطور الى اسم عرب[١] ) .

ولو رجع جرجى زيدان الى المصادر العربية لوجد فى معاجم اللغة : أن ( أرام - كسحاب « جبل » و« ماء » ، بديار جذام بأطراف الشام ) وأن الفيروزابادى قال : ( والصحيح أنه جبل فيه ماء ) وأن ياقوت ضبط اسم هذا الجبل فقال : ( إنه - إرم - اسم جبل من جبال حسمى من ديار جذام بين أيلة وتيه بنى إسرائيل ) ولوجد أيضاً : أن إرما اسم ابن من أبناء سام إليه تنسب القبائل الإرمية ، ولا يعارض الفيروزابادى الذين يقولون : إن إرما اسم بلد الإرميين أو قبيلتهم[٢] .

فعلى ذلك : إن اسم إرم يطلق على سكان بادية الشام جميعهم ، سواء كانوا من أبناء إرم أو من العماليق أو من غيرهم . فهو كما قال الفيروزابادى : اسم بلد أو قبيلة ، وأن اسم إرم يطلق فى غير بادية الشام على الذين هم من نسل إرم كما يقول النسابون ، فقيل لعاد إرم عاد ، ثم قيل لثمود إرم ثمود ، ثم قيل للنبط أرمان[٣] وعلى ذلك : إن الفرق بين اسم ( إرم ) و ( آرام ) : أن اسم إرم وآرام بمعنى واحد يطلقان على سكان البادية من أرض الشام ، وأن ( إرم ) وحده يطلق على القبائل التى انتسبت الى إرم فى أنحاء الجزيرة العربية .

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام ص ٤٣ .

( ٢ ) مادة ( إرم ) تاج العروس ومعجم ياقوت .

( ٣ ) تاريخ الطبرى ص ١٤٣ جزء ١ .

ولو رجع جرجى زيدان الى المصادر العربية لوجد : أن العرب بينا هم يدخلون الهلال الخصيب والصحراء العربية المصرية فى حدود جزيرة العرب ، ويؤكدون : أن قبائل عربية هى : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، والعماليق ، وجُرْهم ، قد نزحت من قديم الزمان الى الهلال الخصيب . والى الصحراء العربية الممتدة من البحر الأبيض الى ما بعد أسوان ، ويؤكدون : عروبة دول تدمر ، وبطرا ، والقدس ، ودمشق ، اذا هم بعد ذلك يقولون ٠ إن الجزيرة العربية هى : الحجاز ، ونجد ، وتهامة ، واليمن ، والعروض ، ويختصر بعضهم جزيرة العرب على الحجاز ونجد ويخرجون اليمن لأن لغة اليمن قد خالطتها لغات أفريقية[١] .

وكذلك فعل المستشرقون ـ فهم فى الوقت الذى يؤكدون فيه : أن الساميين هم قبائل عربية نزحت إلى العراق ، وإلى سورية وباديتها ، والى مصر ، من أواسط الجزيرة العربية ـ يجعلون العرب فى الهلال الخصيب : أمة ، ويجعلون العرب فى باقى الجزيرة العربية : أمة ثانية تفصل الواحدة عن الثانية ، الفواصل التى تفصل بين الروم والفرس والعرب .

فاختلاط الإرميين بالعناصر غير العربية جعل لهم وللغتهم صفة خاصة لا تنطبق على الصفة العربية ولا على لغتها ، فكان لزاماً على المحقق أن يفصل بين العرب الخلص وبين الإرميين الخليط ، وما يقال عن الإرميين يقال : عن البابليين ، وعن الكنعانيين ، وعن الهكسوس ، وهذا ما حدث ويحدث فى كل العصور العربية .

٢ ـ فالحقيقة الأولى التى تظهر من دراسة هذا التناقض ، تتضح فيا قيل عن الإرميين وأنهم كغيرهم شعب من الشعوب العربية التى هاجرت الى أطراف الجزيرة ولم تستطع أن تحافظ على قوميتها العربية وتفرضها على العناصر التى كان لها فى كثير من الأوقات الغلبة فى الهلال الخصيب . والحقيقة الثانية التى لا غبار عليها هى : أن القومية العربية لم تستطع أن تحافظ على كل صفاتها فى العراق ، وفى سورية ، وفى مصر إلا بعد الفتح الاسلامى ، وأن اللغة العربية لم تتمكن من السيادة الكاملة فى المناطق العربية إلا بفضل القرآن الذى أنزل بلسان عربى مبين .

---

( ١ ) راجع مقدمة معجم ما استعجم للبكرى وراجع الجزء الثالث « التاريخ العربى وجغرافيته » من هذا الكتاب ففيه النصوص التى تثبت أن الصحراء العربية والهلال الخصيب هما من أقطار الجزيرة العربية .

وهذا التناقض الذى تجده فى أقوال الذين حققوا عناصر الأمم السامية تجد مثله فى أقوال الذين حققوا لغاتها : والتناقض فى أقوال محققى لغات الساميين يوجه الانتباه الى ما فى تحقيق الخط الإرمى من صعوبة بالنسبة لاختلاف الآراء فيه كاختلافها فى العنصر الإرمى . فبينما ترى الباحثين فى اللغة الارمية يؤكدون : أن اللغة السامية فى سورية حافظت على ساميتها أكثر مما حافظت عليها اللغة السامية فى العراق ، نراهم مرة ثانية يتحدثون عن اللغة الإرمية ، وعن خطوطها على أساس أنها لغة لا تمت الى لغة مهد الساميين ـ البلاد العربية ـ بسبب .

فأنت اذا ما رجعت الى ما جاء فى تاريخ اللغات السامية ، وجدت ولفنسون يسير فى ركب الذين يؤكدون : أن الإرميين هم من القبائل العربية التى هاجرت من الجزيرة ، وأن منازل الإرميين فى سورية هى أقرب من غيرها الى قلب الجزيرة ، فلذلك استطاعت اللغة الارمية أن تحافظ على مقوماتها الأصلية أكثر من البابلية . ويقول : ( ومن الظواهر الجديرة بالملاحظة ، أن اللغة البابلية أضاعت كثيراً من الألفاظ السامية والتوت ألسنتها عن النطق السامى لبعض الحروف ، وذلك لخضوعها للنفوذ السومورى ، فى حين حافظت القبائل السامية التى هاجرت الى فلسطين وسورية على المادة الأصيلة ، والنطق الصحيح للغتها السامية ، وذلك لأن الهجرات السامية الآتية من الصحراء متجهة نحو البلاد المأهولة لم تنقطع عن هذه البلاد فى زمن من الأزمان . فكان الساميون دائمى الاتصال بأبناء عنصرهم البدويين فاستطاعوا أن يحافظوا على لغتهم السامية ، وأن يمنعوا عنها عوادى التغيير والتحريف )[1] .

وقد أكد ولفنسون بعد هذا[2] : أن الخطوط الآرامية تفرعت عن الخط الكنعانى وأن بعضها قريب من الأصل ، والبعض نحا نحواً جديداً الى أن تغير تغيراً ظاهراً ، وأكد الصلة التى تربط بين الخط الارمى القديم ، والخط الإرمى التدمرى ، والخط الإرمى النبطى ، بمصور وضح أشكال هذه الخطوط .

٣ ـ وقال عما آلت اليه اللغة الارمية : ( وفى القرن الثانى ق . م . أخذت اللغة الإرمية تتغلب شيئاً فشيئاً على عقلية اليهود حتى عمت كل بلاد فلسطين ، وتكونت فيها

---

( ١ ) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ٤٢ ( ٢ ) نفس المرجع ص ١١٩ .

لهجات آرامية جديدة غير اللهجة التى كان يتكلم بها أجدادهم فى العصور التى نزلت فيها أسفار العهد القديم ، وصار لهذه اللهجة من القوة والنفوذ ما لم يكن للهجة الأولى ، فقد بسطت سلطانها فى جميع أقسام البلاد وأصبحت أقوى من اللغة العبرية الأصيلة ، وقد كانت هذه الرطانة فى مجموعها عبارة عن الآرامية والعبرية . وقد أخذت الكلمات الآرامية صبغة عبرية فى الوضع والنطق ، وكانت تلك الرطانة مشوبة بألفاظ يونانية ورومانية )[١] .

ويقول ولفنسون : ( وأما فى شمالى العراق فقد نمت اللغة الآرامية منذ أقدم الأزمنة التاريخية وأنتجت ثماراً كثيرة فى أنواع المعارف الانسانية من علم وأدب ودين وكان مركزها فى مدينة ( حران ) ونواحيها ، وقد ارتفعت هذه المدينة بعد أن اتصلت بالفلسفة اليونانية القديمة وكانت الديانة فيها خلاصة من الديانات الشرقية الوثنية )[٢]

٤ ـ فهذا الذى نجده فى تاريخ اللغات السامية والذى يعبر عن آراء المستشرقين يفهم منه : أن الارميين عرب ، وأن هؤلاء العرب قد حافظوا على لغتهم من عوادى التحريف والتغيير ، حيناً من الزمن ، وأن اللغة الإرمية عندما خالطتها اللغة العبرية تأثرت بها ـ بالعبرية ـ فى الوضع والنطق ، كما خالطتها ألفاظ يونانية ورومانية ، فأصبحت الإرمية رطانة مشوبة بألفاظ يونانية ورومانية وعبرية ، وأن اللغة الإرمية فى غرب الهلال الخصيب التى أصيبت بالعبرية قد حرمت من التقدم والتطور المركز الذى ظهر واضحا فى اللغة الإرمية فى شرقى الهلال الخصيب الشمالى ، فقد نمت هناك وأنتجت ثماراً كثيرة .

وهذا الذى يؤكده ولفنسون مع المستشرقين لا يخرج الإرميين عن عنصرهم ، ولا يخرج اللغة الإرمية عن عروبتها ، فهى لغة عربية خالطتها العبرية وانضمت اليها كثرة من الألفاظ اليونانية والرومانية . فأصبحت على ما أصبحت عليه اللغة المعينية والسبئية فى اليمن بعد أن خالطتها الأمهرية وأضيفت اليها كثرة من ألفاظ اللغات الأفريقية .

ولكن اذا ما رجعت الى ما جاء فى تاريخ العرب لجواد على تجده يقول[٣] : ( لا يمكن

---

( ١ ) ولفنسون ص ١٢٥ .

( ٢ ) نفس المصدر ص ١٤٥ .

( ٣ ) جواد ١٠/٣ .

أن يقال : إن جميع من كتب بلغة الإرميين وقلمهم هم منهم ، لأن الإرمية كانت قد تغلبت على أكثر لغات الشرق الأدنى وصارت لغة الكتابة والتدوين قبل الميلاد وبعده بقرون ، تغلبت على العبرانية مثلا وزاحمتها حتى فضلت عليها عند المتكلمين بها من الخاصة والعوام إلى نهاية القرن السابع بعد الميلاد ـ فلا عجب إذن إذا ما دون النبط أو غيرهم من العرب بالإرمية لغة الفكر والثقافة وتكلموا بلغة اخرى هى لغة اللسان ، وقد كان الأعاجم فى الاسلام يتكلمون بألسنة أعجمية ويدونون باللسان العربى لسان العلم والفكر والقرآن ) .

فيسترعى انتباهك فيما جاء فى كلام جواد ـ اعتباره الإرمية أمة غير عربية . فعلى رأيه أن العرب الذين كتبوا بالإرمية ليسوا إرميين ، إنهم كالفرس الذين كتبوا بالعربية وهم ليسوا عرباً .

فلعل جواد على يقصد بالعرب القبائل العربية التى تسكن أرضاً عربية لا تشوب عربيتها شائبة . فلقد قال عن الأقلام التى انتشرت فى الجزيرة العربية : ( تبين من انتشارها فى منطقة واسعة خاصة فى الأرضين التى تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات بنى إرم )[1] . فهو لذلك فصل العرب عن الإرميين كما فصل بعض العرب من قبل : اليمنيين عن العرب عندما أوشكت لغتهم أن تستعجم ـ فان الإرميين فى سورية ، وإن كانوا فى طليعة الشعوب العربية التى حافظت على لغتها ومنعت عنها عوادى التغيير والتحريف[2] ـ كما قال ولفنسون ـ فان اللغة الإرمية كغيرها من اللغات العربية خضعت أخيراً للتغيير والتحريف حتى أصبحت باعتراف ولفنسون نفسه الذى قال مرة ثانية عن اللغة الإرمية فى سورية : ( وقد كانت هذه الرطانة فى مجموعها عبارة عن الآرامية والعبرية وقد أخذت الكلمات الآرامية صبغة عبرية فى الوضع والنطق وكانت تلك الرطانة )[3] .

على أن جواد على الذى جاء بعد ولفنسون لا يقر كما رأيت انحدار اللغة الإرمية الى مستوى الرطانة ، فهو يؤكد : أن تطوراً حدث فى لغة الإرميين الغربيين وأن هذا التطور لم

( ١ ) جواد ٣/٤٣٥ .

( ٢ ) تاريخ اللغات ولفنسون ص ٤٢ .

( ٣ ) نفس المصدر ص ١٢٥ .

يهبط بها الى مستوى العبرية آنذاك فقد كانت فى تحقيقه فى مستوى أرقى من العبرية جعل الكثير من المتكلمين بالعبرية من الخواص والعوام يفضلونها على العبرية[١] .

والذى يلاحظ على ما جاء فى تحقيق جواد على : أنه فى الوقت الذى يجنح فيه الى أن الأبجدية الكنعانية وأبجدية المسند المعينية تفرعتا من أصل واحد[٢] يجعل أبجدية وخط الارميين والنبطيين فى جانب ، وأبجدية وخط المسند والثمودى واللحيانى والصفوى فى جانب آخر[٣] . لأنه جعل الكنعانية شيئا والفينيقية شيئاً آخر عندما أخذ يقارن بين أبجدية المسند وبين أبجديات الشمال[٤] ـ فهو بناء على ذلك مقتنع بأن الإرمية لا تمت بصلة الى الكنعانية وبذلك انقطعت فى بحثه الصلة بين الإرمية والنبطية ، وبين المسند والثمودى ، واللحيانى ، والصفوى[٥] .

بيد أن التحقيق أثبت : أن الكنعانيين هم الفينيقيون ـ فاسم فينيقى أطلق على الساميين فى سورية جميعهم وفيهم الكنعانيون كما مر بنا . ولقد سبق أن تحدثنا عن اسم كنعان وفينيق ، وعن اللغة الكنعانية والخط الكنعانى واللغة الفينيقية والخط الفينيقى[٦] .

وأنا لا أريد أن أكرر الكلام فى الخط المسند لأن الخط المسند له موضوع خاص سبق هذا البحث ( الخط الإرمى ) ـ وإنما الذى أريد أن أقوله هنا : إن الأبجدية الإرمية ذات صلة وثيقة بالأبجدية الكنعانية التى تقدمتها وهى بصلتها هذه تمت بقرابة الى الأبجدية الجنوبية التى اختلفت الآراء فى صلتها بالكنعانية . أهى فرع من الكنعانية ؟ أم الكنعانية فرع منها ؟ أم هما فرعان من أصل واحد ؟ وإلى أن الخطوط الثمودية ، واللحيانية والصفوية المتأثرة بالخط المسند تمت بصلة الى الإرمية مادامت الكنعانية هى أم الإرمية وصنو المسند إذا لم تكن أصلا له كما قال ولفنسون : ( وكما أن الأقلام الآرامية والعبرية مشتقة

---

( ١ ) جواد ١٠/٣ .

( ٢ ) جواد ٢١٠/١ .

( ٣ ) جواد ٤٢٥/٣ .

( ٤ ) جواد ٢١٠/١ .

( ٥ ) جواد ٤٢٥/٣ .

( ٦ ) راجع بحث الخط الكنعانى ـ الفينيقى المتقدم فى هذا الجزء .

من الكنعانية فان أقلام المسند مشتقة ايضا منها )[1] ، فكل هذه الخطوط كانت متجاورة فى شمالى الحجاز وجنوبى سورية ، وكل هذه الخطوط وأبجديتها ولغتها ترجع الى أصل واحد نشأ فى قلب الجزيرة العربية . ولقد تطورت الأبجديات وخطوطها بتأثير الزمن وطوله ، والبيئات وتطورها ، والأحداث السياسية والاقتصادية ونتائجها ـ فكل ذلك فرض على شعوب شمالى الحجاز ونجد وجنوبى سورية ، أن تحتك بالأمم التى توافدت عليها من الشمال ، ومن الغرب ، ومن الشرق ، مهاجرة ، أو غازية ، أو مارة مع قوافلها الى سواحل البحار .

والاحتكاك مهما كان سببه لابد أن يكون له أثر فى اللغة والتقاليد ـ وإننا لنرى صورة ذلك الأثر فيما قيل عن اللغة الإرمية ، وأنها أخذت فى سورية تتحول بتأثير البيئة والأجناس التى خالطتها الى رطانة . بينما كانت فى شمالى العراق تتقدم باطراد مستفيدة من الثقافة اليونانية وفلسفتها حتى أصبحت لغة العلم والأدب والتدوين .

وكما استطاع الإرميون فى شمالى العراق أن يصلوا بأبجديتهم وخطهم الى مستوى أرفع مما كان عليه المستوى اللغوى فى سورية ـ استطاع النبط أن يعودوا بالإرمية الى حافة القاعدة العربية على ما صادفته اللغة الإرمية فى « تدمر » من تحول نحو اليونانية والرومانية .

وإنا لنجد أثر ذلك التقارب الواضح فى تداخل خطوط الثموديين مع خطوط النبطيين وبتعلق الحيريين بالخطوط النبطية الإرمية ـ عندما نبحث فى الخط النبطى والخطوط الثمودية واللحيانية والصفوية .

---

( ١ ) ولفنسون ص ٢٤٣ .



البحث الرابع عشر :

# الخطوط : اللحيانية . الثمودية . الصفوية

من موضوعات البحث :

١ ـ أصل هذه الخطوط .
٢ ـ أصحيح ما يقال : إن الخط الثمودى القديم هو أصل الخطوط السامية الجنوبية ؟
٣ ـ نتائج البحث فى أرومة هذه الخطوط الثلاثة .
٤ ـ الحجاز سوق ثقافية قديمة .



# الخطوط : اللحيانية . الثمودية . الصفوية

١ ـ هذه الخطوط الثلاثة ـ من الخطوط التى انتشرت فى اماكن كثيرة من البلاد العربية . ولكنها فى تاريخ الجزيرة لا تعتبر من الخطوط الشمالية « خطوط الهلال الخصيب » لأنها من فصيلة الخطوط الجنوبية ، ولا تعتبر من الخطوط الجنوبية « خطوط الجنوب العربى » لأن مناطقها من أقسام الجزيرة العربية الشمالية . ولقد جاء فى تعليق « مراد كامل » على كتاب الفلسفة اللغوية لجرجى زيدان ـ اعتماداً على تقسيم جماعة علم اللغات بباريس : [ واللغات السامية الجنوبية تنقسم بدورها إلى شمالية وجنوبية . والشمالية هى : الصفوية ، والثمودية ، واللحيانية ، والعربية الفصحى ـ والجنوبية لغات نقوش بلاد اليمن : المعينية ، والسبئية ، والحضرية ، والقتبانية ، والأوسانية ثم لغات الحبشة الجعزية والأمهرية والخ ][1] .

فعلى ذلك تكون هذه الخطوط جنوبية بالنسبة للفصيلة التى تنتمى إليها ، وشمالية بالنسبة لمناطقها التى ظهرت فيها . ولقد جاء فى كلام جواد على : أن اللحيانية ، والثمودية والصفوية تشتمل على كلمات وصيغ مخصوصة لا تختلف عن اللغة العربية التى نكتب بها ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نعدها عربية شمالية أو عربية جنوبية[2] .

وهذه الخطوط فى رأى الباحثين ـ تفرعت من الأرومة التى تفرع منها الخط المسند ، ولكنها ليست من الخط المسند ، بل هى خطوط مستقلة لها صفاتها ومميزاتها . وفيما سبق بحثنا فى الآراء التى تقول : إن خطوط شمالى الحجاز ـ حاشا الخط النبطى المتأخر ـ متقاربة ومتأثرة بالخط المسند . ولقد ذهب بنا البحث مع الذين يقولون : ما دام أن الخط المسند منقول عن الخط الكنعانى مثلما كان الخط الإرمى منقولا عنه ، فإن الأصل للخطين واحد ، ويقولون : ما دام أن هذه الخطوط الثلاثة التى ظهرت متأثرة بالخط المسند ، منبثقة من الأصل الذى انبثق منه المسند ، فإن الأصل لخطوط جنوبى الجزيرة وشماليها واحد .

---

( ١ ) الفلسفة اللغوية ص ٣٦ .

( ٢ ) جواد ٧١ / ٢١ .

فالذى يستثنى من خطوط الجزيرة هو : الخط المسمارى السومورى ، والخط الهيروغليفى الفرعونى . فإنهما خطان اعتمدا على الصورة يرجح الكثير من المحققين أنهما من اصل واحد .

ولما كان لكل من : الكنعانيين ، والمعينيين ، والإرميين ، والسبئيين ، واللحيانيين ، والثموديين وغيرهم من شعوب الجزيرة ـ دول جمعها الزمن تارة وفرقها أخرى ـ كان لا بد مما كان ، حدوث هذه الفوارق بين الخطوط . والفوارق التى يحدثها الزمن الطويل لا بد أن تتفاوت حسب الأسباب التى فرقت بين هاتيك الأمم واستمرارها واتساع الفرقة وما يكتنفها من عوامل ومؤثرات .

فهكذا تطورت الخطوط . فأخذ كل واحد منها يختص بشكل وخصائص . منها ما هو متشابه ، ومنها ما هو غير متشابه . فمن الخطوط المتشابهة : المسند ، واللحيانى . والثمودى ، والصفوى ـ فحول هذا التشابه حامت الظنون . فبعضها اقتنع بأن اصل هذه الخطوط واحد ، ، وأن الزمن هو الذى فرق بينها . وبعضها ذهب الى أن هذه الخطوط متأثرة بالخط المسند للصلات التى تربط بين هذه الدول وشعوبها وبين المسنديين . ويرى ( هوبرت كريمة ) : أن الخط الثمودى القديم هو أصل الخطوط السامية الجنوبية[1] .

٢ ـ ورأى ـ هوبرت كريمة ـ على انفراد له وجاهته ، فثمود عاصرت قوم عاد وورثت الأرض بعدها . ومنازل ثمود الأولى هى بإجماع الأغلبية من المستشرقين والعرب فى وادى القرى على مقربة من منازل عاد الأولى . فلقد جاء فى معجم ياقوت عن « قَرْح » : وقرح ( سوق وادى القرى وقيل بهذه القرية كان هلاك عاد قوم هود )[2] . وبين « قرح » وبين ( حجر ثمود ) ثمانية عشر ميلا[3] ـ ولقد جاء فى كلام جواد على[4] : [ أن بطليموس عين موضع عاد وجعلهم غربى شبه جزيرة العرب على مقربة من ثمود وكلاهما كان يسكن اعالى الحجاز . والذى ذكره بطليموس أقرب الى الصواب . فمنطقة حسمى هى أقرب إلى هذا الوصف من مناطق الرمال ، ولم يعين القرآن موضع الأحقاف وإنما عينه المفسرون ].

---

( ١ ) جواد ١ / ٢٥١ .

( ٢ ) المعجم مادة قرح .

( ٣ ) تفسير الطبرى ٨ / ١٥٩ .

( ٤ ) جواد على ١ / ٢٤٨ و ١ / ٢٣٤ .

فعلى ذلك لا يبعد أن يكون الخط الثمودى القديم هو نفس الخط الذى كان يكتب به قوم عاد ،ولا يبعد أن يكون خط قوم عاد وأبجديته هو الأصل لخطوط الجزيرة ، فلقد فسر قوله تعالى : [ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ] ـ اى ساكنى الأرض بعد قوم نوح[١] ،فعاد ورثت الأرض بعد قوم نوح ، وثمود ورثت الأرض بعد عاد .

بيد أن هذه الأدلة كما نراها لا تقطع بأن المعينيين ـ الشعب الأول الذى كتب بالخط المسند ـ هم قوم عاد . وانما هى ترجِّحُ ذلك ، لذلك لا يمكننا أن نصر على أن خط المعينيين هو خط قوم عاد ولكننا لا نستبعد أن يكون خطهم وخط الكنعانيين من أصل عربى قديم ، يرجح أن يكون ذلك الأصل هو الذى عرفه العاديون والثموديون ومن فى طبقتهم من شعوب شمال الحجاز .

فعلى ذلك يكون المسند المتطور فى اليمن هو من الأرومة الثمودية أو من الأصل الذى تفرَّعَ منه القلم الثمودى .

ورأى « هوبرت » هو على النقيض من رأى جواد على ـ ورأى « جواد على » فى موضوع أصل هذه الخطوط غير مستقر فهو يقول هنا : [ ويرى العلماء : أن الأقلام الثلاثة المذكورة وهى : الثمودى والصفوى واللحيانى ، قد اشتقت من المسند ، فإن التشابه فى تعدد أشكال الحرف الواحد عن المسند ـ والظاهر أنها تفرعت منه فى القرون الأخيرة قبل الميلاد بعد تزعزع كيان الحكومات المركزية فى اليمن وظهور حكومات مستقلة فى الأرضين التى كانت خاضعة لحكم معين وسبأ ][٢] .

ثم يقول مرة ثانية فى بحثه عن صلة هذه الخطوط بالخط الإرمى : [ والأقلام المذكورة ـ حاشا القلم النبطى المتأخر ـ متقاربة بعضها من بعض متشابهة فى رسم الحروف ، تفرعت على ما يظهر من أصل واحد ][٣] .

---

( ١ ) تفسير الطبرى ٨ / ١٥٢ .

( ٢ ) جواد ١ / ٢٠١ .

( ٣ )جواد ٣ / ٤٢٥ ـ والرأى الذى أبداه جواد على اولا بنى ـ كما يبدو ـ على ما جاء فى كلام ولفنسون : =

فالفرق بين قول جواد على أولا ، وقوله ثانيا : واضح ، والفرق بين القولين يظهر لنا عدم استقرار رأيه وتردده .

وأخيراً نجد جواد على : اقتنع بأن المسند وهذه الخطوط الثلاثة تفرعت من الأرومة التى كانت رائجة فى بلاد العرب حيث يقول : [ إن الكتابات التى صنفها المستشرقون : المعينية واللحيانية والثمودية والصفوية ، والكتابات التى دونت بالمسند وعثر عليها فى الكويت وفى الأحساء ، وكتابات دونت بالقلم النبطى المتأخر : هى أقدم ما وصل إلينا بلهجة تقارب لهجة القرآن . والأقلام المذكورة ـ حاشا النبطى المتأخر ـ متقاربة بعضها من بعض متشابهة فى رسم الحروف ـ يتبين من انتشارها فى الأرضين التى تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات « بنى إرم » ومن تقاربها من المسند أنها تفرعت من أبجدية واحدة كانت الأبجدية الرائجة فى بلاد العرب قبل الميلاد وبعده أيضا ][١] ، فجواد على فى تحقيقه الأخير ـ على ما يبدو ـ يعنى بالكتابة المعينية مخلفات المعينيين الذين سكنوا أعالى الحجاز خاصة « العلا » وعاشوا هناك قبل الميلاد[٢] ، وتحقيق جواد على الأخير ـ على ما يظهر ـ لا يبعد عن رأى « هوبرت » .

هذا ونحن لا ننكر جهد جواد على ، فقد نشر لنا فى أجزاء كتابه « العرب قبل الاسلام » ما وصل إليه الباحثون عن هذه الخطوط ، فلقد جاء فى مؤلفه عن اللحيانيين : [ وقد عثر على أكثر الكتابات اللحيانية فى موضع يسمى اليوم « خربة » و « الخريبة » وهو خرائب تقع على مسافة « كيلو متر » واحد إلى الشمال من « العلا » يظهر أنها بقايا مدينة قديمة ][٣] ، وجاء عن القلم اللحيانى : [ أنه مثل القلمين الثمودى والصفوى قريب من

= ( وهذا القلم الثمودى مشتق من القلم المسند ـ ويحتمل أنه جاء إليهم عن طريق قبائل معين التى استوطنت فى الحجاز ـ تاريخ اللغات السامية ص ١٨٠ ) والقلم الثمودى الذى يتكلم عنه ولفنسون : قلم متأخر لا يتجاوز أقدم نقش منه سنة ١٠٦ م ـ اللغات ص ١٧٨ ـ ففى هذا التاريخ لم يبق لدولة معين ولا لدولة سبأ وجود حيث قامت دولة الحميريين فى سنة ١١٥ ق . م ـ « جرجى زيدان » ـ العرب قبل الاسلام ص ١٤١ » . فلا بد أن ولفنسون كان يقصد الخط المسند الحميرى الذى رجع إلى شمالى الحجاز مع قوافل اليمنيين ـ ناضجا ومزخرفا . فكان له بعض المؤثرات على خطوط شمالى الحجاز .

( ١ ) جواد ٣ / ٤٢٥ .

( ٢ ) نفس المصدر ٣ /٤٢٥ .

( ٣ ) جواد ٣ / ٤٢٧ .

المسند ، وأما لغة الكتابة فلغة عربية شمالية على اصطلاح المستشرقين ولكنها قريبة ايضا من اللهجات العربية الجنوبية ][1] ، والقلم اللحياني عثر عليه فى الحجاز ويوجد فيه حروف « الذال » و « الثاء » و « الغين » و « الضاد » و « افعل التفضيل » وعلامة التنبيه التى هى من الخصائص البارزة للغة العربية . ويقول عن تاريخها : إن الخلاف فيه كبير [ فمنهم من يرفعه الى القرن الخامس او السادس قبل الميلاد فى أقل تقدير ، ومنهم من ينزله الى ما بعد الميلاد ][2] . ويقول عن القلم الثمودى وأبجديته : [ وحروف الصفوية والثمودية كحروف العربية الشمالية عددا[3] . وأبجدية الثموديين فى رأى ( ليتمان ) وسط بين الصفوية والمسند العربى الجنوبى - وكتابات الثموديين عليها فى الغالب صور حيوانات ][4] . وقال عن القلم الصفوى : [ عثر عليه فى منطقة الصفاة شرقى الشام وفى بادية الشام - وخطوطه قريبة من كتابة لحيان وثمود[5] ، وقريبة من خط المسند ، وتتألف الأبجدية الصفوية من ثمانية وعشرين حرفا[6] - وتاريخ الكتابة الصفوية ترجع الى سنة ١٠٦ بعد الميلاد ، وفى هذه السنة كانت الحرب قائمة بين النبط والرومان -[7] وفى هذه الكتابات ظهر حرفا الجر ( من ) و ( مع ) العربيان وأضيفت صيغة المنعوت الى النعت كما فى العبرانية المتأخرة ][8] .

٣ - فكل هذه الأقوال التى جمعها جواد على من مصادره تصل بنا إلى أن هناك اصلا عربيا قديماً تفرعت منه الخطوط والأبجدية الجنوبية والشمالية - وأن هذه الخطوط تنقلت بلغتها مع الشعوب العربية من شمال الحجاز . ومن نجد واليمامة الى جنوبى الجزيرة وشماليها . ومن البحر الأحمر الى الخليج الاسلامى - ثم تلاقت فى منتصف الألف الأخيرة

---

( ١ ) جواد ٣ / ٤٢٦ و ١ / ٢٠٠ .

( ٢ ) جواد ٣ / ٤٢٧ .

( ٣ ) جواد ٣ / ٤٢٧ و ١ / ٢٠٠ .

( ٤ ) جواد ٣ / ٤٣٠ .

( ٥ ) نفس المصدر ١ / ٢٠٠ .

( ٦ ) نفس المصدر ٣ / ٤٣١ .

( ٧ ) نفس المصدر ٣ / ٤٣٢ .

( ٨ ) نفس المصدر ٣ ص ٤٣٢ . ويلاحظ أن « مع » ظرف لا حرف جر ) .

قبل الميلاد فى شمالى الحجاز متطورة متأثرة بما خالطها فى مهاجرها : فى العـراق ، وفى سورية ، وفى مصر ، وفى اليمن وفى سواحل الجزيرة - وإننا لنلمس هذا التطور وهذا التأثر فيما لاحظه المحققون على الخطوط الثمودية بالنسبة لأخواتها اللحيانية والصفوية . فلقد قالوا : إن الخط الثمودى متأثر بالمسند الجنوبى ، وان حروف الخط الثمودى والخط الصفوى كحروف العـربية الشمالية عددا وقالـوا : إن اغلـب الكتابـات الثمـودية عليهـا صور حيوانات ، وان الأبجدية الثمودية وسط بين الصفوية والمسند العربى الجنوبى - فعلى ذلك فان الخط الثمودى المتأخر تطور بتأثير الاحتكاك الى خط تأثر بالخط المسند فشابهه ، وتأثر بأبجدية الشماليين فكانت حروفه كحـروف العربيـة الشماليـة عدداً ، وتأثـر بالخطـوط الصورية : المسمارى والهيروغليفى - فرسمت على اغلب كلماته صور الحيوانات .

ثم لما تألق الخط الارمى وانتشر بواسطة النبط الذين تزعموا القضية العربية - فى شمالى الحجاز وجنوبى سورية - تداخلت الخطوط النبطية والثمودية بالشكل الذى يشير اليه جواد على : [ وهناك عدد من النصوص الثمودية يعود عهدها إلى العهد النبطـى ويشغل حيزا من الزمن حوالى مئتى سنة قبل الميلاد وثلاثمائة سنة بعده . وتمتزج فى مثل هذه النصوص الثمودية بالنبطية وقد عثر على بعض نصوص نبطية فى الحجاز ظن أنها من النصوص الثمودية ][1] .

٤ - والذى يظهر من هذا كله أن شمالى الحجاز كان ملتقى الثقافات وكان مجالا لصراع لغوى أبجدى بين المسند والإرمى . فلقد تزاحم الخطان فى هذه المنطقة : المسند - الخط الذى حظى بعناية واهتمام تبابعة اليمن ، والإرمى - الخط الذى تسامت به لغة الإرميين فى الشمال الغربى من العراق إلى مستوى ثقافى خلب الأنظار فحرصت شعـوب شمالى الحجاز على أن تدون به وثائقها وآثارها ، وإن كانت لم تتخل عن لهجتها وخطها الشعبى فى شؤونها الخاصة فكانت الغلبة فى آخر الأمر له .

والذى يبدو أن الخط الإرمى من بداية الجولة لم يقنع بأن تكون له مؤثرات على الخطوط التى كانت فى منطقة نفوذه فحسب مثلما قنع الخط المسند . فلذلك برزت صفاته كاملة فى الآثار التى دونت به . فكل ما حدث من اختلاف ما هو إلا نتيجة التطور ونتيجة التفاوت

---

( ١ ) جواد ١ / ٢٥١ .

فى الثقافة ، وفى إجادة ودقة الكاتبين ـ فلقد جاء فى حديث ( ليتمان ) عن بعض النقوش الثمودية : [ أن كاتبه ما كان يعرف اللغة الآرامية معرفة صحيحة لأنه أراد أن يستعمل الفاظاً آرامية فخانه الجهل بها واضطر الى أن يضعها فى قالب عربى وأن يستعمل معها بعض الكلمات العربية ][1] .

ويبدو أيضا أن اللغة الإرمية تطورت مع الخط الإرمى برغم حرص الإرميين على لغتهم الأصيلة فتحرفت كلماتها فكانت لها صفة جعلت الباحثين يعتبرونها لغة قائمة بذاتها فيقولون : كانت العرب تكتب باللغة الارمية وتتكلم فى منازلها لغة اللسان ـ العربى ـ كما كان الفرس يفعلون ذلك بعد الإسلام يكتبون بالخط العربى وباللغة العربية ويتكلمون فى دورهم باللسان الفارسى .



---

( ١ ) ولفنسون ص ١٧٨ .



البحث الخامس عشر

# العبرية والجعزية وخطهما

من موضوعات البحث :

١ ـ الدكتور ولفنسون يبحث عن دليل يثبت قدم اللغة العبرية .
٢ ـ الحيرة التى وقع فيها ولفنسون وقع فيها من قبل عشرين قرناً يوسف اليهودى .
لقد وجد الإسرائيليون فى فلسطين أمماً متمدينة منذ زمن طويل .
٣ ـ العنصر الإسرائيلى أقلية ضئيلة فى جموع المهاجرين مع موسى عليه السلام
٤ ـ العبرية فرع من الكنعانية امتزج بالإرمية وأخذ الكثير من العربية
٥ ـ ولفنسون يعترف أخيراً بأن اللغة العبرية وخطوطها مشتقة من الكنعانية .
٦ ـ اللغة الجعزية وقلمها .



# العبرية والجعزية وخطهما

١ ـ أنا لا أقلل من أهمية تحقيق الدكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه تاريخ اللغات السامية . فلقد أصبح هذا الكتاب مرجعاً لبعض الباحثين فى اللغات السامية . وأنا عندما رجعت إلى كتاب تاريخ اللغات السامية أبحث فيما جاء فيه عن اللغة العبرية وجدت الدكتور ولفنسون يتلمس الأدلة التى تثبت : أن اليهود قبائل عربية هاجرت من شبه الجزيرة إلى فلسطين كما هاجر إليها العماليق والإرميون والكنعانيون وغيرهم من القبائل العربية ـ عندما قال : [ ولأن بنى إسرائيل جاءوا بلغتهم العبرية من الجزيرة العربية ـ كانت مميزات الحياة الصحراوية بارزة فى هذه اللغة وقد توارث الإسرائيليون هذه المميزات إلى أن استوطنوا فلسطين ، فلم يكونوا يستنكرون على الأديب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية والخيال البدوى ][١] .

فالدكتور ولفنسون لم يجد دليلا غير مميزات الحياة الصحراوية يؤكد : أن اللغة العبرية جاءت من الجزيرة العربية مثل بقية اللغات السامية ، ولما لم يجد مايوضح الناحية التى جاءت منها هذه اللغة العبرية قال : [ إذن فترجيح أن بنى إسرائيل نزحوا من اليمن أمر لايمكن الاطمئنان إليه ـ لأن الشعوب العبرية لم توجد فى كل العصور التاريخية إلا فى شمال الجزيرة على أطراف فلسطين . وأما ما كان فى العصور المظلمة التى سبقت التاريخ فمن العبث المحض أن يبحث فيه لأنه لا دليل ولا شبه دليل ينير الطريق أمام الباحث ][٢] .

ومن أين يجد الدكتور ولفنسون دليلا أو شبه دليل يعتمد عليه فى إقناع القارىء بأن اللغة العبرية هى فى مصاف اللغات السامية القديمة ؟ ـ إنه ترك النصوص اليهودية وراء ظهره لأنه ليس فيها مايؤكد : أن اللغة العبرية هى فى مرتبة اللغة الكنعانية التى انتشرت فى سورية وفلسطين قبل أن يهاجر إبراهيم عليه السلام ، وأخذ يبحث بين ظنون

(١) ولفنسون ص ٨٨ .        (٢) ولفنسون ص ٨١ .

المستشرقين فلم يجد دليلا سوى مميزات حياة الصحراء ـ ومميزات حياة الصحراء فى بحوث المستشرقين ، يصفها لنا غوستاف ليبون : [ وبقى بنو إسرائيل حتى فى عهد ملوكهم بدويين أفاقين مفاجئين مغيرين سفاكين مولعين بقطاعهم مندفعين فى الخصام الوحشى . فإذا ما بلغ الجهد منهم ركنوا إلى خيال رخيص تائهة أبصارهم فى الفضاء كسالى خاملين من الفكر كأنعامهم التى يحرسونها ][1] .

وفى الواقع أن الباحث اليهودى المتعصب ليهوديته يقع فى حيرة إذا ما أراد أن يجعل للإسرائيليين تاريخاً عريقاً ، فلقد جاء فى كلام ( جون ويلسن ) عن الهكسوس وما كتبه عنهم فى العهد القديم ( يوسيفوس ) يوسف اليهودى : [ وهذه القصة ، قصة مغرضة لأن يوسيفوس كان يريد أن يثبت أن الهكسوس هم بنو إسرائيل ][2] .

٢ ـ فما أشبه الليلة بالبارحة ، فالحيرة التى وقع فيها إسرائيل ولفنسون وقع فيها من قبل يوسف اليهودى منذ عشرين قرناً . فمثلما حاول يوسف أن يجعل بنى إسرائيل فى مرتبة الأمم السامية ذات التاريخ القديم ، حاول ولفنسون أن يجعل اللغة العبرية فى مرتبة اللغات السامية ذات التاريخ القديم ، فلم يجد أمامه غير الحياة البدوية فتعلق بها . وأخذ يبحث فى ظنون المستشرقين عن هذه الحياة البدوية ولكنه لم يتعرض لما جاء فى كتاب اليهود فى تاريخ الحضارات لغوستاف ليبون ـ الذى قال عن بنى إسرائيل ـ : [ وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من باديتهم ليستقروا بفلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدينة منذ زمن طويل ][3] .

٣ ـ وكذلك هو لم يبحث فى المصادر الإسرائيلية ـ لأن تاريخ بنى إسرائيل فى المصادر الإسرائيلية واضح وضوحه فى المصادر العربية ، فالأسرة النبوية الكريمة أسرة يعقوب « عليه السلام » لها كل المميزات التى تحلى بها إبراهيم جدها الأعلى : نضج التفكير ، سمو المبادىء ، ثقافة دينية عالية ـ ولكن ليس بنو إسرائيل كلهم هم من الأسرة الكريمة ، فلقد قال ابن خلدون ، فى مقدمته : [ فالذى بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة

---

(١) اليهود ص ٣٠ .
(٢) الحضارة المصرية ص ٢٦٦ .
(٣) اليهود ص ٢٠ .

آباء على ماذكره المحققون ، والمدة بينهما على مانقله المسعودى الذى قال : [ دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً ، وكان مقامهم فى مصر إلى أن خرجوا مع موسى إلى التيه ، مائتين وعشرين سنة ، تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة . ويبعد أن يتشعب النسل فى أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد من سبعين فقط إلى ستمائة ألف أو يزيد ][1] .

فهذه هى الحقيقة فى تاريخ الأسرة الكريمة التى هاجرت إلى مصر بكاملها . ثم عادت مع موسى وهارون يتبعها الذين وجدوا فى شريعة موسى العدالة والحرية والمساواة التى لاتقرها الفرعونية المصرية آنذاك ـ هذه هى الحقيقة التى جاءت فى المصادر الإسرائيلية والعربية والتى أكدتها تحقيقات المستشرقين : [ ولحق ببنى إسرائيل عدد من المصريين الساخطين ومن الأسارى ومن العبيد المتمردين ][2] .

وبعد أن وصلت هذه الجموع الغفيرة إلى الشاطىء الشرقى من البحر الأحمر ، جبنت أن تخوض المعركة بجانب موسى ضد جبابرة فلسطين : [ **قَالُوا يا مُوسى إن فيها قَوْماً جبَّارين وإنَّا لَنْ نَدْخُلها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فان يَخْرجوا مِنْها فإنَّا دَاخِلُون** ][3] ، هنالك دعا موسى ربه [ **قال رَبِّ إنِّى لا أَمْلِكُ إلاَّ نَفْسى وأخى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وبَين القوم الفاسقين * قَالَ فإنهَا مُحَرَّمةٌ عليْهم أرْبَعين سَنَةً يتيهون فى الأرض فلاتأسَ على القوم الفاسقين** ][4] .

٤ ـ ففى تلك الأرض التى تاهوا فيها أربعين سنة أخذت أخيلتهم تتأثر بطبيعة الصحراء وأخذت شمس التيه تبخر من نفوسهم طبيعة الخنوع والخور ، إلى أن فنى ذلك الجيل الرعديد فى الأربعين عاماً ، ونشأ بعده جيل صحراوى استطاع أن يدخل فلسطين تحت راية آل إسرائيل ، فوجد نفسه أمام أمم متمدينة منذ زمن طويل ، ووجد نفسه مضطراً إلى أن يأخذ مقومات لغته وخصائصها من الكنعانية ، ويتخذ الإرمية وخطوطها لتدوين أحداثه ـ ثم بطول الزمن ، وبظهور دولة أنبياء بنى إسرائيل وباحتكاك اليهود بالشعوب

(١) المقدمة تحقيق عبد الواحد ١ /٢٢١ .

(٢) اليهود ص ٣٣ .

(٣) سورة المائدة آية ٢٢ .

(٤) سورة المائدة آية ٢٥ وما بعدها .

العربية ، أخذت لغتهم تستقل بصفات وخصائص لم تخل من الصفات الإرمية ومن الكلمات العربية ، فمثلما كان لاختلاط اليهود بالعرب فى الحجاز ، وفى نجد ، وفى اليمن تأثيره على حياتهم فتشعبوا قبائل وبطوناً تخلقت ببعض الأخلاق القبلية العربية ، كان له تأثير على لغتهم التى انزوت فى آطامهم عندما لم تجد القدرة على الظهور بجانب العربية التى انطلقت بها ألسنة اليهود من غير العرب فى جنوبى فلسطين وعلى سواحل البحر الأحمر[١] ـ كذلك تأثر اليهود فى العراق وفى سورية بحياة العرب الإرميين الذين تطورت بهم بيئة الهلال الخصيب ، وتطوروا بها إلى ماوصلت إليه الثقافة الإرمية واللغة الإرمية والخط الارمى . وإنك لتجد فى الكثير من تحقيقات المستشرقين التى جمعها محمود كامل فى كتابه (الدولة العربية الكبرى)ـ أقوالا تبين مدى تأثر اليهود ولغتهم بالإرميين ولغتهم .

ولقد حاول الدكتور ولفنسون أن ينفى تفرع اللغة العبرية من الكنعانية ، فقال : [ إن بعض المستشرقين كانوا يطلقون على العبرية والآرامية هذا الاصطلاح : لهجتى اللغة الكنعانية ـ وهو اصطلاح يتسرب إلى الذهن منه أن هاتين اللغتين مشتقتان من الكنعانية وهو خطأ صريح لا أصل له من الصحة . لأن العبريين من بنى إسرائيل وغيرهم قد جاءوا بلغتهم من موطنهم الأصلى ولم يقتبسوها من الكنعانيين بعد اتصالهم بهم . فليس يصح إذن أن يقال عن اللغة العبرية إنها فرع من الكنعانية أو إنها لهجة كنعانية ، وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الشأن إنما هو : أن اللغة العبرية واللغة الكنعانية كانت لغة واحدة لهجت بها تلك الأمم التى سكنت فلسطين وطور سينا فى مدى قرون معينة ، فلما تفرقت تلك الأمم وتباعدت اختلفت لهجاتها وتميزت فكانت إحداها العبرية وكانت الأخرى الكنعانية وذلك سبب التشابه بين هاتين اللغتين ][٢] .

فحيرة الدكتور ولفنسون جعلته يفهم الحقيقة على غير واقعها فيتصور العبرية صنواً للكنعانية ويقرر للإسرائيليين تاريخاً قديما بدأ فى فلسطين مع التاريخ الكنعانى فى فلسطين

---

(١) فى الجزء الخاص بشعوب البلاد العربية من هذا الكتاب وفى بحث اليهودية واليهود فى البلاد العربية تعرض البحث لحقيقة اليهود فى الجزيرة العربية .

(٢) ولفنسون ص ٧٩ .

وسورية ـ والحقيقة أن تاريخ الكنعانية فى سورية يرجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، أما تاريخ العبرية فلايتجاوز القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وجعلته يتناسى أن الإسرائيليين لم يختلطوا بالكنعانيين فى سورية وفلسطين إلا بعد هجرة موسى ـ ويتناسى ما قاله أولا : [ لأن الشعوب العبرية لم توجد فى كل العصور التاريخية إلا فى شمال الجزيرة على أطراف فلسطين ] .

فلقد كان عليه أن يثبت أن اللغة العبرية أقدم من هذه الهجرة . كان عليه أن يثبت أن العبرية هى لغة ( أور ) فى زمن إبراهيم وأن العبرية هى لغة يعقوب وبنيه قبل هجرتهم إلى مصر . وأن يثبت أن العبرية كانت لغة بنى إسرائيل فى مصر لاسيا أنه قد أتاحت له وظيفة تدريس بعض اللغات السامية بالجامعة المصرية فرصة لا إخاله قد ضيعها ـ فهو قد بحث فى الآثار المصرية عن كل مايتعلق باللغات السامية وقال عن العبرية : [ ينقسم تاريخ اللغة العبرية منذ نشأتها عند بنى إسرائيل إلى طورين مختلفين : يشتمل الأول منها على التوراة وبقية أسفار العهد القديم المعروفة ، ويشتمل الطور الثانى على سائر المصنفات الإسرائيلية التى ظهرت بعد ختام العهد القديم ][1] ـ ثم تغلبت عليه غريزة المحقق فقال : [ ومن المحتمل أن يكون اليهود قد أخذوا نظام الأبجدية عن الكنعانية لأن هذا نظام موجود من زمن بعيد فى الآداب الإسرائيلية بدليل أن بعض المزامير وجد مكتوباً به ][2] ـ ثم اعترف أخيراً بأن القلم العبرى مشتق من الكنعانى بصريح هذه العبارة : [ كان من السهل حل رموز حروف المسند على المستشرقين لشدة تشابهها مع الكتابة الكنعانية القديمة ـ وكما أن الأقلام الآرامية والعبرية مشتقة من الكنعانية فإن أقلام المسند مشتقة منه ][3] .

٥ ـ فلقد رجع الدكتور عن اعتراضه على الذين قالوا : إن العبرية فرع من الكنعانية عندما اعترف بأن نظام الأبجدية العبرية أخذ من نظام الأبجدية الكنعانية ، واعترف بأن الخط العبرى مشتق من الخط الكنعانى ـ وكذلك اعترف بأن العبرية منذ نشأتها عند بنى

---

(١) ولفنسون ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) ولفنسون ص ١٠٢ .

(٣) ولفنسون ص ٢٤٢ .

إسرائيل انقسمت إلى طورين ـ اشتمل الأول منها على التوراة ـ فتاريخ التوراة حديث بالنسبة لتاريخ الكنعانية ـ واعترف بأن شعوب بنى إسرائيل لم توجد إلا فى أطراف فلسطين فى كل عصور تاريخهم وعصور بنى إسرائيل فى فلسطين بدأت مع إسرائيل ـ فكل هذه الاعترافات تثبت مانفاه الدكتور ولفنسون أولا [ وهو اصطلاح يتسرب إلى الذهن منه أن هاتين اللغتين مشتقتان من الكنعانية وهوخطأ صريح لا أصل له إلخ .. ] .

٦ ـ أما اللغة الجعزية وخطها ـ فهى أعرق من العبرية فى ساميتها ، فالساميون هم الذين نقلوها من الجزيرة العربية إلى أفريقية ـ بينما العبرية لم تدخل فى جامعة اللغات السامية إلا بعد أن هاجر موسى ومن اتبعه واستظل بعدالة شريعته إلى فلسطين .

ولقد جاء فى تاريخ العرب لجواد على : [ وقديماً هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى الحبشة وكونوا دولة « أكسوم » التى كانت تتكلم باللغة الجعزية ، وهى لغة سامية ، كما أن قلمها الذى يشبه القلم المسند هو وليد القلم العربى الجنوبى وأن الأجاعزة أصحاب اللغة أقدم من هاجر من اليمن إلى الحبشة ][١] .

إن الصلات السياسية والاقتصادية والثقافية التى توشجت بين اليمن وبين الحبشة بفعل تبادل الهجرات ، قديمة وعريقة . ولقد خيل لليونانيين أن الحبشة تمتد من أفريقيا إلى شواطىء الخليج الإسلامى فأطلقوا اسم إثيوبيا على المنطقة الممتدة من الحبشة إلى عمان . وإن البحث فى صلات الحبشة باليمن ، وفى اسم أثيوبيا فى المؤلفات اليونانية له موضعه فى الجزء الثالث : « التاريخ العربى وجغرافيته » من هذا الكتاب . ولذلك فإننى لا أرى ضرورة لامتداد البحث عن الجعزية وعنصرية المتكلمين بها إلى أكثر من الخلاصة التى نقلناها عن « جواد على » والتى عرفنا منها ما هى الجعزية ؟ ومن هم المتكلمون بها ؟ وما هو قلمها ؟

(١) جواد ١٥٦/١ .

البحث السادس عشر

# الخطوط : التدمري . النبطي . السرياني

من موضوعات البحث :

١ ـ تدمر بين شقى المطامع الاستعمارية : الفارسية والرومانية
٢ ـ لمْ يفد بروز الدولة العربية فى تدمر ـ اللغة الإرمية وخطها
٣ ـ ظهور الدولة النبطية
٤ ـ لماذا اتخذ النبط الخط الإرمى ؟
٥ ـ فى شمالى العراق ظهر الخط السريانى
٦ ـ نهاية الخط النبطى هى بداية الخط القرشى ـ جد الخطوط العربية بعد الإسلام



# الخطوط : التدمري . النبطي . السرياني

١ ـ كان نجاح تدمر السياسى ـ أكبر نجاح عرفه تاريخ الإرميين السياسى فى هذه المنطقة . فلقد دوى اسم ( أذينة ) ومن بعده ( الزباء ) فى أرجاء الهلال الخصيب فاهتزت المطامع الواقفة بالمرصاد على جانبى الدولة التدمرية : مطامع الفرس من الشرق ، ومطامع الروم من الغرب . والمطامع إذا ما تزاحمت فاز من بينها من تقنع بالصداقة والتعاون ـ وكذلك فعل الروم الذين فازوا على الفرس بصداقة تدمر وبالتعاون معها بادىء الأمر فكان لهم ما أرادوا عندما قلبوا لها ظهر المجن آخر الأمر .

وكان النشاط الاقتصادى الذى نعمت به « تدمر » بفضل استراتيجية موقعها بالنسبة للطريق التجارى الممتد من البحر الأحمر إلى الخليج العربى ، أكبر من أن يستغله الإرميون . فلقد برق اسم « تدمر » فأقبل الطامحون فى العمل والكسب . والمكاسب إذا ما تأكدت هان لطلابها ركوب الوعر .

فسرعان ما اتسعت رقعة المملكة التدمرية وارتفع شأن عواهلها ، وسرعان ما ازدحمت المملكة التدمرية بالتجار والمرتزقة ، وسرعان ما غاصت اللغة الإرمية التى شرقت من قبل بلهجات العناصر الإسرائيلية التى هاجرت مع موسى ، فى مزيج من اللهجات واللغات : عبرية ، وفارسية ، ورومانية ، ويونانية ، حتى لم يبق من عربيتها غير نزر لاكته ألسنة مستعجمة فى نطقها فحرفته عن أصله .

فتدمر ـ فى المصادر العربية والإسرائيلية ـ مدينة فى طرف البادية التى تفصل الشام عن العراق ، بناها سليمان بن داود . وقد جاء فى شعر النابغة الجعدى : أن جن سليمان بنوها بالصفاح والعمد . وتدمر فى بحوث المستشرقين من المناطق الخصبة الواقعة شرقى أرض كنعان والتى استولت عليها قبائل عربية بعد سقوط الدولة البابلية كتبت بالقلم الإرمى[١] . ولم يبرز تاريخ تدمر السياسى إلا من القرن الأول للميلاد . ولم يلمع تاريخها

---

( ١ ) جواد ٣ / ٧٦ .

العربى إلا فى عهد أذينة والزباء .

٢ ـ فلم يكن فى الأحداث التى ساعدت « أذنية » على النهوض بمملكة تدمر والبروز فى الدولة الرومانية ومن بعده الزباء ـ ما أفاد تطور اللغة الإرمية . فالنقوش التدمرية ، وأقدمها لا يتجاوز تاريخه سنة ( ٩ ) ق .م نمت عن ثقافة خليط عربية من الطراز الإرمى ورومانية ويونانية . ولقد جاء فى بحث جواد على : [ والكتابات التدمرية هى : التى درسها المستشرقون وترجموها وشرحوا ما جاء فيها : بالإرمية واليونانية ثم اللاطينية والعبرانية ][١] .

٣ ـ فبسقوط « تدمر » وجد العرب أنفسهم فى شمالى الحجاز ونجد[٢] أمام خطر الرومان فلم يكن لهم بد من الوقوف فى وجه المطامع القيصرية . واقتحام المعارك التى حالفهم الحظ فيها فى البداية فكونوا : الدولة النبطية التى امتد نفوذها إلى رقعة كبيرة فى شمالى الحجاز ونجد وجنوبى سورية إلى دمشق وشواطىء البحر الأحمر ـ ثم هم لم يطيقوا صبراً أمام الحملات التى والت تجهيزها إمبراطورية لا تنضب مواردها ـ فتشتت شمل الدولة وتفرقت العناصر التى انضوت تحت لوائها فتحصن العرب فى داخل جزيرتهم ، وضرب على البقية التشرد فصاروا فى عداد مجهولى النسب من بقايا الشعوب القديمة التى فقدت قوميتها .

ويحدثنا جورج كيرك فى كتابه موجز تاريخ الشرق الأوسط عن النبط : [ وبمثل ذلك أخذت شعوب أخرى تتكلم اللغة العربية تتوافد فيا بعد من الطرف الشمالى من بلاد العرب وفى طليعتهم النبطيون الذين أخذوا من سنة ( ٣٠٠ ) قبل الميلاد ينزلون الجزء الجنوبى من بلاد الأردن حول معقلهم المشهور ( بطرا ) ][٣] .

٤ ـ ويقول جواد على : [ وقد سبب تدوين النبط كتاباتهم بالإرمية خسارة فادحة لنا لا تقدر بثمن لأنه حرمنا الحصول على نصوص بلهجات عربية قديمة ][٤] . ولم أجد ما يبرر اتخاذ النبط القلم الإرمى الذى شط به التطور فى الهلال الخصيب عن أصله العربى

---

( ١ ) جواد ٣ / ٧٥ .

( ٢ ) جواد ٣ / ١٣ ـ من رأيه أن النبط أقرب الى قريش والى العدنانيين ـ فى الجزء الخاص بدول الجزيرة بحث طريف عن دولة النبط .

( ٣ ) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٨ .

( ٤ ) جواد ٣ / ١٣ .

كما شط بلغته ، غير ما قيل عن تقدم الثقافة وتحسن القلم الإرمى ، وانتصار القلم الإرمى على أقلام شمالى الحجاز الثمودى واللحياني والصفوى بما فيها المسند ، وقد سبق البحث فى تلك الأقلام .

ويضاف الى هذا ما جاء فى حديث ( أثينودورس ) الذى ولد وعاش بين النبط : عن العدد الكبير من الرومان ومن الغرباء من الجنسيات الأخرى فى الدولة النبطية ـ فلابد لمثل هذه المجموعة من لغة وخط تتفاهم وتتعامل بها . والخط الإرمى ولغته التى انتشرت فى الهلال الخصيب يكفلان التفاهم ويساعدان على تقوية الرابطة بين عناصر الدولة النبطية وتوجيه الجميع إلى ما استهدفته الدولة النبطية من حضارة لو لم يقض عليها الاستعمار الرومانى لكان لها شأن فى البلاد العربية . ولقد جاء فى كلام جرجى زيدان : [ فالعرب الذين كانوا يخالطون العالم المتمدين بالتجارة أو السياسة فى ذلك العهد اضطروا الى معرفة لغة رجال الدولة أهل الوجاهة لاستخدامها فى المخابرات والتدوين ، فتعلموا اللغة الآرامية وكتبوا بالقلم الآرامى لسهولته . ثم تنوعت هذه الأقلام بتوالى الأجيال ، فتفرعت الى عدة فروع عرفت بالأقلام الآرامية ـ أشهرها عند الساميين القلم التدمرى فى ( تدمر ) والنبطى فى ( بطرا ) وغيرها ـ وأشكالها متشابهة مثل تشابه تلك اللغات ][1] .

ونحن عندما بحثنا فى الخط التدمرى لم نجد للعرب فى تدمر ميلا فى تخليص اللغة والخط الإرمى من مؤثرات العناصر غير العربية ولعل ذلك راجع الى الصلات الوثيقة التى كانت تربط الدولة التدمرية بالدولة الرومانية ـ أما فى بطرا[2] فالذى يبدو ، أن العرب كان لهم ميل فى إعادة الصفات العربية الى اللغة الإرمية ، ظهر واضحاً فى النقوش النبطية .

ولعل الإرميين أنفسهم ضاقوا ذرعاً بما خالط لغتهم فى المناطق الغربية من الهلال الخصيب فانتحوا الجانب الشمالى الشرقى يطورون لغتهم وقلمهم ويضعون لها أساساً قويا يتحمل الفلسفة اليونانية ومتطلبات الدول المجاورة .

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام ص ٩٤ .

( ٢ ) بطرا فى المصادر العربية هى الرقيم وتقع على فرسخ من عمان على تخوم البادية أما اسم « بطرا » فهو يونانى .

٥ ـ فهنالك فى شمالى العراق كان الخط الإرمى يتطور الى الخط السريانى ويتخذ ( الرها ـ أورفا ) قاعدة له ، ولقد وصل تحقيق جواد على الى أن : [ السريانية كلمة حديثة عهد يراد بها اللغة الإرمية . وأن الاسم « السريانى » لا يرتقى على كل حال أكثر من خمسمائة سنة ، أو أربعمائة سنة قبل الميلاد ـ وأما اطلاق اسم السريانى على الإرميين الشرقيين أى إرميي العراق فقد حدث بعد الميلاد ][1] .

فلقد عنى الإرميون فى العراق بتقدم لغتهم وخطهم حتى أصبحت اللغة الإرمية لغة العلم والأدب والتدوين ، وحتى أصبح الخط الإرمى فى شكله السريانى الجميل . ولقد كلف الإرميين هذا التطور البعد بلغتهم وخطهم عن اللغة الأصل وخطوطها داخل الجزيرة العربية وجنوبها . فمما جاء فى كلام ولفنسون عن اللغة الإرمية : [ واذا قررنا أن للغة الآرامية تأثيرا عظيما فى نشأة اللغات السامية ، فان لخطوطها فضلا أعظم فى ظهور خطوط كثيرة لأمم متمدينة . ولاشك فى أن الخطوط الآرامية انتقلت الى قبائلها من الخط الكنعانى . ونريد بذلك أنهم اختاروا لأنفسهم الخط الكنعانى يوم كانوا فى حالة البداوة ، ثم تصرفوا فيه تصرفا غير قليل الى أن ظهرت اللغة الآرامية بمظهر المتفوق واختارتها أمم كثيرة للمكاتبات الرسمية ، واقتضى الحال أن يستعمل بعضها الخط السريانى كما فعل الفرس فى عهد الدولة الساسانية ، ثم انتشر هذا الخط فى داخل آسيا من الأقاليم المغولية الى جهات الصين . وكفى الخط السريانى فخرا أنه أثر تأثيرا شديدا على جميع الخطوط العربية بواسطة الأقلام التدمرية والنبطية مما لا يشك فيه العلماء المستشرقون ][2] .

وما جاء فى كلام ولفنسون عن الدور الذى لعبه الخط الإرمى فى الخطوط العربية ، يسهل لنا مهمة البحث فى الخط النبطى بعد أن عرفنا ما يلزم البحث عن الخط السريانى . فكل ما جاء فى كلام ولفنسون واضح اذا ما فهمنا من كلامه أنه يعنى بالخط السريانى الخط الإرمى عندما قال : [ وكفى الخط السريانى فخرا ] فالفخر يرجع الى الخط الإرمى اذا ما اردنا التعميم لا الى الخط السريانى بالذات .

وهكذا تمخضت الخطوط الإرمية عن الخطين : السريانى[3] ومنشؤه ( الرها ) ،

( ١ ) جواد ٣ / ١١ .    ( ٢ ) ولفنسون ص ١٦٠ .

( ٣ ) فى المزهر : اللسان السريانى منسوب الى موضع بالعراق يسمى سورى أو « سوريانه » وهى أرض بالجزيرة ١ / ٣٠ .

والنبطى وقاعدته ( بطرا ) . ولقد اتجه الخط السريانى شطر الشرق فعبر البلاد العربية الى إمبراطورية الساسانيين وانتشر داخل آسيا فى الأقاليم المغولية الى جهات الصين .

٦ ـ أما الخط النبطى فان نهايته تعتبر البداية لظهور الخط العربى قبل الإسلام . فمثلما كان الخط الإرمى هو حلقة الوصل بين الخط الكنعانى والخط النبطى ، كان الخط النبطى حلقة الوصل بين الخط العربى وبين الخط الإرمى .

فهذه الحلقة التى كونها الخط النبطى هى آخر مرحلة لعودة اللغة الكنعانية وخطها الى وطنها الأول بعد رحلة طويلة بدأت مع رحلة الكنعانيين فى مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد ، واستمرت إلى ما بعد هجرة القبائل الإرمية فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد .

فلقد هاجرت اللغة العربية مع القبائل التى هاجرت الى فلسطين وسورية ولبنان . وهناك تطورت مع الأحداث فأخذت من غيرها بقدر ما أعطت فى الزمن الطويل الذى عاشته فوق جبال لبنان وعلى سواحل البحر الأبيض ، وفى مدن سورية وأنهارها وصحرائها ، وفى فلسطين الميدان الدامى منذ العصور الأولى ـ ومن هناك عادت أدراجها شيئا فشيئا الى داخل الأراضى التى بسط النبط عليها نفوذهم ثم انتقلت مع الأحداث الى ( الحيرة ) حيث أخذت تظهر بطابعها العربى تدريجيّاً .

فأقدم نقش جاهلى قريب الى العربية من حيث المادة والأسلوب ـ النقش الذى عثر عليه على قبر امرىء القيس بن عمرو الذى ملك ( الحيرة ) ٢٨٨ ـ ٣٢٨ بعد الميلاد . والذى دفن فى قصر « النمارة » بالحرة الشرقية من جبل الدروز . ويقول علماء الخطوط : ان نقش النمارة ونقوشا اخرى أحدث تاريخا منه دونت بالقلم النبطى المتأخر الشبيه جدا بالخطوط العربية الكوفية من حيث ارتباط الحروف بعضها ببعض ـ وهذه ظاهرة غير مألوفة فى الخطوط النبطية القديمة[١] .

ومن نقوش حجر ثمود المتأخرة ظهر لعلماء الخطوط أنه فى القرن الثالث والرابع كانت اللغة النبطية الآرامية قد أخذت تتلاشى وتندمج فى العربية الى أن تلاشت نهائيا[٢] .

---

( ١ ) ولفنسون ص ١٨٩ .

( ٢ ) نفس المصدر ص ١٧٨ ـ قصر النمارة هو : قصر صغير للروم على مقربة من دمشق .

البحث السابع عشر

# الخط القرشي

من موضوعات البحث :

١ ـ يرى الدكتور ولفنسون أن يسمى الخط الذى نكتب به اليوم : الخط الاسلامى : وأنا أرى أن يسمى : الخط القرشي.

٢ ـ الرأى العربى فى الخط القرشي : موضوع اختلف فيه المتأخرون.

٣ ـ أخطأ المتأخرون فى نقد الرواية العربية وفى تأييدها .

٤ ـ البحث فى الخط القرشي يقتضى : البحث فى الخط الحيرى.

٥ ـ إذا صح : أن خطّاً انتقل من الشمال إلى الحجاز زمن اسماعيل عليه السلام فهو خط كنعانى أو إرمى .

٦ ـ الخط القرشي اقتبست قواعده وخصائصه من المجموعتين : مجموعة الخطوط الشمالية ومجموعة الخطوط الجنوبية ـ ولقد غلبت السمة الإرمية النبطية عليه لأسباب منها أسباب سياسية .

٧ ـ اراء المستشرقين اعتمدت أولا على الرواية العربية . ثم صار اعتمادها على خطوط الآثار .

٨ ـ اتفق المستشرقون المتأخرون على أن الخط القرشي مأخوذ عن الخط النبطى واختلفوا فى الجهة التى جاء منها .

٩ ـ هل كان الحجاز خاليا من الخطوط قبل الخط القرشي؟

١٠ ـ قلب الجزيرة عرف الخطوط العربية القديمة وقد يكون هو المكان الوحيد الذى عاش فيه الأصل القديم للخطوط العربية.

١١ ـ ماهو الخط الذى كانت تكتب به قريش قبل ان تضع الأصل للخط القرشى الذى يعتبر أصلا للخط العربى فى الوقت الحاضر ؟

١٢ ـ تطور الخطوط العربية وتأثيرها على لغات العرب القدماء يشبه تطور الخط القرشى فى عصور مابعد الاسلام.

١٣ ـ نتيجة البحث فى أصل الخط القرشى.



# الخط القرشى

١ ـ **يرى الدكتور ولفنسون** : أن يسمى هذا الخط العربى الذى نكتب به : الخط الإسلامى ـ لأن الخطوط العربية فى الجاهلية كانت ذات أسماء خاصة تعرف بها ويتميز بعضها عن بعض ـ فلابد من إطلاق اسم خاص على هذا الخط ، واسم (الخط الإسلامى ) فى رأيه أفضل ، ولو كان هذا الخط معروفا قبل الإسلام ، لأن الإسلام كان هو السبب الجوهرى فى انتشاره وشيوعه وبقائه إلى الآن .

ورأى الدكتور ولفنسون والأسباب التى بنى عليها : وجيهة ومقبولة لحد ما ، ولكن الأفضل فى رأيى أن يسمى هذا الخط (الخط القرشى ) لأن هذا الخط كما يقول ولفنسون سبق الإسلام ، ولأن الإسلام الذى كان هو السبب الجوهرى فى نشوئه وارتقائه وبقائه ، كذلك كان هو السبب الجوهرى فى انتشار اللغة العربية وارتقائها وخلودها ، ومع هذا فان اللغة العربية لم تسم ( اللغة الإسلامية ) فما زلنا نحن ولايزال الذين يأتون من بعدنا يقولون : اللغة العربية ، ولأن الخطوط الإسلامية ليست هى الخط العربى فحسب بل هناك خطوط تعتبر إسلامية وهى غير عربية .

٢ ـ **ويرى حفنى ناصف** : أن الرواية التى تنسب لابن عباس ، والتى يؤيدها (ابن إسحاق ) و (المسعودى ) و (الواقدى ) ، والتى تؤكد : أن الخط القرشى جاء إلى الحجاز من اليمن عن طريق الحيرة كما فى كلام ابن عباس : إن قريشا أخذت خطها من أمية بن حرب ، وأمية أخذه عن عبد الله بن جدعان . وهذا أخذه عن أهل (الأنبار ) الذين أخذوه عن أهل (الحيرة ) ، وقد وصل إلى أهل الحيرة من طارىء طرأ عليهم من (اليمن ) من (كندة ) . وهذا الطارىء أخذه من (الخلجان ) كاتب الوحى لهود عليه السلام ـ لها مايبررها . فمن رأيه : [ أن النبط خالطوا الإرميين وكانت علاقاتهم مع اليمن : التجارية والحكمية تقتضى مبادلة الكتابة بين الطرفين . فيبقى مع كل هذا أن يترك

النبط خط اليمن بالمرة ، ويقتصروا على الأخذ عن الآرام وحدهم . ثم الرواية العربية متفقة على أن الخط جاء إلى الحجاز عن اليمن ، فالذهاب مع هذا وذاك إلى أن الخط لم يجيء إلا من الآرام دون أهل اليمن جحود للاجماع ومصادمة للنقل الذى لايتفق مع العقل ] [١].

ويعارض ولفنسون حفنى ناصف فى هذا الرأى ـ ويصف رواية ابن عباس وأقوال الرعيل الذى يؤيدها بأنها مشبعة بروح البساطة والسذاجة حتى لتبدو للباحث أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقائق التاريخية [٢] .

**٣ ـ ونحن إذا ناقشنا رأى حفنى ناصف نلاحظ عليه مايأتى :**

**اولا** : أن حفنى ناصف يفرض على النبط الأخذ عن الخط اليمنى المسند بناء على الصلات التجارية والحكمية ـ كما يقول ـ فهذا الحكم وإن كانت له حيثياته ، يختلف مع الواقع . فلم يقل أحد من علماء الخطوط : إن الخط النبطى أخذ عن الخط المسند ، بل الاجماع ينص على أن الخط النبطى مأخوذ عن الخط الارمى .

ولقد سبق البحث فى انعدام الصلة بين الخط الارمى والمسند . وأن ليس هناك سوى النظريات العامة التى تربط الخط الكنعانى وأبجديته بالخط المسند . فالخط المسند كما سبق هو إما أن يكون فرعا من الكنعانى أو صنواً له . والخطّ الإرمى هو من الارومة الكنعانية . فهذه الصلة البعيدة هى التى تربط هذا بذاك .

**ثانيا** : **يقول حفنى ناصف** : إن الرواية العربية متفقة على أن الخط جاء إلى الحجاز عن اليمن ـ وهذا لايتفق مع الحقيقة . فمن الروايات العربية : أن بنى المحصن بن جندة بن يعصب بن مدين هم الذين نشروا الكتابة . ومن الروايات العربية : أن أول من وضع الخط إسماعيل عليه السلام . ولقد أحصى جواد على الروايات العربية فى موضوع أصل الخط القرشى فبلغت سبع روايات منها : أن نفراً ثلاثة من طيء هم (مرامر ) و (عامر ) و (أسلم ) وضعوا الخط القرشى قياسا على هجاء السريانية [٣] .

---

(١) تهميش الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون طبعة النهضة ٣٢/١ .

(٢) ولفنسون ١٩٧ .

(٣) تاريخ العرب لجواد ١٨٥/١ وما بعدها .

ونحن إذا ناقشنا رأى ولفنسون نجده لايريد أن يكون للخط المسند أى ظل فى الخط الحيرى وأن رأيه فى الرواية التى تقول : إن الخط الحيرى أخذ عن اليمن والتى تعلق بها (حفنى ناصف ) هو : [ فليس فى استطاعة الباحث أن يرتاح إليها أو يعوِّل عليها لانه لا علاقة بين الخط المسند السبئى والخط الحيرى ووجود شىء من وجوه الشبه لا يكفى لاثبات هذا الرأى بل يرجع إلى أن الخطين اشتقا من أصل واحد هو الكنعانى القديم ] [1] .

فولفنسون فرض على الحيرة خطًا خاصًا بها فى مرتبة الخط المسند عندما قال : إن الخطين ـ المسند والحيرى ـ اشتقا من أصل واحد . وهذا لايتفق مع الحقيقة . فلم يكن للحيرة خط إلا فى العصور المتأخرة فإذا كان الخط الحيرى أُشْتق من خط ، فليس ذلك الخط هو الكنعانى القديم الذى تفصل بينه وبين تاريخ الخط الحيرى عشرات القرون . فمن الحقائق التاريخية : أن المنطقة الممتدة من شمالى (الحجاز ) و (نجد ) إلى تدمر و (فلسطين ) و (أرض مدين ) ـ كانت ملتقى لغات وخطوط تجمعت من الجنوب والشمال والشرق والغرب وتمركزت أكثر ما تمركزت فى (الحجر ) من أرض ثمود ، وفى (العلا ) وفى (مدين ) ثم بعد زوال الدولة النبطية فى سنة ١٠٦م وتفوق الطريق التجارى البحرى على الطرق التجارية البرية ، وبعد أن قامت دولة المناذرة فى سواد العراق ـ اتجهت الأنظار الى الحيرة عاصمة (المناذرة اللخميين ) التى كانت فى يوم من الايام من أعظم العواصم العربية .

ونجد ولفنسون : يستنكر أن تكون الحيرة والأنبار فى طبقة واحدة ـ فليس من رأيه أن الكنديين والنبط أخذوا خطهم عن المسند وأعطوه الأنبار والحيرة ـ وتكون الأنبار والحيرة فى طبقة واحدة تعلموه من كندة ومنهم انتقل إلى الحجاز[2] .

**فأولا** : من ذا الذى قال هذا ؟ إن رواية ابن عباس لم تقل ذلك . فالذى قاله ابن عباس : إن أهل الحيرة أخذوا خطهم من كندة وأعطوه للأنبار .

**ثانيا** : ان (الحيرة ) مدينة تقع على ثلاثة أميال من الكوفة ـ ويقال : إن (الأردوان ) ملك النبط هو الذى بناها وأنزل فيها حلفاءه من قبائل الجزيرة العربية ، ويقال : إن أول

---

**(١) تاريخ اللغات لولفنسون ص ١٩٧ .     (٢) تاريخ اللغات السامية ص ١٩٧ ومابعدها .**

من نزل بها مالك بن زهير ، وفى ذلك الزمن بنى خصم أردوان - باباً - الملك النبطى : ( الأنبار ) على الفرات غربى بغداد على مسافة عشرة فراسخ من بغداد غربا وأنزل فيها أنصاره من قبائل البادية . ويقال : إن الحيرة عمرت أولا ثم اجتاحتها الكوارث التى تحدث عنها التاريخ العربى فعمرت بعدها الأنبار .

فهذا الذى تقوله المصادر العربية عن الحيرة والأنبار لم يأت فى البحوث المتأخرة [1] ماينقضه ، وإنما الذى أتى جديدا هو النصوص الأثرية والظنون التى أرسلها المستشرقون . وهذا الذى تقوله المصادر العربية لايختلف مع رواية ابن عباس عن الخط القرشى وأن الأنبار أخذته عن الحيرة . فالأنبار إن لم تكن ورثت الحيرة - كما مر بنا - فليست أقدم منها ، فيصح أن تكون إحدى المدينتين أخذت الخط عن الأخرى .

ونحن إذ أردنا أن نستخلص نتائج للبحوث العربية التى نقبت عن أصل الخط القرشى ، نجد الرأى العربى مختلفا فى أصل هذا الخط . فلكل رواية وجهة اقتنع بها البعض . فرواية ابن عباس ليست الرواية الوحيدة او المجمع عليها - ونجد فى الخلاف على الناحية التى أتى منها الخط القرشى إلى مكة : حجة القائلين بأن الخط القرشى جاء عن طريق الحيرة أقوى من غيرها [2] .

٤ - **لذلك علينا أن نبحث عن أصل الخط الحيرى أولا** . والبحث فى الخط الحيرى يجعلنا نتذكر مرة ثانية : أن الحيرة بعد زوال دول (الحجر ) و ( تدمر ) و ( بطرا ) تزعمت الحركة الثقافية ، ونتذكر أيضا : أن صراعا دار بين الخط المسند المتطور فى الجنوب ، وبين الخط الإرمى المتطور فى الشمال . وأن كلا الخطين زاحم الآخر فى الحجاز وفى نجد وشواطىء الخليج العربى ، ونتذكر أن هناك من يقول : إن الحيرة نبطية لأن النبط هم الذين بنوها ، ومن يقول : إن الحيرة يمنية لأن الذين أبرزوا هذه المدينة فى التاريخ العربى هم آل لخم اليمنيون ، ونتذكر أيضا : أن الحيرة سكنتها قبائل عربية عديدة ، منها قبائل

---

(١) معجم ياقوت مادة حيرة وأنبار .

(٢) تاريخ العرب لجواد ٢٠٣/٤ .

من (مذحج ) وقبائل (حمير ) ومن (طيء ) ومن (كلب ) ومن (تميم ) ومن (تنوخ ) ومن (النبط ) ، وأن الشعب الحيرى انقسم آخر الأمر إلى ثلاث طوائف : ١ ـ «تنوخ» وهم كانوا أصحاب المظال وبيوت الشعر وينزلون غربى الفرات ـ فيا بين الأنبار والحيرة ، ٢ ـ (العباد ) وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها وهم قبائل شتى ، ٣ ـ (الاحلاف ) وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ولم يكونوا من تنوخ ولا من العباد (١)

ونحن إذا تذكرنا جميع ذلك لانستبعد أن يكون من سكان الحيرة كتاب تختلف خطوطهم ، فالحميريون لابد أنهم كانوا يكتبون بالخط المسند ، والذين هم من ديار ثمود ولحيان لابد انهم كانوا يكتبون بخط ثمود ولحيان ، والذين هم من (الرها ) وتخومها لابد أنهم كانوا يكتبون بالخط السرياني ، والذين هم من (بطرا ) وماحولها لابد وأنهم كانوا يكتبون بالخط الإرمى النبطى .

فالنهاية المتوقعة لوجود مجموعة من الخطوط فى منطقة اتخذت قاعدة لكيان سياسى بذل اللخميون كل ما فى وسعهم لاستقلاله والحفاظ على ، هى الانصهار فى بوتقة المجتمع الكبير ليخرج خط جديد ذو طابع خاص عرف بالخط الحيرى ، فيه الكثير الغالب من قواعد الخط النبطى وخصائص الخط السريانى ، وفيه بعض صفات الخط المسند ، وبعض وجوه شبه بالخط الثمودى و اللحيانى .

فبناء على ذلك اختلفت الرواية العربية فى الخط الحيرى فبعضهم قال : إن ثلاثة نفر هم : ( عامر ) و (مرامر ) و (اسلم ) سكنوا الأنبار واجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة . فوضع (مرامر ) الصور . وفصل ووصل (اسلم ) . وأما (عامر ) فوضع الاعجام ـ وسموا هذا الخط بالجزم لأنه منقطع من الخط الحيرى (٢) . وجاء فى العقد الفريد : [ إن النفر الثلاثة ـ (مرامر ) و (أسلم ) و( عامر ) ] من قبائل طيء ـ وضعوا الخط فى العربية قياسا على هجاء السريانية ] (٣) ، وفى الفهرست لابن النديم : إن

---

(١) معجم ياقوت مادة (حيرة ) .

(٢) تهميش الامير شكيب على تاريخ ابن خلدون طبعة النهضة ٣٢/١ .

(٣) تاريخ العرب لجواد على ١٨٧/١ .

مرامر : اسم رجل من أهل الأنبار . يقال : إنه أول من وضع الهجاء العربى ، فانتشر أولا فى الانبار ثم فى الحيرة ثم فى الناس جميعا .

٥ ـ **أما الذين يقولون** : إن الخط القرشى وضع أيلم أسماعيل فأولئك على ما يبدو يرجعون بالخط إلى الاصل القديم الذى انتشر مع الكنعانيين فى شمالى سورية .

فالذى يغلب على الظن : أن الخط الذى قد يكون وصل إلى مكة فى عصر إسماعيل هو الخط الكنعانى ، أو الإرمى . والذى يغلب على الظن : أن ذلك الذى وصل إلى مكة زمن إسماعيل لابد أنه وجد فى مكة وفى الطائف وفى المدينة خطوطا يرجح أنها خطوط قوم عاد وقوم ثمود ـ وربما أنه وجد الأصل الذى تفرعت عنه الخطوط التى عثر عليها الأثريون فى شمالى الحجاز . أما النبط الذين ينسب اليهم الخط النبطى فزمنهم بعد إسماعيل بقرون طويلة ، وأما خطهم النبطى فلم يبرز فى سورية والحجاز إلا فى أزمنة متأخرة ـ ولئن تعلق بالخط النبطى عبدة الأصنام من العرب ، ولئن كانت الوثنية فى الحجاز مرتبطة بالوثنية النبطية كما هو واضح فى أسماء الأصنام التى وجدت فى منطقة الحجر ، ـ وقد سبق الكلام فى الوثنية والوثنيين ـ ولئن كانت لغة النبط الإرمية هى لغة الدين عند النصارى فى الشرق ، ولئن كان عرب نجران الخلص كانوا يعرفون اللغة الآرامية[٢] . فان انتشار اللغة النبطية كان فى زمن متأخر بالنسبة لعصر إسماعيل .

ففى الزمن الأخير ، توافرت الاسباب لانتشار الخط الإرمى النبطى فى المناطق المتوسطة من الجزيرة العربية . فإلى جانب الصلات الوثنية صلات عنصرية مهدت للعلاقات السياسية بين الأوس والخزرج فى (المدينة ) بالحجاز ، وبين الغساسنة فى (بصرى ) بحوران ، قال بوجودها بعض المؤرخين العرب . فكل ذلك يؤكد : أن الخط النبطى الشمالى الذى انتشر فى العلا ، وحجر ثمود ، قد بلغ المدينة فزاحم الخط المعينى والسبئى الذى يغلب على الظن : أن المعينيين والسبئيين قد خلفوه وراءهم بعد أن انتقلوا من المدينة وشمالى الحجاز إلى الجنوب .

٦ ـ فعلى ذلك فإن مكة والمدينة هما مثل الحيرة كانتا مجالا من مجالات تزاحم الخطين : المسند والنبطى .

---

(١) نفس المصدر ١٨٦/١ .

(٢) تهميش الامير شكيب على تاريخ ابن خلدون ٣٥/١ .

وعلى ذلك فان الخط القرشى ـ سواء جاء من الحيرة أو أخذ عن الشماليين ـ فانه على ما وصل إليه التحقيق اقتبس من مجموعتى الخطوط العربية : المجموعة الجنوبية ، ويمثلها الخط المسند ، والمجموعة الشمالية ويمثلها الخط النبطى . وإن الخط القرشى وإن افترض فيه وجود بعض من خصائص المجموعة الجنوبية ، فان مما لا تشك فيه تحقيقات المتأخرين : أن السمة الإرميه النبطية طغت على شكله وتغلبت خصائصها على غيرها مما جعل الاغلبية من الباحثين ينسبون الخط القرشى إلى الخط النبطى .

فنحن إذا ربطنا تاريخ الخطوط بالتاريخ السياسى فى البلاد العربية نجد للأحداث السياسية نتائج تقوى الدليل على أن الخط القرشى جاء من الشمال لا من الجنوب ، وعلى ان الخط الإرمى تفوق أخيراً على الخط المسند خارج اليمن .

فلقد استخَفَّ الأحباش بالحميريين وطمعوا فى دولتهم من أوائل العصر النصرانى [1] ، وفى أوائل القرن الثانى للميلاد بدأت الغارات الحبشية على أطراف اليمن بعد أن مهد طريقها التدخل الحبشى فى صميم الحياة اليمنية ، ولقد جاء فى البحث عن أصل اللخميين فى العراق : أن ربيعة بن نصر اللخمى هاجر بقومه « لخم » من اليمن خوفاً من الغزو الحبشى .

وهذا الذى لا حظه وخاف منه زعماء العرب الجنوبيون ، لا حظه وخاف منه زعماء العرب الشماليون ، فأخذوا يفكرون فى إنشاء كيان سياسى مستقل عن اليمن . ولقد كانت أولى الانتفاضات السياسية ثورة كليب بن ربيعة على النفوذ اليمنى .

فكل هذه الاوضاع السياسية تفسر لنا جزءاً مهماً من السر فى ترك الشعوب الشمالية الخط المسند واتجاهها إلى الخط الإرمى ـ وكيف اتجهت قريش إلى الشمال بدلا من أن تتجه إلى الجنوب ؟ وكيف كانت الحيرة فى الزمن الجاهلى الأخير مدرسة القرشيين بدلا من أن تكون صنعاء وارثة الامبراطوريات الجنوبية هى المدرسة .

على ان كل هذه الأحداث ومسبباتها لم تقطع علاقة الخط المسند ذى التاريخ القديم فى الجزيرة العربية بالخطوط الشمالية ، ولكنها طورتها وصهرتها فلا تبدو ظاهرة إلا لمن

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام لجرجى ص ١٤٦ .

تفرغ لتحقيقها من علماء الخطوط[1] . وإن كل هذه الأحداث لم تخرج الخط المسند عن أصله العربى الواضح فى أبجديته وفى لغتـه ـ وإن خالطتهـا رطانـة سكان الساحـل الأفريقى .

٧ ـ ولقد كانت آراء المستشرقين مبنية على الروايات العربية إلى أن ظهرت نقوش « النمارة » على مقربة من دمشق . ونقوش « زيد » قرية بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقى حلب . ونقوش « حران » فى جبل الدروز فى المنطقة الشمالية ورأوا فيها شبهاً بالخطوط النبطية المتأخرة المكتشفة فى « بطرا » وغيرها فأخذ الكثير منهم يرجح : أن الخط القرشى أخذ عن الخط النبطى لوجود الشبه الكبير بين الخط النبطى والخط القرشى .

ولقد اقتنع برأى المستشرقين « ولفنسون » كما رأينا من قبل . و« جواد على » الذى يقول : [ والواقع أننا لا نستطيع أن نقول : إن الخط الذى نكتب به الآن أخذ عن أهل اليمن الذين كانوا يستعملون المسند فى كتاباتهم الرسمية . فبين المسند والقلم الأول الذى كتب به كتاب قريش وأهل المدينة فرق كبير بين ظاهر ـ ولعل لانتشار القلم النبطى المتأخر المشتق من قلم بنى إرم فى العراق وفى بلاد الشام وسهولته وارتباط حروفه بعضها ببعض ارتباطاً تتألف منه الكلمات التى تميز بوضوح بعضها من بعض ـ دخلا فى أخذ كتاب قريش قلمهم من هذا القلم وصقله صقلا تولد منه القلم الذى دون به القرآن وأحجار القبور والمدونات الأخرى ][2] .

٨ ـ فبحوث المستشرقين المتأخرة لا يختلف أكثرها فى إرجاع الخط القرشى إلى أصل نبطى ـ وإنما الذى يختلف عليه المتأخرون هو الجهة التى جاء منها الخط القرشى إلى مكة . هل جاء من شبه جزيرة سيناء ؟ أو جاء من بلاد الشام من منطقة دولة بنى غسان ؟ أو من أرض آل المنذر بالحيرة ؟

والبحث فى أية ناحية من هذه الناحيات الثلاث أجدر بانشاء خط يضبط اللغـة العربية ويحفظ الحروف التى امتازت بها اللغة العربية بعد أن ضيعتها الخطوط واللهجات التى اتخذها العرب فى العراق ، وفى سورية ، وفى شبه جزيرة سيناء والصحراء العربية ـ

---

( ١ ) لقد سبق البحث فى هذه الصلة التى كان سبب وجودها الطريق التجارى فى بعض الآراء وفى بعض الآراء الأخرى الأصل الذى اشتق منه المسند والحيرى .

( ٢ ) تاريخ العرب لجواد ٤ / ٢٠٣ .

يلزمنا بالرجوع الى أحداث القرن السادس بعد الميلاد . وأحداث الشرق العربى فى القرن السادس بعد الميلاد جعلت شبه جزيرة سيناء غير قادرة على القيام بمثل هذا العمل الجليل . وأحداث القرن السادس الميلادى وإن جعلت من « بصرى » عاصمة لملوك آل غسان الذين ازدحم بلاطهم بشعراء العرب أمثال حسان بن ثابت لكنها لم تتح لها المكانة الأدبية التى حظيت بها الحيرة .

وإخال فيما تقدم من البحث فى الخطوط التى تنازعت البقاء ، وكيف كانت الحيرة مجالا واسعاً للخطوط ، وفى النتيجة التى لا بد أن يتمخض عنها اجتماع خطوط فى دولة حاولت أن يكون لها كيان مستقل ـ ما يجعلنا نرجح رأى القائلين بأن الحيرة هى الجديرة باحتضان اللغة العربية وخطوطها وآدابها . ولقد حدثنا بروكلمان فى بحث اللغة العربية الذى تقدم ـ عن الشبه بين لغة نصارى الحيرة وبين لغة رعاة الغنم من هذيل . وفيما سيأتى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى بحث مصادر التاريخ العربى فى العصر الجاهلى : تحقيق فى الأمية والأميين . وفى هذا التحقيق ثبت أن بعضاً من قريش كانوا يبعثون أبناءهم لتعلم الكتابة فى الحيرة .

أما خطوط النمارة ، وزيد ، وحران ، فجميع هذه الخطوط فى المنطقة السورية من الهلال الخصيب ـ فلذلك كانت الخصائص النبطية الإرمية غالبة عليها فى أوائل الأمر . ثم أخذت تتلاشى بمرور الزمن . فلقد قيل عن نقش ( النمارة ) : [ إنه مدون باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن ـ وإن كتب بالقلم النبطى المتأخر وبأسلوب متأثر بالإرمية ] ـ وقيل عن نقوش ( زيد ) : [ والمهم هو النص العربى ولا سيما قلمه العربى ولا يخلو النص العربى من الأثر الإرمى ] . وقيل عن الكتابة التى عثر عليها فى موضع « أم الجمال » : [ إن لغتها قريبة من اللغة العربية المعروفة وإنها متحررة من النبطية والإرمية إلى حد كبير ] (١) .

فالذى يظهر من دراسة هذه الخطوط ـ أولا : أن كتبة هذه النقوش ، إن لم يكونوا من إرم سورية فهم قد راعوا البيئة ـ فما الفائدة من الكتابة على قبر « امرىء القيس » فى النمارة بخط لم يكن منتشراً بين سكان النمارة وما حولها .

ثانياً : ان خاصة امرىء القيس اليمنى الأصل الحيرى الموطن ـ لم يحرصوا على أن

( ١ ) تاريخ العرب لجواد ١ / ١٩٠ وما بعدها .

تكون الكتابة بالخط المسند ـ أو بالخط الحيرى إذا كان الخط الحيرى فى ذلك العصر تبلور وأصبحت له صفات خاصة ـ لأنهم على ما يرجح كانوا يعرفون الخط النبطى الإرمى . فالخط النبطى كان منتشراً فى العراق كما كان منتشراً فى سورية .

على أننى أستبعد أن يكون الخط الحيرى فى عصر امرىء القيس الذى مات سنة ٣٢٨م ، قد تبلور وأصبح خطاً مميزاً بقواعد وخصائص عن غيره من الخطوط .

ثالثاً : تطور الخط النبطى وبروز صفات الخط القرشى فيه بالتدريج ـ فتطور لغة النقوش وخطوطها من سنة ٣٢٨ وهو تاريخ نقش النمارة الى سنة ٥١٢ ، وهو تاريخ نقوش زيد . وإلى سنة ٥٦٨ تاريخ نقوش حران ، يوضح لنا مراحل ذلك التطور وكيف أخذت اللغة العربية تعود مرة ثانية إلى سورية . وإلى العراق بخط يميز صفاتها ومخارج حروفها .

ونحن بعد أن رجحنا الرأى المستشرقى القائل بأن الحيرة هى الجهة التى جاء منها الخط القرشى إلى مكة عن غيره من آراء المستشرقين ـ نرى : أن التحقيقات العربية قد تلاقت مع دراسات المستشرقين ـ فالخط النبطى كان سائداً فى الهلال الخصيب جميعه ـ ونرى أن الخط الحيرى والخط القرشى لم يكونا صورة طبق الأصل للخط النبطى . فلو كانا كذلك لما أصبح هناك ما يدعو إلى تمييزهما عن الخط النبطى ، أو تبديل اسم الخط فى الحيرة ـ بالخط الحيرى . وفى مكة بالخط القرشى ـ وإنما الخط الحيرى والخط القرشى كانا متأثرين بالخط النبطى أكثر بكثير مما تأثرا بغيره . ولعل سبب ذلك التأثير الكبير الذى كان للخط الإرمى النبطى ـ بالإضافة إلى الظروف السياسية التى تقدم ذكرها فى هذا البحث ، والتى ربطت المصالح العربية فى داخل الجزيرة بالعواصم الشمالية أكثر مما كانت مرتبطة بعاصمة الجنوب بعد أن تنازع السيادة عليها الأحباش والفرس ـ أن النبط الإرميين فى غرب الهلال الخصيب وشمالى الحجاز ـ أخذوا يدخلون على الخط الإرمى . وعلى لغته ـ لغة الحجاز ونجد العربية ـ فكان الخط النبطى بذلك أقرب الخطوط إلى العربية ، وأن السريانيين الإرميين فى شرقى الهلال الخصيب أخذوا يتسامون بالخط السريانى فكان له القدح المعلى فى مجال الثقافة والأدب والمعارف اليونانية .

ونحن إذا كنا قد اقتنعنا بأن الخط القرشى وضع وانتشر ـ أول ما وضع وانتشر ـ فيما بين الحيرة والأنبار ، فان ذلك لا يعنى : أن الخط النبطى والخطوط التى سبقته كنعانية ، ومسندية ، وإرمية ، وثمودية ، لاتمت إلى أصل عربى بسبب ـ فلقد قدمنا فى بحوث الخطوط المتقدمة الأدلة التى تثبت الأصل العربى فى تلك الخطوط .

ونحن إذا كنا اقتنعنا بأن القرشى الذى وضع فى الحيرة أخذ عن الخطوط التى سبقته . فإن ذلك لا يعنى : أن الخط الحيرى منذ وضع .. وضع بالصورة التى انتقل بها إلى مكة . ففى اعتقادى أن الذين وضعوه سواء أكانوا هم النفر الثلاثة : عامر ومرامر وأسلم ـ أو كان غيرهم إنما وضعوا أولا الأساس ـ كما وضع « أبو الأسود الدؤلى » أساس قواعد اللغة العربية ـ ثم جاء من بعدهم من حسن الخط ووضح قواعده العربية .

٩ ـ ونحن إذا كنا قد اقتنعنا بأن الخط القرشى أخذ عن الخط الحيرى فليس ذلك معناه : أن أهل مكة والطائف من قريش وثقيف . وأهل المدينة من الأوس والخزرج لم يكونوا يعرفون الكتابة والقراءة . فمكة التى تشرفت بالبيت الذى قدسته شعوب الشرق العربى من قبل الميلاد . لا بد أن يكون أهلها قد احتفظوا بشىء من صلوات ابراهيم وأدعيته . وأن يكون لدوهم خط تحرر به مصالح الدولة وتسجل به حقوق الأفراد . ولقد عرفت الطائف بأنها مدينة الكتابة والقراءة فى العصور الجاهلية . ومن الحقائق التاريخية التى اعترفت بها البحوث العربية والمستشرقية : أن المنطقة التى تمتد من شمالى الحجاز ونجد جنوباً إلى سواد العراق شرقا وإلى فلسطين وأرض مدين غربا ـ كانت ملتقى ثقافات عربية تجمعت من الجنوب والشمال والشرق والغرب . وتمركزت أكثر ما تمركزت فى « حجر » و « العلا » وفى « مدين » ـ وأن المعينيين والسبئيين فى غابر زمانهم كانوا يسكنون فى المنطقة الشمالية الممتدة إلى المدينة ووادى القرى ـ وأنهم خلفوا فى الشمال نقوشاً بلغة تشبه لغة الشعر الجاهلى ..

ولعل الأصل للخطوط القديمة : الكنعانية ، والمعينية ، والثمودية ، واللحيانية لم يجد مكاناً يصونه من التحريف والتبديل غير جبال الحجاز وهضاب نجد .

فعاد قوم هود الذين سبق أن رجحنا : أنهم هم المعينيون الذين تحدث عنهم المستشرقون ـ انتشرت منازلهم فى أرجاء الجزيرة العربية . وفى حديث ابن عباس عن

« وادى عسفان » الذى رواه الامام أحمد : [ لقد مر بهذا الوادى ـ وادى عسفان ـ صالح وهود عليهما السلام حاجين يلبيان ] [١] ـ ويؤكد ما جاء فى كلام المستشرقين الذين يجعلون منازل عاد بوادى القرى على مقربة من منازل ثمود فى شمالى الحجاز فوادى عسفان فى شمالى مكة فلا يمر به إلا القادمون اليها من الشمال ، وفى شمال الحجاز كانت منازل المعينيين .

ويقول الطبرى عن عبد ضخم بن إرم : كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك . وقال غيره . إنهم أول من كتب بالخط العربى [٢] .

والثموديون كانوا منتشرين فى الحجاز وفى بعض المصادر العربية : أن « أبا رغال » هو جد ثقيف وأن الثقفيين هم من إرم ثمود [٣] .

١٠ ـ فلا غرابة بعد هذا أن ذهب التحقيق بالمستشرقين الى أن الخطوط : المسند والثمودى واللحيانى والصفوى هى فروع من أصل واحد . فالعاديون والثموديون انتشروا فى شمالى الجزيرة وجنوبها كما تؤكد المصادر العربية . والمعينيون والسبئيون انتشروا فى شمالى الجزيرة وجنوبها كما تؤكد المصادر المستشرقية ـ فسواء كان الخط المسند هو فى الأصل خط عادى كما يفهم من المصادر العربية ، أم هو خط معينى كما يقرر المستشرقون ، فإنه فى الأصل خط ظهر أولا فى شمالى الحجاز ثم انتقل إلى الجنوب ـ وعلى ذلك قال ( هومل ) وغيره : إن الخط المعينى الجنوبى هو صنو للخط الكنعانى الشمالى . ولقد سبق البحث فى ذلك .

ولا غرابة إن ذهب بنا البحث إلى أن وطن الأصل للخطين : المسند والكنعانى هو : الحجاز ونجد ـ وأن المناطق المتوسطة فى الحجاز ونجد البعيدة عن ازدحام الجاليات الأجنبية ما برحت محتفظة بهذا الأصل تدخل عليه الجديد الذى يصل إليها بعد صقله وإخضاعه لقواعد لغتها الى أن تطور فى العهد القرشى إلى أرومة هذا الخط الذى نكتب به اليوم .

١١ ـ وإنا عندما نبحث فى الخط القرشى يجب علينا أن نسأل عن الخط الذى كانت تكتب به قريش قبل أن تتخذ قلمها الذى يعتبر جداً للخطوط العربية الحاضرة ؟ وعن

---

( ١ ) تاريخ ابن كثير ١ / ١٣٨ .     ( ٢ ) تاريخ ابن خلدون .     ( ٣ ) نفس المصدر ١ / ١٣٧ .

الخط الذى كانت تكتب به خزاعة ومن سبق خزاعة إلى مكة ؟

ومعرفة الجواب عن هذا السؤال تعود بنا إلى ما سبق الكلام عنه فى هذا البحث عن الرواية العربية التى تقول : إن الخط القرشى هو من سلالة الخط الذى وضع أيلم إسماعيل . وإلى ما سبق الكلام فيه عن انتشار الخطوط : المعينية ، والسبئية ، والثمودية ، واللحيانية ، والإرمية فى الحجاز آنفاً . ونحن إذا رجعنا إلى النتائج التى وصل إليها البحث علينا أن نتصور الانتشار فى أضيق معانيه ، وأن الكتاب فى تلك العصور كانوا قلة ، ولا يبعد أن يكون لكل كاتب قاعدته الخاصة . فلقد مر بنا فى البحث عن الخطوط التى دونت بها اللغة العربية : [ وهناك مخربشات صغيرة خربشها قوم من الرعاة أو رجال القوافل العابرة ] [1] . ومر بنا أن خطوطاً متنوعة ظهرت على النقوش التى عثر عليها فى شمالى الحجاز ـ فالمسند ، والإرمى ، واللحيانى ، والثمودى ، والصفوى ، والنبطى ، كلها خطوط عرفها الحجاز وعرفتها نجد . فلثمود آثار فى نجد كما أن لهم آثاراً فى الحجاز . والنبط يقال إنهم فى الأصل من الصحراء الواقعة شرقى فلسطين ـ وعلى ما رجحنا أنهم من نجد . ويقال إنهم كانوا مختلطين بقبائل طىء .

وكذلك المعينيون والسبئيون كانوا فى الشمال ثم انتقلوا إلى الجنوب فلا بد أن تكون خطوطها قد انتشرت فى الشمال كما انتشرت فى الجنوب حتى بلغت سواحل الخليج الإسلامى الشمالية . ولقد أظهرت حفريات أرامكو فى المنطقة الشرقية آثاراً مكتوباً عليها بالخط المسند ـ وحتى الخط المسمارى لابد أن يكون الحجاز ونجد عرفاه .

فمن تاريخ الخطوط وأبجديتها يظهر لنا : أن العماليق والإرميين فى الحجاز ونجد كانوا يكتبون بالخط الأصلى الذى تفرع عنه الكنعانى والمعينى ، ثم لما أخذ التطور يبعد بين هذين الخطين : المعينى والكنعانى ، تكونت مجموعتان من الخطوط : المجموعة الأولى المسند ، والثمودى . واللحيانى وما تفرع عنها ، والثانية الكنعانية والطور سينائية والإرمية وما تفرع عنها ـ فمنطقة المجموعة الأولى : من شمالى الحجاز إلى شرقى « نجد » إلى أقاصى « اليمن » جنوباً . أما منطقة المجموعة الثانية : فمن شمالى « نجد » إلى فلسطين

---

( ١ ) التاريخ العربى القديم ص ٤٤ .

إلى الهلال الخصيب شمالا ، ومن الطبيعى أن تكون خطوط شمالى الحجاز ، المدينة وما بعدها شمالا متأثرة بالمجموعة الشمالية ، ومن الطبيعى أن يكون تأثير المجموعة الشمالية على مكة وما بعدها جنوباً وشرقاً أقل من تأثيرها على مدن الشمال ، ومن الطبيعى أن يكون لكل خط دوره فى الانتشار والذيوع . فمثلا الخط المعينى فى الشمال لابد أنه كان الخط الرئيسى للمدينة وما جاورها أيام إقامة المعينيين فيها وتأسيسهم دولة فى الشمال . وكذلك كان حال الخط اللحيانى ، والثمودى ، فلا بد أن يكون لكل خط زمانه . ولابد أن يكون للتطور أثره فى بروز خط عن آخر . ولابد أن يطغى الجديد على القديم . فهذه سنة الحياة . فعندما ظهر الخط النبطى ، وعندما أخذ النبط يعملون على إعادة الخط الإرمى إلى عربيته ، وجد هذا الخط النبطى إقبالا فى الحجاز ونجد ، فأصبح هو الغالب على شمالى الحجاز ، فلا يستبعد بعد هذا أن تكون مكة وأن تكون المدينة عرفتا خطوطاً عديدة تناوبت المكان الأول . ثم آخر الأمر ارتأت قريش أن توحد خطها على شكل صحيح فأخذت الخط النبطى أساساً لتعلمها ولعلها ، أضافت إليه بعض محسنات خطوط أخرى .

فالذى يظهر : أن تعدد الخطوط فى الحجاز واختلاط أكثرها بما هو غير عربى ، هو الذى دفع القرشيين آخر الأمر إلى أن يفكروا فى توحيد الخط الذى يدونون به ، وتثبيته على قواعد عربية ، ولم يكن القرشيون وحدهم هم الذين فكروا فى توحيد الخطوط بعد أن تعددت ودخلتها عناصر غير عربية ، فإن الروايات العربية المختلفة فى أصل هذا الخط القرشى وكيف نشأ تدلنا على مبلغ اهتمام العرب بموضوع الخطوط وتوحيدها .

١٢ ـ ثم إنا إذا ما رجعنا إلى ما قيل عن الخط النبطى وأنه تكيف بتوالى الأجيال حتى صار إلى الحرف العربى المعروف [١] ، وإلى ما يعرف عن الحرف العربى المعروف ومراحل تطوره وتعدد أشكاله ـ من زمن قريب بالنسبة لعمر الخطوط القديمة ، وإلى المدى الذى تطور من الرسم الكوفى إلى رسم الرقعة ، لا نستطيع بعد ذلك ان نهمل الأدلة التى ترجح لنا : أن تلك الفوارق التى بينها لنا اخصائيو الخطوط الأثرية هى نتيجة هذه الأسباب التى استعرضناها . وهى فوارق لا تحمل على الاعتقاد بأن لغة العرب البائدة :

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام جرجى زيدان ص ٥٨ .

عاد ، وثمود ، والعماليق ، وجرهم الأولى ، وعبد ضخم إلخ قد بادت معهم ، وأن اللغة العربية فى زمنها القديم لا تمت بصلة إلى اللغة العربية فى زمنها الحديث ، كما تقدم ذلك فى بحث اللغة العربية .

فمحال أن تكون جميع الآثار التى نقشت بالخط ( المسند ) الذى كان معروفاً قبل الإسلام فى شبه جزيرة العرب جميعها ، والذى قال عنه الاستاذ جواد على : [ وربما كان القلم العلم للعرب قبل المسيح ] [1] بشكل واحد ، ورسم واحد ، ولهجةٍ واحدة رغم فوارق الزمن ورغم فوارق البيئة .

أجل ! إننا لا نستطيع أن نهمل ذلك الظن ، ونحن نرى كيف تطور الخط القرشى فى مدى زمن قصير بالنسبة لعمر الخطوط ومراحل تطورها ، وكيف حدث الخلاف فى كثير مما كتب بالخط غير المنقوط . فإنا إذا ما رجعنا إلى الأبجدية العربية غير المنقوطة نجد حروفاً متشابهة لا يميز الواحد عن الآخر فى الابجدية الحاضرة غير النقاط مثل [ ب . ت . ث . ن . ج . ح . خ . د . ذ . ر . ز . س . ش . ص . ض . ط . ظ . ع . غ . ف . ق ] فلا بد لهذه الأحرف المتشابهة مما يميزها فى الكتابة غير المنقوطة .

وإنا إذا ما رجعنا إلى الأبجدية العربية المنقوطة نجد بعض الحروف فى خط الرقعة قد اتخذت شكلا غير شكلها فى خط الثلث مثل ( س . صـ . ق . ں ) فى خط الرقعة . فهذه الأحرف فى خط النسخ تكتب ( ش . ض . ق . ن ) ونجد الحروف التى تقع فى وسط الكلمة بغير الشكل الذى ترسم به إذا ما وقعت فى أول الكلمة أو فى آخرها أو مفردة .

ونجد الأبجدية العربية اليوم تتممها ( الهمزة ) ويتممها ( التنوين ) ، فالهمزة التى تكمل معانى بعض الحروف تأتى أيضاً مفردة لها جميع ما لأى حرف من حروف الأبجدية ، وكذلك التنوين هو يأتى فى بعض الحالات كحرف قائم بذاته مثل ( إذن ) .

وإلى جانب هذا كله فان الأبجدية العربية اليوم غير كافية لضبط الكلمات ما لم

---

( ١ ) تاريخ العرب ١ / ١٩٤ وراجع تاريخ اللغات السامية ص ٣٤ .

تشكل الحروف .، وهذا الذى جعل النادر جداً من كتاب اللغة العربية وقرائها هو القادر على نطق الكلمات العربية مضبوطة . فكثيرة جداً الكلمات التى تحمل عديداً من المعانى لا تعرف إلا بالحركات ـ ولقد نشأت حديثاً فكرة إحداث أبجدية عربية تعرف بها الحركات دون تشكيل ولكنها لم تتبلور .

فهذا الذى نلاحظه اليوم يجعلنا نجنح إلى أن أبجديات الماضى قد تكون أجيالها راعت فيها الحركات فوضعت إلى جانب حروف أبجديتها علامات تشبه الحروف ـ وهذا الذى نجنح إليه يرجحه ضبط أسماء ملوك الماضى القديم فيما نقل عن المستشرقين ، وضبط أسمائهم فيما نقل عن المصادر العربية ، وإنك لتجد ذلك واضحاً فى أسماء ملوك سبأ ، فاذا قرأت أسماءهم المنقولة عن المستشرقين تجدها مكونة من حروف لا يبعد أن يكون منها حرف تألف من حرفين لغرض الدلالة على الحركة ، بينما تجد هذه الأسماء فى المصادر العربية بحروف أقل تجعل الاسم أقرب الى العربية فى الوقت الحاضر . ولعل السر فى ذلك يرجع الى أن الذين سجلوا لنا التاريخ العربى القديم . منهم من كان يجيد العربية ويعرف جيداً الخط المسند مثل الهمدانى وغيره .

فها نحن اليوم نستعين بزيادة حرف ( الواو ) لنميز اسم ( عمرو ) من اسم ( عمر ) ، ونستعين ببعض الحروف لنميز المثنى والجموع السالمة ـ فلا يبعد أن يكون الأقدمون قد استعملوا حروفاً خاصة تدل على الحركات . وحروفاً تدل على الجموع وتدل على المثنى . وحروفاً بدلا من التشكيل وبدلا من النقاط . فمن ذلك برزت الفوارق بين الأبجديات . ولقد ثبت ـ كما سبق ـ أن البابليين كانوا يزيدون الواو علامة للرفع مثل ( عم ـ عمو ) .

على أنه مهما كانت الفوارق بين الحروف وخصائصها ونطقها ـ فإنها لا تخرج اللغة العربية عن أصلها ، فكما لم تخرج الحروف اللاتينية اللغة التركية عن أصلها ولكنها أثرت على بعض مخارج حروفها إذا ما قرئت حرفياً . وكذلك لا تخرج اللغة العربية عن أصلها الحروف الأعجمية ـ ولكنها تؤثر فى نطقها ، ومن هنا تنبعث اللهجة . وهذا سبب من الأسباب التى يجب ان تضاف إلى ما تقدم عن اختلاف اللهجات بعد بفعل احتكاك

العرب بغيرهم ، وما نجم عن الاحتكاك من تفرع لغة قطرية بجانب اللغة الأم ثم تغلب الفرع على الأصل . وإلى ما يحتمل حدوثه فى ترجمة المستشرقين للآثار العربية من تحريف وأخطاء .

١٣ ـ فاستناداً إلى كل هذه النتائج التى تقدمت يمكننا أن نقول : إن الخط العربى سار بجانب اللغة العربية فى تلك الرحلة الطويلة التى بدأت منذ هجرة الكنعانيين الأولى وانتهت عندما قامت دولتا الحيرة وبصرى العربيتين ، وعندما اهتم العرب فى الحيرة ، وفى الأنبار ، وفى مكة أخيراً بتكوين خط يضبط لغتهم ويحفظ لها نطقها السليم .

واستناداً إلى كل تلك النتائج التى تقدمت يمكننا أن نقول : إن الخط القرشى هو صفوة الخطوط التى عرفها الحجاز والتى تقدم الحديث عنها ، وإن هذا الخط القرشى اعتمد أكثر ما اعتمد على قواعد وخصائص الخط النبطى المتأخر ، فلقد كان أقرب الى اللغة العربية وأسهل من غيره وأكثر انتشاراً .

وبناء على هذا فإن الذين يقولون : إن الخط القرشى لم يدخله شىء من خصائص مجموعة الخطوط الجنوبية فى الوقت الذى يقولون فيه : إن الخط القرشى أخذ عن الخط الحيرى ، ينسون أو يتناسون ما جاء فى تحقيقهم عن صلة الخطوط الجنوبية بالحيرة وبالحجاز مثل : « ولفنسون » الذى أكد أن الشبه بين الخط المسند والخط الحيرى جاء عن طريق الخط الثمودى ومثل : « جواد على » الذى يؤكد انتشار الخط المسند فى ربوع البلاد العربية جميعها .

---



البحث الثامن عشر

# الشعر العربي عريق مثل لغته

من موضوعات البحث :

١ ـ فى الحجاز تعارفت الثقافات .

٢ ـ أين كانت مدرسة الشعر الأولى ؟

٣ ـ الحجاز أرض الشعر ومسكن النابغين .

٤ ـ تاريخ الشعر العربى قديم فى قلب الجزيرة قدم عاد وثمود

٥ ـ لا شك فى وجود الشعر من عصر عاد وثمود ، وإنما الشك كل الشك فى ما يروى عن لسان عاد وثمود من شعر يغلب على الظن : أنه من وضع القصصيين من أمثال ابن شرية .

٦ ـ الفرق بين الشعر القديم والشعر الحديث .

٧ ـ الشعر الموضوع يحرص واضعوه على أن يكون شبيهاً بشعر من نسب إليه

٨ ـ الأدب العربى دليل يلقى الضوء على الطريق الطويل الذى قطعه تاريخ الأدب العربى .

٩ ـ الاعتراف بشعر القرن الخامس بعد الميلاد دليل على قدم الشعر العربى .



# الشعر العربي عريق مثل لغته

١ ـ ليس علينا من حرج : إن جئنا نحن على أثر من سبقنا فلم نستكثر على البلد الذى أذن فيه إبراهيم بالحج فلباه الناس من كل فج : من أرض الفرات ، ومن سفوح الأرز ، ومن ضفاف النيل ، ومن سدود اليمن ـ أن يكون ملتقى الثقافات التى وصلت اليها شعوب الشرق العربى فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد .

وليس علينا من حرج : إن نحن لم نستكثر على سكان وادى القرى وأرض اليمامة الذين كانوا همزة الوصل بين الدول العربية فى الشمال والدول العربية فى الجنوب ، أن يعرفوا شيئاً من ثقافة الجنوبيين ، وشيئاً من ثقافة الشماليين . ولم نستكثر عليهم : أن يستوردوا من الأمم التى اتصلت بهم واتصلوا بها الطريف من ثقافتها وآدابها وآرائها ، ويصدروا إليها ذخائرهم ، وطوارف الفكر العربى الذى انطلق مع آيات الأنبياء إلى آفاق هذا الكون العظيم ، ومن صور الشعور الفياض بكل ما فى طبيعة أرضه من جلال وروعة وصفاء ، كما صدروا إليه انتاجهم من النحاس والذهب والأخشاب . ولم نستكثر عليهم: أن يطبعوا ما عرفوه من الشعوب التى يتاجرون معها بطابع بيئتهم ، ويصبغوه بصبغتها ، ويخضعوه للغتهم ، ويضفوا عليه من خيالهم وأحاسيسهم الجمال الفطرى والبيان الساحر .

فنحن كما لا نستبعد على الباحث الذى يتفرغ لدراسة حضارة قلب البلاد العربية : إن هو وجد من الأدلة ما يوضح له من أين أخذ الجرهميون فكرة دفن ثرواتهم فى مقابرهم ؟ أأخذوها عن السوموريين فى العراق ؟ فقد كان هؤلاء من قديم الزمان يعتقدون أن الانسان بعد الموت يحتاج الى أعوانه ومعداته وثروته فى عالم الخالدين . أم أخذوها من الفراعنة المصريين ؟ فلقد كان لهؤلاء فلسفة فى الموت وفيما بعد الموت تحدثت وما زالت تتحدث عنها أهراماتهم الشامخة على ضفاف النيل . أم هى عادة قديمة لجدودهم الذين عاشوا فى عصر الخصب والأنهار التى كانت تجرى فى وسط هذه الصحارى القاحلة المستعرة أخذها عنهم من القدم السومورويون فى العراق ، والفراعنة فى مصر ـ مثلما أخذوا

عنهم تجاربهم فى زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات ؟!

٢ ـ كذلك نحن لا نستبعد على الباحث المتعمق فى الأدب الجاهلى القديم : إن هو وجد من الأدلة ما يوضح من أين عرف العرب الشعر ؟ ـ هل هم عرفوه من السوموريين فى العراق ؟ فقد كان هؤلاء فى غابر عصورهم يقولون الشعر ويضمنونه آراءهم وفلسفتهم . أو عرفوه من الفراعنة ؟ فقد أثبت البحث فى تاريخ الفراعنة : شعراً قديماً تغنى به سكان وادى النيل . أو الشعر العربى هو من وحى الأرض المقدسة ، أرض النور والجمال أرض المهلهل وامرىء القيس والنابغة وحسان ، صدره العرب إلى العراق وإلى مصر كما صدروا إليهما معتقداتهم ولغتهم ؟!

فإذا كان العرب قد نقلوا إلى العراق وسورية ومصر لغتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يحفظوا لها جميع قواعدها وحروفها إلا بعد الإسلام ـ فتفرعت عنها اللغات السامية ، لا يبعد أن يكون العرب هم الذين نقلوا إلى أرض الرافدين ودلتا النيل الشعر ، ولم يستطيعوا أن يحفظوا له جميع أوزانه وقوافيه ، فنشأ منه الشعر فى سواد العراق وفى صحراء مصر ـ فما من شك فى صلة العماليق والإرميين الذين نشأوا فى قلب الجزيرة العربية بسكان العراق ومصر وسورية ـ وما من شك فى أن تلك الصلة كانت أعز وأقوى من الصلة التى كانت قبيل الإسلام بين العرب وبين الفرس والرومان ـ الدولتين المستعمرتين اللتين انقضتا على أطراف البلاد العربية تسومانها الاستعمار والاستغلال .

وما من شك فيما أثبته تاريخ الأدب العربى بعد الإسلام لغير العرب من سكان فارس وما وراءها شرقاً ، ولغير العرب من سكان مصر وما وراءها غرباً من نبوغ وعبقرية فى اللغة العربية وآدابها فأمهات المؤلفات اللغوية والأدبية ألفها غير العرب مثل سيبويه والفيروزابادى . وهيهات أن تميز شعر العربى الأصيل من شعر المستعرب الدخيل . فلقد امتزجت المعارف ، والآراء ، والشعور ، والخيال ، فأصبحت جميعها ذات طابع عربى واحد ، كما امتزجت العناصر : لغة وعقيدة وتقاليد فأصبحت جميعها ذات طابع عربى واحد .

فإذا كنا نلمح الشعوبية فى بعض الشعر الذى نظم فى بعض المناسبات ، وفى بعض الشعر الذى فاض بحماس العنصرية الكامنة فى النفوس ، فمثل هذا الذى نلمحه فى

الأدب العربى كمثل الصفات الجسمية التى تدل على عنصريتها مهما امتزجت الدماء واتصل الرحم .

فالشعر فى الأصل أحاسيس تجيش فى النفس فتنطلق حداء وغناء يترنم به البدوى بين أزهار الربيع ، ويشدو به المدنى كلما شاهد آية من آيات الجمال ، وكلما تأثرت نفسه بمنظر من مناظر الحياة الرائعة أو المروعة .

والأحاسيس التى تجيش فى النفوس ليست وقفاً على أمة دون أخرى ، وإنما الذى تمتاز به أمة عن أخرى هو البلاغة والبيان ، فبقدر ما فى اللغة من سعة وجزالة ، وبقدر ما فى البيئة من انطلاق وروحانية ، بقدر ما فى الشعر من بلاغة ، وفصاحة ، ودقة تعبير ، وخيال منطلق فى آفاق الجلال والحكمة والجمال والخلود .

فسواء لدينا أكان الشعر العربى سابقاً عن الشعر السومورى فى العراق ، والشعر الفرعونى فى مصر ؟ أم كان متأخراً عنهما ؟ - فإن الذى لا شك فيه هو : بواعث الشعر التى توافرت فى مهابط الوحى ، ومرابع الحرية ، ومشرق النور الحضارى ، وعرين العرب الذين أسسوا الدول العربية والحضارة العربية فى ربوع الهلال الخصيب ، وصحراء سيناء ودلتا النيل من فجر العصر الكلدانى فى العراق ، والفينيقى فى سورية ، والعمليقى فى مصر .

فإذا كان الشعر عرف فى بلاد الرافدين من العهد السومورى ، وعرف فى بلاد النيل من عهد الأسرات ، فليس بعيداً أو مستنكراً أن يكون العرب قد عرفوا الشعر من عهد عاد ، وجرهم ، وجديس ، وميزوه عن غيره من الشعر فى مصر وفى العراق فى عصور ما قبل التاريخ بهذه الأوزان وهذه القوافى ، وأضفوا عليه البلاغة الخلابة ، والبيان الساحر ، بفضل ما يملكون من لغة واسعة مرنة ، وبيئة شاعرية مشرقة .

٣ - وإذا كان الحجاز عرف فى عصوره الجاهلية الأخيرة بأنه أرض الشعر ومبعثه كما جاء فى تحقيق مؤلفى قصة الأدب فى العالم : [ إن مما يلفت النظر : أن أكثر من نبغوا فى الشعر كانوا يسكنون شمالى الجزيرة العربية - أعنى الحجاز وما إليه - فمنهم من كان من أصل يمنى رحل إلى الشمال كامرىء القيس من كندة وهى قبيلة يمنية ، وحاتم الطائى من

طيء كذلك ، أو من أصل عدناني إما من قبيلة ربيعة كالمهلهل وطرفة والأعشى ، وإما من مضر كالنابغة وزهير ولبيد ][1] .

فإن الحجاز الذى أنجب فى عصر الفوضى والظلام فطاحل الشعر الجاهلى الذى نقرأه اليوم معجبين بما فيه من خيال وحكم ، قد أثبتت نقوش عصوره الحضارية القديمة : أن لغة سكانه فى العصور القديمة كانت هى لغة الشعر الجاهلى كما أكد لنا ذلك « فرتز هومل » فى بحث ( اللغة العربية هى الأصل للغات العالم العربى القديم ) السابق ـ وكما نلاحظه هنا واضحاً فيما سنعرضه من أقوال المفسرين والمؤرخين وجامعى الشعر الجاهلى ، الذين اقتنعوا بأن الشعر الجاهلى يرجع تاريخه إلى عصر العمالقة وعاد وثمود فى الحجاز .

٤ ـ ففى طليعة هؤلاء ابن جرير الطبرى وأبو إسحاق النيسابورى ، وابن أبى الخطاب القرشى .

فلقد اثبت الطبرى فى تفسيره وتاريخه شعراً لرجال من عاد ومن العمالقة فى قصة ( عاد ) والوفد الذى بعثته عاد ليستسقى عند البيت الحرام[2] .

ولقد حوت جمهرة أشعار العرب للقرشى بعضاً من شعر عاد . وروى ابن أبى الخطاب القرشى عن المفضل : ( وقد قالت الأشعار العمالقة عاد وثمود )[3] .

فمن الشعر الذى أثبته الطبرى فى تفسيره وفى تاريخه نقلا عن ( ابن اسحاق ) هذه الأبيات التى جاءت فى « قصة عاد »[4] :

أبا سعد فإنك من قبيل ذوى كرم وأمك من ثمود[4]
فإنا لا نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد ورَمل والصوّاء مع العمود
ونترك دين آباء كرام ذوى رأى ونتبع دين هود

***

وهذه الأبيات التى جاءت فى قصة ثمود والتى نسبها ابن إسحاق إلى رجل من ثمود قال عنه : إنه من الذين نجوا من العذاب :

وكانت عصبة من آل عمرو إلى دين النبى دعوا شهابا

( ١ ) قصة الأدب فى العالم ٣٥٥/١ .
( ٢ ) تفسير الطبرى ١٥٤/٨ وما بعدها
( ٣ ) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ٤١
( ٤ ) تفسير الطبرى ١١٨/٨ ، وما بعدها

عزيـــز ثمـــود كلهـــم جميعا — فهـــم بأن يجيـــب ولـــو أجابا
لأصبـــح صالـــح فينـــا عزيزاً — ومـــا عدلـــوا بصاحبهـــم ذؤابا
ولـــكن الغـــواة من آل حجر — تولـــوا بعـــد رشدهـــم ذئاباً

وفى طليعة الذين انتقدوا هذا الشعر محمد بن سلام الجمحى الذى قال فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » : [ وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه ـ محمد ابن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن عبد المطلب ـ كتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال . ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة وليس بشعر . إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟ ـ والله تبارك وتعالى يقول : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » أى لا بقية لهم ـ وقال أيضاً : « وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى »[1] ] .؟

٥ ـ ونقد الجمحى كما تراه فيه شىء من الصحة وفيه مجرد الانتصار لرأيه الشخصى ـ فالصحيح فى هذا النقد : الشك الذى يحوم حول الاعتقاد بأن هذا الشعر نفسه قد قيل فى عصرى عاد وثمود ـ وإن كان هناك فرق فى جودة الشعر بين المنسوب إلى عاد والمنسوب إلى ثمود فالشعر العادى أفصح وأقوى . مما يدل على أن الناظم ليس هو شخصاً واحداً . فإن شعراً تتناقله الأجيال قرناً بعد قرن رواية لا يمكن أن يحافظ على أصله . وأن هذا الشعر بالذات لا يستبعد أن يكون من وضع القصاص .

أما الانتصار للرأى الشخصى فيظهر واضحاً فى اقتصار الجمحى على ما يؤيد رأيه مما جاء فى سورة الأنعام والحاقة ـ وما جاء فى سورة الأنعام لا يخص عاداً وحدها وإنما هو إنذار علم . وإنما الذى خص قوم عاد فى التنزيل الحكيم ما جاء فى سورة الأعراف . وما جاء فى سورة الأعراف يؤكد : أن الذين لم يبق لهم باقية هم الذين كفروا . أما هود والذين آمنوا فقد خبر القرآن بنجاتهم : « فأنْجَينَاه والذين معه برحمة منا وقطعنا دَابِرَ الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين »[2]

وما جاء فى سورة الحاقة مختصراً عن قوم هود وصالح ـ عاد وثمود ـ جاء مفصلا فى سورة الأعراف عن قوم عاد كما تقدم . وجاء فى سورة هود عن ثمود « فلما جاء أمرنا نجيَّنا

( ١ ) الطبقات ص ٩ — ( ٢ ) سورة الأعراف آية ٧٢

صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز »[١] وجاء فى سورة فصلت « وأما ثَمُود فَهَدَيْناهم فَاسْتَحبوا العَمَى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون »[٢]

ولقد جاء فى تفسير الطبرى لقوله تعالى : « فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . [ فأصبح الذين أهلك الله من ثمود فى دارهم يعنى فى أرضهم التى هلكوا فيها وبلدتهم ][٣] .

فمن هذا يتضح : أن الجمحى اندفع وراء اعتقاده الشخصى دون أن يستوعب ما ورد فى القرآن الكريم عن عاد وثمود . وما ورد فى مصادر التاريخ العربى عن قوم عاد بعد الريح الصرصر . وعن قوم ثمود بعد الرجفة ـ وما كان لهم من تاريخ استمر قروناً بعد هود وبعد صالح .

ثم إنا إذا ما رجعنا إلى ترجمة محمد بن إسحاق نجد الزهرى إملم أهل الحديث وعالم الحجاز والشام ـ يقول عنه : [ لا يزال فى الناس علم ما بقى مولى آل مخرمة ] فمولى آل مخرمة من رواة التاريخ الثقات .

هذا إذا ما ناقشنا نقد الجمحى بمنطقه وعلى ضوء الأدلة التى اعتمد عليها ، أما إذا ما رجعنا بالموضوع إلى ما جاء فى تحقيق الأثريين وبحث مدققى التاريخ العربى المتأخرين نجد كثيراً من الأدلة تؤكد لنا : أن للعاديين والثموديين أحفاداً عاشوا بعد سلطانهم الأول وبعد دولهم المتأخرة قبائل متنقلة إلى القرن الخامس بعد الميلاد . فلا يبعد أن يكونوا قد تناقلوا قصصهم وآدابهم جيلا بعد جيل . ولا يبعد أن يكون من عاصرهم نقل عنهم . ولا يبعد أن يكون ما نقل عنهم أضيف إليه خيال القصاص . وخيال القصاص مهما شطح ـ لا بد أن يكون له أصل من الحقيقة . وعن الخيال فى القصص التاريخى بحث تجده فى هذا القسم من هذا الجزء فى بحث ( إرم ذات العماد ) .

وكذلك نرى الجمحى متحمساً لرأيه الشخصى عندما استرسل فى نقده فقال عن اللغة العربية[٤] : [ لقد قال محمد بن على العلوى : أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه

---

( ١ ) سورة هود آية ٦٦

( ٢ ) سورة فصلت آية ١٧ وما بعدها

( ٣ ) تفسير الطبرى ١٦٤/٨

( ٤ ) الطبقات ص ١٠

إسماعيل بن إبراهيم ـ والعربية التى عناها محمد بن على : اللسان الذى نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا ] .

فهو باستدلاله هذا يحاول أن يفرض اقتناعه فرضاً ، فإذا كانت لغة إسماعيل وهى لغة القرآن ولغة العرب عندما أنزل القرآن ، ليست من اللغة العربية التى كانت العرب البائدة تتكلم بها ، فمن أين تعلمها إسماعيل ؟ ومع من كان يتخاطب بها ؟ ولقد مر بنا هذا الحديث .

والغريب أن الجمحى يستشهد بقول ( أبى عمرو بن العلاء ) : ما لسان حمْير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، فيقول : [ فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهنه ؟ فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق . ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل ][1] .

فهل لغة اليمن على ما هى عليه ليست من اللغات العربية ؟!

أنا لا أظن الجمحى لا يعلم أن غرض ابن العلاء : هو الاستشهاد بلغة حميرْ . وإلا فهل لغة اليمن ليست من العربية ولا العربية منها ؟![2]

هكذا نجد مصادرنا العربية مختلفة فيما قيل عن الشعر العربى وقدمه ـ فريق يؤكد : أن العرب العاربة عرفوا الشعر ونظموه . وفريق ينكر ذلك ويبالغ فى إنكاره . فينكر كذلك صلة لغة العرب العاربة باللغة العربية التى نظم بها الشعر الجاهلى المتأخر شعر المهلهل والأعشى وحاتم طىء .

وهكذا نجد رأى الذين لا يصدقون بأن الشعر عرف من عهد عاد ـ غير مستقر على أدلة مقنعة غير الشك فى أن يكون هذا الشعر الذى رواه ابن اسحاق هو نفس الشعر الذى قاله الشاعر العادى والشاعر الثمودى . وهذا الشك يشترك فيه أكثر من اعتقد بأن الشعر عرف من عهد عاد .

ونحن هنا مع الأكثرية التى لا تنكر الشعر على العرب البائدة ولكنها تستبعد أن يكون هذا الشعر نفسه نظم فى عهد عاد ـ وكذلك نحن مع الذين لا يستكثرون اللغة

---

( ١ ) نفس المصدر ص ١١

( ٢ ) رأجع بحث اللغة العربية السابق

العربية على العرب البائدة . ولا يقولون إن لغة جُرْهم والعماليق وعاد وثمود عربية ولكنها غير العربية التى نظمت بها المعلقات ؛ لأننا اقتنعنا فى بحث اللغة العربية بأن هذه اللغة التى نعرفها اليوم هى لغة العرب العاربة ، وأن تطورها لم يخرجها عن الأصل العربى ، ولأننا إذا ما رجعنا للشعر الجاهلى نجد فى شعر « امرىء القيس » و « عنترة العبسى » ، و « عمرو بن كلثوم » ، و « حسان بن ثابت » ـ أبياتاً وقصائد لا يضاهيها فى السهولة وسمو المعنى وفصاحة التعبير إلا شعر الممتازين من شعراء العربية فى القرن العشرين بعد الميلاد . ونجد تطور اللغة والشعر لم يجعل فوارق بين شعر حسان وابن كلثوم وبين شعر أبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى ، ولم يجعل فوارق بين شعر المتنبى وشعر شوقى والرصافى ، إلا فى بعض الكلمات وفى بعض الاصطلاحات والتشبيه إلى غير ذلك مما تفرضه على كل شاعر حياته وما يحيط بها ، ومما لا يؤثر على لغة الشعر ولا على أوزانه وقوافيه .

وهذه الفوارق فى الأسماء والاصطلاحات والتشبيه وإن كنا نجدها واضحة فى شعر كل جيل ، فنحن إذا ما قرأنا شعر امرىء القيس وحسان بن ثابت الشاعرين اللذين فى حياتهما الكثير مما ليس فى حياة الشنفرى وتأبط شراً ، نجد هذه الفوارق واضحة بين شعر حسان بن ثابت وبين شعر الشنفرى . ولقد قال أحد الشعراء الإسلاميين عندما سئل عن روعة التشبيه فى شعر الشريف الرضى : من أين لى أن أصل إلى مثل ذلك وهو السرى الذى عاش فى القصور والحرير والذهب ؟! فإن هذه الفوارق لا تكون إلا فيما ليس له وجود فى العصر الجاهلى . أما اللغة السهلة والمعانى الواضحة والأمثال المطربة ، فكما نجدها فى شعر الإسلاميين نجدها فى شعر الجاهليين . إننا لنجد حتى فى شعر الأعرابى الذى عاش فى صحارى الجزيرة وجبالها أبياتاً سهلة واضحة المعنى بليغة الحكمة مثل هذا البيت فى قصيدة الشنفرى لامية العرب :

**وفى الأرض منـأى للكريـــم عن الأذى وفيهـــا لمن خاف القلى مُتعزَّل**

*****

إن كثيراً من نقاد الشعر الجاهلى الشاكين فيه يبنون شكوكهم على ما فى بعض الشعر الجاهلى من السهل الممتنع والكلمات الحية التى تكرر استعمالها فى عصور ما بعد الإسلام . وهذا الدليل مقبول لحد ما ، ولكن يجب علينا أن نعلم : أن الكلمات العربية المستعملة من

العصر الجاهلى إلى اليوم هى عند العربى الجاهلى مثل الكلمات المهجورة التى تعتبر جاهلية إن صح هذا التعبير ـ سواء بسواء . فلا فرق عند الشنفرى إذا قال : ( أرقط . زهلول . عرفاء . جيأل ) ـ وقال : ( منأى . كريم . قلى . متعزل ) فهذه الكلمات كلها من اللغة العربية . وهذه الكلمات كلها استعملها العربى . فإذا ما صادف واجتمعت الكلمات المتداولة فى بيت من الشعر الجاهلى وفهمنا معناه دون الرجوع إلى القاموس ، ظننا حينذاك أن الشعر موضوع .

فهل المهجور من اللغة العربية هو وحده اللغة التى كان يستعملها الجاهليون فى شعرهم ، وفى خطبهم ، وفى حديثهم فى الأندية والأسواق ؟ وهل هذا المستعمل من اللغة العربية لم يكن العربى الجاهلى يعرفه ويستعمله ؟!

ثم إن حياة قوم عاد وقوم ثمود التى حدثنا عنها القرآن الكريم ، والتى قال عنها صاعد وغير صاعد : إنها حياة دول عظيمة[١] والتى اعتبر المستشرقون أزمنتها من عصور الجزيرة الذهبية[٢] هى ولا شك أفضل بكثير من حياة العصر الجاهلى المتأخرة رفاهية وثروة واتساع أفق وسيادة اعتزت بها الشعوب العربية جمعاء فى العراق ، وفى سورية وفلسطين ، وفى مصر ، وفى اليمن ، وفى الحجاز ونجد .

فكل هذه الحقائق وما يترتب عليها تبرر ما جاء فى تاريخ الطبرى وتفسيره عن وجود الشعر فى عصر العرب البائدة : عاد ، وثمود ، والعمالقة إلخ ، وتؤكد لنا : اقتناع العرب القدامى بقدم الشعر الجاهلى . وإن كانت هناك شكوك قوية تحوم حول الشعر الذى تناقله العرب ناسبيه إلى قصة وفد ( عاد ) إلى مكة ، فلو كان العرب فى الجاهلية وفى صدر الاسلام غير مقتنعين بقدم الشعر العربى ، وقدم اللغة العربية لما أقدم رواة التاريخ مثل : ( ابن إسحاق ) على نقل هذه الأقوال . ولما أقدم مؤلفو التاريخ العربى مثل ( الطبرى ) على تسجيل هذا الشعر . فكل الشواهد وكثير من النصوص التاريخية تؤكد لنا : أن الشعر العربى متوغل فى القدم . وأن الشعر القديم هو شعر بكل ما تدل عليه هذه الكلمة ( شعر ) من وزن وقافية ومعنى .

---

( ١ ) طبقات صاعد ص ٥٤

( ٢ ) التاريخ العربى القديم ص ١٧٧ . وراجع الحلقة الثانية من هذه الموسوعة [ العرب فى احقاب التاريخ ] التى صدرت بعنوان التاريخ العربى ومصادره ففى ترجمة خلف الاحمر كثير عن قصيده الشنفرى

وهذا كله لا ينفى أن يكون ذلك الشعر الذى سجله الطبرى وغير الطبرى موضوعاً . ونحن لا ننفى ذلك عن الشعر الغارق فى القدم لأننا نعرف أن كثيراً من الشعر المنسوب إلى شعراء جاهليين معروفين هو شعر موضوع .

٧ ـ فنحن إن كنا لا نستطيع أن ننفى : أن كثيراً من الشعر المنسوب إلى شعراء جاهليين ، هو شعر موضوع ، فكذلك نحن لا نستطيع أن ننفى عن كثير من الشعر الموضوع باسم شعراء جاهليين ، مميزات الشعر الجاهلى ، فقد توخى واضعوه محاكاة الشاعر الموضوع باسمه الشعر « أسلوباً ولفظاً » فعلى ذلك لا يستبعد أن يكون الذين وضعوا شعراً ونسبوه إلى قوم عاد قد حرصوا على الأسلوب الذى وصل إليهم عبر الأحقاب ـ إن لم يكن يشبهه لهجة وأسلوباً وخيالا فهو لا يختلف عنه كثيراً . وهذا ما يلاحظ على كثير من الشعر المنسوب إلى شعراء جاهليين معروف شعرهم . وليس وضع الشعر باسم شعراء مبرزين مقصوراً على الشعر الجاهلى ، بل إننا لنجد بعض القصائد والأبيات دخيلة على شعر فطاحل الشعراء الإسلاميين .

نعم لو لم يكن العرب فى جاهليتهم مقتنعين بوجود دولة ( عاد ) ، وحضارة عاد ، وشعر عاد ـ لما تحدثوا عن سلطانها وآثارها وأشعارها . ولو لم يكن العرب فى صدر الاسلام مقتنعين بما اقتنع به الجاهليون لما سجل أعلام التاريخ العربى قصص عاد وشعر عاد وما قيل عن إرم ذات العماد[١] .

٨ ـ فمما لا شك فيه : أن الأدب الجاهلى هو من أبرز الأدلة التى تلقى الضوء على الطريق الطويل الذى قطعه الأدب العربى ـ فأشعار الجاهليين وخطبهم وأمثالهم كل ذلك هو الأثر الحى للثقافة العربية فى قلب الجزيرة . وأشعار الجاهليين وخطبهم وأمثالهم التى تطربنا فصاحتها ونعجب ببلاغتها واتساع أفقها كل ذلك هو أدب عريق قطع مرحلة طويلة حتى بلغ القمة من الجودة وبلاغة التعبير ، فما فى الشعر الجاهلى من فلسفة وحكم وأمثال ، خضعت لموازين الشعر دون كلفة تشوه المعنى وجمال التشبيه ، وتقيدت بالقوافى دون ركاكة تذهب بروعة اللفظ ، ودون إقواء يؤثر فى موسيقاه ـ يدل على قدم الشعر الجاهلى .

---

( ١ ) تجد فى الفصل الخاص بحضارة اليمن بحثا خاصا بمدينة إرم ذات العماد فى هذا الجزء .

فالشعر الجاهلي الذي بين أيدينا لا يمكن أن يكون وليد جاهلية ما قبل الإسلام ، بل هو قديم قدم لغة الشعوب العربية التي نشأ بينها إسماعيل . والقول بأن الشعر الجاهلي قديم ليس هو من الموضوعات المستجدة في بحوث الأدب العربي . فلقد وصل إلى هذه الحقيقة من قبل الشعراء الجاهليون أنفسهم . فعنترة العبسي أحد شعراء المعلقات أعلن عن سبق الذين تقدموه من الشعراء إلى المعاني المتألقة بسؤاله : هل غادر الشعراء من متردم ؟

ونتيجة عرفت من عهد عنترة ليست في حاجة إلى إطالة الكلام عنها . وإنما الجدير بالبحث هنا هو متى عرف الشعر العربي ؟

٩ ـ إن الباحثين في تاريخ الأدب العربي اليوم ـ مع اعترافهم بأن الشعر الجاهلي هو نتيجة تطور العقلية العربية التي مرت بها عصور طويلة ـ يقتصرون في بحثهم على ما وصل إلى أيديهم من الشعر الجاهلي الذي لا غبار عليه . وما وصل إلى أيديهم من الشعر الجاهلي الذي زالت عنه أكثر الشكوك لا يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد ، ثم هم يسيرون وراء الخيال والظنون في قدم الشعر العربي .

فمما جاء في كلام مؤلفي كتاب قصة الأدب العالمي عن نشوء الأدب العربي : [ وأقدم شعر وصل إلينا كان الشعر الذي قيل في حرب البسوس أو قبل ذلك قليلا . وكان ذلك قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن . وقد وصلت إلينا من ذلك قصائد كاملة ، محال أن تكون أول محاولة . بل لا بد أن تكون قد سبقتها محاولات كثيرة ، دخلتها تحسينات كثيرة حتى وصلت إلى ما وصلت اليه ـ فهذا الوزن الكامل ، وامتلاك ناصية اللغة ، والقدرة على إجادة التصوير ، لا يمكن أن تنشأ ابتداء . ولا بد أن تكون خضعت لقانون النشوء والارتقاء . ولا بد أن يسبق ذلك وزن مخلع قبل أن يهتدوا الى البحور الستة عشر ـ ولا بد أن يمر شعرهم بطور التعبير المهلهل والأبيات القصيرة تقال في المناسبات المفاجئة ـ وأخيراً يصل إلى ما وصل إليه شعر امرىء القيس وأمثاله ، من نظم منسجم ، ونفس طويل ، وتعبير محكم ، ووحدة في القافية ][1] .

فظن مؤلفي قصة الأدب العالمي المدعم بهذا الدليل : [ محال أن تكون القصائد الكاملة أول محاولة للشعر الجاهلي ـ بل لا بد أن تكون قد سبقتها محاولات كثيرة دخلتها

( ١ ) قصة الأدب العالمي ٣٥٤/١

تحسينات كثيرة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ] ـ ظن يجعله فى مرتبة اليقين الاستدلال المنطقى الذى يفرض نفسه .

فالشعر الجاهلى كما جاء فى كلام ( كارلتون كون ) عن منشئه عندما تحدث عن الحضارة العربية والأدب العربى : هو الريشة التى صور بها العربى أهم الأحداث التى تصادفه فى حياته ـ مثلما صورها الألمانى بالموسيقى والفرعونى بالنحت إلخ[١] .

والعربى عرف الحياة وجمالها أيام كانت الجزيرة العربية كما يصفها ( كايتانى ) الايطالى . وقال عنها قبله المؤرخون العرب : ذات أشجار وأنهار وجو شاعرى . والعربى عرف من صور الحياة شيئاً كثيراً منذ أن كان يتاجر بالنحاس مع السوموريين ، ويقوم بأعباء النقل التجارى فى الشرق العربى . والعربى عرف الأحداث السياسية وتحمل الضخم من مسؤولياتها منذ أن أسس إمبراطورياته فى وادى الفرات ، وفى وادى النيل ، وملأ جبال الأرز ، وشواطىء البحر الأبيض حركة ونشاطاً .

فليس غريباً أن تؤثر متناقضات الحياة الطويلة التى عاشها العربى فى أحاسيسه وانطباعاته ، وليس غريباً أن يجيش فى صدره الشعور بمتناقضات الحياة ؛ جمالها وعبوسها فيحلق به خياله فى أجواء الأحلام تارة ، وتارة يدخل به فى مجاهل اليأس والألم . ولا بد لذلك الشعور أن يتبلور فى شكل مادى يبرز الفكرة فى صورة تعبر عن خفقات القلب وأنات الضمير ـ وأبرز الأشكال التى صور بها العربى أحاسيسه وانطباعاته هو الشعر ، وليس من المنطق فى شىء إن نحن ظننا أن العربى كان جامد الأحاسيس متحجر الشعور إلى القرن الخامس الميلادى .

---

( ١ ) قصة الشرق الأوسط ٦٢

البحث التاسع عشر

# معالم المجتمع والدولة في قلب الجزيرة العربية

**من موضوعات البحث :**

١ ـ البحوث الأثرية أزالت كثيراً من الشكوك التى كانت تغطى حقيقة الجزيرة العربية فى ماضيها القديم .

٢ ـ مثلما كانت الصحة هى الباعث الأول للعقل السليم كذلك كان الخصب هو الباعث الأول للنشاط المثمر .

٣ ـ الأثر الذى رأيته فى المدينة ينبىء عن حضارة قديمة جداً .

٤ ـ الثروة العربية فى الجاهلية القديمة .

٥ ـ الخيال فى القصص العربية مبعثه اقتناع العربى الجاهلى بحضارة اجداده القدامى .

٦ ـ إن المؤرخ العربى اهتم بتاريخ اليمن الحضارى أكثر مما اهتم بتاريخ الحجاز ونجد ـ لأنه كان لايملك نصوصاً أثرية .

٧ ـ ما زال الشك قويا فى بداية تاريخ المجتمع العربى .

٨ ـ معالم التاريخ السياسى القديم فى قلب الجزيرة وبدايته .

٩ ـ المرأة فى التاريخ الاجتماعى والسياسى العربى .

١٠ ـ وأد البنات فى الجاهلية عقيدة وثنية .

١١ ـ العرب فى جاهلية ماقبل الإسلام عادوا إلى الحياة القبلية .

١٢ ـ أعداء العروبة قبل الإسلام وبعده هم الذين شوشوا على العرب وتاريخهم .
١٣ ـ مثل العرب قبل الإسلام مثل العرب بعد الإسلام .
١٤ ـ دراسات المحققين هى التى أنقذت حقائق التاريخ العربى من الخيال والتهم .
١٥ ـ ماهية النظام السياسى داخل الجزيرة العربية ورأى المستشرقين .
١٦ ـ قلب الجزيرة هو ملجأ القومية العربية وحصنها .
١٧ ـ النضال العربى فى رأى المستشرقين غارة ووحشية ـ والغزو الاستعمارى سلام ومدنية .
١٨ ـ التحقيق فى أسماء الدول والشعوب وتحديد أراضيها هو الذى يستحوذ على اهتمام المؤرخين .
١٩ ـ الفوارق بين المدن التجارية والسواحل ، وبين المجتمعات المتحصنة برمال الجزيرة وجبالها ؛ لاشك فيها .
٢٠ ـ النظام الذى أسسه قصى فى مكة يشبه نظم الدول الحديثة .
٢١ ـ إن للبلدان حظوظا كما للإنسان .
٢٢ ـ حاضرنا صورة لماضينا .

# معالم المجتمع والدولة في قلب الجزيرة العربية

١ ـ لقد تقشع كثير من الشكوك التى كانت تحول بين محققى التاريخ العربى القديم فى الأزمنة المتأخرة ، وبين ماكان يقوله المؤرخون العرب فى الازمنة المتقدمة عن الحجاز ونجد واليمامة ، وإن هذه البلاد كانت مناطق ذات خصب وثراء ومياه متدفقة ، وعن دول العرب وعظمة ملوكها ، فآمن الكثيرون بماقاله المسعودى : [ وكان الحجاز أشجر بلاد الله وأكثرها ماء ][1] ، وبما قاله الطبرى : [ واليمامة إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً وأشجاراً ][2] ؛ وبما قاله ابن خلدون فى تاريخه ، وصاعد فى طبقاته ، عن شعوب عاد ؛ وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجُرْهم ، والعماليق ، وأنها كانت ذات ملك ضخم وسلطان كبير[3] . وصدقوا بما جاء فى جغرافية « بطليموس » عن أنهار الجزيرة التى كانت تنساب فى أراضيها وينساب معها الخير العميم ، ورجعوا الى ما قاله « بطليموس » عن المائة والستين مدينة التى كانت تزهى بها شبه جزيرة العرب ، وأخذوا يعنون بتحقيق (إسطفانوس ) و (بلى ) اللذين توصلا لمعرفة عدد من أسماء تلك المدن [4] . ولقد جاء فى موجز تاريخ الشرق الأوسط : [ فمنذ سنة ٨٠٠٠ ق . م . تقريبا اهتدى الإنسان بعد تجارب شاقة وأخطاء جسيمة الى استزراع الأغذية النباتية واستئناس بعض الحيوانات النافعة فتسنى له بذلك لأول مرة أن يدرج فى مدارج الأرتقاء نحو الحضارة ][5] .

وبواعث هذا التصديق جاءت فى البحوث الأثرية والجيولوجية التى توصلت الى معلومات لاتختلف كثيرا عما قاله قدامى المؤرخين . وهذه البواعث هى التى جعلت عددا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٨١/٢ .

(١) تاريخ الطبرى ٢/ بحث اليمامة .

(٣) طبقات صاعد ص ٥٤ تاريخ ابن خلدون ٢٧/١ .

(٤) التاريخ الجغرافى للقرآن ص ٧٢ .

(٥) موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٤ .

من المستشرقين يهتمون بالتحقيق فى مواطن الحضارات القديمة فى ربوع الجزيرة العربية التى أصبحت قاعا صفصفا ليس فيها غير سراب يحسبه الظمآن ماء .

وهذا الذى صدق به الباحثون هو الذى أنبأنا به القرآن الكريم فيما أنبأنا به من أخبار الماضين :

[ أَلَمْ يَرَوْاكم أهلكْنا من قبلهم من قَرْنٍ مكّناهُم فى الأرض مالم نُمَكّن لَكُمْ وأَرْسَلْنا السَّماءَ عليهم مِدْراراً وجعلنا الأَنْهارَ تَجْرى مِنْ تحتِهم فَأَهْلَكْنَاهُمْ بذُنوبِهِمْ وأنشأْنا مِنْ بَعْدِهِم قَرْناً آخَرِين ][1] و [ أو لَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الَّذين مِنْ قبلهم كانُوا أَشَدَّ مِنهُم قُوَّة وأثارُوا الأَرْضَ وعَمَرُوهَا أَكْثَر مما عَمَروها وجاءَتْهمْ رُسُلُهم بالْبَيِّنات فما كَان اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنفُسَهمْ يَظْلِمُون ][2] و [ كَالَّذين مِنْ قَبْلِكم كانُوا أَشَدَّ مِنكم قُوَّةً وأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بخَلاَقهم فاسْتَمْتَعْتُمْ بخَلاَقِكُم ][3] و [ وقَالَ ٱلمَلأُ مِنْ قَوْمِه الذين كفروا وكذبوا بلقاءِ الآخرة وأَتْرَفْنَاهُم فى الحياة الدُّنْيا ما هذا إلا بَشَرٌ مِثْلكُمْ يأْكلُ مِمَّا تأْكُلون مِنْه ويَشْرَبُ مِمَّا تَشرَبُون ][4] و [ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيع آيةً تَعْبَثُون . وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ . وإذَا بَطَشْتُم بطَشْتُم جَبَّارين . فَاتَّقُوا الله وأَطِيعُون . واتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بما تَعْلَمُون . أمدَّكُمْ بأَنْعَامٍ وَبنِين . وجناتٍ وعُيُونٍ ][5] و [ واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْد عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فى الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولها قصُوراً وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً

(١) سورة الانعام آية ٦ .

(٢) سورة الروم آية ٩ .

(٣) سورة التوبة آية ٦٩ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٣٣ .

(٥) سورة الشعراء آية ١٢٧ وما بعدها .

فاذْكُرُوا آلاءَ الله ولاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْض مُفْسِدِين ][1] و [ أَتُتْرَكُون فِى مَا هَاهُنَا آمِنِين . فِى جَنَّاتٍ وَعُيُون . وزُرُوع ونَخْلٍ طَلْعُها هَضِيم . وتَنْحتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيوتاً فَارِهِينَ ) [2] .

٢ ـ حقاً لقد مكن الله للذين عاشوا على ظهر هذه الجزيرة قبل الميلاد مالم يمكن للجاهليين فيما بعد الميلاد ، فأرسل على أولئك السماء تمطرهم مدراراً فأثاروا الأرض ، وعمروها ، فكما أن الصحة من بواعث أصالة الرأى وحسن التفكير فان الارض الخصبة تبعث النشاط ورغبة الاستثمار ، وهذا هو سر الحضارة التى حافظت على بقائها فى بلاد الهلال الخصيب وعلى ضفتى وادى النيل .

فها نحن نرى اليوم للثموديين الذين كانوا يعيشون فى شمالى الحجاز متخذين من سهول الحجر حدائق ومن جبالها بيوتاً ـ آثاراً بارزة إذا ما رأيتها رأيت فنًّا فى النحت لاينقص عن النحت الفرعونى فى مصر ، قال عن صلته بالفن الفرعونى البتنونى : [ ويظن آخرون أن الثموديين من العمالقة حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر ][3] . وقال عن صلة الفن الفرعونى به جورجى زيدان : [ واقتبس المصريون من مخالطة العمالقة معارف كثيرة ولاسيما الأبنية فأخذوا عنهم أشكالا جديدة ويعد أبو الهول المجنح من مبتكراتهم ][4] .

فمما قاله المؤرخون المصريون عن الحضارة المصرية واتصالها الوثيق بالحضارة العربية فى داخل الجزيرة العربية يتبين لنا : أن العمالقة الحجازيين والفراعنة المصريين كانوا على مستوى حضارى لاينقص هنا فى الحجاز عنه هناك فى مصر ويتبين لنا : أن الشعبين كانا على صلة ثقافية يتبادلان المعارف والفنون . ثم شاء الله أن يمنى قلب الجزيرة بالجفاف وأن تستمر حضارة مصر بفضل النيل . فمصر كما يقولون : هبة النيل .

٣ ـ وإننى أؤكد : أن لو بحث عن آثار قلب الجزيرة لظهر فيها مايدل على حضارة

---

(١) سورة الاعراف اية ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٤٦ ومابعدها . ولقد جاء فى تفسير قوله تعالى فى سورة فاطر آية ٤٤ : ألم يسر هؤلاء المشركون الذين عارضوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فى الارض فانهم تجار يسلكون طريق الشام فينظروا كيف كانت عاقبة الذين كانوا بها . تفسير الطبرى ١٤٧/٢٢ .

(٣) الرحلة الحجازية للبتنونى ص ٣١٢

(٤) العرب قبل الاسلام ص ٧٢ وكتاب الدولة العربية الكبرى لمحمود كامل المحامى ص ٣٩/٥٣ .

لاتنقص عن حضارة الواديين الفرات والنيل . وإننى هنا أذكر أثرا ضئيلا ظهر عندما كنت رئيسا لبلدية المدينة المنورة ، فقد قامت بلدية المدينة بعمل بالوعات لتصريف مياه الأمطار ريثما يتم الاجراء الرسمى الذى تقتضيه الموافقة على المشروع الذى تقدمت به البلدية لانشاء مجار عامة . فلقد ظهر فى إحدى الحفريات أمام باب السور القديم المسمى فى العهد التركى « باب بصرى » الواقع شمالى السور ، والذى أزيل فى التنظيمات التى اقتضتها توسعة الحرم النبوى فى العهد السعودى ـ جدار قائم تحت عمق ستة أمتار من ظهر الأرض يبلغ طول حجارته مترا ونصف المتر ويبلغ عرضها ثلثى المتر منحوتة بطريقة أدق من حجارة مبانى الحرم النبوى القديمة التى أظهرتها حفريات توسعة الحرم النبوى فى العهد السعودى ، وليس طراز نحتها من نوع حجارة آطام اليهود . ولقد بحثت مع بعض الإخوان الذين يعنون بالآثار وبتاريخ المدينة لعلنا نعرف شيئا عن ذلك الجدار ، فلم نعرف من تاريخه شيئا غير أنه جاهلى قديم ، قد يكون من عهد العمالقة أو من آثار السبئيين أو المعينيين فى يثرب .

٤ ـ ولقد تذكرت هذا السور الذى تراكمت عليه ستة أمتار من اتربة المبانى التى انشئت بعده فى مئات السنين عندما قرأت ماجاء فى كتاب التاريخ العربى القديم : [ أما الآثار التى وجدت خارج بلاد العرب الجنوبية فمعظمها فى الجهات الصحراوية القاحلة ، والجبلية الحجرية فى شمالى غرب البلاد العربية ، حيث تكشف لنا القناع عن الحالات المختلفة التى مر بها الطريق التجارى العربى المار بمكة والمدينة والذى كان يمتد حتى يبلغ البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط ودمشق . وأكثر ماتوجد هذه الآثار فى المدن التى فقدت كثيرا من أهميتها القديمة أعنى « العلا » و « الحجر » مدائن صالح و « بطرا » و « بصرى » ففيها نجد كثيرا من الخرائب التى ترجع لا إلى ماقبل الإسلام فحسب بل إلى ماقبل الميلاد ، وأيضا مما يؤيد أنها كانت قديما مركزاً هاماً من المراكز التجارية وملتقى للقوافل، وليست هذه القواعد التجارية هى الوحيدة الغنية بالآثار القديمة فقد عثر العلماء على كثير منها فى قلب الجزيرة « نجد » والجانب الغربى لبادية الشام ][١] .

---

(١) التاريخ العربى القديم ص ٣٧ و ٣٨ .

ولقد جاء فى بحث « جواد على » عن الميناء الحجازى [ لويكة كومة ـ المدينة البيضاء ] : أن هذه المدينة [ من أهم الموانىء الحجازية على عهد البطالسة . ويرى بعضهم أن هذا الميناء هو الحوراء(١) مرفأ سفن مصر إلى المدينة ويظهر أن الحوراء كانت من المواضع الجاهلية القديمة . وقد وجدت بها آثار قصور . ويظهر أن تجارة هذا الميناء كانت عامرة جداً فكانت القوافل التى تنقل البضائع بين « بصرى » وبين « لويكة كومة » فخمة جداً حتى كأنها قطع كبيرة من الجيوش تقوم بنقل الأموال من الميناء إلى « بصرى » ومنها إلى السوق ، أو بنقل التجارة الواصلة إلى بصرى من العراق أوالخليج أو اليمن ومنها إلى ذلك الميناء لتصديره إلى مصر وحوض البحر المتوسط . ويتبين من إهمال الكتب اليونانية أو اللاتينية ذكر هذا الميناء بعد الميلاد : أن شأنه أخذ بالأفول من ذلك الوقت )(٢) .

ويقول جواد على : [ ورَعْمة جزء من أجزاء الجزيرة العربية وقد ذكروا مع « سبأ » فى أسفار « حزقيال » فى معرض الكلام عن التجارة فذكر أنهم كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب . وأن أرض رعمة يجب أن تكون منطقة تقع فى الأقسام الغربية من شبه الجزيرة العربية ـ ومن الظنون التى تبحث عن ( أوفير ) ظنون تؤكد : أن « أوفير » فى اليامة ](٣) أو على شاطىء الخليج الإسلامى .

وقال جواد على : [ وأما اليونان والرومان ففى الأخبار المدونة فى كتبهم عن ذهب الجزيرة وجودته ووفرته واستخراجه قطعاً قطعاً نقية من مناجمه ووجود الأنهار التى تحمل مياهها أتربة الذهب وأمثال هذا من قصص مافيه الكفاية عن رأى القوم فى ذهب الجزيرة وكثرته ـ ولقد أشار الإسلاميون إلى مواضع عديدة فى جزيرة العرب عرفت بذهبها أو بوجود معادن أخرى فيها ](٤) .

---

( ١ ) جاء فى دائرة المعارف الإسلامية : أن ( شبرنجر ) تعرف على الحوراء وقال : إنها عين الحورا ـ راجع مادة الحجاز مجلد ٧ / ٣١٢

( ٢ ) جواد ٢ / ٣٧٩ ورأى ( ونست ) أنها « لويكة كومة » هى : « المويلح » فى الوقت الحاضر ويظن آخرون أنها « عينونة » أو « الخريبة » وهى تابعةَ لإمارة ضباء على ساحل البحر الأحمر .

( ٣ ) جواد ١ / ٢٧٨ .

( ٤ ) جواد ٢ / ٤١٥ .

ويؤكد لنا المؤرخون العرب قصة الكنوز التى عثر عليها ( عبدالله بن جدعان ) فى قبور الجرهمين .

وينقل «كرد على» عن جغرافية استرابون : [ أن كل عربى كان قبل المسيح إما تاجراً وإما سمساراً ][1] .

وأثبتت بحوث « عبدالله فلبى » فى نجد وفى اليمامة وفى منطقة الظهران وشواطىء الخليج العربى ـ أن للفينيقيين آثاراً فى اليمامة وفى شواطىء الخليج العربى تدل على حضارة قديمة بلغت مستوى لابأس به وأن نجداً من الأراضى التى سكنها الإنسان منذ عصره الحجرى .

فمجموع هذه الأقوال التى يعثر عليها الباحث فى مختلف المصادر ـ وفى غير مكان واحد من موضوعات التاريخ القديم لقلب الجزيرة ـ ترسم لنا صورة وإن كانت غير متكاملة ، فهى على كل حال تعطينا فكرة عن تلك الحياة الرخية ، وعن نشاط الذين أثاروا الأرض وعمروها . وتؤكد لنا : أن عرب قلب الجزيرة تجاوزوا الحياة البدائية بمراحل ، فالأمة التى تعرف كيف تستخرج الذهب والنحاس ، وكيف تتاجر بالعطور والبخور والتوابل والنسيج والذهب والأحجار الكريمة أمة تعرف دون شك من معانى الحياة أكثر مما يعرفه سكان الغاب المتوحشون أكلة العقارب والخنافس كما يصفهم الشعوبيون .

٥ ـ فنحن إذا مارجعنا إلى مايقال عن : ( إرم ذات العماد ) ـ ولإرم ذات العماد بحث خاص من حق موضوع : « التاريخ العربى فى جنوبى الجزيرة العربية وشرقيها » القادم فى هذا الجزء إلحاق التحقيق فى قصة إرم ذات العماد به ـ نجد أن الخيال الذى تفنن فى تصوير هذه المدينة اعتمد على الاقتناع بحضارة قوم عاد ، وقدرتهم على الإنشاء والتعمير والبذخ فى الزخرف والمغالاة فى الترف ، ونجد الخيال منصرفاً مع اقتناع العربى فى القرون الإسلامية الأولى إلى أن قوم عاد وقوم سبأ لم تكن لهم دولة فى غير اليمن . فلذلك لم

---

( ١ ) الإسلام والحضارة العربية ص ١٢٠ .

يخالط أخيلتهم شيء من الحقائق التى أثبتت أن دولة عاد الأولى كانت فى وادى القرى شمالى الحجاز ، وأن مملكة بلقيس السبئية كانت من ممالك شمالى الحجاز قريبة من مملكة سليمان - حيث إن الحقائق أثبتت أن عاداً الثانية هى التى انتقلت إلى اليمن وأسست دولتها فيه ، وأن بداية دولة سبأ فى اليمن كانت فى القرن السابع قبل الميلاد أى بعد عصر سليمان بن داود بثلاثة قرون .

فلذلك نرى الروايات التى كانت رائجة فى العصر الأموى وما بعده غارقة فى الخيال الذى تصور مدينة إرم ذات العماد متحركة تارة تكون فى الشمال ، وتارة تكون فى الجنوب ، وأن بلقيس سيدة سبأ كانت تملك اليمن فى مطلع الألف الأخيرة التى سبقت الميلاد . .

٦ - فلو أن أصحاب هذه الروايات توافرت لهم المصادر التى تعب الباحثون المتأخرون فى تحقيقها لأبدوا شيئاً من الاهتمام بما كان يقوله بعض المحققين القدامى عن قوم عاد وأنهم كانوا فى وادى القرى على مقربة من حجر ثمود ، وأن لسبأ دولة كانت فى شمالى الحجاز فى المنطقة التى تضم المدينة المنورة - والعلا .

ونحن اليوم تنقصنا الأدلة الأثرية التى لاشك فى العثور عليها لو تفرغت للبحث عنها هيئات رسمية ذات إمكانيات حكومية مثل الهيئات التى كفلت نفقاتها حكومات سورية فى سورية ، وحكومة الأردن فى شرقى الأردن . فالآثار هى التى يمكن أن تجدد تاريخ الحضارة فى الحجاز القديم - الحجاز الذى عمره العماليق والإرميون أيلم سلطانهم على مصر وعلى سورية وعلى العراق . ويمكن الاعتماد عليها فى تحديد الحضارة التى تشير إليها بعض آثار اليامة وماتكشف فى أوديتها .

فمما لاشك فيه : أن مافى مدائن صالح ، وما فى خربات منطقة العلا ، وما فى حجر اليامة من آثار هى عناوين بارزة لصفحة مليئة بحضارة عريقة قديمة .

فلقد أكد علماء الجيولوجيا : أن انخفاض مستوى الماء فى جزيرة العرب أثر أيما تأثير فى حضارة سكانها - أضف إلى ذلك الأسباب التى ذكرها « كارلتون كون » - الذى يقول : [ إن العصر الثالث الذى أفترضه وأسميه عصر الجمل وتضاؤل التجارة هو نفس العصر الذى يسميه « ديلافيدا » عصر الظلام . وهو عصر استمر من القرن الثالث حتى القرن السابع بعد الميلاد . وقد نسأل لماذا كان هذا العصر عصر الظلام ؟ بما أن شبه

الجزيرة كانت دائماً تعتمد على التجارة الخارجية ـ فلابد أن أحداثاً خارجية كانت مسؤولة عما حدث . ففى هذا العصر تدهورت قوة « روما » وانتقلت سوق التجارة إلى « بيزنطة » وكان للبيزنطيين طرقهم الخاصة إلى الشرق المارة بواحات تركستان إلى شواطىء بحر قزوين ومنخفض القفقاس والشواطىء الجنوبية للبحر الأسود ][1]

٧ ـ وإننى إخال : أن فيما مر بنا عندما بحثنا فى اللغة العربية والخطوط التى دونت بها أدلة كثيرة توضح لنا مختلف الحالات التى مرت على هذا الجزء من البلاد العربية ، والتى انتهت بيقظة قريش واهتمامها بالوضع السياسى عندما أخذت تضيف إلى اهتمامها بالتجارة وأرباحها ، الاهتمام بعلاقتها مع دول ما قبل الإسلام ، وتدعيم الكيان العربى وحمايته مما أصابه فى قوميته وفى لغته . وما تلك اليقظة إلا إرهاص لبعثة محمد وشريعة محمد ﷺ . ولكنهم كانوا كاليهود فى المدينة الذين كفروا لما جاءهم ماكانوا به يوعدون ، فلم يكن موقف عقلاء قريش ومفكريها وغير قريش من الذين أنكروا الوثنية التى أذلت العرب أمثال : أمية بن أبى الصلت ، وعبدالله بن جحش من الدعوة الإسلامية ، بأفضل من موقف العماليق مع موسى .

ثم التاريخ السياسى القديم لجزيرة العرب ـ إنه ينبئنا عن وجود دول فى الحجاز كان لها شأن فى مكة أشار إليه ابن جرير الطبرى فى تاريخه عندما تكلم عن النسب النبوى ، وكان لها شأن فى شمالى الحجاز تشير إليه الآثار والخطوط التى أقنعت المستشرقين بوجود دول فى شمالى الحجاز عرفوا فى بحوثهم بأسماء متعددة منها اللحيانيون والمعينيون والسبئيون والددنيون .

وينبئنا : أن العرب الذين انتزعوا بقيادة سرجون « الهلال الخصيب » من الدول القفقاسية والآرية التى عزلته عن البلاد العربية ـ لم تفتهم الفرصة عندما وثب الساسانيون يجددون سلطان فارس القديم . فقد تجمعت قبائل إياد وقضاعة وغيرها من القبائل العربية على حدود ( السواد ) للذود عن الكيان العربى المحطم وإعادة القومية والأمجاد العربية للعراق . وينبئنا بغير ذلك من المواقف العربية فى تاريخ النضال العربى الطويل .

---

( ١ ) قصة الشرق الأوسط ص ١٠٠ .

والحديث عما ينبئنا به التاريخ السياسى القديم لجزيرة العرب ، له بحث فى الجزء الخاص به من هذا الكتاب ؛ أما هنا فتكفينا الأدلة التى قدمناها . فلو لم يكن أمامنا غير التجارة دليل لكفى ـ فكيف بنا ونحن نجد الجيولوجيين يؤكدون : أن قلب الجزيرة كان فى الزمن القديم أكثر صلاحية لحياة الإنسان من مناطقها الشمالية القريبة من المناطق الثلجية ، ونجد من يؤكد : أن قلب الجزيرة وجنوبها كانا أسبق من سكان وادى الفرات ووادى النيل إلى استنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة ، ونجد من يؤكد : أن العرب فى ماضيهم القديم عرفوا طريقة التعدين فاستخرجوا النحاس والذهب من بطن أرض الجزيرة العربية ، ونجد آثار الماضى البعيد تؤكد لنا : أن العرب فى جاهليتهم الغابرة كانوا أكثر من تجار ، كانوا مزارعين يستنبتون الأرض حبوباً وثماراً ، وكانوا معماريين أشادوا القصور ونحتوا من الجبال بيوتاً ، وكانوا محاربين فتحوا الممالك وأنشأوا الدول .

فالحقائق التاريخية التى انتهت إليها بحوث المتأخرين لم تجعل مجالا لذلك الشك الذى كان يهيمن على بحوث المستشرقين . ولكن الشك الذى مازال باقياً هو : الشك فى العصر الذى بدأ المجتمع العربى يقيد الحياة العربية فى قلب الجزيرة بالنظم والتقاليد ويفرض عليها الخلق الاجتماعى .

٨ ـ فليس من السهل معرفة التاريخ الذى بدأ فيه سكان قلب البلاد العربية حياتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية على أساس نظام يحمى حقوق الأفراد ويوجه الجماعات إلى مايسعد حياتها ويرعى مصالحها العامة .

إن التاريخ الاجتماعى والسياسى فى الحجاز بدأ على ما أرجح عندما دوى صوت إبراهيم عليه السلام يؤذن بالحج إلى البيت الذى أقيم مثابة للناس وأمناً . فلقد قام إبراهيم وإسماعيل بأمر من الله يطهران البيت للطائفين والركع السجود ـ فتطهير البيت الذى أشار إليه القرآن الكريم اتخذه بعض المفسرين دليلا على أن العرب فى مكة كانوا فى وحل من الفوضى الدينية والاجتماعية أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت الحرام فى مكة منها .
فبين « حراء . وثور » فى مكة ـ أذّن إبراهيم بين العرب بالدعوة التى أمر بها : [ وأذِّنْ

فى النَّاس بالْحَجِّ يأتوك رجَالا وعلىَ كُلِّ ضَامِرٍ يأتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عميقٍ . ليشهدوا مَنَافع لهُم ويَذْكروا اسْمَ الله فى أَيَّام مَعْلُومَات عَلَىَ مَارَزَقَهُم مِنْ بَهِيمةِ الأَنْعَام فكلُوا منها وأطعمُوا الْبَائسَ الفَقير ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيوفوا نُذُورَهُمْ ولْيَطَّوَّفُوا بالبْيت العتِيق ][1] ، ففى مكة وضع أول بيت للناس مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات ـ وفى مكة دعا إبراهيم ربه : [ رَبَّنا وابْعَثْ فيهم رَسُولاً مِنْهم يَتْلو عَلَيْهم آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكتَابَ والحْكْمَةَ ويُزَكِّيهم إنَّك أَنْتَ العزِيزُ الْحَكِيم ][2] وفى مكة استجاب العرب للنظام السياسى ورضخوا لواجبات الحياة الاجتماعية ورضيت جموعهم بزعامة إسماعيل وخلفائه .

على أنه يوجد من المؤرخين من يقول : إن تاريخ إبراهيم لم يكن البداية للحياة العربية المتحضرة . ويوجد من الأدلة الكثير مما يؤكد قول هؤلاء ـ فالتجارة العربية وطرقها ، وزراعة الأرض وأساليبها ، واللغة العربية وخطوطها ، كلها أدلة تؤكد قدم الحياة الاجتماعية والحضارة العربية .

وعصر إبراهيم فى فلسطين متأخر بالنسبة للدول العربية فى فلسطين والحضارة العربية وآثار العاديين فى شمالى الحجاز . على أن هناك من يقول : إن هوداً نبى قوم عاد وصالحاً نبى قوم ثمود بعثا قبل إبراهيم ـ وقد سبق ترجيح قدم عهد إبراهيم .

والأدلة تثبت أن العماليق والإرميين عندما استولوا على الهلال الخصيب وعلى مصر ، كانوا أصحاب عقيدة ولغة ومجتمع متحضر ، وكانوا على مستوى أثّر على عقائد السوموريين فى العراق ، والفراعنة فى مصر ، وعلى لغتهم ومجتمعاتهم المتحضرة ، مثلما تأثروا هم كذلك بتلك العقائد واللغات والمجتمعات .

وإن النصوص الأثرية تنفى كل ماقيل عن بداوة الساميين الذين أسسوا الدول العربية فى الهلال الخصيب ، وفى الصحراء العربية بوادى النيل ، وأنهم كانوا قبائل من الوحشية فى صميمها جهلا وضيق أفق ، لايعرفون من الحياة غير النهب والسلب ثم العودة إلى رؤوس الجبال وبطون الأودية .

وهذه الأقوال التى توجد فى مصادر التاريخ العربى صحيحة تؤيدها أدلة قوية ، ولكن

( ١ ) سورة الحج آية ٢٧ وما بعدها .

( ٢ ) سورة البقرة آية ١٢٩ .

حلقات التاريخ لابد لها من روابط ولاشيء يربط بين حلقات التاريخ مثل الدين واللغة ، وأديان أمم الطور الأول ـ العرب العاربة ـ كما رأيناها فى بحث الأديان لم تكن لها مثل تلك الرابطة التى أوثقتها صلة إبراهيم واعتمدت على قواعد البيت الحرام . واللغة العربية تفرقت بها اللهجات فى الشمال وفى الجنوب حتى خيل للكثير : أن لغة العرب العاربة بادت معهم ولم تبق منها باقية ، فمنذ ارتفعت قواعد البيت ارتفعت راية القومية العربية وأصبح لها نقطة ارتكاز وانطلاق ، وتأسس المجتمع العربى على أساس التعاون للمصلحة المشتركة والخلق الفاضل الذى دعت إليه ملة إبراهيم ، وتأسست الدولة العربية للحفاظ على الحرية والأمن وحماية المقدرات العربية وصيانة المنافع العامة .

فلقد ذكر الطبرى ـ فى كلامه عن نسب عدنان ـ أسماء ملوك جمعوا شتات العرب فى قلب الجزيرة وأمنوا خائفهم ، وردوا كل طريد وأصلحوا بين الناس وأقاموا فى كل بلد عربى دار ضيافة وبلغوا من الشأو ماجعل « أمية بن أبى الصلت » يفاخر بهم ملوك بنى الأصفر القياصرة :

**إن الصفى بن النبيت ممالكاً ... أعلى وأجود من هرقل وقيصر**

والطبرى الذى نوه بتلك الأسماء ، حرص على أن يسلسلها إلى ( قيدار ) حفيد إبراهيم .

٩ ـ ومن قصة إبراهيم تتبين لنا جوانب الحياة العربية والمجتمع الذى تأسس فى عصر إبراهيم ، وحظ المرأة فيه ـ ففى قصة إبراهيم وزيارته لابنه إسماعيل واستقبال زوجه الأولى وتذمرها من الأزمة المالية التى كانت تعانيها أسرة إسماعيل ، ثم زيارته الثانية والحفاوة التى لقيها من زوج إسماعيل الثانية واستقبالها له بالمظهر الذى يليق بربة البيت ولايخدش سمعة الأسرة أويكشف واقعها ، ووصية إبراهيم لإسماعيل فى زيارته الأولى بأن ينفصل عن زوجه المتبرمة الثرثارة التى لاتمثل كرامة الأسرة ، ووصيته فى زيارته الثانية بأن يحفظ عليه زوجه القنوع الكتوم ، دليل على أن المرأة كانت ذات أهمية وشأن فى المجتمع العربى .

وكذلك نحن إذا رجعنا إلى قصة وفد عاد التى يتحدث عنها المؤرخون العرب بمنطقهم وبما فى أخيلتهم من صور ذلك الماضى البعيد ، نجد أن للأم ومكانة بيتوتتها شأنها فى

الزعامة والرياسة . فلقد أنكر بعض أعضاء وفد قوم عاد الذى جاء إلى مكة يستغفر ويطلب الغيث فى ظلال البيت الحرام - على رئيس الوفد أن يتنبه ضميره لما فى الوثنية من ضلال وجحود فيدعو إلى تركها ، فقال له شاعرهم إنك من سراة عاد وأمك من ثمود .

فنحن إذا ما قرأنا هذه القصة لايمكننا أن نحجز الخيال ونشيح بالبحث عما تنم عنه هذه القصة وما فيها من شبه بالقصص التاريخية فى عصور الملكية فى أوربا وما كان للمصاهرة بين الملوك من أثر فى ربط الأواصر السياسية بين دول ماقبل الحرب العالمية الأولى .

فكل من القصتين يشعرنا بأن العرب فى عصورهم الغابرة كانوا يقدرون أثر المرأة فى الحياة الاجتماعية العامة وفى تربية النشء ، ومكانها فى المسرح السياسى ، وتقدير المرأة فى حياة الأسرة يفرض العناية بإنشائها وإعدادها لتقوم بواجبها ، وهذا لايكون إلابعد مراحل قطعها الإنسان فى طريق تطوره .

ولقد ظل العربى يقدر المرأة فى حياة الأسرة ، ولقد ظل هذا الاحترام ينبض به قلب العربى الذى يعيش فى بطون الصحارى ومنعرج الأودية بعيداً عن المدن الإسلامية وحضارتها . وإننا لنلمس ذلك الاحترام فى ندائه لها وهو يشاورها فى أمره وشؤونه :

**يا ربة البيت قومى غير صاغرة ... ضمى إليك رحال القوم والقربا**

**ماذا ترين ؟ أندنيهم لأرحلنا ... فى جانب البيت أم نبنى لهم قببا ؟**

وفى الحديث النبوى : خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء ، مايعطينا فكرة صحيحة عن مقام المرأة العربية فى صدر الإسلام .

١٠ - والذى لاينكر فى جاهلية ماقبل الإسلام : وأد البنت . والوأد فى الجاهلية تحدث عنه القرآن الكريم أكثر من مرة - فلقد قال تعالى :

[ وَكَذَٰلك زيَّن لِكَثير مِنْ المُشْرِكين قَتْلَ أَوْلادِهم شرُكاؤُهم ليردُوهمْ ولِيَلْبِسُوا عَلَيْهم دِينَهُم ولو شَاءَ الله مافَعَلوه فَذَرْهَم ومايفْتَرُوَن ][١] ، و [ قَدْ خَسرِ الَّذين قَتَلوا أَوْلادَهُم

---

( ١ ) سورة الأنعام آية ١٣٧ . وحديث : خذوا شطر دينكم عن الحميراء ذكره « ابن اللاثير » وقال عنه « ابن الحاجب » : لاأعرف له اسناداً وذكره صاحب الفردوس بغير لفظه عن أنس بغير اسناد . وقال « القارى » : حديث غريب - لكن معناه صحيح .

سَفَهاً بغَيْرْ عِلْمٍ وحَرَّموا مارَزَقَهم الله افْتَراءً علىَ الله قَدْ ضَلُّوا وما كَانُوا مُهْتدِين ][1] .

وجاء فى تفسير الطبرى فى موضوع هذه الآيات [ وقد هلك الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم وتحريم ما حرمت عليهم من أموالهم فقتلوا طاعة لها أولادهم ـ ونزلت هذه الآية فى الذين ذكر الله خبرهم فى هذه الآيات من قوله : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ـ الذين كانوا يبحرون البحائر ويسيبون السوائب ويئدون البنات . ويقول « قتادة » : هذا صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبى والفاقة . ويقول « عكرمة » : نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر ][2] .

وقال تعالى : [ ويَجْعَلون لله البنات سُبْحانه ولَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * واذا بُشرِّ أحدُهُم بالأُنْثَى ظَلَّ وجهه مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمُ * يَتَوارى مِنْ القَوْمِ مِنْ سُوء مَا بُشرَّ بِه أيُمْسكه على هُونٍ أمْ يَدُسُّه فى التُّرابِ ألا ساءَ مَا يحكُمُون ][3] وجاء فى تفسير الطبرى : ( جعلوا لله مالا يرضون لأنفسهم ألا ساء ما يحكمون )[4] .

وقال تعالى : [ وَلاَ تَقْتلُوا أولادَكُم خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَحْن نَرْزُقُهم وإيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبِيراً ][5] .

فمن هذه الآيات ومما جاء فى تفسيرها ، يظهر لنا أن من وثني العرب قبائل خضعت لعقائد انتقلت إليها مع الأصنام التى استوردها العرب من الشمال . فمن تلك العقائد : الأنعام التى حرمت ظهورها . والأنعام التى لا يذكر اسم الله عليها ، ومنها جعل البنات لله والبنين لهم . والوثنية فى كل مكان كانت تفرض عقائد تتنافى مع الرحمة والضمير . فلقد

( ١ ) سورة الأنعام آية ١٤٠ .
( ٢ ) تفسير الطبرى ٨ / ٣٥ وما بعدها .
( ٣ ) سورة النحل آية ٥٧ وما بعدها .
( ٤ ) تفسير الطبرى ١٤ / ٨٤ .
( ٥ ) سورة الإسراء آية ٣١ .

كان الفينيقيون فى سورية يقدمون أعز أبنائهم أضحية للآلهة تلتهمه النار حيّاً . وكان البابليون فى العراق والفراعنة فى مصر يضحون بعفاف بناتهم باسم الآلهة ـ فوأد البنت أقدم عليه العربى طاعة للشركاء الذين جعلتهم الوثنية أنداداً لله ، ثم استغل هذه العقيدة الضعاف الجهلة ، إما تخلصاً من عبء البنت ، وإما خوفاً من أن تقع غنيمة عدو يمرغ عفافها فى وحل الرذيلة .

فالوأد طاعة للوثنية أو خشية إملاق أو سبى لم يكن عاماً عند العرب جميعهم ، وإنما كان فى قبائل من ربيعة ومضر . وكانت المرأة فى ربيعة ومضر تحتل مكانتها إذا سلمت من القتل : وأداً ، أو قذفاً من قمة جبل ، أو ذبحاً بالسكين ـ مثل المرأة فى سائر القبائل العربية . وفى أخبار العرب وقصص حروبها الشىء الكثير عن المرأة العربية فى المجتمع العربى .

١١ ـ ونحن إذا ما قلبنا صفحات التاريخ العربى نبحث عن الوضع العربى فى جاهلية ما بعد الميلاد . نجد أولئك الذين حدثونا عن مفاخر المكيين بعد إسماعيل وقالوا : إن للعرب البائدة دولا ذات عظمة وسلطان كبير ، يقولون عن جاهلية ما قبل الإسلام : إن العرب يرجعون فى حوادثهم الاجتماعية إلى رؤساء قبائلهم وكلهم يحكمون فى مشاكلهم أهل الشرف والأمانة والرياسة والسن والمجد والتجربة ـ فما معنى هذا ؟ إنها العودة إلى الحياة القبلية . والعودة إلى الحياة القبلية أمر لا مفر منه فى تلك العصور لكل أمة أخنى على كيانها السياسى والاقتصادى الزمن المتقلب .

لذلك نحن لا نجد من المؤرخين من يقول : إن العرب فى عصرهم الجاهلى الأخير أنشأوا دولا كالتى أنشأها الإرميون والعماليق والاسماعيليون فى البلاد العربية ، ونجد أكثرية المؤرخين لا تتحدث بغير الجاهلية المظلمة بكل ما ينجم عنها ويترتب عليها ، وبغير الفوضى التى أوشكت أن تعيد العرب جميعهم إلى حياة الغاب التى فارقها الإنسان من أقدم عصوره .

فلقد حجب ظلام هذه الجاهلية ماضى العرب القديم فى قلب الجزيرة فظن الكثيرون : أن هذا الظلام مخيم على هذه الأرض منذ الأزل ، وأن العرب فى هذا الصقع لم تكتحل أعينهم بنور الحضارة .

١٢ ـ ولقد تحمس أعداء العروبة قبل الإسلام وبعده فى نشر مثل هذا الظن ، كما

سنرى فى الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربى من هذا الكتاب . وكان من تأثير دعاية خصوم العرب أن انصرفت بحوث المفسرين والمؤرخين إلى الناحية القاتمة من تاريخ عاد ، وثمود ، وجُرْهم ، والعماليق وغيرهم من شعوب الماضى البعيد . فلم يعن المشتغلون بالتاريخ العربى بغير الإشارة العابرة إلى ما حفل به الماضى العربى القديم ، فجل ما قالوه عن ماضى قلب البلاد العربية لا يزيد عن كلمات مستعجلة نوهت بما لعاد وثمود من دول فى شمالى الحجاز ، وبما لطسمْ وجديس من دول فى اليمامة . ولا يزيد عن سرد الروايات التى تحمل الأنباء الغامضة المحجبة بالخيال القصصى عن العماليق والجرهميين وتنازعهما على السلطان فى مكة إلى أن أتت خزاعة ومن بعدها قريش ، فلم يبق أى أثر للنفوذ الجرهمى فى أم القرى وما حولها ، فما أكثر ما اجتمع الشمل فى مكة وما أكثر ما تفرق كأن لم يكن : :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكذلك كان ما يقال عن العماليق الذين انتزعوا السيادة على المدينة من أبناء عمومتهم ( عبيل ) الذين نزحوا الى الجحفة فأخذهم سيلها ، وما يقال عن تكتل اليهود فى المدينة وتسلطهم على اقتصادياتها ، وكيف قضوا على شأن العماليق ولولا الأوس والخزرج الذين استوطنوا المدينة وهيمنوا على مقدراتها السياسية لكان لليهود ما أرادوه . وكذلك كان ما قالوه عن طسْم وجديس فى اليمامة ، وما قالوه عن سكان جبلى طيىء ـ أخبار قصيرة وكلمات متناثرة فى بطون التفاسير والمؤلفات التاريخية والأدبية .

ولكن هذه الكلمات الموجزة المستعجلة على إيجازها وغموضها ، وهذه الروايات التى تحوم حولها الآراء منتظرة التحقيق العلمى لتحكم لها أو عليها ـ تؤكد لنا على إيجازها وغموضها والشكوك التى تحيط بها : أن للعرب فى ماضيهم القديم شأنا أكبر بكثير مما كان للعرب فى جاهلية ما قبل الإسلام ـ فالمؤرخون أمثال : الطبرى ، وصاعد ، وابن خلدون ـ وإن لم يجدوا من الأدلة ما يدعم إشارتهم إلى دول الحجاز فى مكة وفى وادى القرى وسواحل الحجاز ، أو يوضح شيئاً من النظم التى قام عليها المجتمع فى أم القرى ، وفى

المدينة ، وفى الطائف ، وفى الحجر ، وفى مدين ، وفى اليامة وقريتها[1] ـ فإنهم كانوا على ثقة من وجود نظم إدارية وسياسية واقتصادية قامت عليها الدول العربية التى وصفها صاعد بأنها دول ضخمة ذات سلطان كبير . فالسلطان الكبير لا يقوم على غير نظام يصحح الأوضاع ويجعل للدولة نفوذها فى التخطيط الإدارى ، والسياسى والاقتصادى .

١٣ ـ فمثل العرب قبل الإسلام مثل العرب بعد الإسلام ـ فأين الدولة العربية التى تضارع الإمبراطورية التى ترأسها الأمويون ؟ وهل وجد فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ملك أو رئيس دولة عربية يقول مثل ما قال هارون الرشيد : أينما تمطرى فخراجك لنا ؟ لقد رجع العرب بعد أن رفع رايتهم الإسلام ووحدت كلمتهم شريعته ونور عقولهم هديه ، إلى وضع لا يفضل الوضع الجاهلى بأكثر من الايمان بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، أما الفوضى الإدارية ، وأما النعرة القبلية ، أما الجهل والفقر فما أشبه اليوم بالأمس .

ولماذا نرجع الى الأمس وهذه الأمم العربية اليوم وقد ساعدها انشقاق الدول الكبرى الى معسكرين شرقى وغربى ، وقد أفاء الله عليها من الموارد ما جعلها فى طليعة القادرين على تمويل كل ما يكفل لها المجد والسؤدد والنفوذ الذى لا حد له فى المجال الدولى ـ لا تزال فى مفترق الطرق ؟ !

فلا غرو إذن : إن رأينا العرب بعد دولهم الأولى التى سادت الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها ، ودوخت السوموريين فى العراق واقتحمت على القوطيين وادى النيل ، يرجعون القهقرى الى الحياة القبلية وتقاليدها التى يشير إليها الطبرى ، ولا غرو أن وصف المؤرخون عصر الجاهلية الأخير بعصر الظلام .

١٤ ـ ثم التاريخ العربى الإسلامى هو كذلك أوشك أن يضيع ، وأوشكت حقائقه أن تغطيها أخيلة القصصيين الذين اتخذوا من خلفاء بنى أمية وبنى العباس أبطالا لروايات خيالية كادت تفنى شخصيتهم الحقيقية . وأكثر من هذا فقد صوروا سياسة على بن أبى طالب بما شاءته الدعاية الأموية ، ثم أمعنوا فى اتهام الأمين العباسى بالغباء والسذاجة تحقيقاً لرغبة المأمون وسياسته ، الى غير ذلك مما شوه الكثير من حقائق التاريخ الإسلامى

( ١ ) القرية حاضرة اليامة فى العصور القديمة .

العربى ، لولا أن تداركت التاريخ العربى دراسات الأكفياء من المحققين .

وهكذا أوشك أن يضيع علينا إلى الأبد التاريخ العربى القديم لولا أن تداركته الدراسات الأثرية فطورت البحث فى أحداث الماضى الغابر . فبعد أن كانت أخباره قصصا خيالية ليست بذات شأن يذكره المؤرخ الذى لا يحفل بغير ما هو منطقى معقول ، أصبحت موضوعات تاريخية ذات أهمية فى بحوث المؤرخين . فأخذوا يسألون وهم يبحثون فى نظم الدول العربية التى قامت فى الهلال الخصيب وفى مصر وشمالى الحجاز وفى الجنوب : فى اليمن وحضرموت وعمان ـ : هل كان لدول قلب الجزيرة نظم على غرار نظم هاتيك الدول الشمالية والجنوبية ؟ .. وهل خضع العرب داخل جزيرتهم للملكية كملكية الآشوريين فى الشمال ، والتبابعة فى الجنوب ؟ أو كان النظام السياسى فى قلب الجزيرة يتفق وما عرف عن صرامة العرب ، وشجاعتهم . وإبائهم ، وتعشقهم الحرية التى لا حدود لها ؟

١٥ ـ ان المستشرقين المتأخرين عندما يبحثون فى هذه الناحية لا يزيدون شيئاً على ما يقوله ( ديورانت ) ـ : [ وأما من بقى من الساميين فى بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو وأنشأوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من : طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة ، والشجاعة العمياء التى تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قرباناً للآلهة . على أن الدين لم يكن جدّياً بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام . ولم يعنوا بالفنون ، وملاذ الحياة ، لأنهم كانوا يرونها خليقة بالنساء ومن أسباب الضعف والانحلال ـ وظلوا وقتا ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى . تتكدس فى ثغورهم غلات جزائر الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها فى الطريق البرية غير الآمنة الى فينيقية وبابل . وشادوا فى قلب الجزيرة العريضة : المدن والقصور والهياكل . ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجىء إليها ورؤيتها ـ ولقد بقى هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم محافظين على عاداتهم وأخلاقهم ][١] .

وديورانت على ما يظهر : فرض الوضع العربى عشية ظهور الإسلام على جميع أطوار العرب فى تاريخهم الطويل ، عندما قال : [ على أن الدين لم يكن جدّياً بين هؤلاء

( ١ ) قصة الحضارة ٢ / ٣٠٩ .

الأقوام ، ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة ] ؛ فالحياة الدينية قد تقدم الكلام عنها ، وكذلك تقدم الكلام عن آثار العلا والحجر واليامة ـ ثم إن ما جاء فى كلام «ديورانت» نفسه : وشادوا فى قلب الجزيرة العريضة : المدن والقصور والهياكل ، يثبت أن العرب فى قلب الجزيرة كانوا يعنون بالحياة وملاذها وبالعقائد وطقوسها ، وإنما الذين كانوا لا يعنون بملاذ الحياة هم القبائل الرحل . وفى كل أمة : حاضرة وبادية . ومما لا جدل فيه أن ملاذ الحياة تختلف باختلاف البيئة ؛ ثم السعادة وملاذ الحياة ما هى ؟ وأين تكون ؟ لقد اختلف الناس فى مكانها . هل هى مضمخة بالعطور تتثاءب فى القصور الفخمة ؟ أو هى منطلقة بين خيام الصحراء المتواضعة وبين الحقول النضرة .

وكذلك فعل « كارل بروكلمان » عندما بحث فى أوليات الأدب العربى فقال : [ إن سكان شبه جزيرة العرب منذ القدم ينقسمون إلى مجموعتين شعبيتين تفصل فروق بعيدة العمق إحداهما عن الأخرى ، ففى السهل الساحلى الخصيب فى الجنوب ، وفى السفوح الزراعية الكثيرة والمتدرجة وراء ذلك السهل فى تصاعد يبلغ مرتفعات شاهقة ، اختلط ( من قديم ) الجنس الشرقى الذى يكون نواة الأصل السامى بعناصر من أجناس البحر الأبيض المتوسط ، وعناصر زنجية فى بعض الجنوب ، لما يبدو من امتداد العلاقات بالساحل الإفريقى المقابل إلى زمن ما قبل التاريخ . وهكذا أوطن السكان هنا فى زمنٍ مبكر ، وأنشأوا بفضل موقعهم الجغرافى على طريق التجارة الهندى المصرى عمرانا مادياً رفيعا . على أنه وإن كانت دولهم سبأ ، ومعين ، وحمير ، قد أرسلت قوافل تجارية الى الشمال فى بلاد الشام كما أنزلت جاليات من معين فى بلاد ( العلا ) القريبة من مدائن صالح ، فقد حال تكوين هذه الدول الإقطاعى دون نمو نظام سياسى دقيق ، أو قيام سلطان قوى ، لتغلب سادتهم على الملوك . وتناهت حضارتهم العقلية إلى قيام تشريع ينظم جميع العلاقات الملكية بعناية ودقة . ولكن نقوشهم الكثيرة العدد حيث كانت ليست ذات غناء للنظرة التاريخية . أما أهل شمالى تهامة وهضبة نجد فإنهم وإن تقدموا منذ زمن طويل قبل الميلاد نحو سورية وبلاد ما بين النهرين ، قد احتفظوا بطابع سلالتهم الأصلى على مستوى أنقى . وكانت بذرتهم الأولى تتألف من العرب الرحل الذين حفظت لهم حياة

البداوة عقولهم وأجسامهم غضة ناضرة ، ولم تقم لهم مستعمرات حضرية إلا على طريق التجارة فى أراضى الحجاز الساحلية . ولكن العرب أقاموا فى هذه المدن متميزين فى أحياء وقبائل مثل أبناء عمومتهم من البدو الرحل . ولم تنشأ إمارات عربية إلا فى أطراف الصحراء وتحت تأثير الدولتين العظميتين : بيزنطة الرومية وفارس . فقد قامت إمارتا دمشق والحيرة اللتان جمعتا أيضا فى بعض الأحيان مجموعات كبيرة من البدو ، تحت سيادتهما ][1] .

فبروكلمان وأمثاله من المستشرقين المتأخرين لا يذهبون ببحوثهم إلى عصور ما قبل الميلاد . فلذلك تراهم عندما يبحثون عن صلات المعينيين والسبئيين بالشمال الحجازى لا يذكرون غير الصلات التى كانت تربط بين العلا فى شمالى الحجاز وبين معين وسبأ فى الجنوب . أما عن تاريخ المعينيين والسبئيين القديم فى شمالى الحجاز فهم لا يتحدثون عنه ، ولذلك رأيناهم ينكرون ما اقتنع به من سبقهم من المستشرقين فى موضوع اللغات السامية ، ولا يهتمون بما يقولونه عن اللغة العربية وإنها هى أم اللغات السامية .

فهم كما تراهم لا يلقون بالا ، لا إلى ما جاء فى بحوث من سبقهم من المستشرقين ، ولا إلى ما جاء فى المؤلفات العربية عن نشوء المجتمع المكى بعد بناء البيت وعن دول : عاد وثمود ، وعبد ضخم ، وطسم ، وجديس فى مكة ، والمدينة ، والحجرين : حجر ثمود وحجر اليمامة ، والطائف ـ لأن النقوش التى وصلت الى أيديهم ليست ذات غناء للنظرة التاريخية على تعبير (بروكلمان)، ولأن أهل التوراة لا يعرفون شيئاً عن أخبار عاد ولا ثمود ولا هود ولا صالح ولا أحد من العرب العاربة ، لأن سياق الأخبار فى التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان فى عمود النسب ما بين موسى وآدم ، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر فى عمود ذلك النسب ، كما يقول ابن خلدون[2] .

١٦ ـ ولعل ( سيديو ) أحد القلائل الذين أشاروا الى الوضع السياسى فى قلب البلاد العربية فى كلامه عن التنافس بين الكنعانيين والإسماعيليين : [ ولكن مع بدء تنافس

( ١ ) تاريخ الأدب العربى ص ٤١ و ٤٢ .

( ٢ ) تاريخ ابن خلدون ١ /٣٧ و ٣٨ طبعة النهضة .

الأرومتين الكبيرتين : العرب العاربة ، والعرب المستعربة ـ فكان يبحث عمن يكون رئيساً ليتبعه الجميع عند الإغارة ، وعن المكان الذى يكون مركزاً للشعب العربى . وكانت لكلا الحزبين قاعدته ـ وودّ بنو إسماعيل أن تكون الصدارة لمكة فاستندوا فى دعواهم إلى قدسية ما تحتويه من الآثار . . وود بنو قحطان أن تكون مرتبة الشرف لصنعاء فذكروا فى دعم زعمهم غنى اليمن وقدم أهلها فطلبوا أن تكون صنعاء عاصمة لبلاد العرب ـ ولم ينته الصراع بين الفريقين إلا فى القرن السادس حين كسبت مكة دعواها ، أى حين رأى محمد إمتاع بلاده بالوحدة الدينية . وظلت نجد والحجاز سالمتين من أى تسلط أجنبى فإليهما وجب أن تلجأ كل قومية عربية لتنير الخارج فيما بعد . ولم تقع فيهما دولة متسلسلة المراتب كدولة التبابعة ، فكانت تملكها قبائل مستقلة راضية بأن تدير أمور نفسها بنفسها مضحية بكل غال لوقاية حريتها ، ولم يتغير منظر هذه القبائل ولا تاريخها منذ قرون ، فكانت كالمجتمعات الصغيرة المتماثلة فى الطبائع والعادات والأخلاق ، المنفصل بعضها عن بعض فى النظام السياسى ][١] .

فهؤلاء القلائل ـ وإن كانوا يستبعدون فى بحوثهم أن يكون للعرب دول فى جزيرتهم ـ وإن كانت بحوثهم مقتصرة على عرب ما قبل الإسلام ـ فهم مع كل ذلك لم يسقطوا من بحوثهم ما فطر عليه العرب من صراحة وأنفة وانطلاقية ، ولم يحرموا العرب الذين ظلوا داخل جزيرتهم من التطلع إلى الاستقرار السياسى . وهم فى بحوثهم المتأخرة متأثرون بما جاء فى الآثار الآشورية وفى النصوص الرومانية والفارسية عن العرب الذين كانوا يناوئون كل نفوذ أجنبى ، والذين كانوا يطمحون لإعادة السلطان العربى إلى الهلال الخصيب . فما أشبه الدولة الآشورية بالدولة العباسية ، فكلتا الدولتين العربيتين وطدت دعائمها بسيوف غير عربية لعبت دورها فى الكيد للعرب والحط من شأنهم ؛ ولم تكن دولة فارس أو إمبراطورية الرومانيين بأقل حقداً على العرب وطمعاً فى أرضهم من الاستعمار الحديث . وهكذا منى العرب بالشعوبية والاستعمار قبل الإسلام وبعده .

١٧ ـ وهؤلاء القلائل عندما يقولون : إن العرب متأهبون للإغارة على مجاوريهم

---

( ١ ) التاريخ العربى العام ص ٣٤ و ٤٩ .

ينسون الأسباب التى دعت الأمم العربية إلى خوض الحروب مع جاراتها منذ القدم ، فلقد اقتطع السوموريون العراق من الجسم العربى ، ثم لم يكفهم هذا حتى طمعوا فى شمالى الجزيرة ومواردها ـ فكانت حملات العرب القديمة على العراق دفاعاً عن الوطن العربى وفى سبيل الذود عن خيراته . وكذلك عندما تجمعت قبائل إياد وقضاعة لإعادة الجزء الذى سلبته الدولة الفارسية ، اعتبر المستشرقون هذا النضال العربى غارات قبلية هدفها السلب والنهب .

وأغرب ما فى الأمر : أن المستشرقين عندما يذكرون النضال العربى يصفونه بغارات بربرية ، وعندما يذكرون الغزو الآرى من عهد الإسكندر الأول ومن بعده الرومانى الذى استمر إلى الحروب الصليبية إلى حملات نابليون الى الحروب الاستعمارية التى شنها الغرب على هذا الشرق العربى ، لا يذكرون البربرية السفاحة والوحشية المفترسة التى يمثلها الغزو الاستعمارى بأبشع صورها المروعة .

أليس هذا مما يبعث الشك فيما يقوله المستشرقون عن العرب فى هذه الناحية ، ولا سيما الذين عاصروا الاستعمار الغربى ووقفوا بجانب دعايته التى بذلت كل ما فى وسعها لتغطية الحقيقة العربية ؟

والمهم الذى يعنى البحث هنا : أن المستشرقين فى مختلف العصور لم يستطيعوا أن ينكروا وجود الأسر الاجتماعية فى مدن قلب الجزيرة العربية ، ولم يستطيعوا أن ينكروا انقياد العربى للزعامة التى لا يرى فيها غضاضة عليه ، ولا يجد فيها ما يحرمه حريته وحقوقه إن هو سار خلفها .

وإذا كان المستشرقون الذين سبقوا الاستعمار الغربى أو الذين عاصروا اشتغال الغرب عن الشرق العربى بالدولة العثمانية وتحطيمها ، قالوا بقدم الحضارة العربية وبقدم الأسر الاجتماعية وبقدم الدولة العربية ، فإن هؤلاء قلة ، والقليل منهم : هم الذين يمثلون الرأى المعتدل الذى تجنب حملات المستشرقين الذين تأثروا بالحروب الصليبية ، وتجنب اتهامات الذين وقفوا فى صف الاستعمار الغربى . فلذلك نرى الحقائق التى جاءت فى أقوالهم يغشاها بعض ما أثاره التعصب المسيحى ضد الاسلام وأنصاره العرب ، وبعض ما أثارته الدعاية الاستعمارية .

وإذا كنت أنا هنا قد سبقت الخطة المرسومة لهذا الكتاب التى منها وضع بحث خاص

بالمستشرقين وبما أفادوا به التاريخ العربى وبما جنوه عليه يأتى فى الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربى ، فإن عذرى هو ضرورة البحث فى موضوع المجتمع العربى . وإذا كنت أنا هنا قد قسوت كما قد يظن فإننى قد قلت من قبل وقلت هنا وأقول فيما يأتى من أجزاء الكتاب : إن البحوث المستشرقة أفادت التاريخ العربى كثيراً وجنت عليه كثيراً ، وإن فى بعض البحوث المستشرقة تحقيقات معتدلة رصينة أنارت جوانب من التاريخ العربى لم تكن واضحة ـ ومن تلك الجوانب : التاريخ العربى القديم .

١٨ ـ فالتحقيق المعتدل ـ وإن لم يؤكد لنا : أن دولة « عاد » و« ثمود » و« جرهم » و « العماليق » كانت على مستوى دولى كالذى كانت عليه دول اليمن والعراق ـ لم يستكثر على قلب الجزيرة إنشاء دولة مدبرة لأمرها متأهبة للإغارة على مجاوريها إذا ما أراد مجاوروها الاعتداء عليها .

والذى يستحوذ على اهتمام المؤرخين فى العصر الحاضر هو تحقيق أسماء الدول والشعوب والأمكنة التى وردت فى التوراة وفى المصادر البابلية والآشورية ، وتطبيقها على أسماء الدول والشعوب والأمكنة التى وردت فى القرآن الكريم وفى الأدب العربى الجاهلى ، ثم تحديد أزمنتها وناحيتها ولو على وجه التقريب ـ وإنك لترى مدى الجهد الذى بذل فى هذا السبيل ، والنتائج التى وصلت إليها ، فى الأجزاء الخاصة بجغرافية البلاد العربية القديمة وشعوب الجزيرة ودولها .

فالتحقيق المعتدل لم يحكم ولن يحكم على العرب الذين توصلوا بمعارفهم إلى ما فى بطن أرضهم من نحاس وذهب ، وتاجروا بإنتاجها المعدنى والزراعى ، وبنوا القصور والمصانع ، وجهزوا الجيوش ونظموها ـ بأنهم قبائل رحل لا يستقر بها المقام فى أرض حتى تنزح إلى أخرى .

فمما لا مراء فيه : أن الجيوش العربية التى فتحت الهلال الخصيب إلى أعالى الفرات ووادى النيل إلى أقصى الضفة الشرقية . وركزت القومية العربية فى كل جزء من أجزاء الجزيرة العربية بتشريعات دينية وإدارية واقتصادية ـ لم تكن قبائل متوحشة جل همها الإغارة والنهب والسلب .

١٩ ـ ولكن هذا كله لا ينفى الرأى القائل بأن للعرب فى قلب الجزيرة نظامهم الخاص ، وتقاليدهم العريقة القريبة من النظام القبلى ـ فنحن نرى فى كل عصر من

عصور الشعوب وفى كل قطر من أقطار الأرض ـ فرقاً واضحاً بين حياة سكان العواصم المزدحمة بمختلف العناصر والأخلاق والأفكار واللغات ، وبين سكان المدن البعيدة عن مثل ذلك الازدحام .

وتبرز هذه الفوارق فى الدولة الإسلامية بصورة واضحة ، فالخلفاء الراشدون فى المدينة لم يقيموا وزناً للمظاهر التى كان يهتم بها معاوية وخلفاؤه الأمويون فى دمشق ، والمنصور وخلفاؤه العباسيون فى بغداد ـ وعندما انتقد الخليفة الراشد « عمر بن الخطاب » وأنكر على قادة الجيش الإسلامى فى فلسطين مظاهر الأبهة التى أضفوها على أنفسهم أقنعه معاوية بأنهم فى بلد المظاهر فلا يكون للقيادة نفوذها ما لم تكن لها أبهتها .

على أن المدينة المنورة التى لم تقم وزناً لمظاهر الدولة وتقاليدها ، هى التى وضعت الأسس الإدارية للدولة الإسلامية العربية .

لا شك فى أن هناك فوارق بين الحياة العربية فى قلب الجزيرة وبين الحياة العربية فى أطرافها التى اكتظت بعناصر لها تقاليدها وحضارتها ولغتها ، فها نحن فى عصرنا لا نزال نرى الفوارق واضحة بين أوضاع الدول العربية ومظاهرها ونظمها الإدارية والقضائية وتقاليدها الاجتماعية فى داخل الجزيرة ، وبين أوضاع الدول العربية ومظاهرها ونظمها وتقاليدها الاجتماعية فى أطراف الجزيرة .

فلئن كانت بلاد الأنهار ، وشواطىء البحار ، وجوانب الطرق التجارية شهدت مجتمعات تألفت من عناصر تقلبت بها الظروف تارة غالبة وتارة مغلوبة ، ولئن كانت القاعدة العامة تؤكد : أن حضارة العنصر الغالب وتقاليده ولغته ونظمه تطغى على حضارة العناصر المغلوبة وتقاليدها ولغتها ونظمها ، فإن هذا ليس معناه أن العنصر المغلوب يتجرد من كل أخلاقه وعاداته وأفكاره ، أو أن العنصر الغالب لا تتأثر تقاليده وعاداته ولغته وأفكاره بشىء مما يفرضه عليه الاختلاط بالعناصر التى تعيش معه والتى غلبت على أمرها .

فلا بد لدستور الدولة وتشريعاتها من مراعاة الأقليات مهما صغر شأنها ، ولا بد لتقاليد المجتمع من أن تتألف من عادات العناصر التى يتكون منها المجتمع ولا بد لأساليب حياتها من أن تتدخل فى تطوير العرف الاجتماعى .

٢٠ ـ ولهذه الأسباب كان المجتمع المكى له تقاليد لم تخل من العادات والطباع التى تأثرت بها قريش من احتكاكها بحجاج البيت الحرام ، وبما عرفته فى رحلاتها لسورية والعراق ومصر والحبشة . ولهذه الأسباب كان لزاماً على « قصى بن كلاب » أن ينظم الوضع الاجتماعى والإدارى فى مكة بما يتفق مع مركزها ، ويحدد واجبات الحج الضخمة التى على قريش أداؤها . فيعين المسؤوليات ويقسمها بشكل قد نكون مبالغين إذا قلنا : إنه يشبه تشكيل الوزارات وتحديد مسؤولياتها فى الوقت الحاضر .

٢١ ـ فعلى كل باحث فى التطور الاجتماعى ، وفى النظم السياسية فى الشرق العربى ، أو فى أية أرض تضم مجموعة من الدول ذات العنصر الواحد ، سواء أكانت تلك الأرض شرقية ، أم كانت غربية ـ أن ألّا يغفل عن البيئة ، ومؤهلاتها ، وإمكانيتها ، والفرص التى تتخطى شعوباً لتصل الى شعوب أخرى ، والّا يغفل عن أن هذه الفرص كالحظوظ الفردية التى تهجر هذا لتحتضن ذلك ، فكثير من الأقطار العربية ، بل كثير من المدن فى القطر الواحد ، دارت بها عجلة الزمن من شاهق المجد والثروة والنور إلى أسفل سافلين من الانطوائية والفقر والظلام .

فقليلة جدّاً الأقطار التى تملك من المؤهلات والإمكانيات ما يمكنها من الاحتفاظ بحضارتها ومستواها السياسى ، ولكن مهما أقفرت الأقطار من أسباب الظهور على المسرح الدولى فإنها لا تعدم نظماً تحمى حقوق الأفراد ولا تعدم تقاليد تسير عليها حياة المجتمع .

فإذا كان الأقدمون قالوا من قبل : إن لكل زمان دولة ورجالا ، فإننى أقول هنا : إن لكل دولة ورجال أسباباً تهيىء لها ولهم البروز تحت الشمس . فمن أسباب بروز الدولة العربية فى العصر الحاضر ونبوغ رجالاتها فى المجال السياسى ، ومن بواعث التنظيم الذى يكفل تطور المجتمع : الثروة البترولية التى أعزت الشواطىء العربية على الخليج الإسلامى وسلطت عليها الأضواء بعد أن انزوت فى غياهب الفقر والجهل منذ أن أقفرت موانئها من السفن التجارية التى كانت تتهادى فى بحارها كأنها الأعلام .

فهذه الشواطىء التى كانت الى وقت قريب منزوية منطوية على نظمها وتقاليدها العتيقة ، أصبحت بقدرة قادر ذات دستور دولى ، وذات وزارات وأعضاء فى المجالس

العالمية لهم صوتهم ولهم مكانتهم المرموقة .

فليس شأن هذه السواحل اليوم بأكثر من شأن وادى القرى وعواصم الدول التى لمعت فى الماضى العربى القديم ، وليس شأن هذه السواحل بالأمس ، كشأن مكة ذات السؤدد الخالد والمجد الذى لا يأفل ما دام هذا البيت قائماً مثابة للناس وأمناً .

وليس من المنطق فى شىء إن نحن حكمنا على دول قلب الجزيرة القديمة بأنها كانت على غير نظام ، وحكمنا على مجتمعاتها بأنها كانت على غير تقاليد توثق الروابط بين الجماعات ، بناء على الوضع الجاهلى الأخير ، فإذا كانت عجلة الزمن دارت بالأمم العربية فاختفت عظمتها وانزوى سؤددها وغشى أرضها ظلام جاهلية ما قبل الإسلام ، فإن هذه هى سنة الحياة وليس العرب وحدهم هم الذين تقلب بهم الزمن .

٢٢ ـ قد لايكون وضع الشعوب العربية اليوم صورة طبق الأصل لوضع الشعوب العربية فى أمسها البعيد ، ولكنه يعطينا فكرة قريبة فى اعتقادى من الواقع ، عن ذلك الفرق الذى كان بين نظام الدولة وبين حضارة المجتمع وتقاليده فى قلب الجزيرة ، وبين نظام الدولة وبين حضارة المجتمع وتقاليده فى الهلال الخصيب شمالاً وفى بلاد السدود جنوباً .

ولست فى حاجة هنا إلى أن أقول : إن المقارنة بين الحاضر والماضى ، تعنى الماضى البعيد ، وإنما أنا فى حاجة إلى التنويه بما كانت عليه دول العماليق والإرميين والسبئيين من بأس شديد وقوة دولية فعالة . فهى التى كانت سيدة الموقف فى الشرق العربى وهى التى رسمت الحدود السياسية للجزيرة العربية . وهى التى ثبتت القومية العربية فى العراق وفى سورية ولبنان وفلسطين ، وفى صحراء سيناء ودلتا النيل والصحراء العربية فى شرقى وادى النيل ، وفى الجنوب الغربى من الجزيرة العربية .

ولكن مع كل ذلك فإن التاريخ العربى لم ترتبط حلقاته إلا من بعد مطلع الألف الثانية قبل الميلاد .



البحث العشرون :

# متى عرف العرب الملاحة ؟

من موضوعات البحث :

١ ـ عمرو بن كلثوم وكارلتون كون .
٢ ـ هل العرب فى الخليج الإسلامى هم وحدهم الذين ركبوا البحر ؟ رأى مؤلف كتاب «الملاحة والعرب».
٣ ـ رأى فى تحقيق مؤلف « الملاحة والعرب » .
٤ ـ تاريخ الملاحة فى البحار العربية .



# متى عرف العرب الملاحة ؟

١ ـ ذكرنى ما قاله ( كارلتون كون ) فى كتاب قصة الشرق الأوسط : [ فإن الملاحة فى الخليج تعود إلى أيام السوموريين والبابليين . وتذكر فى السجلات الأسفينية المعاصرة : أن بحارة كانوا يعيشون على سواحل « قُطرْ » يدعى « الأراضى البحرية » . والظاهر أن المقصود بهذه التسمية هو المناطق الساحلية الواقعة على الجانب الغربى من الخليج الإسلامى، والمناطق الواقعة على مصب النهرين وكذلك جزيرة البحرين . ومن الجائز أنها كانت تشمل فى وقت من الأوقات « اليامة » ][1] .

ذكرنى قول( كارلتون كون) هذا بشعر « عمرو بن كلثوم » الذى جاء فيه : « ووجه البحر نملؤه سفينا » . لقد كنت أسأل كلما قرأت هذا البيت : ماذا يعنى ابن كلثوم بقوله : ووجه البحر نملؤه سفينا ! ؟ إنه ولا شك يبالغ كعادة الشعراء ، ولكن مهما كانت المبالغة كبيرة مكشوفة ، فإن الخبر المبالغ فيه لا بد أن يكون له ظل من الحقيقة . وأشعار العرب فى الفخر والحماسة تكثر فيها المبالغات . فقصة ركب النميرى فى الأدب العربى معروفة ـ فعلى ما فى قصة النميرى من مبالغة مفضوحة فإنّ هناك حقيقة فى القصة هى : أن النميرى شق الرمال، راكباً على حماره الذى أثار شيئاً من الغبار ؛ فالاعتراف بالمبالغة فى الشعر الجاهلى لا ينبنى عليه تكذيب كل ما جاء فى شعر الجاهليين ، لا سيما ما جاء فى قصائد الشعراء الذين كان لشعرهم أهمية فى نظر القبائل العربية أولئك الذين نال شعرهم من الاعجاب والتقدير ما رفعه حتى علق على جدار الكعبة . فما كان ابن كلثوم فى حاجة لأن يفتخر بادعاء كهذا لا يعود عليه بغير الهزء الذى يربأ ابن كلثوم بنفسه عنه لا سيما فى مثل هذه القصيدة التى كان ينشدها وهو يعلم أن هذا الشعر سوف تتناقله الألسنة فإما أن ترتفع به مكانته الأدبية أو تنخفض الى المستوى الذى لا يرضيه .

قد يبالغ ابن كلثوم فى وصف السفن وأنها من الكثرة بحيث تغطى وجه البحر ،

---

( ١ ) قصة الشرق الأوسط ص ٧٩ .

فالمبالغة فى الشعر يطرب لها العربى ، ولكنه لا يمكن أن يدعى لقومه سفناً لو كان قومه من ( طيىء ) فليس كل ما يدعيه فطاحل الشعراء الجاهليين من الذى ينطبق عليه المثل العلم «أكذبه أعذبه».

كل هذا جال فى خاطرى عندما بدأت أكتب فى هذه الناحية من التاريخ العربى القديم ، فالباحث فى التاريخ القديم يلفت نظره الخبر القصير والمنظر العابر . فبعض الأخبار القصيرة تكون مفتاحاً لبحث طويل يسفر عن نتائج ذات شأن فى التاريخ ، وبعض المناظر العابرة توحى بما يبعث الخيال إلى ما وراء سحب الماضى ، فكثيراً ما تخيلت قوافل الجاهليين وهى تسير فى فلاة الجزيرة ، كلما تذكرت القوافل التى كانت تسير الى وقت قريب ، قطارات فى أودية الحجاز وبين جباله وزرافات ووحداناً فى صحارى نجد وبين هضابها .

فكل من يطالع التاريخ العربى القديم يعرف أن التجارة العربية كان اعتمادها على القوافل التى كانت تجوب أنحاء الجزيرة العربية مارة بمدنها التاريخية ، وأن النشاط التجارى داخل الجزيرة العربية ضعف بعد أن أنشأ الفراعنة أسطولاً تجارياً ، وبعد أن أخذت الأساطيل الرومانية والحبشية تمخر عباب البحار العربية ؛ ويعرف : أن عرب الحجاز ونجد كانوا فى صدر الإسلام يتهيبون ركوب البحر ، وأن عمر بن الخطاب خاف على المسلمين من ركوب البحر بعد أن وصفه له عمرو بن العاص ، ويعرف أن ما جاء فى الشعر الجاهلى عن الملاحة يعنى الملاحة فى الخليج الإسلامى ـ فعمرو بن كلثوم لا يقصد بوجه البحر البحر الأحمر ، « وطرفه » عندما وصف السفينة فى شعره نسبها إلى البحرين :

| | |
|---|---|
| كأن حدوج المالكية غدوة | خلايا سفين بالنواصف من دد |
| عدَوْلية أو من سفين ابن يا من | يجور بها الملاح طوراً ويهتدى |
| يشق حباب الماء حيزومها بها | كما قسم الترب المفايل باليد |

• • •

٢ ـ ولكننا مع ذلك نسأل : هل كان سكان الساحل الشرقى من الجزيرة العربية ؟ وهل كان سكان شواطىء الجزيرة العربية على البحر الأبيض هم وحدهم الذين كانوا يركبون البحر ، ويشقون بسفنهم أمواجه ، فيستقبلهم سكان شواطىء البحر الأحمر

بالإعجاب والدهشة دون أن يفكروا فى انشاء السفن وركوب البحر إلى ما بعد الإسلام ؟

إن الجواب عن هذا السؤال وعن كثير من الأسئلة التى يجدر بالبحث أن يذكرها ويجيب علينا لمعرفة متى بدأ العرب يركبون البحر ، وأى البحار التى ركبوها ؟ يأتى إذا ما ناقشنا كتاب « الملاحة والعرب » لجورج فضلو حورانى ، فلقد انفرد هذا الكتاب بالملاحة عند العرب ، وجمع مؤلفه الآراء والنتائج التى انتهت إليها المصادر التى اعتمد عليها . ولقد وصل مؤلف هذا الكتاب فى بحثه إلى : [ أن العرب قبل بزوغ التاريخ بوقت طويل كانوا كغيرهم من الأمم يصنعون القوارب من الجلود ، أو جذوع الأشجار المجوفة أو أية مادة أخرى ملائمة ويمخرون المياه الهادئة بالمجداف الصغير . وقد تطورت الملاحة فى معناها الصحيح عن هذه الأعمال الساذجة عندما أقدم الناس على التوغل فى البحر ، فبدأ العرب يطورون ملاحتهم فأقاموا صارياً شراعياً ووكلوا أمرهم إلى الرياح فى البحر العريض وإلى رحمة آلهتهم . وقد حدث هذا أيضاً قبل التاريخ ، والمظنون أن السفن العربية الشراعية كانت تثبت ألواحها بخيوط من ليف . ومن الممكن أن الشرع كانت مربعة ولم تكن ممتدة بين مقدم السفينة ومؤخرها كما كانت فى العصور التاريخية ولكن هذا بعيد عن اليقين ] .

ووصل البحث به الى [ أن الموقع الجغرافى فى نواح عامة معينة يساعد على تطور الملاحة فى شواطىء الجزيرة العربية ، فهى تحد من ثلاث جهات بخط ساحلى بالغ الطول يدور من خليج السويس إلى رأس الخليج الإسلامى ، وتمتد بالقرب من هذه السواحل أخصب بقاع الجزيرة وهى اليمن وحضرموت وعمان ، ولم يكن الاتصال بينها بحراً أشد هولا من عبور الصحارى والجبال التى تفصل بينها براً ، والأهم فى البواعث على نشاط الملاحة فى البحار العربية هو : البحر الأحمر فى الغرب والخليج الإسلامى فى الشرق يكملهما النيل والفرات ودجلة ، وهما ممران طبيعيان للملاحة فى حوض البحر المتوسط وشرقى آسيا ، فكان العرب يطلّون من كلا جانبى جزيرتهم على طريقين من الطرق التجارية الكبيرة فى العالم ][1] .

ثم هو بعد أن وصل به البحث إلى كل ذلك عاد فقال : [ لا يمكن الانتفاع انتفاعاً

( ١ ) العرب والملاحة ص ٢٣ وما بعدها .

كاملا بمزايا هذا الموقع الجغرافى إلا بعد التغلب على صعاب معينة ـ فالجزيرة العربية لا تنتج ولم تنتج أبداً الخشب الصالح لبناء السفن القوية ، وهى لا تشتمل أيضا على الحديد لدق السفن بالمسامير ، كما أنها ليست قريبة من أى بلد تنتجه . وليست فيها أنهار صالحة للملاحة . وما فيها من الموانىء الممتازة قليل . وكان البحر الأحمر الذى يمتد ١٢٠٠ ميل يفصل فى العصور القديمة بين مصر والجنوب الغربى من الجزيرة العربية أكثر مما يقرب بينهما ، وكان النصف الشمالى من هذا البحر خاصة ينطوى على عقبات كأداء ، فعلى جانبيه صحراء لا ماء فيها تمتد مئات من الأميال ، والشعاب المرجانية الضخمة تحف كلا الساحلين ، وتمتد فى بعض المواضع بعيداً فى البحر فكان تلافى الاصطدام بها يتطلب معرفة وحنكة عظيمتين ، وكانت الجزر المرجانية تعين على القرصنة التى كان البدو الجياع على كلا الجانبين يميلون إليها أشد الميل ويعدونها امتداداً بسيطاً لغاراتهم فى الصحراء ولأن البحر خال من الموانىء الصالحة أو يكاد . وكانت الملاحة شمالاً صعبةً بوجه خاص على الملاحين الأوائل لأن الرياح الشمالية كانت تهب جنوباً على هذا الجانب من البحر طوال العام ، فأقام العرب طرقاً للقوافل على طول الساحل الغربى من جزيرتهم بدلاً من أن يواجهوا أهوال البحر الأحمر . وكانت الأحوال أوفق فى الخليج الإسلامى . ولكن هنا أيضاً كان الماء الصالح للشرب شحيحاً على كلا الجانبين ولهذا لم تكن ( عمان ) وثيقة الاتصال بأرض الجزيرة وإيران . وفى المحيط الهندى كانت السواحل المؤدية الى الهند خراباً يباباً ولم يمكن الاستعانة بالرياح الموسمية لعبور البحر العريض بين الجزيرة والهند وشرقى أفريقية إلا ريثما يمكن بناء سفن تستطيع احتمال هباتها العاتية ـ هذه العقبات كان لا من التغلب عليها بالحيلة والا ختراع حتى يمكن الإفادة من المزايا الطبيعية ، ولكن مال جنوب الجزيرة الغربى وعمان إلى البقاء فى عزلتهما وذلك لأنه لم يكن من اليسير على العرب إذا لم يكونوا على صلة دائمة بمراكز الحضارة القديمة فى مصر وغربى آسيا والهند أن يأخذوا عنها ما عرفته من تحسينات فى بناء السفن والملاحة بل إن المواد اللازمة لبناء السفن القوية كان لا بد من جلبها من الهند ][1] .

---

( ١ ) المرجع السابق .

٣ ـ ونحن قبل أن نناقش ما جاء فى كلام «جورج حورانى» الذى نقلناه من كتابه ، نلفت نظر القارىء إلى ما قاله ( الخشاب ) فى تصدير كتاب «الملاحة والعرب» : [ إن المؤلف « جورج حورانى » بنى رأيه على أساس كتب صعبة تحتاج إلى كثير من الجهد ومزيد من المعرفة فهو لا يزال يأخذ برأى « بيرين » الذى يقول : بأن الدولة الإسلامية قد فصلت بين دول البحر الأبيض المتوسط وبين المسلمين ] فالذى يعتنق النظريات المبنية على أدلة تحتاج إلى كثير من الجهد ومزيد من المعرفة دون تحقيق ورجوع إلى الحقائق فى التاريخ الإسلامى ، لا يستبعد أن يتعلق بنظريات خيالية عن جغرافية البلاد العربية وموارد الجزيرة العربية وعن العربى ومبلغ كفاءته فى بناء الحضارة وإمكانياته .

ونحن إذا أردنا أن نناقش ما جاء فى كلام الحورانى ، نجده أولا يؤكد لنا قدم الملاحة فى جزيرة العرب وينوه بالصفات الطبيعية الممتازة للسواحل العربية الممتدة من شمالى البحر الأحمر الى شمالى الخليج الإسلامى ، ثم نجده ثانياً يتهم العرب بالجهل فى فن الملاحة ويسلب من السواحل العربية كل مميزاتها .

فالذى فات «جورج حورانى» فى البحث : تعيين العصر الذى عرف فيه العرب الملاحة ، فلقد قال لنا : « كارلتون كون » فى قصة الشرق الأوسط : إن الأراضى البحرية التى عاش عليها بحارة من قديم الزمان هى : المناطق الساحلية الواقعة على الجانب الغربى من الخليج الإسلامى ، والمناطق الواقعة على مصب دجلة والفرات وجزيرة البحرين . ومن الجائز أنها كانت تشمل فى وقت من الأوقات « اليامة » فهذه المناطق كانت أوطاناً للكنعانيين قبل أن يهاجروا إلى سورية ـ وهجرة الكنعانيين إلى سورية كانت فى الألف الثالثة قبل الميلاد ـ إذن فالعرب عرفوا الملاحة فى الخليج الإسلامى قبل الألف الثالثة التى سبقت الميلاد . ولقد قال ( سرجون )[١] : إنه جعل سفن « ملوخة » ( بلاد العرب ) ، وسفن « ماجان » ـ عمان مورد النحاس ـ وسفن « ديمور » جزر البحرين ، تلقى مراسيها أمام « أكاد » عاصمة سرجون[٢] .

---

( ١ ) راجع كتاب « ماذا حدث فى التاريخ » ص ١٤١ .

( ٢ ) اسم عاصمة « سرجون » ثم اطلقت على مملكة سرجون ـ وتقع المدينة فى مكان اقتراب نهر دجلة من الفرات .

وكذلك فاته ـ أن يوضح كيف كان يكمل النيل البحر الأحمر . فهو لم يذكر القناة التى بدأ حفرها الفراعنة وجددتها إمبراطورية «دارا» الفارسية وأتمت ما نقص منها ، وحاولت الدولة العربية الإسلامية الاستفادة منها ، والتى كانت فى القديم همزة الوصل بين النيل والبحر الأحمر . ولعله كان يقصد أن النيل كان فى العصور المجهولة يتصل بالبحر الأحمر فلذلك لم يذكر هذه القناة لأن فى قوله : إن النيل يكمل البحر الأحمر كما يكمل دجلة والفرات الخليج ، شمولاً للحالتين .

وفاته الرجوع إلى التاريخ العربى القديم ليعرف : أن الحديد وصل الى مصر فى قديم الزمان عن طريق الجزيرة العربية ، فعلى ذلك فإن العرب عرفوا الحديد واستخدموه فى مختلف شؤونهم ، فأنى له أن يقول : والجزيرة لا تشتمل أيضا على الحديد لدق السفن بالمسامير كما أنها ليست قريبة من أى بلد تنتجه ؟

وفاته الرجوع إلى التاريخ العربى القديم ليعرف أن العرب كانوا يتاجرون بالأخشاب والنحاس مع السوموريين ، فالذى يصدر الأخشاب والنحاس فى استطاعته أن يستورد الخشب الصالح للسفن من الهند أو من لبنان أو من غيرها .

ولم يكن موضوع الخشب معضلة وقفت فى وجه الملاحة الكنعانية لا فى الخليج الإسلامى ولا فى البحر الأبيض . فإذا كانت الجزيرة لم تنتج الخشب الصالح لبناء السفن القوية فإن فى إمكان سكانها أن يستوردوه . وفاته أن يتذكر أن على النصف الشمالى من البحر الأحمر قامت موانىء تاريخية ، حفلت بالسفن منها موانىء بلاد مدين ، ومنها الحوراء ـ لويكة كومة ـ ومنها ينبع البحر ، ومنها جدة . فلم يكن الماء معضلة حالت دون إنشاء الموانىء على البحر الأحمر فى ماضيه ولا فى حاضره .

وفاته أن الملاحة فى البحر الأحمر لم تشل حركتها الشعاب والجزر المرجانية . فهذه السواحل العربية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال فيها موانىء لا تزال على حالتها الطبيعية ، ومع ذلك فهى تستقبل عشرات السفن الشراعية . فهو لو قام برحلة فى شواطىء البحر الأحمر ، لرأى ما رأيته أنا من مرفأ الوجه فى الشمال إلى مرفأ جازان فى الجنوب ، ولرأى موانىء ترسو عليها عشرات السفن الشراعية التى صنعت بطريقة بدائية والتى يدير دفتها ربابنة بدائيون فى معلوماتهم عن البحر والملاحة . ربما كان الكنعانيون فى الماضى البعيد أكثر معرفة ومهارة من هؤلاء . وربما كانت سفنهم أكبر وأمتن من السفن

التى رأيتها فى الوجه ، وفى أملج ، وفى ينبع ، وفى جدة ، وفى جازان .

وفاته أن يعين الزمن الذى تبدلت فيه حال الرياح التى قال عنها : وكانت الملاحة شمالاً صعبة بوجه خاص على الملاحين الأوائل لأن الرياح الشمالية كانت تهب جنوباً على هذا الجانب من البحر طوال العام . فهل كانت تلك الرياح بعد التاريخ وبعد سفن المعينيين التى كانت تجوب البحر الأحمر وسفن المصريين ؟ ! ولماذا هى اليوم لا تؤثر على السفن الشراعية ؟ .

وفاته كذلك أن يعين الزمن الذى أصبحت فيه السواحل المؤدية إلى البحر الهندى خراباً يباباً ، وأن يعين هاتيك السواحل التى تصورها قفراً لا أنيس فيها ولا سامر . فإن هذه الصورة لا تتفق مع التاريخ العربى القديم ، فالسواحل العربية من حضرموت وعمان وقطر وهجر ـ الأحساء ـ إلى العراق حفلت فى ماضيها القديم بنشاط تجارى قليل المثيل فى العصور القديمة . وليست الشواطىء هذه هى وحدها التى عمرت بالسكان فى قديم زمان البلاد العربية دون سواها ، فالجزيرة العربية ذات شواطىء لها ماض فى الملاحة ، وبحار الجزيرة ذات شأن فى تاريخ النقل التجارى البحرى منذ فجر التاريخ العربى . ولقد كان الخليج الإسلامى بالذات مجالاً واسعاً للسفن التجارية بين شبه الجزيرتين العربية والهندية .

وفاته كذلك أن يعين التاريخ الذى نضبت فيه سواحل النصف الشمالى للبحر الأحمر من الماء ، فإن سواحل النصف الشمالى من تهامة على البحر الأحمر قد عمرت بدول ذات تاريخ حضارى معروف ، فبلاد مدين ، ومنازل ثمود منها ما هو بعيد عن شواطىء البحر الأحمر ، ومنها ما هو مطل عليه . ولقد ازدهرت شواطىء هذا القسم من الساحل العربى بموانىء تعتبر من أهم موانىء البحر الأحمر إن لم تكن أهمها مثل : ( لويكة كومة ) التى مر ذكرها .

وفاته كذلك أن يعين الزمن الذى مال فيه جنوب الجزيرة الغربى وعمان إلى البقاء فى عزلة وانفصال عن عالم ذلك الزمن ، فالقسم الجنوبى الغربى من الجزيرة كان ذا صلة بمصر الفرعونية من قديم الزمان ، وصلاته بالحبشة ليست بالتى تخفى على أحد . وعمان التى صدرت النحاس الى العراق من فجر التاريخ لها صلاتها بالعراق ، ولها صلاتها بالهند

وايران ، ولها صلاتها بداخل الجزيرة العربية .

وفاته كذلك أن يأتى بالأدلة التى تثبت : أن العرب على ساحل البحر الأحمر جميعهم بدو جياع يميلون إلى القرصنة . وفاته أن يوضح كيف كان هؤلاء البدو الجياع خطراً على الملاحة فى البحر الأحمر . فالقرصان لا يكون خطراً ما لم يكن ملماً بالبحر وأحواله قديراً على ركوبه بسفن معدة لمطاردة الفريسة ، وفاته أنه هو نفسه قال : [ فإذا كان المعينيون والسبئيون يقومون ولا ريب برحلات بحرية إلى مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد . صح لنا أن نسأل كم قرناً كانوا يزاولون ذلك من قبل ][1] ، وقال : [ وجميع الشواهد تدعو الى الاعتقاد أن مدن بلاد العرب وسوقطرة كانت فى هذه الفترة مراكز التجارة بين مصر والهند فى جميع صورها ][2] .

فمؤلف « الملاحة والعرب » كما يظهر مما قاله أولا عن المميزات الطبيعية لسواحل الجزيرة ، ومما قاله ثانياً عن العوامل التى محت كل تلك المميزات ، ذو شك يمنعه من أن يستقر على رأى أو يجزم بنتيجة بعد بحثه الطويل . فهو كما تراه قد بلغ به الشك منتهاه فلم يستقر على جواب للسؤال الذى تترتب عليه نتيجة هامة فى تاريخ الملاحة فى البحر الأحمر : [ صح لنا أن نسأل كم قرناً كانوا - المعينيون والسبئيون - يزاولون الرحلات البحرية ] فلقد جاء جوابه غير واضح يغمره الشك والتردد : [ إن التوابل العربية كانت تستعمل فى مصر فى التحنيط وتقديم القرابين آلافاً متعاقبة من السنين . فهل كان يؤتى بها فى سفن عربية خلال الفترات الواقعة بين الرحلات المعروفة القليلة التى قام بها المصريون إلى الجنوب ؟ إن هذا يبدو ممكناً فى ضوء الأدلة التى انحدرت إلينا من أوائل العصر الهلينسى . ولكن لا يمكن إثبات شيء ، لأن الطريق الآخر طريق القوافل عبر صحارى بلاد العرب وسبأ كان قائماً أبداً ][3] .

إن أهمية الطرق البرية أمر مسلم به . فالقوافل البرية التى كانت تجوب الجزيرة العربية ونشاطها الذى عرف من فجر الحياة العربية والذى أتاح تبادل السلع والتسوق بها

---

( ١ ) الملاحة والعرب ص ٦١ .

( ٢ ) نفس المصدر ص ٦٣ .

( ٣ ) نفس المصدر ص ٦١ و ٦٢ .

فى العراق والهند وعمان وحضرموت واليمن والحبشة ومكة والمدينة ووادى القرى وأرض مدين وفلسطين ومصر وبلاد الهلال الخصيب ، فربط هذه الأسواق بالطرق البحرية فى ذلك الزمن ـ من الصعوبة بمكان ؛ فليس من قدرة السفن الشراعية أن تعبر المحيط الهندى من شبه الجزيرة الهندية إلى باب المندب رأساً دون أن تلجأ إلى شواطىء عمان وحضرموت واليمن حتى تصل بسلام إلى باب المندب . ثم عليها أن تقطع ألفاً ومائتى ميل حتى تصل إلى شبه جزيرة سيناء ، فكم كان يكلفها هذا الطريق مالاً ووقتا ؟ هذا إذا سلمت من العوادى .

لقد ركبت من ( بمباى ) فى الهند إلى ( عدن ) فى اليمن إحدى عابرات المحيط التى تقوم من استراليا إلى لندن فى فصل الشتاء . وفى فصل الشتاء يهدأ المحيط الهندى . ولقد راعنى أن تتأرجح هذه العابرة على سطح البحر النائم كتأرجح الزورق البخارى إذا ما تعطلت آلته ، فما بالك بالسفن الشراعية إذا ما خاطرت بنفسها فخرجت عن مياه الخليج إلى عرض البحر الكبير ، وإذا ما أيقظت عواصف المناطق الاستوائية الصيفية هذا البحر العظيم ؟ ! .

إن الطريق السليم العواقب للسفن الشراعية هو الخليج الإسلامى ، وإن على السفن التى تحمل السلع الهندية أن تقبل ثمن ما يدفع لبضائعها فى أسواق الخليج الإسلامى فانه أكثر ربحاً لها بالنسبة للنفقات التى تتحملها البضائع فيما إذا واصلت السفينة سيرها إلى باب المندب ومنه إلى شواطىء البحر الأحمر الشمالية .

فلذلك كان للقوافل الصحراوية أهميتها فى نقل البضائع التى ترد من الهند إلى أسواق الأقطار العربية . وفى نقل البضائع التى تصل إلى سيناء وسورية والتسوق بها فى المدن العربية ـ ولذلك كانت المدن التى قامت على هذا الطريق أسواقاً تجارية تباع فيها السلع وتشترى .

وقد لايذهب بنا الخيال بعيداً إذا نحن ظننا أن القافلة التى تقوم من عمان ليست هى القافلة التى تصل إلى شبه جزيرة سيناء وتدمر ، وأن البضاعة التى تنقل من عمان ليست تحمل رأساً إلى مصر ، فإن فى كل مدينة تجاراً يستوردون من الشرق والغرب ويصدرون إلى الشرق والغرب .

ولقد تحدثت أخبار الماضى القديم عن القوافل المعينية التى كانت تسير فى خفارة

مراكز أقامها المعينيون والسبئيون فى طريق قوافلهم . وتحدثت الأخبار القديمة عن تجارة مكة والقوافل المكية ، وعن تيماء وتدمر وغيرهما من المدن العربية التجارية .

فمجموع هذه الأسباب جعل النقل البرى عماد التجارة العربية فى عصور ما قبل الميلاد ، بيد أن مجموع هذه الأسباب لم يقض على المجال البحرى قضاء مبرماً ، فلقد كان المجال البحرى واسعاً أمام السفن العربية فى الخليج الإسلامى التى كان عليها نقل البضائع من الهند ومن إيران وإليها ، وكان عليها نقل البضائع التى تخص مصر وشعوب البحر الأبيض المتوسط من منطقة باب المندب ومن سواحل اليمن على البحر الأحمر .

ففى ما سمعناه عن السفن المعينية والسبئية فى القرن الثالث قبل الميلاد ما يؤكد لنا الأسباب التى أتاحت المجال للنقل البحرى ، وأن هذه الأسباب توافرت أكثر من ذى قبل بعد ما منيت الجزيرة العربية بالجفاف الذى جعل النقل البرى فى الأرض القفر كثير المشاق والمتاعب ، وبعد أن أصبحت تطورات الحياة تدفع العرب لركوب المخاطر فى سبيل ما يؤمن لها حياتها . ففيا حدثنا به المؤرخون عن عير فارس التى كان يسيرها كسرى من المدائن إلى عامله فى اليمن نلاحظ متاعب مرهقة وتكاليف باهظة ، فلقد كانت عساكر كسرى تخفر العير من المدائن إلى الحيرة ، ثم تكون خفارتها على ( النعمان ) من الحيرة إلى اليمامة ، ثم تكون خفارتها على ( هوذة بن على الحنفى )إلى بلاد تميم ، ثم تكون خفارتها على بنى تميم إلى أن تصل إلى اليمن[١] .

ومع هذا كله فإن صعاب النقل البرى كانت أسهل من صعاب النقل البحرى إذا ما اضطرت السفن إلى الخروج إلى عرض المحيط الهندى . وإن يوم ( الصفقة )[٢] يؤكد لنا : أن ركوب المحيط الهندى على السفن الشراعية يكلف باهظاً لا يقدر عليه إلا المضطر القدير الذى يملك من الإمكانيات ما يذلل له كثيراً من المصاعب والأخطار .

---

( ١ ) الاغانى ١٦ / ٧٥ .

( ٢ ) يوم الصفقة : يسمى أيضا يوم المشقر . والمشقر : حصن بالبحرين . وسمى « الصفقة » لأن كسرى أصفق الباب على بنى تميم فى حصن المشقر . وهو يوم من أيام العرب مع الفرس .

٤ ـ ولهذا كله فإن النشاط البحرى العربى لم يتجاوز الخليج الإسلامى والبحر الأحمر إلى المحيط . وإن النشاط البحرى العربى فى شواطىء هذين البحرين أقل بكثير من نشاط العرب البحرى فى البحر الأبيض المتوسط .

ومن البديهى أن تشارك العرب فى النشاط البحرى الأمم التى تشاركها فى بحارها ، ومن المتوقع الاّ يذكر نشاط عرب قلب الجزيرة البحرى فى ظلمة جاهليتهم المتأخرة بالنسبة للنشاط الرومانى والحبشى والفارسى والهندى . ومن الطبيعى : أن يتفوق الهنود والفرس فى الخليج الإسلامى . وأن يتفوق الرومانيون والأحباش فى البحر الأحمر بفضل إمكانيات هؤلاء وأولئك وتقدم دولهم ـ كما تفوق الفينيقيون من قبل بفضل إمكانيات سورية ولبنان ، وبفضل خبرتهم وسابق تجاربهم فى الخليج الإسلامى .

ومن الطبيعى أن يتلاشى فى العرب نشاطهم البحرى قبل ظهور الإسلام كما تلاشى نشاطهم فى جميع مجالات الحياة من جراء الأحداث التى حاقت بالبلاد العربية آخذاً بعضها برقاب بعض .

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا أن نقول : إن تاريخ الملاحة فى الخليج الإسلامى يعود إلى ما قبل الألف الثالثة التى سبقت الميلاد . أما الملاحة فى البحر الأحمر فلم يتأكد من نشاطها إلا بعد منتصف الألف الأخيرة قبل الميلاد ، ولكنها دون شك أقدم من ذلك التاريخ بكثير ، فالسفن فى البحر الأحمر لم تصل إلى ماوصلت إليه سفن المعينيين والمدينيين إلا بعد مراحل طويلة اجتازتها الملاحة العربية .





البحث الحادى والعشرون :

# الكلمة الأخيرة عن التاريخ الحقيقى لقلب الجزيرة

من موضوعات البحث :

١ - المناطق المتوسطة فى الجزيرة العربية لم تتأخر عن ركب الحضـارة فى الماضى القديم .

٢ - تحديد الزمن الذى بدأ فيه التاريخ الحقيقى فى قلب الجزيرة العربية هو مشكلة المؤرخين .

٣ - مع مطلع الألف الثانية قبل الميلاد دخل قلب البلاد العربيـة باب التاريـخ الحقيقى .



# الكلمة الأخيرة عن التاريخ الحقيقي لقلب الجزيرة

١ ـ لقد أثبت البحث فى حضارة قلب الجزيرة ، وفى الأدب الجاهلى ، وفى الشعر العربى ، وفى اللغة وخطوطها ، وفى الأديان وقصص الأنبياء ، وفى الملاحة العربية ونصيب السواحل القريبة منها : أن سكان المناطق المتوسطة من الجزيرة العربية كانوا مع الطليعة التى أسست الحياة الإنسانية ومهدت السبيل فى البر وفى البحر للحضارة العربية .

ففى وادى القرى وسواحل البحر الأحمر ، وفى اليمامة وسواحل الخليج الإسلامى ، عاشت شعوب : عاد ، وثمود ، والعماليق ، والدادانيون ، والمدينيون ، والكنعانيون ، وطسم ، وجديس ، وغيرها من الأمم الغابرة وكل هذه الأمم اعتبرت من الأمم البائدة . ومن هذه الأمم أمم يرجع تاريخها فى قلب الجزيرة العربية إلى ماقبل الألف الثالثة قبل الميلاد مثل : الكنعانيين الذين عاشوا فى اليمامة وعلى شواطىء الخليج الإسلامى قبل هجرتهم إلى سورية ، ومثل ، الشعوب الإرمية والعمليقية التى عاشت فى وادى القرى وفى مكة والمدينة قبل أن يهاجر إبراهيم إلى سورية ، ويرفع قواعد البيت الحرام فى الحجاز . ولكل من هذه الأمم آثار كشف التنقيب عن بعضها فى اليمامة وفى وادى القرى ولايزال بعضها دفيناً فى جوف الصحراء الصامتة .

ونحن إذا تمسكنا بالأدلة التى تؤكد أن الوطن الأول للجنس السامى العربى[١] هو قلب الجزيرة العربية ، وأن العرب الذين عاشوا فى نجد والحجاز منذ العصر الحجرى كانوا أساتذة سكان الواديين : النيل والفرات فى استئناس الحيوانات واستنبات الحبوب ، وأن العرب الذين أسسوا الدول الإرمية والعمليقية فى العراق وفى سورية ، وفى مصر ، كانوا أصحاب حضارة ولغة وعقائد بدليل الحضارة العربية فى العراق التى تغلبت على الحضارة السومورية ، وبدليل الحضارة العربية فى مصر التى تبدو واضحة فى لغة الفراعنة وفى آثار دلتا النيل وصحراء سيناء . ونحن إذا تمسكنا بهذه الأدلة لانكون خياليين إن قلنا : إن ماضى العرب القديم لم يكن مظلماً كما صوره الكثير من المؤرخين .

---

(١) إننى مع الذين يقولون بأن الساميين هم العرب ولقد أيدت هذا الرأى بأدلة تجدها فى الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية .

إننا لانكون مبالغين إذا قلنا إن للعرب فى داخل جزيرتهم تاريخاً لايقل توغله فى أعماق الماضى عن توغل تاريخ السوموريين فى العراق . فمن الحقائق التاريخية أن السوموريين فى العراق كانوا يستوردون النحاس من عمان . وعصر السوموريين فى العراق انتهى قبل الألف الثانية قبل الميلاد . ومن الحقائق التاريخية : أن ( سرجون ) الذى أسس الدولة العربية فى العراق ووصل سلطانه إلى سورية ولبنان ، لم تخضع لسلطانه الدول العربية فى سواحل الخليج الإسلامى ، وفى اليمامة ، فكانت تلك الحروب التى أشارت إليها آثار ( سرجون ) .

واعتماداً على هذه الحقائق نقول غير مبالغين إن العرب الذين عرفوا كيف يستفيدون من معادن الأرض ، وعرفوا كيف يكونون جيوشاً تؤسس دولاً عربية فى العراق ، وفى سورية ، وفى مصر ـ تبسط نفوذها وحضارتها ولغتها على العناصر التى أتت من شمالى العراق ومن جنوبى مصر وغربيها لتشاركهم فى أوطانهم وتقاسمهم خيراتها ، لابد أن يكون لهم تاريخ حافل بالأحداث التى تمر بكل أمة أقامت مدنية وأنشأت أدباً ونظمت جيشاً يغزو ويفتح .

٢ ـ وهذه الحقائق لم يختلف عليها الذين بحثوا فى التاريخ العربى القديم . وإنما الذى هم فيه مختلفون هو : تحديد زمن الأحداث وعصور الأنبياء والملوك . وإن الذى أعجزهم هو : معرفة المدى الذى بلغته الحضارة العربية فى قرونها الأولى . ولقد مرت بنا فى بحث دول ماقبل التاريخ وسنى حكمها : أسباب الخلاف بين المؤرخين الذين حددوا السنين لدول ماقبل التاريخ . ولسوف تأتى فى البحث عن عناصر الجزيرة العربية وقبائلها : بواعث الخلاف بين النسابين فى تعيين القبائل وتحقيق أرومتها ، وكيف ورط تشابه الأسماء التى ظهرت فى بلد واحد بعض النسابين فخلط بين القبائل ؟ وكيف غلط البعض الآخر فنسب قبيلة واحدة مرة إلى سام ، ومرة إلى حلم ، ومرة إلى يافث ، الأصول الثلاثة لشعوب الجزيرة العربية فى بحوث الأنساب ؟!

والخلاف فى عصور الأنبياء والدول مازال موجوداً فى البحوث التاريخية حتى اليوم . فزمن ( سرجون ) و ( حمورابى ) و ( إبراهيم ) عليه السلام ، ودولة العماليق فى مصر ، يختلف فيه (المطران الدبس) فى تاريخ سورية وجرجى زيدان فى (العرب قبل الإسلام) وفيليب

حتى فى تاريخه : العرب ، وسورية ، ولبنان فى التاريخ. ونادق فى «التاريخ الجغرافى للقرآن » ، والبتنونى فى «الرحلة الحجازية»، والعقاد فى «الثقافة العربية»، وجواد على فى تاريخ العرب قبل الإسلام» !!

ولقد تقدم التحقيق فى عصر إبراهيم وسيأتى التحقيق فى عصر « سرجون الأول » و « حمورابى » .

فالخلاف فى تحديد الزمن للتاريخ الحقيقى مازال مشكلة المشاكل . فقد يثبت تاريخ دولة ما عند مؤرخ بنص من النصوص ، فيؤكد ذلك المؤرخ : أن تاريخ الدولة يبدأ بموجب النص الذى وصل إليه فى علم كذا قبل الميلاد أو بعده . ويعثر مؤرخ آخر على نص غير الذى عثر عليه غيره ، فيحدد تاريخاً آخر كما أشرت إلى ذلك من قبل ، وكما ترى ذلك الخلاف وأسبابه واضحاً فى تعيين زمن الدولة المعينية فى اليمن .

ولقد قلت من قبل : إن بداية التاريخ لكل أمة من الأمم هو رهن المعلومات التى عرفت عنها . وقد تتجدد المعلومات عن أمة واحدة بما يصل إليه البحث عن آثارها .

ولم تسلم من هذه الشكوك الأمم التى اكتشفت آثارها . ففى رأى الكثير أن تحديد زمن ( مينا ) الفرعون الأول الذى وحد الوجهين القبلى والبحرى غير واقعى فلقد شك هؤلاء فى أن يكون علم ٣٥٠٠ ق . م . هو العلم الذى اعتلى فيه الملك ( مينا ) العرش الفرعونى . ولقد أشرنا من قبل إلى ماقيل عن التواريخ التى وضعها الكاهن المصرى لما بعد علم ٢٠٠٠ ق م .

٣ ـ فنحن إذا أردنا أن نحدد التاريخ الحقيقى لقلب الجزيرة العربية فليس لدينا دليل أقوى وأثبت من البيت الحرام الأثر الخالد على مر الأجيال . ولاشك فى أن الذى أقلم قواعد البيت الحرام هو إبراهيم وابنه إسماعيل . وتحقيقات المؤرخين فى عصر إبراهيم تحوم حول مطلع الألف الثانية قبل الميلاد ـ فبناء على ذلك كله فاننا نرى أن التاريخ الحقيقى لقلب الجزيرة بدأ مع الألف الثانية قبل الميلاد .

ونحن بهذا التحديد لاننكر تاريخ العرب فى قلب الجزيرة العربية قبل إبراهيم وإنما نقول : إن الشكوك فى تاريخ عرب قلب الجزيرة قبل إبراهيم أكثر كثافة من الشكوك التى تغطى حقائق التاريخ العربى بعد إبراهيم ـ وإن تاريخ قلب الجزيرة ربطت حلقاته بعد إبراهيم : اللغة ، والعقائد ، وأحداث الشعوب التى عاشت حول البيت الحرام .



البحث الثاني والعشرون :

# التاريخ العربي في جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها

من موضوعات البحث :

١ ـ الجزيرة العربية وطن بناة الحضارة الأولى .
٢ ـ غموض التاريخ القديم فى الجنوب والشرق من الجزيرة العربية .
٣ ـ تاريخ شواطىء الخليج الإسلامى والجنوب غارق فى الأساطير .
٤ ـ التاريخ اليمنى خدم أكثر من تاريخ الخليج .
٥ ـ تعدد المصادر من مشاكل التحقيق .



# التاريخ العربي في جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها

١ ـ إن كل صقع فى جنوبى الجزيرة وشرقيها جدير بالبحث المستفيض والتحقيق العميق ، فالباحث فى تاريخ هذه المناطق لايصل إلى شىء من حقيقة ماشهدته من حضارات ودول وأحداث مالم يبحث فى المصادر ويجمع منها الأخبار المتناثرة فى النصوص والمراجع عن ماضى اليمن وسواحل الخليج . فكل سهل من سهولها وكل جبل من جبالها أهل ببناة الحضارة الإنسانية فى الشرق العربى ، ومرت به أحداث كان لها شأنها فى الماضى القديم .

وبناة الحضارة فى هذا الشرق هم طليعة البشر الذين خرجوا من حياة الغاب يؤسسون القرى والمدن ، ويضعون الحجر الأساسى للمجتمع الإنسانى الذى تطور ولايزال يتطور مع الزمن .

ومن سنة الله فى أرضه الاّ يدوم حال على حال . فمن سره زمن ساءته أزمان ، وما أكثر الأزمان التى أساءت إلى هذه المناطق وأهلها فى هذه الألوف من السنين التى مرت بها ، فقلبت كيان حضاراتها القديمة ، وقضت على نشاطها التجارى ، وجعلت منها أرضاً بلقعاً كأن لم تكن بالأمس ذات حضارة مرموقة وذات ثراء تحسد عليه .

٢ ـ فأنّى لى ، وأنّى للذين تقدمونى ، أن أعرف أو يعرفوا غير القليل عن تلك الحضارات التى لمعت قبل خمسة الآف من السنين ؟ فمصادر تاريخ هذه الأصقاع من الجزيرة العربية لم يعلم من حقائقه غير النزر اليسير الذى ترامى إلى مسامع المؤرخين مما تناقلته الأجيال بعد الأجيال ، ولم ينكشف لها من آثاره غير القليل الذى وصلت إليه معاول المستكشفين . فأنت إذا ما اطلعت على ذلك النزر من أنباء الغابرين فى المؤلفات العربية تجده غارقاً فى خيال المؤرخين الذين حدثونا عن ( قوم عاد ) وعن ( طسم ) و ( جديس ) و ( بار ) و ( العماليق ) وغيرهم من سكان العروض الأقدمين . وأنت إذا ما اطلعت على

تقارير الأثريين تجدها غارقة فى ظنون حائرة وآراء مترددة لم تقتنع إلا بالقليل من تاريخ الكنعانيين فى اليامة وفى البحرين وفى سواحل الخليج الإسلامى . ومما تركوه من آثـار ونقوش تتحدث عن تاريخ ( سرجون ) البابلى وجنوده الذين بلغوا الشواطىء العربية على الخليج وما تاخمها كما بلغوا شواطىء لبنان وماتاخمه .

فلعل الله الذى بعث إلى هذه الأرض العربية من كشف عن كنوزها الطبيعية ، وأيقظ فيها الحياة من نومها العميق الطويل ، يخلق الأسباب التى تساعد على كشف سرها الدفين ، فيعرف الناس كيف يحيى الله العظام وهى رميم !!

فما أشبه العظام الرميم بآثار الحضارات التى شهدتها شواطىء الخليج الإسلامى من العراق إلى عمان قبل آلاف السنين ، والتى تطل رؤوسها على الحياة المنبعثة فى أرضها بفضل آلات التنقيب عن البترول وإخراجه من أعماق الأرض وتكريره وتصديـره إلى مشارق المعمورة ومغاربها .

٣ ـ أجل ! إن تاريخ شواطىء الخليج الإسلامى وإن شهد له المؤرخـون والأثريـون بالقلم ، وإن كان فيه بعض الحقائق التى لامرية فيها ، فإن أكثر مايرويه المؤرخـون أساطير تحتاج إلى مايزيل عنها ألوان الخيال والمبالغات الخرافية ويجعل منها بحوثاً تاريخية منطقية ، وإن أكثر مايقوله الأثريون ظنون وآراء تحتاج إلى مايؤكدها ويجعل منها أدلة قطعية يعتمد عليها .

وكذلك تاريخ الجنوب من الجزيرة العربية لم يسلم من تلك الأساطير ولا من تلك الظنون والآراء التى مافتئت فى حاجة إلى مايجعلها بعيدة عن الريبة والشكوك .

٤ ـ على أن التاريخ العربى فى اليمن أكثر وضوحاً لأسباب منها : أن دولة التبابعـة الحميريين هى آخر الدول العربية الكبرى التى قامت فى عصور ماقبل الإسلام ، فكان من حقها أن يتحدث العرب عن هذه الدولة وسيادتها والأحداث التى مرت بها ، وكان من الضرورى أن يحرص ملوكها على نشر مآثر أجدادهم وما وصل إليه مجد الدول العربية فى معين وسبأ وحضرموت ؛ ومنها أن القرآن الكريم أشار إلى سبأ وملكتها وإلى سد مأرب وأصحاب الأخدود ، فكان لزاماً على المفسرين أن يبحثوا فى تاريخ مملكة سبأ ، وسد مأرب وأصحاب الأخدود ؛ ومنها أن اليمن بلاد البخور الذى كان فراعنة مصر مغرمين بحرقه فى

معابدهم فلذلك كانت منطقة باب المندب مطمع أنظار فراعنة مصر من أبعد عهودهم ، فتحدثت آثارهم عن الحملات التى شنها الفراعنة على هذه المنطقة من قبل الميلاد بأجيال . ومنها أن الرجال الذين عنوا بالتاريخ العربى فى صدر الإسلام كان أكثرهم يمنيين مثل الهمدانى وابن الكلبى وعبيد بن شرية ونشوان الحميرى . ومنها أن اليمن على الرغم من سياسة العزلة فقد خاطر كثير من رواد الآثار الأوروبيين فى سبيل البحث عن آثار اليمن القديمة فحالف بعضهم التوفيق فقدم للعلم ثروة تاريخية لابأس بها .

٥ ـ على أن تعدد المصادر وإن كان مفيداً إلا أنه متعب للباحث المحقق الذى يهدف إلى إزالة الشكوك والغموض عن الحقائق التاريخية ، ولاسيا أن كثيراً من المؤلفات العربية الموضوعة فى التاريخ اليمنى زاخرة بالمبالغات التى لاتتفق مع المنطق والتى جعلت الكثير من الحقائق فى تلك المؤلفات مشكوكاً فيها . فأوشك الخيال أن يحجب الحقائق التى وصلت إليها بحوثهم والتى أكدتها الآثار التى اكتشفها المنقبون .

فلقد أطلق المؤرخون العرب القدامى والمفسرون العنان لأخيلتهم بعد أن اطلعوا على مانقل إليهم عن الأسفار وما عرفوه من مصادر يونانية أطلقت اسم العربية السعيدة على الأرض الممتدة من بادية الشام إلى المحيط الهندى .

وإذا ماجنح المؤرخ إلى الخيال أضاع الثقة فيا يقوله وعرض للشك والريبة الحقائق التى أجهد نفسه فى جمعها ، فأى قارىء لايخامره الشك فيا يقال عن سنى حكم التبابعة الأولين وأعمارهم التى بلغت المئات من السنين ؟

ولعل ابن خلدون هو أول من شهّر بهذه المبالغات وجاهر بأن مايقال عن إرم ذات العماد هو من خرافات القصاص نقلها ضعاف المفسرين . ولقد تعرض لهذه المبالغات بالنقد والتفنيد محققو التاريخ العربى فى العصر الحديث ، فمما جاء فى نقد جورجى زيدان : [ فأدخل المفسرون عند تفسيرهم ماذكره القرآن عن عاد مبالغات رواها كعب الأحبار وعبد الله بن سلام اليهوديان ووهب بن منبه المجوسى وغيرهم ][1] .

وينقد جواد على رواية كعب الأحبار بقوله : [ ويظهر أن كثيراً من أخبار عاد وضعت فى أيام معاوية بن أبى سفيان الذى كان له ولع خاص بالاطلاع على أخبار الماضى فجمع

---

(١) العرب قبل الاسلام ص ١٨ .

لذلك فى قصره جماعة اشتهرت برواية هذا النوع من القصص وفى مقدمة هؤلاء كعب الأحبار ][1] .

فلولا مابذله الرواد المستشرقون فى سبيل البحث الأثرى ولولا ذلك النزر اليسير الذى وصل إليه تحقيقهم لاعتبر التاريخ العربى فى جنوبى الجزيرة وشرقها إلى ماقبل الإسلام تاريخاً أسطورياً بكل مافيه من حقائق ، ولما اعترف محققو التاريخ فى العصر الحديث بشىء مما قاله المؤرخون العرب . فبعد الكشف عن الآثار اليمنية اعترف ( ديتلف نيلسن ) بما فى الرواية العربية من حقائق كان المستشرقون يعتبرونها خيالا محضاً فلقد قال هذا المؤرخ : [ فمن هذه الصورة المتعددة الألوان التى نكونها من مجموعة هذه النقوش نتبين الثقافة الحقيقية التى نمت وازدهرت فى الشرق الأدنى كما نتبين أيضاً هذه اللغة الغامضة الواردة فى كتاب العهد القديم والتى كثيراً ما تحدثنا عن السبئيين وثروتهم من الذهب والأحجار الكريمة ومختلف أنواع البخور . ويكفى أن نشير هنا إلى قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان والواردة فى سفر الملوك الأول الإصحاح العاشر . كما تمكّننا هذه الآثار العربية الجنوبية أيضاً من معرفة بلاد العرب السعيدة التى أشاد بذكرها اليونان والرومان حتى إن روما رغبت يوماً فى الاستيلاء عليها فسيرت قبل الميلاد جيشاً لقى حتفه فى الصحارى المترامية فى بلاد العرب . ولولا هذه الآثار ما استطعنا إدراك كنه ماجاء فى المصادر العربية وما يحدثنا به العرب عن اليمن وحكامها وبروجها وقصورها ][2] .

ونحن إذا أردنا أن نقرر شيئاً عن التاريخ الحقيقى لجنوب الجزيرة فعلينا قبل ذلك أن نناقش بعض القصص المتواترة فى مؤلفات المؤرخين . ونحن إذا بحثنا فى القصص البارزة فى تاريخ الجنوب القديم والتى كانت ومازالت مجال تحقيق وتفنيد فإننا نجد مدينة ( إرم ذات العماد ) قد شغلت كثيراً من الباحثين . فلقد كان موضوع هذه المدينة مضماراً لمختلف الظنون ـ شكاً فيها وتصديقاً بها ـ ونجد البحث فى مدينة ( إرم ذات العماد ) التى لم يخلق مثلها فى البلاد يوضح لنا مدى الحضارة العربية فى اليمن وحدود تاريخها . فالحضارة كما قلنا من قبل : هى السطور الأولى للتاريخ .

---

(١) تاريخ العرب ١ /٢٤٢ .

(٢) كتاب تاريخ العرب القديم ص ٣٠ .

البحث الثالث والعشرون :

# إرم ذات العماد

من موضوعات البحث :

١ - « ابن قلابة » الذى تعزى إليه قصة إرم ذات العماد.
٢ - كعب الأحبار كان مبالغاً فى ادعائه.
٣ - الحقيقة فى قصة إرم ذات العماد يحجبها الخيال مثل كل قصة « تاريخية »
٤ - دولة عاد من أبرز دول الماضى.
٥ - اعتراف المستشرقين بالمصادر العربية عن تاريخ اليمن
٦ - إرم ذات العماد فى آراء المفسرين.
٧ - هل يستطيع التحقيق الوصول إلى حقيقة إرم ذات العماد ؟
٨ - حقيقة الجدل الذى دار حول إرم ذات العماد
٩ - ما هى الحقيقة التى نستفيدها من قصة إرم ذات العماد ؟



# إرم ذات العماد

١ ـ حقاً إن كثيراً من الخيال يبدو على قصة ( ابن قلابة ) الذى يقال إنه رأى مدينة من ذهب وفضة بين كثبان الأحقاف ، وكثيراً من الادعاء يظهر على الجواب الذى قيل إن كعب الأحبار ردّ به عندما سئل عما رواه ( ابن قلابة ) ؛ فلم يكن ابن قلابة من الرواد الباحثين ليدرك حقيقة الآثار التى بدت له من بين الرمال ، أو ينظر إليها نظرة المكتشف الخبير . ولم يكن ابن قلابة من رجال التاريخ الذين عرفوا بثقة الرواية ، فاذا صح أنه رأى تلك الآثار التى تحدث عنها ، فان ظهورها أمامه عفواً هو ولا شك مفاجأة كان لها تأثيرها على تصورما رآه . وإذا صح ما نقل عن ابن قلابة ، فإن أكثره من المبالغات التى لم يبخل بها ابن قلابة عندما رأى الناس يعجبون مما رأى ، فالمبالغة فى تضخيم الحدث الذى ينفرد به شخص واحد قاعدة تكاد تكون عامة لايشذ عنها غير الثقات الذين يعتزون بصدقهم ، وأمانة روايتهم ، ويقدرون مسؤولية ما يقولون . ولم يثبت أن ابن قلابة من هؤلاء . وإذا صح أنه رأى تلك الآثار فإن ظنه وظن الذين استمعوا لما يقوله ذهب بهم إلى ما يجول فى أخيلة ذلك الجيل عن مدينة إرم ذات العماد .

٢ ـ وفى جواب كعب الأحبار ادعاء ظاهر ؛ فالتوراة لم تذكر شيئاً عن قوم عادو نبيهم هود ، ولم تذكر شيئاً عن ثمود ونبيهم صالح ، ولم يستطع الذين حاولوا أن يفسروا بعضاً مما جاء فى سفر الملوك عن أخبار قلب الجزيرة وجنوبها الإتيان بنص من التوراة يذكر قوم عاد ، أو قوم ثمود فضلاً عن الإتيان بنص صريح يشير إلى إرم ذات العماد . ولقد وضح لنا ذلك فى فصل المصادر الإسرائيلية فى الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربى من هذا الكتاب .

فما هو مستند كعب الأحبار عندما أجاب معاوية بن أبى سفيان على ما يقوله ابن قلابة عن تلك المدينة التى عثر عليها فى الأحقاف [ والذى نفس كعب بيده لقد ظننت أنى سأسأل قبل أن يسألنى أحد عن تلك المدينة وما فيها . ولكن أخبرك بها يا أمير

المؤمنين . لمن هى ؟ ومن بناها ؟ أما تلك المدينة فهى حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له . وأما الذى بناها فهو شداد بن عاد . وأما المدينة فهى إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . يا أمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ما خلق الله شيئاً فى الأرض إلا وقد فسره فى التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيراً وإن هذا القرآن أشد وعيداً وكفى بالله شهيداً ][1] .

ألست ترى معى فى جواب كعب الأحبار ادعاء ظاهراً ؟ أوَلست ترى أن كعب الأحبار أراد بجوابه هذا أن يظهر أمام معاوية بأنه عليم بكل أخبار الماضيين ؟ أوَلست ترى معى أن استناد كعب الأحبار إلى التوراة لا يقرّه كل من يرجع إلى التوراة فلا يجد فيها شيئاً عن شداد بن عاد ، وعن إرم ذات العماد ؟ .. فأى ادعاء أكثر من قول كعب : والذى نفس كعب بيده إننى علمت بأننى سأسأل قبل أن يسألنى أحد ؟ وقوله : إنها إرم ذات العماد التى يعثر عليها فى خلافتكم رجل صفاته تنطبق على صفات عبد الله بن قلابه ؟[2]

٣ ـ ولكن مع هذا كله ورغم الشكوك التى تغشى هذه القصة ، فإن القارىء يشعر بأن هناك حقيقة بنى عليها الخيال . فالأحداث التاريخية التى تتضمنها النوادر والقصص الشعبية ، لابد أن يكون للفصول التى اختارها المؤلفون لقصصهم فيها ظل من الحقيقة . فقصة سيف بن ذى يزن مثلا من القصص التى شطح بها الخيال الروائى ، وهى مع ذلك تشير إلى فصل من فصول التاريخ اليمنى . فسيف بن ذى يزن شخصية تاريخية سجل فى تاريخ اليمن انتصار التبابعة على الأحباش ، وسجل عليه تاريخ اليمن اطمئنانه لحلفائه الفرس الذين كانوا يبيتون خططهم لاستعمار البلاد العربية ، وأثبت عليه عدم تقديره روح الانتقام التى كانت تكمن فى نفوس الأحباش فى اليمن ، فراح ضحية الاعتماد على حراسه الأحباش ، وضاع استقلال اليمن ضحية اطمئنانه للفرس واستعانته بهم .

أما جن سيف بن ذى يزن ، وسحرته وخادم لوحه عيروض ابن ملك الجن الأحمر ، وأخته عاقصة بنت ملك الجن الأخضر ، وأما فتوحاته التى بلغت مشارق الأرض

( ١ ) قصص الانبياء للثعالبى ص ١٤٢ .

( ٢ ) دائرة المعارف الإسلامية مادة إرم ٦٣٤/١ .

ومغاربها ، وأما تفجيره أنهار سورية ومصر ، وأما بناؤه المدن التاريخية مصر وتدمر و .... و .... إلخ فهى من نسج الخيال .

لاشك فى أن كثيراً من الأخبار التاريخية التى تناقلها المؤرخون اتخذها القصصيون مادة لقصصهم وبنوا على الخبر القصير قباباً من الخيال . بيد أن الخيال مهما تجسم أمامنا فهو على كل حال لا يخلو من حقيقة . فقصص سيف بن ذى يزن ، وعنترة بن شداد ، وأبى زيد الهلالى وغيرها من القصص التى مثلت دور البطولة فيها شخصية تاريخية ، كلها قصص فيها ظل من الحقيقة وفيها بعض الأخبار التاريخية التى تناقلها المؤرخون العرب مغلفة بخيال القصة . ولاشك فى أن الأخبار التى تناقلها المؤرخون لها قيمتها على ما فى الكثير منها من مبالغات . فجرجى زيدان الذى قال عن روايات المؤرخين القدامى : إنها خرافات تخالف العقل والنصوص التاريخية ، لم ينكر الحقائق التاريخية التى تكمن وراء خيال المؤرخين . فمن رأيه [ أن ما يرويه العرب لا يخلو من حقيقة لابد من استخراجها ولا يكون ذلك إلا بالمقابلة بينها وبين مصادر تاريخية غير عربية أو قراءة الآثار ](1) .

فمما لا أشك فيه أن قوم عاد برزوا فى الجزيرة وأنهم كانوا أصحاب قوة وبأس شديد ، إذا بطشوا بطشوا جبارين ، وأنهم كانوا أغنياء مترفين يبنون فى كل ريع آية . ومما أرجحه أن قوم عاد لم تنشأ دولتهم فى اليمن وتقبر فيه ، بل كانت لهم دولة فى وادى القرى ، وأن نفوذهم امتد على كثير من ربوع البلاد العربية أيام دولتهم فى الشمال وأيام دولتهم فى الجنوب .

فلا يبعد على قوم عاد أن يقيموا مدناً فى شمالى الحجاز ، وفى أطراف العراق ، وفى قلب اليمن ، وأن يضفوا عليها مظاهر الأبهة والفن سيما فى بلاد اليمن التى عرفت بترف دولها وثروات أرضها . فلقد جاء فى دائرة معارف وجدى : [ أن أهل اليمن لم يقلوا عن أهل مصر وفينيقية مدنية فى العصور القديمة إذ كان منهم الملوك الفاتحون والتجار المتنقلون وكان لديهم مدن عامرة وآثار جميلة ](2) .

ويقول غوستاف ليبون : [ ومن الأدلة على ازدهار مدن اليمن فى القرون القديمة ما

( ١ ) العرب قبل الإسلام ص ١٢٦ و ص ٢٣ .

( ٢ ) دائرة معارف وجدى ٦/٢٤١ .

كان لها من الصلات التجارية الواسعة بالبلاد الأخرى . وبما أن علاقات العرب التجارية العالمية استمرت ألفى سنة ، وقد ورد ذكرها فى التوراة فإننا نقول : إن العرب ضربوا بسهم وافر فى ميدان الحضارة وإنه كان لمخازنهم من الأهمية ما لمخازن البندقية فى إبان عظمتها ][1] .

٥ ـ فلم يكن اعتراف غوستاف ليبون وديتلف نيلسن اللذين نقلنا رأيهما فى التاريخ العربى ومصادره ـ وفيما تقدم فى هذا الجزء : مجرد استنتاج وظن . فلقد وضعت النصوص الأثرية بين يدى محققى التاريخ العربى من الأدلة ما جعلهم يستأنفون دراسة تاريخ اليمن القديم وتحقيق ما جاء فى الروايات العربية عن اليمن ودوله وحضارته على ضوء المعلومات التى وصلت اليهم .

ومن الضرورى أن يتدخل منطق العصر الحاضر وموازينه فى دراسة المؤرخين المتأخرين ، فأخذ بعضهم يناقش ما قاله مؤرخو العرب عن قوم عاد وأنهم كانوا فى وادى القرى[2] ، وعن سبأ التى عاشت فى شمالى الحجاز ، وهل كانت حاضرة بلقيس ملكة سبأ فى اليمن أو فى شمالى الحجاز ؟ وتردد الكثيرون فى تصديق ما قيل عن « إرم ذات العماد » وساروا خلف ابن كثير[3] وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين العرب الذين لم يطمئنوا إلى ما قيل عن إرم ذات العماد . وقد وجد هذا الكثير فى اختلاف المفسرين فى تفسير ما جاء عن « إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ما قوى ترددهم .

٦ ـ فلقد اختلف المفسرون فى تفسير ما جاء فى القرآن الكريم عن إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، فكان قول الذين يعتقدون أن إرم ذات العماد هى مدينة لم يخلق مثلها فى البلاد موضع شك ومثار جدل .

ففسر البعض إرم ذات العماد : أن ( إرم ) كلمة تعنى شعب عاد ، وأن كلمة ( العماد ) تعنى عماد الخيام ـ فعلى ذلك فإن إرم ذات العماد تعنى شعب عاد أصحاب عمد الخيام . فلقد جاء فى تاريخ ابن كثير : [ فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون

---

( ١ ) حضارة العرب ص ٩٥ .

( ٢ ) معجم البلدان مادة قرح .

( ٣ ) تاريخ ابن كثير ١٢٠/١ .

الأعمدة التى تحمل الخيام ][1] .

وتفسير هذا البعض كما تراه بعيد الاحتمال ، فليس من المنطق أن يبنى قوم عاد قصوراً ضخمة لا يسكنونها ، إنما القريب من المنطق أن تكون العماد أعمدة القصور التى كان العاديون يبنونها ، فلقد أصبح من الحقائق التاريخية أن الأعمدة من فن البناء العربى القديم .

كما أن زعم الذين قالوا إن إرم مدينة تدور فى الأرض ، فتارة تكون فى الشام وتارة فى اليمن وتارة فى الحجاز ، ضرب من الخيال البليد[2] . وإننى أظن أن أولئك الذين يقولون بأن مدينة إرم تدور فى الأرض قد اختلط عليهم الأمر فساروا مع الخيال الساذج ، دون أن يتنبهوا إلى ما جاء عن قوم عاد فى القرآن الكريم [ أتبْنون بكل ريع آية تعْبثون وتتَّخذون مصانعَ لعلكًم تخلدون ] ، ودون أن يلقوا بالا إلى تلك الآثار المنتشرة فى الجزيرة العربية والتى ينسبها العرب إلى قوم عاد ـ فلو أنهم تنبهوا إلى كل ذلك لقالوا : إن لقوم عاد مدناً فى الحجاز وفى الشام وفى اليمن بدلاً من قولهم : إن إرم ذات العماد تدور فى الأرض فتكون تارة فى الحجاز وتارة فى الشام وتارة فى اليمن وتارة فى مصر .

٧ ـ والمحقق الجدى الذى يتناول موضوع إرم ذات العماد عليه أن يستوعب كثيراً من المصادر ويتعمق مع كثير مما جمعته أقلام المؤرخين ، وهو اذا ما تعمق مع كثير مما جمعته أقلام المؤرخين لا يستبعد وجود مدينة فيها كثير مما تخيله بعض المفسرين والمؤرخين ، شادها قوم عاد وأسرفوا فى تزيين قصورها ومعابدها كما فعل بعدهم الجرهائيون فى مدنهم والسبئيون .

فلقد جاء فى معجم ياقوت : أن أكثر الذين اختلفوا فى إرم ذات العماد يقولون بأنها مدينة دمشق ، وأن البحترى الشاعر المعروف عناها بقوله[3] :

إليـك رحلنـا العيس من أرض بابل ... يجـور بهـا سمـت الدبـور ويهتدى

إلى إرم ذات العماد وإنها ... لموضـع قصـدى موجفـا وتعمدى

---

( ١ ) نفس المصدر ص ١٢٠ وما بعدها .

( ٢ ) تاريخ ابن كثير ١٢٠/١ .

( ٣ ) أنا لا أرى أن البحترى يقصد فى شعره أن دمشق هى إرم ذات العماد وانما هو أراد المقابلة عندما قال إنه رحل من العراق أرض بابل إلى دمشق التى هى فى عظمتها إرم ذات العماد .

ومما يقرب ظن هؤلاء أن اسم ( إرم ) من الأسماء المعروفة فى الشام ، فإرم اسم علم لجبل من جبال ( حسمى ) من ديار جذام بين أيلة وتيه بنى اسرائيل [١] وأن للإرميين تاريخاً قديماً فى سورية .

وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية عن رواية المسعودى التى تقول : بأن الإسكندر لما أسس الإسكندرية وجد أعمدة من الرخام نقش على أحدها اسم شداد بن عاد وأن شداد بن عاد قد شيد هذه المدينة ، وكتب على أحد أعمدتها بالخط الحميرى المسند : أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد شددت بساعدى البلاد وقطعت عظيم العماد من الجبال الأطواد ، وأنا بنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وأردت أن أبنى هنا كإرم وأنقل إليها كل ذى إقدام وكرم إلخ ][٢] والذى يغلب على الظن أن هذه الرواية قد أخذت عن قصة الإسكندر التى تذهب إلى أنه قد اكتشف عند تشييده الإسكندرية معبدا فيه مسلات عليها نقش يشير الى الملك ( سيسنخيس ) الذى حكم المعمورة ، يضاف الى هذا أن ذلك النقش الذى يشير إليه المسعودى يتمشى مع قصة الإسكندر إلى حد بعيد . واذاً يجب الاّ ننتظر من هذه الرواية أن تدلنا على موقع ( إرم ) . على أنه لابد أن نلاحظ كذلك أن الطبرى أيضاً فى تفسيره يذكر ذلك الرأى القائل بأن إرم هى الاسكندرية نفسها . ويجب أن نلاحظ أن صيغة ( إرم ) من لغة أهل اليمن ، فقد ذكر الهمدانى جبلا وبئراً يعرفان بنفس الاسم فى جنوبى بلاد العرب ][٣] .

وهذا الذى جاء فى دائرة المعارف الإسلامية وان كان نقاشاً علمياً متزناً الا أنه لم يتعمق فى بحث الموضوع كما يبدو على كلامهم عن صيغة ( إرم ) وأنها من لغة أهل اليمن ـ بناء على أن الهمدانى قد ذكر بئراً وجبلا فى اليمن يعرفان بنفس الاسم ( إرم ) . فمما يجب أن يلاحظ فى هذا الصدد ما جاء فى تاج العروس : و ( الآرام ) بالمد الأعلام أو خاص بعاد ، و ( إرم ) كعنب والد « عاد الأولى » أو « الأخيرة » أو اسم بلدتهم . وقال الزمخشرى : ( إرم ) اسم بلد منه الإسكندرية[٤] . ومما أثبتته المعاجم : أن كثيرا من

( ١ ) المعجم ١/١٩٦ و ١٩٧ .

( ٢ ) مروج الذهب ١/٣٧٠ مطبعة السعادة .

(٣ ) دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٣٣ وما بعدها .

( ٤ ) تاج العروس مادة إرم ٨/١٤٤ .

أسماء الأماكن فى الشمال تطلق على أماكن فى الجنوب مثل : الجوف ، وعبيل ، والطائف . ومن جبال الشمال التى ذكرها ياقوت : جبل ( إرم ) الواقع بين إيلة وتيه بنى إسرائيل [1] . فإذا كان هنا فى الجنوب جبل يسمى « إرما » فكذلك هناك فى الشمال جبل يسمى « إرماً » . واذا كان هنا فى الجنوب شعوب وقبائل إرمية فان هناك فى الشمال شعوبا وقبائل إرمية . واذا كان ( لوث ) المستشرق يرى وجود صلة بين إرم والآراميين ، فان العرب وغير العرب من المستشرقين يرون : أن الإرميين انتشروا فى أنحاء البلاد العربية شمالا ، وجنوباً ، وشرقاً ، وغرباً .

وقد يكون النقش الذى وصل إليه المسعودى هو غير النقش الذى عرفه مؤلفو دائرة المعارف الاسلامية . وقد يكون شداد بن عاد وسيسنخيس قد بنى كل منهما بجانب الآخر على أرض المدينة التى أصبحت فى عهد الإسكندر أثراً من الآثار ؛ فلقد رأيت فى قلعة ( بعلبك ) بناء عربياً أقامه العرب بين أطلال القلعة القديمة . وهذه مدينة القاهرة مليئة بآثار عدد من الشعوب والدول التى توارثوا السيادة عليها .

وإنما الذى يلاحظ على رواية المسعودى قوله : إن الكتابة بالخط الحميرى المسند ، والذى يلاحظ على أسلوب كتابة النقوش التى جاء فيها : وأنا بنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، أنه أسلوب إسلامى ، فتعريف الخط بالخط الحميرى المسند ، والتنويه بأن إرم ذات العماد لم يخلق مثلها فى البلاد ، محل نظر . فأولا : الحميريون هم الذين أدالوا سلطان عاد سنة ١١٥ ق . م . ثم الأسلوب ، فمن البعيد عن الظن أن يكتب شداد بن عاد الذى عاش ومات قبل أن يولد المسيح بمئات السنين بالخط الحميرى أنا بنيت مدينة إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد .

٨ ـ إن البحث فى إرم ذات العماد بحث عميق كما ترى . ولا يستغرب من المؤرخين العرب أمثال ابن خلدون وابن كثير إن هم هزئوا مما يقال عن كنوز مدينة إرم ذات العماد ، وقصورها الموشاة أبوابها وسقوفها بالذهب والأحجار الكريمة ، لأن حضارات الأمم البائدة

( ١ ) راجع معجم ياقوت مادة إرم .

( ٢ ) دائرة المعارف الإسلامية ٦٣٤/١ .

أخنى عليها الزمن ولم يأت لعهدهم من يكشف عن سرها ، ولأن الكثير من الأنباء التى وصلت إليهم عن العرب البائدة ، وصلت إليهم من أمثال ابن شرية ، وأن الكثير من الأنباء التى وصلت إليهم عن التوراة وصلت إليهم من أمثال كعب الأحبار وعبد الله بن سلام ، وكل واحد من هؤلاء أطلق لخياله العنان فى أكثر ما يتحدث به ، ويسأل عنه .

ومن المنتظر بعد المعلومات الأثرية أن يكون موقف المؤرخ فى العصر الحديث من أنباء حضارة قوم عاد وسلطانهم ، ومن أنباء ثروة اليمن وعمرانه ـ أكثر تروياً واهتماماً من ابن خلدون ، لأن الآثار كشفت عن حضارات فى أنحاء البلاد العربية لم يكن يتصورها المؤرخون المتقدمون . فلقد أثبتت الآثار التى اكتشفت فى العراق وفى شواطىء الخليج الإسلامى : أن السومورين كانوا يستوردون النحاس من مناجمه فى عمان منذ بداية العصر النحاسى [١] ، وأثبتت الآثار التى اكتشفت فى فلسطين والبحوث التى تقصت تاريخ دولها : أن الجزيرة غنية بمناجم الذهب الذى بلغت نقاوته حداً لم تعد معه فى حاجة إلى تصفيته بواسطة الصهر[٢] ـ ويقول ديتلف نيلسن : [ إن الحضارة العربية القديمة لا تقل عن أختيها المصرية والبابلية ][٣] . وأكدت الآثار التى اكتشفت فى أنحاء الجزيرة العربية وفى المناطق القاحلة منها : أن أطواراً من النشاط العمرانى شهدتها الجزيرة العربية منذ فجر الحياة . وأثبتت آثار الثموديين التى لاتزال شاخصة لم تنلها عوادى الزمان : أن العرب البائدة كانوا أكثر أموالاً وأولاداً وقوة من العرب الذين خلفوهم على أرض الجزيرة .

فليس بكثير ـ وقد ثبت كل هذا ـ على شعب عاد الذى وصفه القرآن الكريم بالقوة والثراء ، ونوه الشعراء الجاهليون بدولته وسلطانه ـ ليس بكثير على ذلك الشعب الذى كانت له صلات سياسية وتجارية بالدول التى تعاصره : أن يغدق على عاصمته مظاهر الترف والأبهة كما فعل ملوك ( كيش ) منذ سنة ٣٢٠٠ق . م بعاصمتهم التى كشف

( ١ ) تاريخ العرب لحتى ٤٣/١ .

( ٢ ) تاريخ العرب لحتى ٦/١١ .

( ٣ ) تاريخ العرب القديم ص ٢٧ .

التنقيب عن أعمدة تنم نقوشها وزخارفها عن ثقافة وثراء سكان ( أكاد ) و ( سومور )[1] فى أرض الفرات ، وكما فعل من بعدهم السبئيون والجرهائيون بمعابدهم وقصورهم[2] فى اليمن والخليج الإسلامى . فليس الكيشيون ولا السبئيون ، والجرهائيون بأكثر ولعا بالبناء وفخامته من العاديين الذين كانوا يبنون فى كل ريع آية ، ولا هم بأكثر قوة وأكبر سلطاناً .

فاذا كان المؤرخون القدامى وقفوا من رواية ابن قلابة موقف الشك والريبة لأنهم لم يملكوا من الأدلة ما يبرر الاهتمام بذلك الخبر الذى جاءهم عن رجل يحتاج إلى ما يثبت الثقة فيما يقوله ، والذى أمن على ما يقوله كعب الأحبار المبالغ فى ادعائه المفرط فى خيلاء جعلته يزعم أنه يعلم الأمر قبل وقوعه ، فهو قد ظن أنه سيسأل قبل أن يسأله أحد !! ـ فان المؤرخين اليوم يقدرون حضارة الماضى القديم لأنهم يملكون من الأدلة ما يجعلهم يهتمون بما يرويه ( ديودورس ) عن السبئيين وسلطانهم الواسع وغناهم الضخم وترفهم الذى بلغ بهم أن يتخذوا آنيتهم وقوائم سررهم من الذهب والفضة ويكسوا أبواب المعابد والغرف بالذهب ، ويطعموا الجدران والتماثيل بالأحجار الثمينة ؛ ويهتمون بما يقوله ( سترابون ) وغير سترابون عن مدن الخليج الإسلامى وعن ( الجرهائيين )[3] وأنهم كانوا شعباً غنياً يسكن فى المناطق الشرقية من شبه الجزيرة نافسوا السبئيين فى الثروة والترف ، وأن مظاهر الثراء الواسع كانت تتجلى فى الآنية والأثاث الذهبى البراق ، وفى الاحجار النفيسة الغالية التى زينوا بها سقوف بيوتهم وأبواب غرفهم[4] بعد أن كسوها بالذهب .

فهل علينا بعد هذه الشواهد العديدة أن نسير وراء الذين يقولون : إن قوم عاد كانوا يبنون القصور ويسكنون الخيام ، وأن التفسير الصحيح لإرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد : أن إرم تعنى شعب عاد وأن العماد تعنى عماد الخيام ؟ هل لنا بعد أن ظهرت آثار الماضى فى اليمن ، وفى شواطىء الخليج الإسلامى وفى اليمامة ، وفى البحرين ـ

---

( ١ ) راجع تاريخ العالم ٥٤٣/١ .

( ٢ ) دائرة المعارف الإسلامية مادة سبأ ٢٠٨/١١ .

( ٣ ) الجرهائيون أو الجرهميون ـ هم شعب ذكرهم مؤرخو اليونان والرومان من سكان الخليج الاسلامى الموصوفين بالنشاط التجارى .

( ٤ ) العرب قبل الاسلام جواد ٤١٣/٢ و ٤١٩ وراجع حضارة العرب لغوستاف ليبون ص ٨٨ وما بعدها .

ألا نصدق بوجود مدينة مطلية أبوابها بالذهب والفضة مطعمة بالأحجار الثمينة تنسب الى قوم عاد ؟!

فقد يكون البناء الذى عثر عليه ابن قلابة معبداً من معابد المعينيين أو قصراً من قصور ملوكهم أزالت الرياح من فوقه رمال الأحقاف الناعمة ، فهال ابن قلابة بريق المعادن فأخذ يتحدث بما رأى ، ولا تزال روعة ما رأى تملأ نفسه ، وأخذ الناس يفسرون ما يقوله ابن قلابة بما يعتقدونه فى قوم عاد الذين كانوا ينسبون إليهم كل أثر قديم . ولا عجب إن لم يعثر على تلك الآثار ابن قلابة بعد ذلك ولم يعثر عليها غيره فالمعروف عن المناطق الرملية الناعمة التى هى مثل رمال الأحقاف أن الرياح تنقل كثبانها من مكان لآخر بين عشية وضحاها .

ثم نحن إن افترضنا مع من يفترض اختلاق هذه القصة فننفيها مع من نفاها ، فان علينا أن نأتى بأدلة النفى ، وأهم دليل ينفى هذه القصة معرفة الأسباب التى جعلت ابن قلابة يختلق ما يقول : وليس بين سطور هذه القصة ما يدل على أن هناك أسباباً جعلت ذلك الرجل يفترى هذه القصة .

ونحن إن قلنا مع من يقول : إن كعب الأحبار كان يخلط الحقائق بالخيال فان ذلك لا ينفى أن جوابه كان يمثل الرأى العلم السائد فى صدر الإسلام والقائل بأن لعاد مدينة كانت تسمى ( إرم ذات العماد ) فلو أن الرأى العلم فى ذلك التاريخ كان ينكر وجود مدينة تسمى إرم ذات العماد لما عز على كعب الأحبار أن يرد بجواب غير هذا فكعب الأحبار على ما يقال فيه : قصاص لبق مطلع عرف كيف ينال ثقة معاوية بن أبى سفيان ، وما معاوية بن أبى سفيان بالرجل البسيط . وكعب على ما يبدو وقد سمع عن تلك المدينة وسمع عن قصة ابن قلابة فقدر أنه سيسأل عنها فأعد الجواب الذى يتفق مع ما يعتقده الناس ويزيدهم ثقة فيه .

٩ ـ على أنه مهما يكن من أمر هذه القصة ، فانها تكشف لنا ناحية مهمة فى موضوعنا ؛ وهى أن العرب فى جاهلية ما قبل الإسلام وفى صدر الإسلام مقتنعون بأن حضارة جنوب البلاد العربية حضارة عظيمة رائعة ، وحضارة قديمة قدم قوم عاد . وأنهم كانوا مقتنعين بأن قوم عاد كانوا يبنون فى كل بلد بناء قوياً جميلاً مترفاً . فلذلك اختلط الأمر على الذين اعتقدوا : أن إرم ذات العماد هى مدينة ، فقال بعضهم : إنها فى الشام ،

وقال بعضهم : إنها فى وادى القرى من الحجاز ، وقال أكثرهم : إنها فى الأحقاف باليمن ، وقال بعضهم : إنها الإسكندرية .

واقتناع العرب بالحضارة اليمنية القديمة أثبته البحث الحديث . فلقد تحدث ( نيلسن ) عن المدن القديمة فى كتاب التاريخ العربى القديم فذكر رحلة « هيلفى » فى اليمن وما أسفرت عنه النقوش التى عثر عليها وقال : [ فقد علمنا أن هناك مدنيّة رفيعة راقية لشعب ضرب فى المدنيّة بحظ وافر ، ففى الجهات الخصبة الواقعة حول نهر ( خرد ) فى الجوف العربى الجنوبى وشمال شرق صنعاء اكتشف ( هيلفى ) آثار تلك الحضارة الرفيعة فى ظلال دمن الأبنية العظيمة والمدن الكبرى التى يقع معظمها فوق مرتفعات حصينة . فقد كانت هذه المدن كما تبين فيما بعد من النقوش مدنا معينية قديمة ][1] .

هكذا نجد البحث فى قصة إرم ذات العماد يصل بنا إلى حضارات جنوبى الجزيرة العربية وشرقيها . إلى حضارة عمان منذ العهد النحاسى . وإلى حضارة معين التى كشفت بحوث الأثريين عن أقدم أثر للدول المعينية ـ « أولى دول اليمن فى رأى الكثيرين » ، والتى قال عنها أكثر المحققين : إن أقدم أثر لها يرجع إلى ما قبل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد .

ووصل بنا البحث إلى ما عرف عن ترف السبئيين والجرهائيين الذين كانوا يكسون جدران قصورهم وأبوابها وسقوفها بصفائح الذهب والفضة ويزخرفونها بالأحجار الثمينة إلى غير ذلك من الأدلة التى أشرنا إليها ، والتى تجعلنا مع الذين يصدقون : أن إرم ذات العماد مدينة ، ولا يستبعدون : أن يعثر ابن قلابة على ما عثر عليه ، وان كنا لا نؤكد : أن الآثار التى عثر عليها ابن قلابة هى آثار مدينة إرم ذات العماد بالذات ، فقد تكون آثار مدينة من مدن السبئيين ، أو المعينيين ، أو الحضرميين ، أو القتبانيين ـ فقد انتشرت حضارات هاتيك الدول فى جنوبى الجزيرة العربية . وكذلك نحن لا نؤكد : أن كل ما قاله عبد الله بن قلابة صحيح ، لأن القصة لا تخلو من أثر الدهشة التى خالطت نظرات ابن قلابة ولا تخلو أيضا من زخارف صنعها خيال الذين تناقلوا قصة ابن قلابة واكتشافه . فإن كل هذا لا يجعلنا ننكر أصل هذه القصة ، فقد تكون الآثار التى رآها بن قلابة هى آثار

---

( ١ ) التاريخ العربى القديم ص ١٤ .

معبد من معابد اليمن القديمة أو قصر من قصور ملوكها المترفين .

فالآن وبعد أن حقق لنا البحث فى مدينة إرم ذات العماد قدم الحضارة العربية فى الأقسام الجنوبية والشرقية من جزيرة العرب ، خليق بالبحث أن ينتقل إلى ما وصل إليه تحقيق المؤرخين عن بداية التاريخ العربى فى هذه الأقسام . والبحث فيما وصل إليه تحقيق المؤرخين هو كما قلت من قبل شاق صعب لاختلاف المصادر ولضرورة الأخذ برأى جرجى زيدان الذى مر بنا قوله : إن استخراج حقائق التاريخ اليمنى لا يمكن إلابالمقابلة بين المصادر العربية وغير العربية .



البحث الرابع والعشرون

# متى بدأ التاريخ العربي في جنوبي الجزيرة وشرقيها ؟

موضوعات البحث :

١ ـ الحضارة العربية فى الخليج الإسلامى ليست متأخرة عن الحضارة السومورية فى العراق .
٢ ـ المناطق التاريخية فى الشرق والجنوب من الجزيرة العربية .
٣ ـ التاريخ العربى فى شواطىء الخليج قديم .
٤ ـ عمان تشارك اليمن وتشارك الخليج الإسلامى فى أحداثهما .
٥ ـ تاريخ حضرموت مرتبط بتاريخ اليمن .
٦ ـ اختلفت المصادر فى حدود اليمن القديم .
٧ ـ بداية تاريخ اليمن .



# متى بدأ التاريخ العربي في جنوبي الجزيرة وشرقيها ؟

١ ـ إن مناطق الجنوب والشرق من الجزيرة العربية مناطق شاسعة ذات تاريخ عريق وذات حضارات جد قديمة أكل الدهر عليها وشرب . وإنا إذا قلبنا صفحات ماضيها البعيد ، نجد شواطىء الخليج الإسلامى إن لم تكن حضارتها وحضارة بلاد مابين النهرين كفرسى رهان ، فهى على كل حال لم تكن متأخرة عنها . ونجد المؤرخين يجمعون على أن لحضرموت حضارة نمت فى أحضان الزمن منذ عهد بعيد . ونجد الأثريين يتحدثون عن علاقة قدامى الفراعنة بالمنطقة الغنية ببخورها والتى كانت تسمى بأرض ( البنط )[١] ، تلك المنطقة التى كانت تحيط بباب المندب وكان قسم منها من جزيرة العرب وقسم منها من أفريقية .

٢ ـ وإن البحث فى تاريخ هذه المناطق وبدايته يفرض علينا أن نقسم موضوعه إلى ثلاثة أقسام : الأول المنطقة التى تقع بين عمان والعراق ـ ثانياً : المنطقة التى تشمل عمان وحضرموت ـ ثالثاً : منطقة اليمن . فإن هذا التقسيم على ما أعتقد أوضح للبحث وأبين .

أولا ـ الأرض الممتدة من العراق شمالا إلى عمان جنوباً : ( القرين ) الكويت ، و ( هجر ) الأحساء ، واليمامة ، وشبه جزيرة قطر ، و ( دلمون ) جزر البحرين .

والتاريخ الحضارى لهذه المنطقة يبدأ من قبل الألف الثالثة التى سبقت ميلاد المسيح حيث كان الكنعانيون منتشرين فى طول هذه المنطقة وعرضها ، كما أثبته البحث فى جغرافية الجزيرة العربية من هذا الكتاب . فمن المتفق عليه عند المؤرخين : أن الكنعانيين هاجروا من شواطىء الخليج الإسلامى إلى سورية فى مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد حيث عرفوا هناك فى سورية باسم الفينيقيين . ومن المؤكد الواضح عند الأثريين : أن الكنعانيين أقاموا حضارة فى اليمامة ، وفى الأحساء ، وفى البحرين قبل أن يهاجروا إلى سورية .

---

(١) راجع الفصل الخاص باليمن من الجزء الخاص بجغرافية بلاد العرب القديمة من هذا المؤلف [ العرب فى احقاب التاريخ ] الذى طبع أخيراً بعنوان : التاريخ العربى وجغرافيته .

ومن عصر الكنعانيين تعاقبت الأمم على هذه المنطقة فمنهم : طسم وجديس والددنيون الذين انتشروا من وادي القرى إلى سواحل الخليج ، وغيرهم من الشعوب التى أشار إليها ( جان جاك )[1] عندما قال : [ لقد شهدت هذه الشواطىء ولادة وانقراض كثير من الحضارات والإمبراطوريات والفلسفات والأديان ] .

فعلى مقربة من ميناء ( العقير ) المعروف اليوم ، آثار ميناء تجارى عظيم أبقت الأيام عليها لتشهد البعث الحضارى فى القرن العشرين . ويقول المحققون فى تاريخ ذلك الميناء : إن الناس كانوا يتحدثون عن عظمته إلى عهد الرومان . وفى يقين الأثريين : أن ( بلبانة ) إحدى مدن الجرهائيين تقع على خليج القطيف . وفى بحوثهم : أن آبار العوفير القريبة من القرية المعروفة باليامة هى موضع ( أوفير ) التى ذكرتها التوراة والتى كانت تصدر الذهب والطواويس .

والبحرين أو ( دلمون ) التى ورد ذكرها فى الآثار الآشورية ، يتحدث الأثريون عما خلفه الكنعانيون فيها من آثار حديثاً طويلا . ولقد كانت ( دلمون ) ـ البحرين ـ أرضاً مقدسة عند العراقيين تقوم فيها بيوت آلهتهم .

ولكن هل تعتبر هذه الحضارات بداية التاريخ العربى فى هذه المنطقة ؟ إن من رأيى أن هذه الأنباء التى يكتنفها الغموض لايستفاد منها أكثر من اتخاذها أدلة تثبت الحضارات العربية فى سواحل الخليج الإسلامى أو ما أسماه جغرافيو العرب : العروض ـ فالتاريخ الحقيقى لابد أن يكون واضح المعالم متسلسل الحلقات ولم تتضح معالم التاريخ فى بحوث المؤرخين إلا من بعد عصر الإسكندر المقدونى ، ولم تتسلسل حلقاته إلا من بعد الدولة الفارسية .

٣ ـ أما الأخبار القصيرة وما فيها من أسماء الأمكنة والشعوب والملوك التى وردت على نصوص ( سرجون ) وخلفائه وعلى النصوص الآشورية التى تشبه البلاغات الرسمية التى تعلنها دول اليوم ، فإنها أخبار قصيرة لم ترتبط حلقاتها لتكون تاريخاً أو شبه تاريخ ، لذلك الجزء من البلاد العربية ، وأما ما جاء فى مؤلفات المؤرخين من قصص عن ( جديس ) و ( طسم ) و ( وبار ) فإنه يحتاج إلى تحقيق يعتمد على أدلة لم يتوافر فيها

---

(١) كتاب الخليج العربى ص ١٩ وما بعدها .

غير ماطالعنا به اكتشاف الأثريين ، وهذا كذلك مفكك الحلقات لايتجاوز الكلمة الموجزة التى دعت إليها المناسبة ـ فما قدمه المؤرخون وما قدمه لنا الأثريون على مافيه من أدلة تثبت قدم التاريخ فى سواحل الخليج الإسلامى لايمكن الاعتماد عليه فى تحديد بداية التاريخ لهذه المنطقة . فعلى ما جاء فى البحث عن الملاحة العربية فى الخليج الإسلامى ونشاط الموانىء العربية التجارى فى تلك العصور الخوالى ، فإننا لم نجد أمامنا غير أدلة تؤكد قدم الحضارة العربية فى العروض كما قلت أولا .

٤ ـ ثانياً : عمان وحضرموت ـ وعمان وحضرموت وإن اتفقت كلمة المؤرخين فى تاريخهما على أنه قديم وقديم جداً ، فإن عمان التى كانت تصدر النحاس إلى السوموريين[١] . لايصل البحث فى تاريخها إلى أبعد مما وصل إليه البحث عن العروض وأقسامها . فعمان فى رأى بعض الجغرافيين قسم من أقسام العروض ، وعمان تعتبر حلقة الوصل بين العروض وحضرموت واليمن . فهى ذات تاريخ مشترك مع اليمن من جهة ومع العروض من جهة أخرى .

٥ ـ أما حضرموت ، فلقد عرف تاريخها منذ عرف تاريخ معين وسبأ وقتبان . وأقدم تاريخ عرف لهذه الدول هو تاريخ الشعب المعينى ، وتاريخ المعينيين فى الجنوب لايتجاوز منتصف الألف الثانية قبل الميلاد .

على أننا إذا رجعنا إلى مايقال عن ( حضرموت ) الجد الأعلى للحضرميين فى بحوث الأنساب نجد : أن حضرموت من رجالات العصور التى سبقت منتصف الألف الثانية قبل الميلاد . ونحن وقد بحثنا فيما يقوله النسابون : عن قحطان والقحطانيين حضرميين وغير حضرميين فى الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية من هذا الكتاب ، نحيل القارىء المستزيد إلى ذلك الجزء .

كما أننى ألفت النظر إلى أن حضرموت فى أزمنتها الغابرة ليست محجوزة فى الحدود الجغرافية التى تحيط بحضرموت اليوم ، وإلى أن حضرموت كانت فى عصورها القديمة أكثر ثراء وأكثر نشاطاً وأكثر حضارة مما هى عليه اليوم ، وإلى أن البحث عن جغرافية حضرموت القديمة قد تأخر فى الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية كما تأخر البحث عن دول

(١) تاريخ العرب لحتى ١ /٤٣ .

حضرموت فى الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها من هذا الكتاب .

٦ ـ ثالثاً : اليمن ـ والبحث عن اليمن تجده فى البحوث التاريخية متعدد الصور مختلفة أوجه البحث فيه . وذلك لأن اليمن فى كثير من البحوث اليونانية معناه البلاد السعيدة ـ والبلاد السعيدة فى مؤلفات اليونانيين تمتد من بادية الشام شمالا إلى البحر العربى من المحيط الهندى ؛ وكذلك نجد اليمن فى البحوث الإغريقية مندمجاً فى منطقة أطلقوا عليها اسم أثيوبيا ومدوا حدودها من أرض النوبة والبلاد الحبشية فى أفريقية إلى عمان وشواطىء الخليج الإسلامى فى شبه الجزيرة العربية بآسيا .

ونجد اليمن فى آثار الفراعنة داخلا فى نطاق المنطقة التى أطلق عليها الفراعنة اسم ـ أرض البنط ـ التى تشتمل على بعض من شواطىء أفريقية المطلة على جنوبى البحر الأحمر وباب المندب وعلى بعض من جنوبى الجزيرة العربية الغربى .

ونجد اليمن فى بحوث المؤرخين العرب القدامى يشمل جنوبى الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج الإسلامى .

أما بحوث المستشرقين فقد عينت حدوداً لليمن قريبة من حدود الجمهورية اليمنية الجنوبية فى الوقت الحاضر .

ومن المتوقع أن تختلف الاعتقادات فى المدى الذى بلغه تاريخ اليمن القديم بنسبة اختلاف الآراء فى تعيين حدوده[١] .

فالمؤرخون العرب يرجعون بتاريخ اليمن إلى أقدم العصور التى تعرف اليوم بالعصور السامية ، فتاريخ اليمن السياسى فى مؤلفات المؤرخين العرب جد قديم وجد واسع . فهم يتجاوزون بتاريخ اليمن عصر ( ذى القرنين ) بانى سد يأجوج ومأجوج ، وهم يبدأون به من قبل عصر نمروذ إبراهيم ـ أحد جبابرة ( أور ) ـ وهم يدخلون فى تاريخ اليمن أكثر أحداث الجزيرة العربية سيما شواطىء الخليج الإسلامى ولعل السبب فى ذلك هو ماوصل إليهم من اليمنيين وما اطلعوا عليه فى المصادر اليونانية .

أما المستشرقون فبحوثهم المتأخرة أكثر اعتمادها على تحقيقات الأثريين ونقوش الآثار . فأقدم دولة فى رأى الأكثرية منهم ـ هى دولة معين ـ فمن أنصار هذا الرأى ( جلازر )

(١) راجع القسم الخاص بجغرافية اليمن فى جزء جغرافية الجزيرة العربية من هذا الكتاب .

و ( هومل ) و ( فيمر ) و ( فيلبى ) . ويرى آخرون منهم ( و . هـ . مللر ) و ( مارتين هارتمان ) : أن دولة سبأ أقدم من دولة معين . ويقول ( ك . كلاركر ) ان القتبانيين والمعينيين ظهروا بعد سبأ مباشرة .

ومن المفيد للبحثَ هنا أن نترك المستشرقين فيما هم فيه مختلفون لأن لكل دولة من هذه الدول فصلها الخاص فى الجزء الموضوع للدول العربية وسياستها ، ولأن الذى نبحث عنه هنا هو : التاريخ العربى وبدايته فى اليمن ـ وإخالنى قد قلت فيما سبق : إن كثرة الأثريين يؤكدون أن منتصف الألف الثانية قبل الميلاد هو البداية لتاريخ اليمن الحقيقى . ولكننى لم أقل : إن هناك فريقاً آخر يقول إن تاريخ اليمن لايتجاوز ألف عام قبل الميلاد ، فهناك قسم كبير لايتعدى بتاريخ المعينيين الألف الأخيرة التى سبقت الميلاد .

فالذى يظهر على أكبر التقديرين : أن تاريخ اليمن الحقيقى كان متأخراً عن تاريخ الحجاز الذى بدأ بعصر إسماعيل فى مكة . والذى ألفت النظر إليه هنا هو مايقوله بعض الغربيين عن أسبقية العنصر الحامى فى سكنى جنوبى الجزيرة العربية[1] حيث دلت الآثار على وجودهم فى الجنوب من قبل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد .

والذى أراه أنا : أن تحديد الألف الأخيرة التى سبقت الميلاد ، أو منتصف الألف الثانية ، مبنى على ماوصل إليه الأثريون ، وأن عدم عثور الأثريين على نص يرجع تاريخه إلى ماقبل ذلك العصر ، لايحتم علينا الاعتقاد بأن هذا الجزء من الجزيرة العربية كان خالياً من الناس ينعب فيه الغراب فتجاوبه البوم ، فى الوقت الذى كانت فيه ( عمان ) تصدر النحاس إلى السوموريين ، وفى الوقت الذى كانت فيه منطقة باب المندب أو مايسمى بأرض ( البنط ) تصدر البخور إلى مصر . ولايحتم علينا الاعتقاد بأنه كان خالياً من العرب إلى قدوم المعينيين .

والذى أراه أنا : أن العناصر التى سكنت فى منطقة باب المندب وأطراف اليمن الجنوبية والغربية كانت خليطاً من عناصر سامية وحامية ، الأمر الذى جعل النسابين يختلفون فى أصل الحميريين خلفاء المعينيين والسبئيين هل هم قحطانيون عرباً أو من أصل

---

(١) راجع هامش تاريخ العرب لفيليب حتى ص ٩ .

حامى ؟! كما ترى ذلك الخلاف وأسبابه فى الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية .

٧ ـ فبناء على ذلك فأنا مقتنع بأن اليمن قد سكن من قبل منتصف الألف الثانية السابقة للميلاد ، وأن سكانه كانوا خليطاً من الساميين ومن بلاد النوبة والأحباش . فاليمن لم يكن فى المؤلفات اليونانية من ضمن المنطقة الأثيوبية إلا للصلات الوثيقة التى كانت تربطه بالحبشة ، والتى جعلته فى نظر المؤرخين اليونانيين مع الحبشة ومع عمان وشواطىء الخليج الإسلامى منطقة واحدة أسموها : اثيوبيا . فليس غريباً على بلد يحظى بالسواحل والأسواق التجارية إن ازدحمت أرضه بمختلف العناصر . فسواحل اليمن وأسواق مدنه معروفة بالنشاط التجارى من أقدم الدهور .

كما أننى معتقد أن التاريخ العربى فى اليمن أقدم من الآثار التى بنى عليها المستشرقون اعتبارهم منتصف الألف الثانية ، أقدم عصور المعينيين ، ولكننى أقول مع القائلين : إن التاريخ العربى الذى تسلسلت حلقاته : يبدأ من عصر المعينيين الذين عرف تاريخهم منذ منتصف الألف الثانية ق . م . ومن عصور السبئيين والقتبانيين والأوسانيين الذين وضحت لنا الآثار جانباً من تاريخهم واطلعنا على بعض نظمهم وعقائدهم . وعرفنا بها أسماء ملوكهم التى تجد قوائمها اليوم فى كثير من المؤلفات التاريخية . وأهم هذه القوائم وأكثرها إيضاحاً وتحقيقاً القوائم المذكورة فى تاريخ العرب لجواد على . على أننى هنا أذكر مرة ثانية الأسماء التى جاءت فى بعض المصادر العربية مثل مؤلفات الهمدانى ، وأقول : إنها ذات قيمة تاريخية جديرة بعناية التحقيق واهتمامه .

هذا ولعلنا نجد مايؤكد لنا : هذه النتائج فى مصادر تاريخ الأديان فى جنوبى الجزيرة وشرقيها ، فالأديان كما قلت من قبل دليل من أدلة بداية التاريخ .



البحث الخامس والعشرون

# صراع الأديان جزء مهم في تاريخ الجنوب والشرق من شبه الجزيرة

من موضوعات البحث :

١ ـ صراع الأديان فى اليمن سبب مشاكل سياسية تجاوزت حدود اليمن .
٢ ـ متى بدأ صراع الأديان فى اليمن ؟
٣ ـ هل تأثرت وثنية اليمن بوثنية العراق ؟
٤ ـ أسباب الفرق فى موقف العرب فى الجنوب وفى الشمال من اليهودية .
٥ ـ العقائد فى الساحل العربى من الخليج تأثرت بعقائد وادى الفرات فى أكثر العصور .
٦ ـ العقائد فى حضرموت صورة من العقائد اليمنية .
٧ ـ من أين جاءت عقيدة الثالوث الفلكى الى اليمن ؟



# صراع الأديان جزء مهم في تاريخ الجنوب والشرق من شبه الجزيرة

١ ـ لم يكن اليمن فى زمن من الأزمان بمعزل عن صراع الأديان واختلاف النحل والمذاهب ، ولم يسبب صراع الأديان فى اليمن مشاكل داخلية فحسب ، بل هو أثار مشاكل دولية فى عالم ذلك الزمن برزت واضحة فى حادثة الأخدود التى راح ضحيتها نصارى نجران .

٢ ـ وصراع الأديان يبدأ فى رأى المؤرخين العرب منذ عصر هود نبى قوم عاد ، ولقد تقدمت فى البحوث السابقة الأدلة التى تؤكد : أن عاداً وقوم هود كانوا فى الشمال ، وتقدمت كذلك الظنون فى عصر هود ، وهل سبق عصر إبراهيم أو تأخر عنه ؟ ـ فعلى ذلك فإن البحث هنا لا يستدعى العودة الى ذلك النقاش فسواء كان قوم عاد الذين بعث لهم هود فى وادى القرى شمالى الحجاز كما يرى البعض ، أم كما يرى البعض الآخر : أن قوم عاد الذين بعث لهم هود كانوا فى الأحقاف شمالى حضرموت ، فإن من المرجح أن هوداً استقر فى الجنوب ودفن فيه ، وأن لـ ( هود ) فى اليمن زعامة دينية مطاعة ، وأن لهود مكانة محترمة بدليل انتساب القحطانيين إلى هود اعتزازاً وافتخاراً به ، ولقد ظن بعض النسابين : أن القحطانيين من ذرية هود .

ومما لا شك فيه : أن قوم عاد الذين بعث إليهم هود كانوا على وثنية وجدوا آباءهم يدينون بها . ومما لم يذكره واحد من المؤرخين : أن متاعب صادفت هوداً فى أيامه التى عاشها فى اليمن بعد عذاب قوم عاد المكذبين .

فعلى ذلك التحقيق المبنى على ما جاء فى كتب التفسير ومؤلفات المؤرخين العرب : أن قوم عاد كانوا وثنيين من قبل هود ، وأن الذين نجوا مع هود من العذاب والذين التفوا من حوله فى الجنوب ، آمنوا بالوحدانية التى نادى بها هود .

وعلى ما وصل إليه البحث عن عصر هود وأنه كان بعد عصر إبراهيم بزمن غير طويل ، وعن عصر إبراهيم وأنه فى رأى الأغلبية كان بين أواخر الألف الثالثة وأوائل

الألف الثانية قبل الميلاد ، وأن بين ملة إبراهيم وتوراة موسى التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد والتى لم تشر الى هود وقومه العاديين ، ولا الى صالح وقومه الثموديين ، زمناً يبلغ عدد سنيه نحواً من سبعمائة عام انطوت وانطوت معها أحداث جسام منها : مصرع قوم عاد بالريح الصرصر ، ومنها مصرع قوم ثمود بالرجفة . وكان فيها انتشار عاد الثانية فى جنوب الجزيرة .

وإذا كان صحيحا ترجيحنا : أن قوم عاد هم المعينيون ، فإن المعينيين بلغوا اليمن فى منتصف هذه السبعمائة عام ، وهذا التقدير كما تراه قريب مما قالته الكثرة من المستشرقين عن المعينيين ، وأن تاريخهم فى اليمن حسب النصوص الأثرية يبلغ ألفاً وخمسمائة عام قبل الميلاد .

وإذا كانت النصوص الأثرية فى اليمن أشارت الى أصنام المعينيين فإن الوثنية فى اليمن التى أشارت إليها تلك النصوص لم يتجاوز تاريخها النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد ، بموجب هذه النتيجة التى يصل إليها التحقيق . ولعلها ظهرت بعد أن تناسى الناس شريعة هود .

٣ ـ والوثنية فى اليمن فى رأى أكثرية المستشرقين لم تتأثر بالوثنية البابلية كما تأثرت بها وثنية شمالى البلاد العربية . فهذه الأكثرية تقول : إن أساطير اليمنيين وتصويرهم الآلهة وأسماء الأصنام فى اليمن ، تتباين عن أساطير العرب فى الشمال وتصويرهم الآلهة وأسماء أصنامهم . ويعتقد البعض أن أكثر الأصنام التى ذكرها ابن الكلبى لم تكن شائعة فى اليمن شيوعها فى الحجاز ونجد . غير أن هذا الاعتقاد بدأ يتضعضع عندما ظهرت الآثار فى الجنوب تحمل اسم ( العزى ) و ( سواع ) و ( ود ) وغيرها من أسماء الآلهة التى عرفت فى الشمال .

فمن الظنون التى نبعت من التحقيق والتقصى ، ظنون تذهب إلى أن الأديان فى الجزيرة العربية كعناصرها كانت فى الأصل ديانة عربية واحدة تفرقت فى مهد العروبة مع العنصر العربى الذى ملأ جوانب البلاد العربية ، وعرف فى بحوث التاريخ القديم باسم العنصر السامى ، وتطورت بتطور القبائل المهاجرة فى مهاجرها وتلونت بالظروف والحالات

التى تلونت بها مداركها ومفاهيمها . وكلما بعدت المسافة وتقادم العهد زادت الفوارق حتى أصبحت الوثنية فى الشمال بعيدة الشبه عن الوثنية فى الجنوب .

وأهم عوامل التباين فى العقائد : تفاوت المستوى الفكرى . فلقد قص علينا القرآن الكريم : كيف كفرت عاد بربها ، وبأى منطق جادلت هوداً ؟ وقص علينا كيف كفرت ثمود وبأى منطق جادلت صالحاً . فلم تكن من حجج هود : ناقة ، ولا أفعى ، ولا مائدة من السماء ، لأن عقلية العرب الذين لم يحتكوا بغيرهم من السوموريين والحثيين ، وبالقوط من المصريين ، غير عقلية العرب الذين اختلطوا بهؤلاء وتشبعت عقليتهم بماديتهم . فالعرب فى قلب الجزيرة العربية لا يؤمنون بالسحر إيمان المصريين به ، ولا يتأثرون بالماديات كتأثر الإسرائيليين بها ، ولا يقبلون التضحية بالعفاف مهما كانت المبررات البابلية .

فإذا كانت الوثنية فى اليمن تختلف فى بعض صورها عن الوثنية فى الشمال ، فإن ما كان بينهما من اختلاف هو النتيجة المتوقعة لاحتكاك الجنوبيين بالأحباش ، واحتكاك الشماليين بالحثيين وشعوب البحر الأبيض .

٤ ـ ونحن اذا بحثنا عن السر الذى جعل موقف الإرميين فى الجنوب من اليهود واليهودية أفضل من موقف العماليق فى الشمال ، فإن الظنون تصور لنا أسباباً لذلك منها : أن الوثنية فى قلب الجزيرة وجنوبها أكثر تمسكاً بالاإله الأعلى الرحمن الرحيم من الوثنية الشمالية ، وإن كانت بعض المذاهب الوثنية فى اليمن تأثرت بالوثنية الشمالية فاعتقدت فى الثالوث المقدس ـ القمر وهو الأب ، والزهرة وهى الابن ، والشمس وهى الأم[١] .

ومنها : أن اليهودية جاءت إلى الجنوب فى حماية « تبع » الذى احترمها وجعل لها نفوذاً استغله اليهود فى حادثة الأخدود ، فكانت هذه الحادثة المعول الذى قوض سلطان اليهودية وبوأ النصرانية المكان الأول فى رعاية ( أبرهة ) ، فكانت لها السيادة إلى ما بعد عودة سلطان الحميريين فى حماية القوى الفارسية . ومنها : أن اليهودية جاءت إلى فلسطين تتبعها جيوش جرارة من الذين تبعوا موسى وهاجروا معه ، تريد أن تحتل أرضها وتقضى على سلطانها .

---

( ١ ) جواد تاريخ العرب ١٢٠/٥ والتاريخ العربى القديم ص ١٩٤

وهكذا يكشف لنا البحث فى صراع الأديان فى اليمن عن جانب كبير من تاريخه .

٥ ـ أما تاريخ الأديان فى سواحل الجزيرة العربية الممتدة على الخليج الإسلامى فالذى يستدل من الآثار ، ويستشف من الأخبار القصيرة التى أوردها المؤرخون العرب فى كلامهم عن قبائل : ( وبار ) و ( طسم ) و ( جديس ) أنه يشبه إلى حد بعيد تاريخها العام . فالقسم الشمالى من العروض متأثر بحضارة العراق ، وبعقائد العراق ، وبسياسة العراق . وإنك لتجد هذا التأثر واضحاً فيما كشفه البحث الأثرى من معابـد فى جزر البحرين قيل : إنها كانت عند العراقيين معابد مقدسة ولايزال مذهب الشيعة له معتقدوه فى الأحساء والبحرين فى الوقت الحاضر .

٦ ـ أما القسم الجنوبى ـ فهو متأثر بحضرموت واليمن فى عقائده وتقاليـده . فى أخلاقه وطباعه ، فى حضارته واقتصادياته وسياسته حتى إنك تجد من المؤرخين من يعتقد أن عمان قسم من اليمن وأن اليمن يمتد من البحر الأحمر إلى خليج عمان .

٧ ـ ولعل الاعتقاد فى النجوم وعبادة ( ودّ ) والإيمان بالثالوث المقدس ، استورده اليمن من العراق عبر سواحل الخليج الإسلامى فأخذت عبادة الكواكب مكانها بجانب العقائد التى انتقلت إليه من أفريقيا عبر باب المندب ، مثلما عبرت عبادة الكواكب من بابل إلى مصر عن طريق سورية .

ولقد وضح هومل : الفوارق الملاحظة بـين عقائـد الساميـين فى جنوبـى الجزيـرة وشماليها ، وعقائد الساميين فى بابل . وفى مقدمة ما وضحه الفرق فى مراتب الأفلاك الآلهة فالقمر ( ود ) هو مقدم على الشمس عند الساميين فى غير بابل . أما فى بابل فالشمس هى المتبوئة المرتبة الأولى فى العقائد البابلية[1] .

والذى لا تشك فيه الظنون : أن تاريخ الأديان فى سواحل الخليج الإسلامى يمتد إلى عصر الكنعانيين فى الخليج الإسلامى . والذى يستفاد من النتائج التى وصلت إليهـا البحوث التى ناقشت نشوء العقائد فى الجنوب : أن تاريخ الأديان فى اليمن وفى العروض يؤكد النتائج التى وصل إليها البحث فى حضارة هذه البلاد وفى بداية التاريخ العربى .

---

( ١ ) تاريخ العرب لجواد ١٢٢/٥ والتاريخ العربى القديم ص ١٩٤ ومابعدها

البحث السادس والعشرون

# الهلال الخصيب في التاريخ العربي

موضوعا البحث :

١ ـ بواعث هذه التسمية « الهلال الخصيب » .
٢ ـ الأقطار التى تمثل الهلال الخصيب



# الهلال الخصيب في التاريخ العربي

١ ـ ليس هنا مكان القول عن الأسباب التى من أجلها اخترت اسم الهلال الخصيب لمنطقة شمالى الجزيرة العربية من مصب الفرات فى الخليج الإسلامى شرقاً إلى منتهى خليج العقبة غرباً ، فلقد بينت ذلك فى الفصل الخاص بهذه المنطقة فى الجزء الموضوع لجغرافية الجزيرة العربية من هذا الكتاب . كما بينت الأسباب التى من أجلها اخترت اسم سورية الكبرى لشق الهلال الخصيب الغربى : سورية ولبنان وفلسطين . وإنما الجدير بالتوضيح هنا : أنه ليس من تلك الأسباب سبب واحد يرجع إلى الآراء السياسية التى تتردد اليوم ، إنما هى أسباب تاريخية محضة .

٢ ـ والهلال الخصيب كما هو معروف يشمل العراق وسورية ولبنان وفلسطين . وأرض العراق وسورية الكبرى ، عرف تاريخها من زمن قديم . فالحديث عن التاريخ العربى بما فيه ـ العراق وسورية ـ يستلزم تخصيص بحث لكل من العراق وسورية . وتخصيص بحث لتاريخ كل من العراق وسورية الكبرى يستلزم الكلام عن حضارتها الغارقة فى القدم ولاسيما أرض ما بين النهرين « العراق » .



البحث السابع والعشرون :

# العراق عرف الحضارة من أقدم العصور

من موضوعات البحث :

١ ـ تتفق آراء القدامى مع المتأخرين على قدم حضارة العراق .
٢ ـ غوستاف ليبون يؤيد رأى القدامى الذى يقول : إن العقل البشرى نما وترعرع فى العراق قبل أن يولد فى مصر .
٣ ـ جون ويلسن يقول : إن دين مصر لبابل أمر واضح .
٤ ـ أدلة الغربيين على قدم حضارة العراق تعتمد على الآثار .



# العراق عرف الحضارة من أقدم العصور

١ - إن المؤرخين الذين استعانوا فى بحوثهم بما فى الكتب المنزلة وبما فى المصادر اليونانية عن نوح وقومه ، وعن الطوفان ودفنه معالم حضارة الذين سبقوا نوحا وملأه فى أرض ما بين النهرين - العراق - يتفقون مع المؤرخين الذين استمدوا بحوثهم من نتائج الدراسات الجيولوجية ، ومما وصلت إليه معاول الأثريين ، على أن حضارة العراق أقدم حضارة عرفها الإنسان قبل التاريخ .

فلقد لخص ابن خلدون فى تاريخه ما جاء فى كتب التفسير عن إدريس ووضعه أسس الحضارة الإنسانية وتأسيسه المدن وتنقله فى أرجاء البلاد العربية قبل الطوفان ، وعن أبناء نوح الذين عمروا العراق بعد الطوفان ، وكيف ضاقت بهؤلاء مدن العراق فهاجروا إلى مشارق الأرض ومغاربها - ولقد جمع يوسف الدبس فى كتابه : « تاريخ سورية » عدداً من النصوص والأدلة التى تثبت تحضر العراق من قبل الطوفان ومن بعده .

ثم جاء المؤرخون المتأخرون الذين تحملوا مسؤولية التحقيق فى التاريخ العربى القديم ، مثل : جرجى زيدان ، وفيليب حتى وغيرهما فأرجعوا تاريخ الحضارة فى العراق إلى ما قبل أربعة آلاف عام قبل الميلاد وقالوا : إن التاريخ العربى « السامى » يبدأ من سنة ٣٦٠٠ عام قبل الميلاد ، وإن السيادة العربية على العراق بدأت من عهد ( حمورابى ) فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد .

وهؤلاء المؤرخون الذين تحملوا مسؤولية التحقيق فى التاريخ القديم ، اعتمدوا فى بحوثهم على الدراسات الغربية ونتائجها ، والباحثون فى الحضارات القديمة من الغربيين يكادون يجمعون على أن حضارة بلاد ما بين النهرين أقدم من حضارة وادى النيل ، وأن العراقيين على ضفاف الفرات تمدينوا قبل أن يتمدين المصريون على ضفاف النيل .

٢ - فغوستاف ليبون الذى رحب بكتابه « بابل وآشور » سلامة موسى وقال عنه :

[ نحن نرحب بظهور هذا الكتاب لأنه يسد فراغاً أو بعض الفراغ ][1] ـ يؤكد : أن حضارة العراق أسبق من حضارة مصر فهو يقول : [ وهكذا كان الإغريق الراسخون فى المدنية يقولون بأعلى صوتهم : إنهم أخذوا مدنيتهم عن مدارس العلم القديمة التى ازدهرت فوق مجرى الفرات الأدنى فى العصور القديمة . ولذلك كان يقول « ديودوروس » و « هيرودوتس » و « سترابون » و « أرسطو » وآخرون إن نمو العقل البشرى كان مترعرعاً وكاهلا فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل ][2] .

وكذلك ( جون ويلسن ) الذى قرظ كتابه ( الحضارة المصرية ) أحمد فخرى أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بجامعة القاهرة فقال عن المؤلف جون ويلسن وكتابه الحضارة المصرية : [ إننى أشعر بالكثير من راحة الضمير لأنى أحس فى قرارة نفسى أننى ساهمت فى عمل مفيد نافع لقراء العربية وخاصة طلبة الجامعات ومدرسى التاريخ بالمدارس ، فإن الكتاب مملوء بالمعلومات الصحيحة المستمدة من أحدث الأبحاث والاكتشافات ][3] .ومؤلف كتاب«الحضارة المصرية»يؤكد مقالة غوستاف ليبون عن قدم حضارة العراق .

٣ ـ فلقد قال ( جون ويلسن ) بعد أن استعرض العناصر والصناعات والفنون التى استعارتها مصر من العراق : [ كانت العراق فى ذلك العصر تعرف عجلة الفخار التى لم تعرفها مصر ، ومن المحتمل أن مصر قد تأثرت واقتبست بعض الطرق لتحسين صناعتها من الخارج . ولكن أهم تلك العناصر التى نشك فى أخذ مصر لها من العراق هى فكرة الكتابة ، وكل ما يمكننا قوله هو أنه كان للعراق شيء من الأسبقية فى معرفة الكتابة ، فتاريخ الحضارة فى العراق يثبت أنها تقدمت تقدماً طبيعياً ، ولم تستعمل إلا مواد ووسائل محلية فى الجزء الأكبر من عصر ما قبل الأسرات فيها ـ وهكذا يلوح لنا أنه من المحتمل أن بابل وصلت إلى مستوى حضارى احتوى على عناصر وآراء تقبلتها مصر واستعارتها ، ولكننا لا نرى مثل هذا الميل فى بابل للاستعارة من مصر ـ فعلى ذلك كان التفوق الحضارى فى جانب العراق فى الوقت الذى كانت تسعى فيه مصر إلى هذه الأسبقية .

( ١ ) كتاب بابل وآشور ص ٥ .
( ٢ ) نفس المصدر ص ٥٢ .
( ٣ ) الحضارة المصرية ص ٥ .

وإذا صح أن الجزء الأخير من عصر ما قبل الأسرات فى مصر تأثر بمنبهات عقلية وصناعية وفنية من العراق ، وأن مصر بدأت عصرها التاريخى بعد ذلك مباشرة فما هو معنى هذه الملاحظة ؟ هل كان التفوق الحضارى للعراق هو الذى أخرج مصر من الهمجية إلى المدنية ؟ إن جوابنا عن هذا السؤال جواب صحيح . إن دين مصر لبابل أمر واضح وزمنه مطابق تقريباً لفترة انتقال مصر من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخى . ولهذا لا مانع من أن ننسب إلى بابل بعض التأثير فى هذا الانتقال . ونحن نستدل على القيمة الحقيقية لهذا الأمر إذا تساءلنا سؤالا آخر : هل كان فى مقدور مصر أن تخرج من الهمجية إلى المدنية دون منبه من العراق ؟ ولا شك أن الرد عن هذا السؤال تقديرى طالما قد حدث هذا بالفعل وجاء المنبه من العراق ][1] .

وجاء فى كتاب (تاريخ العالم) الذى ترجمته إدارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم المصرية : [ فبابل دون غيرها لم يكن بها من حاجة إلى التأثر بمصر وكذلك لم تدن بنتها آشور بأى دين مباشر للحضارة المصرية إبان القرون التى حاربت فيها مصر وهزمتها ][2] .

فالبحوث الغربية التى اعتمد عليها محققو التاريخ العربى القديم ، والتى أشاد بها علماء التاريخ القديم فى مصر واهتمت بترجمتها الجهات المختصة بوزارة التربية والتعليم المصرية ـ تؤكد : أن العراق عرف الحضارة قبل أن تعرفها مصر ، وأن العراق وصل إلى عصره التاريخى فى الوقت الذى كانت فيه مصر لا تزال فى بداية الطريق إلى عصرها التاريخى ، وأن للحضارة العراقية أثراً واضحاً فى تطوير التمدين الفرعونى .

٤ ـ والغربيون فى بحوثهم يعتمدون على الآثار وأدلتها المادية . والآثار وأدلتها المادية تثبت أن العراق عرف الحضارة من قبل الطوفان بعصور طويلة ، فلقد أثبت تنقيب ( ولى ) فى خربات ( أور ) أن حضارة العراق أقدم بكثير من العصور التى بحث فيها غوستاف ليبون وجون ويلسن ومؤلفو تاريخ العالم ؛ إذ وصل تنقيب ( ولى ) إلى عمق عظيم من سطح الأرض فوجد فى أغوار الأرض طبقة من الغرين سمكها ثمانية أقدام

( ١ ) الحضارة المصرية ص ٨٤ وما بعدها إلى ٨٨ .
( ٢ ) تاريخ العالم ٢ / ٣٠٥ .

رسبت على أثر فيضَان مروع لنهر الفرات قال عنه ( ول ـ ديورانت ) إن هذا الفيضان هو ـ الطوفان ـ فقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبل هذا الطوفان وصفها الشعراء فيا بعد بأنها العصر الذهبى لتلك البلاد . وحاول الكهنـة المؤرخـون فى هذه الأثناء ، أن يخلقوا ماضياً يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومورية فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ورجعوا بالأسر المالكة التى حكمت قبل الطوفان إلى تاريخ طويل بلغ من العمر ٤٣٢,٠٠٠ عام[١] ق . م .

فما اكتشفه الأثريون وحققه المؤرخون الغربيون يتفق أكثره مع ما جاء فى مصادر التاريخ العربية والإسرائيلية عن عالم ما قبل الطوفان فى وادى الفرات .

فعلى ذلك فإن البحث فى تاريخ العراق الحضارى لا يختلف قديمه وحديثه فى أن العراق عرف أقدم حضارة إنسانية . وإنما الذى اختلف فيه هو الأسلوب . ونوعية الأدلة التى تثبت هذا القدم ، فالمؤرخون القدامى استعرضوا الأقوال التى تثبت الجاهلية الأولى جاهلية ما قبل الطوفان ، واستعرضوا الأقوال التى تثبت أن نوحاً والذين نجوا معه استأنفوا حضارتهم فى العراق بأسلوب وأدلة الماضى الذى عاشوا فيه . والمؤرخون اليوم يستعرضون نتائج الدراسات الجيولوجية والتحقيقات الأثرية بأسلوب وأدلة الحاضر الذى يعيشون فيه ، ولا غرابة فى ذلك . فكل جيل يبحث بأسلوبه ومنطقه ولا يعتمد إلا على الأدلة التى يطمئن لها وتهضمها عقليته .

---

( ١ ) راجع قصة الحضارة لمؤلفه ( ديورانت ) ٢ / ١٦ وراجع بحث دول ما قبل التاريخ فى الشرق العربى وسنى حكمها فى هذا الجزء من هذا الكتاب .

البحث الثامن والعشرون :

# التاريخ العربي في العراق

من موضوعات البحث :

١ ـ العرب لم يكونوا السابقين فى تحضير العراق .

٢ ـ انتصار العرب على السومور يين انتصار شامل .

٣ ـ البحوث الأثرية جعلت تاريخ الكلدانيين والآشور يين واضحاً وضوح تاريخ الساسانيين فى العراق والرومانيين فى سورية .

٤ ـ العصر التاريخى فى العراق بدأ مع العصر العربى .

٥ ـ هل عروبة الساميين فى العراق مثل عروبة القرشيين فى الحجاز ؟

# التاريخ العربي في العراق

١ ـ لقد أجمع الباحثون فى تاريخ العراق القديم على أن العرب أو الساميين كما يسمون فى بحوث التاريخ القديم ـ لم يكونوا وحدهم السابقين إلى تحضير أرض ما بين النهرين ، بل كانت معهم أمم لا تزال أرومتها موضع الظنون ، ولا يزال وطنها الأول الذى نزحت منه إلى ضفاف الفرات قيد الشكوك .

٢ ـ وأجمعوا على أن الأمم التى زاحمت العرب فى العراق والتى عرفت باسم السوموريين ، جاءت إلى العراق من الهضاب الممتدة من الشمال ، ومنهم أمم جاءت من الشرق من بلاد فارس ومن شبه جزيرة الهند . وأجمعوا على أن الانتصار العربى فى العراق لم يكن انتصاراً سياسياً فحسب ، بل كان انتصاراً شاملا صبغ الأوضاع جميعها بصبغته وأبرز للعراق صفته العربية ، وأزاح عنه سلطان الدول التى احتلته فى أحقاب الزمن المجهول .

وأبرز انتصارات العرب وأقدمها : انتصار ( سرجون ) الأول . وأعظم انتصار عربى : انتصار ( حمورابى ) . فلقد شملت حضارة الحمورابين ، ونظمهم ، وتقاليدهم ، وعقائدهم البلاد ، ولم يزاحمهم سياسياً غير أبناء عمومتهم الآشوريين فى المناطق الشمالية التى ما زالت تزدحم بعناصر غير عربية من قبل التاريخ إلى يومنا هذا .

ويؤكد المحققون فى تاريخ الهجرات العربية : أن المهاجرين العرب فى العراق لم تنقطع قوافلهم طيلة العصور التى سبقت التاريخ العربى فى العراق ، وأن العرب المهاجرين إلى العراق لم يكونوا حفاة عراة همجاً لا يعرفون شيئاً من الحضارة ، فمناجم النحاس فى شواطىء الخليج الإسلامى ، وآثار الفينيقيين فى اليمامة وآثار الإرميين فى الأحقاف ، وفى حجر ثمود ، تؤكد أن العرب الذين أجلوا السوموريين عن الأرض العراقية العربية كانوا يملكون من مقومات الحضارة ما جعلهم قادرين على تطوير الحضارة السومورية ، وصهرها فى بوتقة حضارتهم .

٣ ـ ويعترف محققو التاريخ الحضارى فى العراق بأن البحوث الأثرية خدمت تاريخ الحضارة العراقية ، وأنه بفضل البحوث الأثرية لم تصبح شريعة حمورامى سراً من أسرار الماضى ، فبفضل البحوث الأثرية استطاع المؤرخون أن يدرسوا شريعة حمورابى ، وأن يعرفوا الكثير من تاريخ امبراطوريتى العراق العظيمتين « الكلدانية » و « الآشورية » وأصبح البحث فى تاريخهما مشاعاً يتناوله المؤرخون بالنقد والتحقيق .

٤ ـ ويؤكد محققو التاريخ الحضارى فى العراق : أن التاريخ السامى فى العراق ظهرت ملامحه فى عهد عاهلى أسرة ( أجادة ) : ـ سرجون ـ و ـ نهرام سين ـ واكتمل فى عهد عاهل الأسرة البابلية الأولى «حمورابى » حوالى القرن العشرين قبل الميلاد [١] .ويؤكد مؤرخو دول ما قبل الميلاد : أن سرجون وأحفاده وحمورابى وأجداده ، هم من العنصر السامى الذى انطلق من قلب الجزيرة إلى الهلال الخصيب . فمن هذه النتائج التى جاءت واضحة فى بحوث تاريخ العراق القديم ، يأتى الجواب عن السؤال موضوع البحث : متى بدأ التاريخ العربى فى العراق ؟ ـ لقد بدأت أساطيره تلوح فى عهد سرجون الأول وأخذت حقائقه تتجسد فى عصر حمورابى .

وهنا يتحتم علينا : البحث عن تاريخ العصر السامى فى العراق بالنسبة للتاريخ الميلادى . والبحث فى التاريخ السامى فى العراق يجر إلى ذكر الخلاف على عصر الساميين فى العراق الذى ما زال قائماً حتى اليوم . فزمن ( سرجون الأول ) و ( حمورابى ) تختلف فيه الآراء ، فسرجون الأول ـ فى تحقيق جرجى زيدان ـ نبغ فى سنة ٣٨٠٠ ق . م ، وعصر حمورابى ( الملك السادس فى الدولة العربية البابلية التى تسمت باسمه : الحمورابية ) يبدأ فى سنة ٢٢٨٧ وينتهى فى سنة ٢١٣٢ ق . م . )[٢] .

ومن رأى العقاد : أن حمورابى كان فى سنة ٢٤٦٠ ق . م فهو يقول : [ وقام بالأمر

( ١ ) سبق أن أشرنا إلى اختلاف آراء المؤرخين فى عصر سرجون ونحن هنا اعتمدنا على رأى ديلا بورت فى كتابه بلاد ما بين النهرين ص ٧٤ ـ ونلفت النظر إلى ما يلاحظ على أن الأسماء تتكرر واسم سرجون من الأسماء المكررة وهذه الملحوظة وضحنا عنها فى الجزء الخاص بعناصر الجزيرة العربية وشعوبها .

( ٢ ) العرب قبل الاسلام ص ٥٣ و ص ٥٦ .

« حمورابى » صاحب التشريع المشهور سنة ٢٤٦٠ ق . م ][١] .

ومن رأى حسين مؤنس فى تعليقه على كتاب جرجى زيدان : الأخذ برأى « ل . ديلا بورت » الذى يجعل بداية الدولة الحمورابية سنة ٢٢١١ ق . م . ويجعل عصر حمورابى يبدأ سنة ٢١٢٣ وينتهى سنة ٢٠٨١ ق . م .[٢] بينما « ل . ديلا بورت » كما ترجم كتابه «بلاد ما بين النهرين » « محرم كمال » : يقول : [ وقد حارب « سوابلوم الحمورابى » « كازاللو » عام ٢٢٢٤ ق . م » ، وكذلك جاء فيه: وهاجم « أيلوشوما » الآشورى « سوموابوم » فى ٢٢٢٥ ـ ٢٢١٢ ][٣] « فعلى ذلك فإن هناك اختلافاً فى فهم ما جاء فى كتاب « بلاد ما بين النهرين » بين حسين مؤنس وبين محرم كمال ، وخلافاً بين مصادر جرجى زيدان وبين مصادر « ل . ديلا بورت » ، وبينهما وبين مصادر العقاد .

وأكثر من هذا : أن بعض المؤرخين يبدون رأيين مختلفين مثل فيليب حتى الذى قال فى كتابه « تاريخ سورية » : [ وتظهر أول إشارة إلى أرض الأموريين منذ عصر سرجون « حوالى ٢٢٥٠ ق . م » ][٤] وقال فى كتابه « لبنان فى التاريخ » [ وسرجون الأكدى « حوالى سنة ٣٢٥٠ ق . م . » أول فاتح سامى ][٥] وفيليب حتى يجعل عصر حمورابى فى ١٧٣٠ ق . م . حيث قال : [ وانتسب حمورابى إلى سلالة بابل نحو ١٧٠٠ ق . م . ][٦] .

فمن اختلاف هذه الآراء يتضح لنا : أن التاريخ العربى فى العراق بدأ مع العصر السرجونى . وأن التاريخ العربى لم يدخل طور الحقيقة وتتضح معالمه إلا بعد العصر الحمورابى .

٥ ـ والسؤال الذى يكمل الجواب عليه ـ بحث « تاريخ العراق العربى » هو : هل عروبة الساميين فى بابل مثل عروبة القرشيين فى مكة ؟ والجواب عن هذا السؤال يأتى فى

( ١ ) الثقافة العربية ص ١٥ .
( ٢ ) العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان ص ٥٦ .
( ٣ ) بلاد ما بين النهرين ص ٤٤ .
( ٤ ) تاريخ سورية ١ / ٧٠ .
( ٥ ) لبنان فى التاريخ ص ٨١ .
( ٦ ) تاريخ سورية .

تحقيقات جرجى زيدان : [ إذا صح أن دولة حمورابى دولة عربية كما نبينه فى الفصل الآتى ، فإن العرب هم أسبق أمم الأرض إلى سن الشرائع وتنشيط العلم وأنهم بلغوا فى النظام الاجتماعى ما لم يبلغه معاصروهم ، وأدركوا من الرقى الاجتماعى ما لا يزال بعض الأمم المتمدينة فى هذا العصر بعيدين عنه ][1] .

والذى بينه جرجى زيدان ودعمه بالأدلة والبراهين يؤكد : أن دولة حمورابى دولة عربية مع الفارق بين عروبة الحمورابيين فى العراق ، وعروبة قريش فى الحجاز . فلقد قال فى كتابه العرب قبل الإسلام : [ إن قولنا دولة « حمورابى » عربية لا يتبادر منه إلى ذهن القارىء أنه مثل قولنا : دولة الاسلام دولة عربية . وإذا صحت عربية تلك فلا يستلزم أن تكون لغتها مثل لغة القرآن ، ولا أن عاداتها وديانتها مثل ما لعرب قريش . فإن بين الدولتين سبعة وعشرين قرناً . والأمم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الأقاليم وتوالى العصور . لا خلاف فى أن دولة حمورابى سامية الأصل ، ولكنهم اختلفوا فى نسبتها إلى أى فرقة من الفرق السامية ، وعندنا أنها من بدو الآراميين وهم عرب ذلك العصر أو العمالقة ][2] .

والأدلة التى سردها جرجى زيدان تؤيدها الحقائق التاريخية ، فاختلاف اللغة والعادات والتقاليد والأنظمة فى مدى القرون الطويلة التى تفصل بين العرب الذين سبقوا المسيح بأكثر من ألفى سنة فى أرض الفرات ، وبين العرب الذين تأخروا عن المسيح بنحو سبعمائة عام فى بطحاء مكة ، وصحارى نجد ، وأغوار تهامة ، أمر مسلم به .

بل نحن إذا رجعنا إلى تاريخ الإمبراطوريتين العراقيتين : الحمورابية والآشورية ـ نجد حضارة الآشوريين الذين عاصروا دولة حمورابى ، ونظمهم ، ونظرتهم إلى الأشياء تختلف عن حضارة الحمورابيين ، ونظمهم ، ونظرتهم إلى الأشياء فى كثير من أمور الحياة الاجتماعية والسياسية ؛ فالآشوريون الذين يرجع تاريخهم فى شمال العراق إلى ما قبل عصر حمورابى ، تختلف شريعة إمبراطوريتهم التى سادت على الهلال الخصيب وامتدت إلى ضفاف النيل منذ بداية الألف الأخيرة قبل الميلاد . ففى التشريع الآشورى تعقيد لا نجده فى شريعة حمورابى . وفى النظم الآشورية شذوذ وقسوة وتشجيع على السفك والتدمير

---

( ١ ) العرب قبل الاسلام ص ٦٣ .

( ٢ ) نفس المرجع ص ٦٤ .

سلمت من كثير منه نظم الحمورابيين . بيد أن هذه الفوارق لم تتخذ دليلاً على اختلاف عنصرى الآشوريين والبابليين ، فالمؤرخون الذين بحثوا فى التاريخ القديم ، والنسابون الذين حققوا أنساب الماضيين ، والباحثون الذين اعتمدوا على الصور المنقوشة على آثار كلتا الدولتين ودققوا فى زى الذين صورتهم النقوش وفى هيكل أجسامهم ورؤوسهم ، اتفقوا آخر الأمر على أن الآشورين والحمورابيين من عنصر واحد هو : العنصر السامى أو بالأصح العنصر العربى[1] .

ومع هذه الفوارق جميعها فإن الدولتين العربيتين ظهر عليهما الكثير من صفات الدول العربية التى برزت فى التاريخ . فحضارة كلتا الدولتين وسيادتهما انتصرت على حضارة السومورين الذين احتلوا أرض الرافدين ، وطوتها مع ما طوته من نظم وعقائد وسلطان ـ فمثلما نجحت دولة ( بابل ) الحمورابية فى رفع المستوى الثقافى فى العراق ، وفى تحديد المسؤولية الاجتماعية بنظام عادل ، كذلك نجحت دولة ( نينوى ) الآشورية فى رفع المستوى السياسى فى العراق .

وإنما الفارق بين هاتين الدولتين العربيتين اللتين ظهرتا فى عصور ما قبل الميلاد وبين الدول العربية التى برزت فى التاريخ فى عصور ما قبل الإسلام وما بعده يظهر فى التشريع الحمورابى وما فيه من تشجيع على الدعارة ، ويظهر فى النظم الآشورية وما فيها من تشجيع على السفك والتخريب باسم الآلهة .

وألمع ما فى الحضارة العربية القديمة فى العراق هو : علم الفلك الكلدانى ، ونظام الجندية الآشورية ـ وأهم ما يلفت النظر فى التاريخ العربى القديم فى العراق هو : ترف دولة ( الحَضْر )[2] التى قضت عليها جيوش الفرس ، فإن كان الخيال أخذ دوره الكامل فى قصة غرام بنت ملك الحضر بالعاهل الفارسى ، ذلك الغرام الذى دفعها الى أن تضحى بأبيها وملكه ، فإن وراء القصص الخيالية حقائق تاريخية كما قلنا من قبل . وإن الحقيقة التى تقف وراء قصة بنت ملك الحضر وترفها هى : وجود دول عربية متحضرة إلى ما بعد تفوق النفوذ الفارسى فى العراق .

( ١ ) من رأى الكثيرين أن الساميين هم العرب وقد وضحنا ذلك فى الموضع الجدير بالايضاح من هذا الكتاب . راجع حضارة بابل وآشور .

( ٢ ) الحضر : حصن عظيم كالمدينة كان على شاطىء الفرات وقد جاء ذكره فى شعر عدى بن زيد : وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلةتجبى إليه والخابور . الخابور نهر مشهور ، سيرة ابن هشام ١ / ٧١ .



البحث التاسع والعشرون

# الأديان في العراق

من موضوعات البحث :

١ ـ الوثنية لاتنكر الله ولكنها تشرك معه آلهة خلبت بهم عقلية المجتمع وتصوراته .

٢ ـ شريعة حمورابى قريبة من الأديان السماوية .

٣ ـ الدعارة فى التشريع البابلى والسفك والتدمير فى التشريع الآشورى ـ هما من مخلفات العقائد غير العربية فى العراق .



# الأديان في العراق

١ ـ إذا كانت الوثنية كما قلنا ليست هى الدين الأول للأمم ، وإذا كانت الوثنية كما قلنا لاتنكر وجود الله العظيم خالق السماوات والأرض ، فهى كذلك تجارى البيئة فتصطبغ بصبغتها وتساير العقول وتنطبع بأخيلتها ، فمثلما انطبعت فى قلب الجزيرة بطابع العربى الذى عاش فى أحشاء الصحراء وعبدالله على ملة إبراهيم ، هى كذلك تلونت فى العراق باللون السوموري وسايرت العقلية الكلدانية القديمة ، ومع ذلك لم تتحرر من العقلية العربية . والسومورىون ، والكلدانيون وأبناء عمومتهم الكنعانيون ، والحثيون هى الأمم التى استوطنت العراق وضفاف الخليج الإسلامى . فالكلدانيون فى كتب التاريخ العربى من أوائل الأمم التى عمرت العراق ، ويقول ( ابن خلدون ) : إن الكلدانيين موحدون خالفوا الصابئة التى انحرفت عن التوحيد إلى عبادة الكواكب[1] . والسوموريون فى بحوث المستشرقين يرجع تاريخهم إلى أقدم عصور بلاد مابين النهرين . ويقول ( بريستد ) : إن عقيدة السومورىين فى مصير الإنسان بعد الموت غامضة ، فهم يتصورون أن الموتى يعيشون فى مكان مقبض تحت الأرض ملىء بالظلام والتراب يذهب إليه الناس جميعاً لافرق بين صالح ومجرم ، ويعتقدون بأن الإنسان بعد الموت يحتاج فى حياته الثانية إلى خدمه ومركباته[2] .

ولقد سبقت الإشارة إلى ماجاء فى تحقيق « ديتلف نيلسن » عن الأديان فى الشرق العربى ، وأن [ الدين العربى القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلى والآشورى المعقد ][3] .

وجاء فى تحقيق هومل : [ أن النقوش البابلية تقدم لنا عدداً كبيراً من أسماء الأعلام العربية الجنوبية التى جاء ذكرها ضمن أسماء ملوك الأسرة البابلية الأولى التى هى أسرة

( ١ ) تاريخ ابن خلدون ١ / ٥١ .

( ٢ ) انتصار الحضارة لمؤلفه جيمس هنرى بريستد ص ١٥٩ .

( ٣ ) التاريخ العربى القديم ص ٥٣ .

سامية عربية ، فهذه الأسماء هى مفيدة من الناحية الدينية ][1] .

وما جاء فى تحقيق « نيلسن » و« هومل » وغيرهما يؤكد : أن الدين البابلى الآشورى هو امتداد للدين العربى . فلقد تأثرت الأديان فى العراق ومصر بأديان قلب الجزيرة العربية التى كان يدين بها المهاجرون من العرب إلى الهلال الخصيب : بابل ، وسورية ، وفلسطين ؛ وإلى شبه جزيرة سينا ، ودلتا النيل ، والصحراء العربية من مصر . وكذلك تأثر أولئك المهاجرون بأديان سكان الفرات والنيل وبفلسفات معتقداتهم .

وأنا لا أستبعد هنا : أن يكون الفراعنة قد أخذوا عن السوموريين فكرة الاستعداد لما بعد الموت والتهيؤ للعودة إلى حياة يحتاج فيها الإنسان إلى لوازم حياته الأولى . فلقد أثبت البحث فى معرفة التأريخ بمعنى التوقيت الذى سبق فى مقدمة هذا الجزء ، والبحث فى معرفة الحضارات العربية فى العراق الذى سبق هذا الفصل : أن العراقيين كانوا أسبق إلى النضج العقلى والحضارى من مصر ، وأن مصر استعارت من العراق الكثير من أسس حضاراتها وعقائدها التى انتقلت إليها من البلاد العربية .

ولقد أثبت تاريخ الكنعانيين أنهم سكان الخليج الإسلامى من قبل الألف الثالثة التى سبقت الميلاد . ومن آثار الكنعانيين فى جزر البحرين : معابد فى جزيرة البحرين . ومن معابد البحرين معابد كان العراقيون يقدسونها ويتعبدون فيها .

ومما هو واضح : أن العقائد السومورية كانت منتشرة فى العراق ، ومما هو واضح : أن العقائد السامية تلاقت على ضفاف النهرين : الفرات ودجلة مع العقائد السومورية واختلطت بها فترتب على ذلك التلاقى والاختلاط أن وجدت عقائد شاذة عن الخلق العربى مثل : تسلط سدنة المعابد على فتيات بابل باسم الدين .

أجل ! إن العراق بلد عريق فى الحضارة تلاقت على أرضه عناصر توافدت عليه من الشمال ، ومن الجنوب ، ومن الشرق ، ومن الغرب لكل منها آفاقه العقلية ، ولكل منها فلسفة فى الأشياء التى تحيط به ، قامت عليها عقائده وآراؤه فى الحياة وما بعدها ـ ففى بحوث ( ل . ديلابورت ) وتحقيقاته صور واضحة للعقائد التى كانت تدين بها تلك

---

( ١ ) نفس المصدر ص ٥٩ .

الأجيال وفلسفتها ، وكيف كانوا يعددون الآلهة : إله المحيط وإله السماء وإله الأرض .
ويقول : ( ل . ديلابورت ) عن الثالوث الأول فى العراق [ قسم هؤلاء الآلهة الثلاثة ( المعمورة ) فيما بينهم لأنه طبقاً للآراء السامية لم يكن الشيء يستطيع أن يوجد دون أن يكون له سيد ](1) .

٢ ـ ونحن إذا طالعنا شريعة حمورابى نجد أن أحكامها فى النكاح ، وفى الطلاق ، وفى حد الزنا الذى لايثبت إلا فى حالة التلبس ، وفى القصاص : السن بالسن والعين بالعين ، لاتختلف كثيراً مع التشريعات السماوية(2) .

ونحن إذا تعمق بنا البحث فى تاريخ حمورابى نجد من يقول : فى عصر الدولة الحمورابية ظهر إبراهيم عليه السلام(3) ، ونجد الكثير من المؤرخين يقول : إن إبراهيم هاجر من ( أور ) إلى فلسطين بعد أن أعلن الحرب على الأصنام وأخذ يدعو لملته . ونحن إذا علق بذهننا مايقولونه عن عصر إبراهيم ، وعن دعوة إبراهيم ، وعن هجرة إبراهيم ـ لانستبعد أن تكون العقيدة التى نادى بها إبراهيم قد بلغت حمورابى وأن حمورابى قد استمع إلى مايقال عن تعاليم إبراهيم بكثير من الاهتمام .

ولقد قال السيد رشيد رضا : [ ثم ظهر أن شريعة التوراة موافقة فى أكثر أحكامها لشريعة حمورابى العربى ملك الكلدان الذى كان قبل موسى معاصراً لإبراهيم عليهما السلام . وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان فى حفائر العراق : إنه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها ـ لاوحى من الله ](4) .

وما قاله السيد رشيد رضا عن شريعة حمورابى يرجح الظن فى وجود صلة بين ملة إبراهيم وشريعة حمورابى . ولكن هذه الصلة فى رأيى تثبت عكس ماقاله علماء الألمان تثبت : أن تشريع حمورابى اقتبس شيئاً مما كانت عليه ملة إبراهيم ، وفى الوقت نفسه لم يهمل حمورابى العقائد السومورية ، فأخذ منها ماهو ضرورى للمجتمع البابلى الذى يتألف من العنصرين السامى والسومورى .

---

( ١ ) كتاب بلاد مابين النهرين ص ١٦٧ .

( ٢ ) انتصار الحضارة ص ١٨٠ .

( ٣ ) العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان ص ٥٧ .

( ٤ ) الوحى المحمدى ص ٥١ ويؤكد ( نادفى ) فى كتابه التاريخ الجغرافى للقرآن هذا الرأى وينكر السيد رشيد ، والسيد نادفى وننكر معهما أن شريعة موسى مستمدة من التشريع الحمورابى .

وأما ما ذهب إليه علماء الألمان من أن شريعة موسى مستمدة منها لاوحى من الله ، فهو إنكار لحقائق لاتحتاج إلى نقاش ، فلو لم تكن شريعة موسى وحياً من الله فإن ملة إبراهيم أقرب إلى موسى وبنى إسرائيل من شريعة حمورابى .

ومهما كان طابع التشريع الحمورابى ، ومهما كانت الأصول التى قام عليها فإن الوثنية قد وجدت مكاناً فيه ، كما وجدت من قبله ومن بعده مكانا فى كل عقيدة شاعت فى أرض الرافدين ، فتزيت بالزى الذى يروق العقلية العراقية وتطورت مع مفاهيمها .

٣ ـ ومهما ذهبت بنا الظنون فى مصدر الدعارة التى تتمثل فى تشجيع الفتاة على التضحية بعفافها فى سبيل الآلهة ، والتى أقرتها شريعة حمورابى ، فإننا لمتأكدون من أنها غير عربية ، فالخلق العربى منذ عرف العرب يأبى مثل هذه الرذيلة .

ومهما ذهبت بنا الظنون فى معرفة مصدر ذلك الجبروت الذى تمثل فى التشريع الآشورى ، والذى يبيح السفك والتدمير فى سبيل الآلهة ، فإننا نستبعد ذلك على الخلق العربى الذى لم يسجل عليه التاريخ مثل تلك الوحشية . فلقد ظهرت أحكام المؤرخين على دولة العماليق فى مصر ، والإرميين فى العراق ، فى صالح العرب ضد الدعاية الفرعونية فى مصر ، والدعاية الفارسية فى العراق . ولقد أثبتت الفتوحات العربية الرحمة والعفو عند المقدرة .

ومهما حاولنا الاهتداء إلى معرفة العقائد فى العراق ، فنحن لانجد فى مصادرها حقيقة أوضح مما قاله ابن خلدون عن التوحيد الذى كان الأساس فى عقائد الكلدانيين وأن الوثنية التى وجدت الباب مفتوحاً إلى عقيدة الذين صبأوا لعبادة الكواكب وجدت كذلك طريقها إلى الموحدين ، فأخذت تتلون مع العقلية العراقية إلى أن اختنقت بالمجوسية من الشرق وباليهودية والنصرانية من الغرب . ولم يحرر العراق من صراع الأديان ، ودعارة الشرائع البابلية ، وقسوة الأحكام الآشورية ، وأنانية النظم الفارسية ، غير الإسلام دين المساواة فى الحقوق ، والحرية فى الرأى ـ مالم يتعارض مع الخلق الفاضل ، والحرية فى العمل ـ مالم تتعارض مع مصلحة الجمهور .

ونجد بجانب هذه الحقيقة التى جاءت فى تاريخ ابن خلدون حقيقة أخرى تؤكد لنا : أن الأديان فى العراق قديم تاريخها قدم الحضارة فى العراق .

البحث الثلاثـون

# التاريخ العربي في القسم الغربي من الهلال الخصيب

من موضوعات البحث :

١ ـ سورية الكبرى سطرت تاريخها الحقيقى فى العصر العربى .
٢ ـ الساميون هم سكان سورية الأولون .

# التاريخ العربي في القسم الغربي من الهلال الخصيب

١ ـ أما الجانب الغربى من الهلال الخصيب ( سورية الكبرى ) فكذلك هو لم يدخل من باب التاريخ الحقيقى إلا فى العهد العربى .

فعندما بحث ( فيليب حتى ) فى أطوار التاريخ السورى قسم تاريخ شعوب سورية إلى خمسة أقسام : [ ١ ـ عصر ماقبل التاريخ ـ ٢ ـ الدوز السامى الذى بدأ بالأموريين سنة ٢٥٠٠ ق .م . وانتهى بسقوط الإمبراطورية البابلية الجديدة أوالكلدانية سنة ٥٣٨ ق . م . وتبعته سيادة الفرس ـ ٣ ـ العصر اليونانى الرومانى الذى بدأ بفتوح الإسكندر سنة ٣٣٣ق . م وانتهى بالفتوحات العربية ـ ٤ ـ الدور العربى الإسلامى الذى استمر إلى الفتح العثمانى فى ١٥١٦م ـ ٥ ـ الدور العثمانى الذى انتهى بنهاية الحرب الأولى ][١]

ويقول حتى : [ إن أول إشارة إلى أرض الأموريين ظهرت فى عصر سرجون حوالى سنة ٢٢٥٠[٢] . وإن الأموريين أخذوا يظهرون بالتدريج فى سورية الوسطى ولبنان وحتى فى فلسطين فى الجنوب . وإن الأموريين لم يقتصروا على تأسيس دولة فى منطقة الفرات الأوسط واجتياح سورية وإنما اجتاحوا بلاد مابين النهرين أيضاً وحكموها ، وقد أسسوا عدة سلالات من « آشور » فى الشمال حتى « لارسا » فى الجنوب بين ٢١٠٠ و١٨٠٠ ق . م . وأهم هذه السلالات كانت سلالة « بابل » التى انتسبت إلى حمورابى ][٣] .

وعندما بحث المطران الدبس فى سكان سورية بعد الطوفان اعتمد على ماجاء فى الأسفار عن سكان سورية ، فقال : [ قد مر فى كلامنا على أنساب موسى أن سورية سكنها أولا : الآراميون ولد إرم بن سام بن نوح وكانت مواطنهم فى سورية المجوفة

---

( ١ ) تاريخ سورية ١ / ٦١ .

( ٢ ) سبقت الإشارة إلى اختلاف الرأى فى تاريخ سرجون الأول وحمورابى .

( ٣ ) تاريخ سورية ١ / ٧٠ و ٧٢ .

ومايليها فى الجنوب وفى دمشق ومايليها . ثانياً : الجبابرة والأظهر أنهم ساميون من أقارب الآراميين . ثالثاً : الكنعانيون وقد سكنوا شمالى سورية إلى حماة . رابعاً : العبرانيون - إبراهيم وابن أخيه لوط - فى جنوبى سورية . خامساً : الموابيون فى شرقى البحر الميت والعمونيون عبر الأردن . سادساً : ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأكثر هؤلاء من سكان بلاد العرب . سابعاً : المدينيون ذرية مدين . ثامناً : الآدوميون فى جبل سعير وشمالى بلاد العرب . تاسعاً : الفلسطينيون وكانت مساكنهم فى البلاد التى سميت باسمهم ][١] .

ويقول ( عارف باشا ) : [ إن اليبوسيين هم بناة القدس القدامى ، وإن اليبوسيين بطن من بطون العرب الأوائل نشأوا فى صميم الجزيرة العربية وترعرعوا فى أرجائها ، نزحوا إلى سورية مع من نزح من القبائل الكنعانية ، وإن من ملوكهم ( ملكيصادق ) أول من اختط المدينة « القدس » وبناها وكان قبل ذلك يسكن وقومه الكهوف ][٢] .

فهذه الأقوال على اختلاف المصادر التى اعتمدت عليها وعلى اختلاف أزمنة قائليها تجمع على أن العرب هم سكان سورية فى عصرها التاريخى الأول ، وأن العرب هم الذين أسسوا الحضارة السورية القديمة ، فهم الذين بنوا المدن ، وهم الذين وضعوا نواة الثقافة السورية القديمة .

فمنذ بدأ البحث عن الآثار إلى الآن فإن كل أثر يكتشف فى سورية يدل على حضارة عربية ، اللهم إلا ما خلفته بعض العناصر التى مرت بسورية ، وماخلفه الرومان الذين تسلطوا على سورية إلى ظهور الإسلام ، واللهم إلا ماخلفه النضال السياسى الذى استمر طويلا بين العماليق والحثيين وشعوب البحر الأبيض المتوسط ، والإسرائيليين والآشوريين والفراعنة - ماخلفه كل ذلك من مختلف الآراء والعقائد والثقافات .

---

( ١ ) تاريخ سورية للدبس ١ / ١٥١ وما بعدها .

( ٢ ) تاريخ القدس لعارف باشا ص ١١ - ملكيصادق بهذا الاسم سمى الملك الكنعانى الذى اختط مدينة القدس - ويقول عارف باشا : عرف هذا الملك بالتقوى والعدالة وحب السلم حتى أطلق عليه لقب ( ملك السلام ) ومن هنا جاء اسم المدينة ( سالم - شالم ) تاريخ القدس ص ١١ هـ ولعل أصل هذا الاسم - « ملكيصادق » - الملك الصادق - و « يبوس » اسم القدس القديم .

وهذه الأقوال وماتبعها من تحقيق أثرى أو إخبارى ، لاتتجاوز بالتاريخ الحقيقى للحضارة السورية عصر حمورابى الذى يرجح : أنه بدأ فى القرن العشرين قبل الميلاد . فملكيصادق الذى تحدث عنه الإخباريون هو من رجالات التاريخ القديم الذين عاصروا إبراهيم عليه السلام ، ولقد مر بنا : أن إبراهيم وحمورابى برزا فى جيل واحد .

إذن : فإن الحضارة العربية فى سورية هى مثل شقيقاتها فى أنحاء الجزيرة العربية بدأت فى النضج فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد ، وإن التاريخ العربى فى سورية هو مثله فى العراق ، بدأ يتبلور فى صورته الحقيقية حضارياً وسياسياً فى الألف الثانية قبل الميلاد .





البحث الحادى والثلاثون

# أعاصير الأديان في سورية لا تقل عن الأعاصير السياسية

موضوعات البحث :

١ ـ لماذا تأثرت سورية بالعراق وبمصر وبسكان شواطىء البسفور والبحر الأبيض المتوسط فى عقليتها وعقائدها ؟

٢ ـ شعوذة الوثنية ووحشيتها فى سورية .

٣ ـ الوثنية فى سورية لم تنهر أمام اليهودية لتفسخ الأخلاق اليهودية .

٤ ـ الإسلام أنهى الصراع الدينى فى سورية .



# أعاصير الأديان في سورية لا تقل عن الأعاصير السياسية

١ ـ ليس بعجيب أن تتأثر العقائد فى سورية بما تأثرت به العقائد فى بابل . فالشعوب السورية تجاور الشعوب البابلية وتربطها بها أكثر من صلة ، صلة النسب وصلة الثقافة ، وصلة السياسة ، وصلة التجارة ـ وليس بعجيب أن تتأثر العقائد فى سورية بما تأثرت به العقائد فى مصر ، فإن التاريخ السياسى بين مصر وسورية وشيج الصلة من أقدم العصور . وإن أسواق الدلتا كانت تجمع بين سكان جبال سورية وبين سكان وادى النيل . فلقد حكم العرب « العماليق والإرميون » مصر وسورية . ثم حكم سورية فراعنة مصر ، وحكم مصر قياصرة سورية ، ولقد تبودلت التجارة بين القطرين عبر الطرق البرية والبحرية .

وليس بعجيب أن تتأثر العقائد فى سورية بعقلية سكان البسفور وشواطىء البحر الأبيض المتوسط ، فلقد كانت صلات سورية بشعوب آسيا الصغرى وسكان البحر الأبيض المتوسط قديمة طويلة متعددة .

وليس بعجيب أن تتأثر سورية التى شهدت أرضها صراعاً مستمراً بين دول العراق الآشورية والفارسية وبين دول مصر ، وبين هؤلاء جميعهم وبين دول شمال آسيا وجنوبى أوربا : حثيين ويونانيين ـ بعقائد هذه الدول وآرائها فى هذا الكون العظيم . فمثلما تسلطت عبادة الكواكب على أرض العراق تسلطت على أرض سورية . فانتشرت هياكلها فى سهولها وعلى رؤوس جبالها . ولقد تحدث المطران الدبس عن الفينيقيين الذين هاجروا من الخليج الإسلامى إلى سورية وعن حرصهم على إقامة ثالوث خاص بكل مدينة[١] .

٢ ـ ومثلما شاع تأليه الحيوانات فى مصر شاع تأليهها فى سورية . ولقد جاء فى تاريخ سورية لفيليب حتى : إن تأليه الأفعى فى سورية سبق قدوم بنى إسرائيل[٢] .

ولعل الفينيقيين كانوا متأثرين بعقائد بعض الشعوب الشمالية عندما أزالوا الوحدانية

---

( ١ ) راجع تاريخ سورية للدبس ٣٦٤/١/١

( ٢ ) تاريخ سورية لحتى ٨٣/١

عن ( بعل ) إلههم الأكبر فمنحوا كل مدينة من مدنهم بعلا .

ومثلما اندست الوثنية فى العقائد البابلية ، اندست الوثنية فى العقائد السورية . ويتزعم الوثنية فى سورية كهنة فى الدرجة الأولى من الشعوذة أطلقوا لشهواتهم العنان واستغلوا نفوذهم الكهنوتى أيما استغلال .

وتشذ الوثنية الفينيقية بتقديم الضحايا البشرية لآلهتها ، فلقد انفرد الفينيقيون بنوع غريب من الأضاحى البشرية وطريقة شاذة فى تقديمها ، فقد كانوا يقدمون أعز أبنائهم قرابين تلتهمهم نار الآلهة !![1]

٣ ـ ووثنية هذا نوعها لا ضمير لكهنوتها يخفف شيئاً من جشعهم وحيوانيتهم ، ولا عاطفة لطقوسها ترحم تلك الضحايا البريئة التى تلتهمها نار الآلهة ـ كان من المنتظر ألاّ تصمد أمام الأديان الكتابية النبيلة العادلة الرحيمة ، بيد أنها مع ما هى عليه لم تنهر أمام اليهودية بالسرعة المنتظرة . ولعل الضمير اليهودى المنحل والضعف الخلقى الذى ظهر على بنى إسرائيل منذ عهد موسى هما السبب فى بقاء الوثنية فى سورية رغم الحرب التى شنها أنبياء بنى إسرائيل عليها .

٤ ـ فاليهودية التى ظلت حيناً من الدهر سيدة الموقف فى أكثر مناطق سورية وفلسطين ، كان ينتابها الضعف فى فترات من الزمن من جراء تنكر الإسرائيليين لشرائعهم ، وبفعل الحوادث التى كانت تهز الحياة السورية وتزلزل كيانها السياسى والاجتماعى معاً .

فصراع الأديان فى سورية عرف من عهد إبراهيم ، واشتد من عهد موسى ، وأوشك أن ينتهى فى عهد القياصرة الذين نصروا الدولة الرومانية فنصروا المسيحية على اليهودية حتى لم يصبح لهذه شأن أكثر من شأن الوثنية فى سورية .

وصراع الأديان فى سورية كما تكشف عنه هذه الإلمامة بدأ مع التاريخ الحقيقى فى سورية الذى ظهرت عليه منذ البداية الانطباعات العربية .

---

( ١ ) تاريخ سورية للدبس ٣٦٥/١

البحث الثانى والثلاثون

# تاريخ العرب وحضارتهم في وادي النيل

من موضوعات البحث :

١ ـ للحضارة العربية فضل على الحضارة الفرعونية .

٢ ـ مصر العمليقية جزء من الجزيرة العربية .

٣ ـ المتأخرون من المؤرخين يؤكدون أقوال المتقدمين عما استفادته مصر من الجزيرة العربية .

٤ ـ الحضارة المصرية فرضت نفسها على الحضارة التى انتقلت إلى واديها .

٥ ـ رجوع الحضارات العربية إلى أصلها تحت راية الإسلام .

٦ ـ التاريخ العربى فى مصر بدأ من القرن العشرين قبل الميلاد .



# تاريخ العرب وحضارتهم في وادي النيل

١ ـ يؤكد المحققون فى تاريخ مصر القديم من المستشرقين مثل ( بريستد ) و ( جون ويلسن ) و ( ل . ديورانت ) أكثر ما قاله جهابذة المؤرخين الإسلاميين مثل الطبرى ، وابن قتيبة ، والمسعودى ـ عن العرب الذين سكنوا الصحراء الشرقية المترامية على ضفاف النيل ، منذ فجر التاريخ الإنسانى .

إن المستشرقين يقولون : إن العرب ـ أو الساميين كما فى تعبيرهم ـ هم أول من سكن الصحراء الممتدة من البحر الأبيض إلى ما بعد مديرية الشرقية شرقى النيل ، وهم الذين نشروا اللغة السامية بين سكان وادى النيل ؛ وإن الإسلاميين يقولون : إن العماليق والإرميين أبناء سام هم أول من سكن ضفة النيل الشرقية ونشروا فيها اللغة العربية . فمن المستشرقين من يقول عن سكان مصر الأقدمين : [ والمعروف أن أقواماً ساميين من عرب آسيا غزوا وادى النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش القديمة ][1] ، ومنهم من يقول عن حضارة مصر القديمة : [ إن زراعة الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والمعز والضأن ، انتقلت إلى مصر من بلاد العرب القديمة ][2] . وإن الكتابة التصويرية التى كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السوموريين . وإن الخاتم الأسطوانى أصله بلا شك من بلاد الجزيرة ، وإن عجلة الفخار عرفت فى مصر بعد أن عرفت فى العراق بزمن طويل ، وإن من بين الآثار المصرية التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسر والتى عثر عليها فى جبل الأراك ، سكين من ( الظران )[3] جميلة الصنع عليها نقوش بارزة هى بعينها نقوش أرض الجزيرة من حيث موضوعها وطرازها . وكذلك فن الهندسة المعمارية ، وتماثيل

( ١ ) تاريخ مصر من أقدم العصور لمؤلفه بريستد ص ١٧

( ٢ ) قصة الحضارة ٤٣/٢

( ٣ ) الظران أو الظر : حجرله حدكحد السكين وهو المشهور بالصوان

الفخار ، وكثير من آثار الحضارة المصرية يشبه فن الهندسة المعمارية والنقوش الفخارية فى أرض الجزيرة السابقة إلى الحضارة[1] .

ويقولون : [ ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد ][2] .

ومن أقوال الإسلاميين : إن الفراعنة الذين جلسوا على عرش مصر من عهد إبراهيم إلى عصر موسى هم من عنصر عربى . وإن الحضارة المصرية هى من أصل عربى . وإن الإسكندر الأكبر بنى مدينة الإسكندرية على أطلال مدينة عاد بن شداد[3] .

وجاء المتأخرون من رجالات التاريخ العربى القديم الذين نهضوا يبحثون فى تاريخ مصر القديم ، يؤكدون : الحقائق التى اتفق عليها المستشرقون والإسلاميون . فجرجى زيدان يقول فى بحثه ـ العمالیق فى مصر : [ ويؤخذ من الاكتشافات الأثرية الأخيرة : أن العصر الحديدى بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها أى أن المصريين قبل دخول الساميين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية وأن المصريين اقتبسوا من مخالطة العماليق معارف كثيرة ولا سيما من حيث الأبنية فأخذوا عنهم أشكالاً جديدة ويعد أبو الهول المجنح من مبتكراتهم ، وأن العرب كانوا يحبون العمارة فاستخدموا المصريين فى بناء المدن على النمط المصرى ][4] .

ويقول جواد على : [ إن قصة « أوزيريس » الفرعونية تتحدث عن رؤية الكرمة لأول مرة فى البلاد العربية ، وإن الكرمة نقلت إلى مصر من البلاد العربية ][5] .

وفى كتاب تاريخ مصر إلى العهد العثمانى الذى قررت وزارة التربية والتعليم تدريسه بمدارس مصر الثانوية يؤكد مؤلفاه عمر الإسكندرى والميجر ( ج . شفيدج ) . [ أن الحضارة التى بدأ ظهورها بابتداء الأسرات يعزى أصلها إلى القوم الفاتحين أجداد ( مينا ) وقد ثبت أن أصل هؤلاء الفاتحين قوم ساميون قدموا من آسيا . الأرجح أنهم

---

( ١ ) قصة الحضارة ٤٤/٢

( ٢ ) نفس المصدر ٦٥/٢

( ٣ ) راجع فصل إرم ذات العماد من هذا الجزء

( ٤ ) العرب قبل الإسلام ٦٧ و ٧٢

( ٥ ) تاريخ العرب لجواد على ٤٠٤/٢

جاءوا من برزخ السويس ][1] .

٢ ـ ولقد أثبتنا فى الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية القديمة من هذا الكتاب : أن مصر التى عرفت فى التاريخ القديم والتى أشار إليها القرآن الكريم ، هى جزء من أجزاء الجزيرة العربية ، وأن مصر العربية كانت أسبق إلى الحضارة من مصر النوبية ـ معتمدين فيما أثبتناه على أدلة ونصوص أثبتت : أن الضفة الشرقية الشمالية من وادى النيل التى نزح إليها العرب وعمروها وأسسوا فيها مدناً وأنشأوا فيها حياة الحواضر من قبل أن يبدأ فى مصر عهد الأسرات الحاكمة ، هى : قسم من أقسام الجزيرة العربية .

ولقد أوردنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ـ التاريخ العربى ومصادره : الأدلة التى تثبت أن العرب قبل الإسلام . وأن العرب بعد الإسلام ، وأن العرب فى الوقت الحاضر ـ منوا بخصومة الحاقدين على المجد العربى الذين ما فتئوا فى كل عصر من عصور التاريخ يثيرون الغبار حول حقيقة العرب ليخفوا فضل العرب فى التاريخ الإنسانى . وإن الحقيقة مهما عمل المبطلون لإخفائها لابد أن تظهر واضحة المعالم . فعلى ما بذله الفراعنة لتمصير حضارة العماليق ، وعلى ما دفعتهم إليه أنانيتهم فمحوا أسماء ملوك العماليق الذين بنوا مدينة ( صان الحجر ) ـ تانيس ـ [2] فلقد اعترف التاريخ المصرى القديم بآثار العرب وعمرانهم .

٣ ـ وكذلك أثبتنا فى الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها من هذا الكتاب : أن العرب فتحوا للسياسة الفرعونية آفاقاً بعيدة واسعة ، وأن من أهم بواعث القلق الدينى والوعى الشعبى الذى وثب يطالب بالحق الجماعى ـ الاحتكاك بسكان الجزيرة العربية ، أو الأرض المقدسة كما كان يسميها قدامى المصريين .

فمما قاله جرجى زيدان : [ وكان المصريون قبل العمالقة محصورين فى بلدهم لا يعرفون عن سائر العالم شيئاً . فأصبحوا بعد خروجهم أصحاب خيل ومركبات فحملوا على سورية وفلسطين وجزيرة العرب وبابل ] [3] .

---

( ١ ) تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى ١ / ٨ و ١٧ .

( ٢ ) راجع فصل التاريخ العربى والدعاية المغرضة فى القسم الثانى من هذا الجزء .

( ٣ ) العرب قبل الإسلام ص ٧٤ .

ومما جاء فى تعليق الدكتور أحمد فخرى على كتاب الحضارة المصرية « لجون ويلسن » : - ( فى كتاب دنلوك ) خصص المؤلف فصله الأخير لموضوع الأشياء التى أدخلها « الهكسوس » إلى مصر ، ونحن نوافق فى الحال على أنهم أدخلوا الأشياء المتصلة بالسيطرة والقوة مثل : الحصان والعربة ، والدرع التى تلبس فوق الجسم ، والكثير من الأسلحة ، والاهتمام بالصناعات المعدنية ؛ ولكن المؤلف يهدم موضوعه عندما يبدأ فى المغالاة : فينسب إلى الهكسوس أنهم ربما هم الذين أدخلوا الشادوف والنول القائم ، والماشية المسنمة ، وختم الماشية ، والقيثار والعود ... ألخ لأنه لا يكفى عدم معرفتنا لأصل بعض الأشياء فى الحضارة المصرية ، لكى ننسبها إلى قوم غزوا البلاد لا نعرف لهم مكاناً أو جنساً ( ١ ) ، وكانوا قوماً محبين للحرب ولا يحبون الاستقرار . ( ٢ ) - فسيان اعترف الفراعنة بأسبقية قلب الجزيرة وبلاد الرافدين فى المضمار الحضارى أم لم يعترفوا ، فإن الحقائق التاريخية تثبت نفسها على مر الزمن . وسيان تنصل الفراعنة من الدماء العربية التى تجرى فى عروق أبناء الضفة الشرقية من وادى النيل أم اعترفوا بها ، فإن عروبة سكان الصحراء الشرقية لاشك فيها . وسواء قصد الفراعنة إضاعة كل أثر عمليقى أم لم يقصدوا ، فإن حضارة العماليق فى وادى النيل تثبت : أن أولئك العماليق الذين شوه الفراعنة تاريخهم لم يكونوا شعباً سفاكاً مخرباً ، وأن ما ثبت لدى المؤرخ غير المتحيز لا ينكر أثر العرب فى حضارة مصر القديمة ، ولا ينكر ما جد على الحياة المصرية بعد قيام الدولة العربية فى مصر ، ولا ينكر كذلك : أن حضارة ضفتى نهر النيل قد انصهرت فى بوتقة الوادى فكان لها طابعها الخاص ، وأن الفراعنة استطاعوا تمصير كل ما وصل إليهم من حضارات الشعوب المجاورة لهم .

فمع كل هذه الحقائق التى أثبتها البحث والنصوص والأدلة التى وردت فيه لا ننكر أن الحضارة فى مصر كان لها طابع له صفات خاصة تميزه عن غيره .

---

( ١ ) لقد ذكرنا الأدلة التى اقتنع بها جمهرة المحققين فى أصل الهكسوس التى تؤكد أنهم ساميون جاءوا من الجزيرة فلقد قال بذلك كثرة المستشرقين وقال بذلك جرجى زيدان وجواد على وغيرهما ممن تخصص فى التاريخ العربى القديم .

( ٢ ) الحضارة المصرية ص ٢٦٨ .

٤ ـ فمما لا جدل فيه أن الحضارة المصرية قد فرضت نفسها على كثير من الحضارات وأن من تلك الحضارات حضارات شعوب خضعت مصر لسلطانها ، فلقد تأثر بالحضارة المصرية الفرس وتأثر بها اليونانيون على الرغم مما كان للفرس ولليونانيين من سلطان على مصر .

ومما سبق التنويه عنه : انصهار الحضارة العمليقية فى بوتقة وادى النيل ، ومما أثبته البحث أولاً : اعتزاز الحضارة البابلية بصفتها فلم تأخذ من الحضارة الفرعونية مثلما أعطتها .

٥ ـ ومما هو واضح جلى فى تاريخ مصر الطويل أن الحضارة العربية القديمة التى مصرها الفراعنة وطبعوها بطابعهم الخاص ، رجعت بعد آلاف السنين إلى أصلها العربى تحت راية الإسلام ، وأن الكفاءة المصرية التى ما فتئت تمصر لغات الساميين وغير الساميين وحضاراتهم ، خضعت آخر الأمر للغة القرآن وحضارة القرآن ، فنجح العرب المسلمون فيما أخفق فيه سواهم من الفاتحين فتعربت لغة الوادى ولم يبق فى مصر لون من ألوان الحضارة غير عربى ، ولم يبق فى مصر من لا يفخر بالعرب والعروبة ، كما لم يبق فى البلاد العربية من لا يفخر بمصر العربية وبالمصريين العرب .

وهذا الذى عجب له المستشرقون فقالوا : [ ثم انتهى أمر مصر بأن فتحها العرب المسلمون الذين استوطنوها فعلاً وأفلحوا بعد أن حكموها قروناً عديدة فيما أخفق فيه سواهم من الفاتحين أعنى فى تغيير لغة البلاد واستبدال العربية بها ] (١) .

فتاريخ العرب فى مصر يبدأ من أقدم عصورها التى اختلف الباحثون فى تحديد أزمنتها فمنهم من يجعل بداية التاريخ المصرى من عهد ( مينا ) الذى وحد الوجهين : القبلى والبحرى تحت سلطانه ، ويجعل عصره فى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد ( ٢ ) ، ومنهم من يستكثر هذا القدم على التاريخ المصرى .

٦ ـ أما نحن فلقد سبق أن تحدثنا فى بحث الأديان فى جزيرة العرب من قبل التاريخ : عن إبراهيم عليه السلام الذى بدأ التاريخ العربى فى عصره يجتاز الطور الخيالى إلى المرحلة الأولى فى طريق الحقائق التاريخية ، وعن رحلته إلى مصر ، وعن فرعون مصر

---

( ١ ) تاريخ العالم ٢ / ٣٠٤ طبع دار النهضة .

( ٢ ) مصر من أقدم العصور ص ٧ .

الذى يؤكد أكثر المؤرخين العرب عروبته ، والذى أكرم إبراهيم وأحسن وفادته ، وعن هدف إبراهيم من رحلته .

فالذى يبدو لنا مما سبق فيه البحث : أن التاريخ العربى فى مصر يبدأ من عصر إبراهيم الذى أنشأ وحدة سياسية فى سورية ، وأقام صلات بينها وبين مصر وربط بين كثير من الشعوب العربية برباط العقيدة ووجه الأنظار إلى البيت الحرام ، وأن مصر دخلت بعد العماليق إلى التاريخ العربى من أوسع أبوابه .

فقريب إلى هذه النتيجة ما جاء فى موسوعة تاريخ العالم عن تاريخ مصر ؛ فلقد تحدث مؤلفو الموسوعة عن تاريخ مصر وقالوا : [ كتب « مانيثون » ـ وهو كاهن مصرى حول عام ٢٨٠ ق . م . تاريخاً لبلاده والأسر المالكة ـ تاريخاً دقيقاً مبيناً على « حساب الموتى » وعلى معلومات فلكية للعصر الذى يلى عام ٢٠٠٠ ق . م . أما التواريخ السابقة حيثما وجدت فليست مؤكدة ] (١) .

ويقول غوستاف ليبون : [ ويظن أن هذه القبائل من العمالقة تحالفوا هم وأعراب سورية واستولوا على مصر سنة ٢٠٠٠ ق . م . وعرفوا بالرعاة ودام سلطانهم قروناً طويلة ](٢)

وهذا الذى يبدو لنا الآن ونشير إليه هنا بهذه الكلمة الموجزة سوف يكون موضوع بحث فى الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها إن شاء الله .



---

(١) الموسوعة ١ / ٤٧ .

(٢) حضارة العرب ص ٩٠ .

البحث الثالث والثلاثون :

# الآلهة في زمان الفراعنة

من موضوعات البحث :

١ ـ الحياة وما بعدها فى فلسفة الفراعنة .
٢ ـ آلهة قدامى المصريين .
٣ ـ يقظة الوعى المصرى .



# الآلهة في زمان الفراعنة

١ ـ للمصرى الفرعونى فى الحياة ، وفيما قبل الحياة ، وفيما بعد الحياة ـ فلسفة مزيج من البساطة والتعقيد ، تصور العقيدة المصرية التى استلهمها المصرى من آفاق تفكيره ، وتصور بجانبها الآراء التى وفدت عليه من وراء البحرين عبر البرزخ الذى كان إلى وقت قريب يحول دون التقائهما . وما هذه المقابر ـ الأهرامات ـ إلا صورة من تلك الفلسفة التى كلفته الكثير ، والتى أخذت نظرته إليها تتبدل متأثرة بما جد على تفكيره من آراء حملتها له الأمم التى تداعت على ضفاف النيل كما تداعت الأكلة على القصاع ، فلقد تبدلت نظرته فى الخلود الذى كان وقفاً على الملوك المتألهين ، وتعددت أمامه الأشياء التى أكبر فوائدها فراح يسبغ عليها كل معانى القداسة والتبرك ويحترمها إلى حد العبادة .

٢ ـ ويحدثنا ( ول . ديورانت ) عن آلهة قدامى المصريين فيقول : [ إن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب ، بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة ، فالنحلة ، والجميزة ، والبصل ، والتمساح ، والبقرة ، والعنزة ، والكبش ، والكلب ، والدجاجة ، والأفعى ، والآدميون ـ كل هذه وكثير معها كانت من المعبودات على ضفاف النيل ، ولكل هذه الآلهة وكثير معها نصبت الهياكل ][١] .

وفلسفة من هذا النوع ، تخلط بين مصدر الحياة وبين العوالم التى منحت الحياة لتؤدى واجبها فى هذا الكون العظيم خليقة بأن تكون مسرحاً لمتناقض العقائد والنحل ؛ فلقد وجدت وثنية البلاد العربية المجال واسعاً فى تلك الفلسفة كما وجدت عبادة الكواكب وفكرة الثالوث الإلهى ودعارة التشريع البابلى مكاناً رحباً فى قلوب المصريين .

فمن أقدم آلهة المصريين : ( فتاح ) ؛ ويصر جرجى زيدان على أن ( فتاح ) آسيوى

(١) قصة الحضارة ١٥٧/٢

الأصل[1] . ويقول المطران الدبس : ويظهر أن ملوك الرعاة أوصلوا إلى مصر عبادة ( ستخ ) وسموه ( سات ) . وكان ( سات ) أعظم الآلهة عندهم . وكانوا يقيمون له المعابد فى المدن[2] . وكان فى مصر ثالوث لكل مدينة من مدنها الكبيرة . وكان فى ( تاب ) ثالوث يتألف من آب ( آمون رع ) الإله الأعظم ، وزوج ( موت ) ، وابن ( خنسو ) . وكان المصريون يعتقدون أن هذا الثالوث هو إله واحد[3] .

٣ ـ على أن السذاجة مهما استحكمت لابد لها من أن تتأثر بالوعى الذى يوقظ مدارك الشعوب . والوعى عندما انبعث فى مصر أخذ يحطم الحواجز والأغلال سيما بعد أن اتسع الأفق المصرى باتساع الحوادث التى مرت به مع العهد العمليقى ، فكانت ثورة ضد تأليه الأفراد ، وكانت ثورة ضد الفوضى التى جرتها عبادة الملوك ، وكانت ثورة ضد الدعارة الوثنية ونزوات الكهنة ؛ وكانت ثورة بعد ثورة إلى أن انتهى الصراع فى شبه هدنة بانتصار المسيحية دين الدولة الرومانية . ثم جاء الإسلام فوضع الأشياء فى أماكنها ، وقضى على كل خرافة وتفسخ عقيدى ، ومنح المجتمع المصرى حق الحرية والعزة ، ومنع الناس من أن يطأطئوا رؤسهم لغير الله .

فتاريخ الأديان فى مصر مرآة للتاريخ السياسى الذى بدأ يرتبط بتاريخ البلاد العربية من عهد العماليق .



(١) العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان ص ٦٧ .

(٢) راجع تاريخ سورية للمطران الدبس ١ /٢٠٦ .

(٣) نفس المصدر ١ /٣٦٤ .

البحث الرابع والثلاثون

# نهاية المطاف

من موضوعات البحث :

١ ـ ليس التاريخ الأسطورى مجرداً من كل حقيقة ، وليس التاريخ الحقيقى مجرداً من كل أسطورة .

٢ ـ قدم التاريخ العربى وسبق قلب الجزيرة إلى الحضارة .

٣ ـ مالا يدرك كله من التاريخ العربى لايترك كله .

٤ ـ قدم الحضارة والمجتمع العربى فى قلب الجزيرة .

٥ ـ فضل الجزيرة العربية على الشرق العربى .

٦ ـ صحة مصادر التاريخ العربى .

٧ ـ ما هى مصادر التاريخ العربى ؟



# نهاية المطاف

١ ـ لقد فرض علينا البحث فى بداية التاريخ التوغل فى مجاهل الماضى البعيد ، حيث لاتوجد غير آثار مازال بعضها لغزاً لم تحله دراسات المحققين ، فحامت حوله ظنونهم وتشعبت فى فهمه آراؤهم .

فما أكثر ماطوى الزمن من أمم تحدث عن قليل منها القرآن ، ضارباً الأمثال بما كان لها من قوة ، وسلطان ، وعيش رغيد . وتحدثت عنها الأسفار بما لعله ينفع قوم موسى ، وهارون ، وداود ، وسليمان ، وعيسى بن مريم عليهم السلام . واحتفظت ببعض من أخبارهم مؤلفات كلاسيكية تمثل منطق القدامى وتصوراتهم ، وما كانوا يعرفونه من شعوب أقفرت الأرض من قوميتها ، ومن مدن حصد الدهر عمرانها ، فلاشىء يدل عليها وعليهم غير الأسماء التى ورد بعضها فى الكتب المنزلة ، وفى تواريخ الكلدانيين واليونانيين والفرس ، وورد بعضها فى آثار الآشوريين والبابليين ، أخذ الباحثون يفرضون وجودها هنا وهناك ، فوفقوا لمعرفة شىء مما كان لتلك المدن من عمران ، وما كان لتلك الشعوب من سلطان ، وأين كانت مساكنها ، وكيف كانت حياتها ؟

وما أقل هذا الحاصل الذى جمعته مما وصل إليه تحقيق الباحثين من نتائج تحتاج إلى أكثر من الأدلة التى قدمها المحققون .

وما أثمن هذه النتائج على ماينقصها من البرهان الساطع والدليل القاطع ، لأنها على كل حال قد أزاحت شيئاً من الغموض واثبتت قسماً من الحقائق .

فمن أهم هذه النتائج التى أثبتت وجودها : قدم التاريخ فى جزيرة العرب ، منذ كان أسطورياً إلى أن أصبح حقائق . وحقيقة التاريخ العربى بنوعيه : الخيالى والواقعى ، فليس التاريخ الأسطورى مجرداً من كل حقيقة ، وليس التاريخ الحقيقى مجرداً من كل أسطورة . وليس هناك فواصل دقيقة بين التاريخين : الأسطورى والحقيقى ، تعين لنا نهاية الأسطورة وبداية الحقيقة فى التاريخ .

فنحن إذا كنا قد اقتنعنا بأن التاريخ العربى بدأت أحداثه واضحة بعض الشيء من مطلع الألف الثانية قبل الميلاد ، فليس ذلك معناه : أن الحياة العربية بدأ وجودها المتكامل من ذلك العصر ، وليس معناه : أن الحياة العربية قبل الميلاد واضحة وضوح الحياة العربية بعد الإسلام ، فالفارق جد كبير .

ونحن إذا كنا نعلم : أن فى تاريخ بعض الأقطار العربية بعد الإسلام حلقات مفقودة وأخباراً مافتئت مشكوكاً فيها ، فإن علينا : أن نعترف بأن فى تاريخنا قبل الإسلام : حلقات مفقودة هى أوسع مما عرف منه ، وأن فى تاريخنا أخباراً مازالت تعتبر خيالاً يسخر منه منطق العصر الحاضر .

فالحيثيات التى انبنى عليها الاقتناع بأن تاريخ العرب بدأ يتبلور فى الألف الثانية قبل الميلاد ، قد تقدمت بكثير من التفصيل فى البحوث التى تناولت الحياة العربية فى كل ناحية من نواحى الجزيرة ، وبحثت فى المراحل التى اجتازتها ، وفى الأحداث التى كان لها تأثير عليها .

فمنذ رفع إبراهيم القواعد من البيت ربطت الرابطة الدينية بين الشعوب العربية التى قطعت شوطاً فى التطور تحدثنا عنه فى بحوث هذا الجزء ، وبدأت الشعوب المحيطة بأم القرى وما حولها تنشد الاستقرار السياسى ، والنظام الإدارى والحياة الاجتماعية . وقد تزعم هذا التطور إسماعيل ، ثم تنافس على الزعامة الجرهميون القدامى ـ جرهم الأولى ـ وانتهى الأمر إلى سيادة « جرهم الثانية » . ثم جاءت « خزاعة » ثم من بعدها : كنانة فقريش .

٣ ـ هذا مايجمع عليه المؤرخون . وهذا الذى يجمع عليه المؤرخون يحتاج إلى كثير من التدعيم ، وإلى مايزيل عن الكثير منه الغموض والشكوك ـ فمثلا النسب النبوى إلى إسماعيل . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عندما وصل نسبه إلى « عدنان » : [ من ههنا كذب النسابون ] . فعلى ذلك أن هذه الناحية الهامة فى تاريخنا غامضة . وإذا كانت مثل هذه الناحية الهامة مازالت غامضة فحرىّ بغيرها أن يظل غارقاً فى الشكوك .

ولكن ما لايدرك كله لايترك كله ـ كما يقولون ـ فنحن إذا كنا عاجزين عن معرفة عدد من تولى الزعامة من الجرهميين ، ومن العماليق ، ومن خزاعة ، وعن معرفة عهودهم

معرفة صحيحة كاملة ، فان ذلك لايفقدنا الاقتناع بما فى التاريخ عن دول مكة وشعوبها ، ولايفقدنا الاقتناع بما قيل عن الرياسة التى تداولتها الشعوب العربية فى المدينة وفى شمالى الحجاز .

ولقد تقدم الكلام عن فترات تاريخ الماضى القديم ، وأنها مسألة تقديرية ـ كما قال عنها مؤلفو موسوعة « تاريخ العالم » . فالتاريخ لم يكن واقعياً لايخالطه الشك فى الزيادة والنقص إلا بعد عام ٥٠٠ ق .م . ـ كما قال مؤلف الحضارة المصرية « جون ويلسن » .

فنحن عندما بحثنا فى عصر إبراهيم وجدنا خلافاً كبيراً فى تاريخ ظهوره . ونحن عندما بحثنا فى تاريخ اليمن ، رأينا الخلاف بين المستشرقين فى بداية التاريخ اليمنى قائماً على أشده ، فبعضهم حدد تاريخ المعينيين بالألف الأخيرة قبل الميلاد ، وبعضهم زاد هذا التقدير خمسمائة عام .

ونحن عندما بحثنا فى عصر سرجون ، وعصر دولة حمورابى ، وجدنا الباحثين مختلفين فى تاريخ سرجون وحمورابى ، فبعضهم جعل عصر سرجون فى غضون الألف الرابعة وبعضهم جعله فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، فبذلك يكون الفرق أكثر من ألف سنة بين التقديرين . والعقاد عندما تحدث عن حمورابى قال : إنه ظهر فى عام ٢٤٦٠ ق .م . بينما فيليب حتى جعل ظهور حمورابى فى عام ١٧٠٠ ق .م . فبذلك يكون الفرق بين تقدير العقاد وبين تقدير حتى ٧٦٠ عاماً .

ونحن عندما بحثنا فى بداية التاريخ العربى فى مصر وجدنا تقدير الكاهن المصرى « مانثيون » الذى عاش حول عام ٢٨٠ ق .م . ـ المبنى على معلومات فلكية للعصر الذى يلى عام ٢٠٠٠ ق .م . وهو عصر العماليق فى مصر ـ ارتاح له المحققون .

ونحن عندما ناقشنا هذه الآراء المختلفة انتهينا إلى نتيجة واحدة رجحت لنا : أن فى مطلع الألف الثانية بدأت نوعية التاريخ العربى تنتقل من القصة الأسطورية إلى الخبر الواقعى . على أن الخبر الواقعى لم يسلم هو أيضاً من خيال الرواة .

وهذه النتيجة قد أثبتت لنا صحتها الأدلة التى اعتمد عليها النقاش فى بحوث هذا الجزء ، وهذه النتيجة بما يؤكدها من الأدلة لاتمنحنا الاقتناع الكامل ، ولاتضبط لنا تاريخ الجرهميين فى مكة ، والمعينيين فى اليمن ، والحمورابيين فى بابل ، والعماليق فى سورية

وفلسطين وسيناءومصر ـ مثلما ضبطت لنا مؤلفات التاريخ الإسلامى عصر الراشدين فى المدينة ، والأمويين فى كمشق وقرطبة ، والعباسيين فى بغداد ، والفاطميين فى مصر ؛ وإنما هى ترجح لنا ـ كما قلنا من قبل ـ أن فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد بدأ التاريخ الحقيقى . ففى مطلع هذه الألف قامت الدول العربية فى الشرق العربى ، وفيه رسمت الجيوش العربية بسيوفها وفؤوسها حدود البلاد العربية ، وفيه كانت النهضة العربية الأولى التى حمل لواءها إبراهيم عليه السلام ، وفيه أخذت كل أمة من أمم الجزيرة تثبت وجودها فى التاريخ العربى الطويل .

٤ ـ ومن أهم هذه النتائج التى أثبتت وجودها : قدم الحضارة ، والعقيدة ، والمجتمع فى العالم العربى ، وسبق قلب الجزيرة العربية إلى حياة التمدن والاستقرار . فلقد ساعد مناخ هذه المنطقة فى العصور الثلجية سكانها على تأسيس الأسرة ، وتكوين المجتمع ، والوصول إلى استنبات الحبوب واستئناس الحيوانات الضرورية لحياة المجتمع ، والاستفادة من معادن الأرض ، فأخرجوا ذهبها ونحاسها ، واستنبتوا البخور والكرْمة من أقدم العصور ، وصدروا إنتاجهم المعدنى والزراعى الثمين إلى الشعوب المجاورة لهم : السوموريين ، والفراعنة .

٥ ـ ومن أهم هذه النتائج التى أثبتت وِجودها : فضل الجزيرة العربية فى نشر العقائد ، واللغة ، والحضارة ، وتطوير فن الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط .

ولقد خصصنا لكل من الدين واللغة والحضارة والملاحة بحوثاً اقتضتنا أن نتعمق مع دراسات المحققين لنعرف الأديان العربية ومدى تأثيرها على عالم الشرق العربى ، ونعرف اللغة العربية ومبلغ تشعبها ، وتفرع خطوطها وأبجدياتها ، ونعرف الحضارة العربية ومبلغ ازدهارها فى عصور الغابرين ، وكيف استطاع العرب أن يصهروا المدنية السومورية فى البوتقة العربية ، وكيف استفادت مصر من حضارة الجزيرة ، وكيف اتسع أفقها فخرجت من عزلتها إلى ميدان الصراع السياسى فى الشرق العربى ؟

٦ ـ ومن أهم هذه النتائج التى أثبتت وجودها : صحة الكثير مما جاء فى مصادر التاريخ العربى عن العصور القديمة : عن آدم ، وإدريس ، ونوح ، وعالم ماقبل الطوفان ، وعن إبراهيم ، وهود ، وصالح ، وعن تبابعة اليمن ، وعماليق سورية ومصر ، وإرمي العراق ـ

قبل الميلاد ، إلى غير ذلك مما كان إلى وقت قريب فى نظر البحث العلمى يعتبر ضرباً من الخيال والقصص الروائى .

إن هذه النتائج كما رأيتها لم تكن جميعها قصصاً خيالية وضعها المؤرخون كما كان يظنها المستشرقون ومن سار خلفهم قبل أن تعلن البحوث الأثرية صحتها . وإن هذه الحقائق كما رأيتها ، فيها من الأدلة مايرجح بكثير من التأكيد : أن بداية الألف الثانية قبل الميلاد هى بداية التاريخ العربى فى جزيرة العرب ، وأن هذه الحقائق وغيرها قد وصل إليها البحث فى مصادر التاريخ العربى .

٧ ـ فما هى مصادر التاريخ العربى ؟ وما هو مبلغ ما جاء فيها من الصحة ؟ ومن هم الذين قدموا لنا هذه المصادر ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة ليس من السهولة واليسر بحيث يمكن الإدلاء به دون مانقاش وتحقيق . فلقد تعرضت مصادر التاريخ العربى إلى نقد الناقدين ، وتحقيق المحققين دون ماتمييز بين مانسب إلى الكتب المنزلة ، وبين مانسب إلى المؤرخين اليونانيين القدامى ، وبين ما أكده علماء الآثار وعباقرة الجيولوجيين .

فلذلك كان لزاماً علينا أن نفرد لها جزءاً خاصاً من هذا الكتاب ، ونبحث فيه بقدر مايحتاج إليه البحث لنكون على ثقة مما تعتمد عليه دراستنا وتنبنى عليه النتائج التى نصل إليها .

والله الموفق وعليه الاعتماد .





# الكشَافُ



# الكشاف

## أ

ذ



ر



ز

ش

## ص

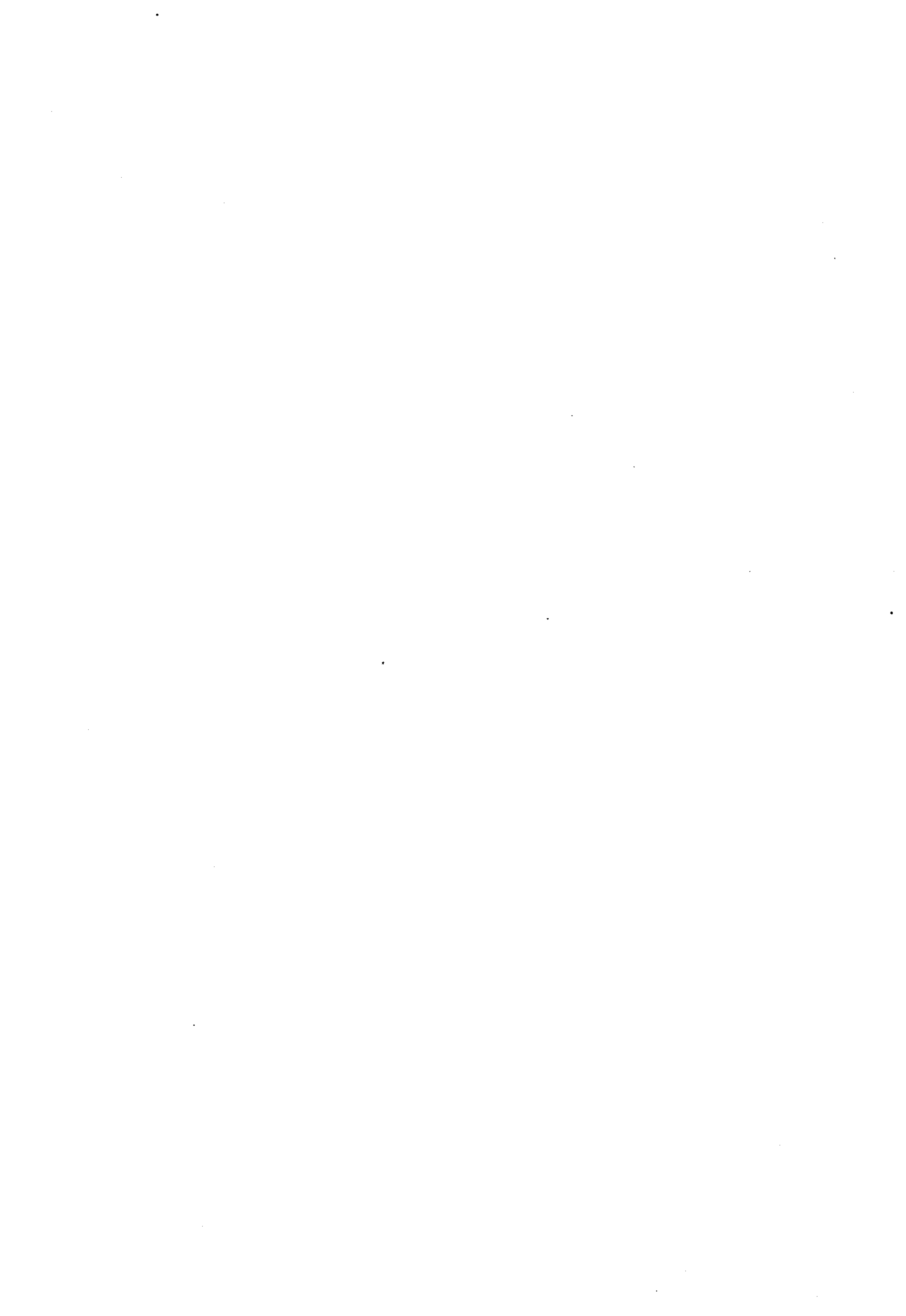
غ



ف

ق

م





# إصدارات إدارة النشر بتهامة

## الكتاب العربي السعودي

**صدر منها :**

| الكتاب | | المؤلف |
|---|---|---|
| * الجبل الذي صار سهلا | | الأستاذ أحمد قنديل |
| * من ذكريات مسافر | | الأستاذ محمد عمر توفيق |
| * عهد الصبا في البادية | | الأستاذ عزيز ضياء |
| * التنمية قضية | | الدكتور محمود محمد صفر |
| * قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا | | الدكتور سليمان محمد الغنام |
| * الظمأ | ( مجموعة قصصية ) | الأستاذ عبد الله جفري |
| * الدوامة | ( قصة طويلة ) | الدكتور عصام خوقير |
| * غداً أنسى | ( قصة طويلة ) | الدكتورة أمل محمد شطا |
| * موضوعات اقتصادية معاصرة | | الدكتور علي بن طلال الجهني |
| * ازمة الطاقة إلى أين ؟ | | الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ |
| * نحو تربية إسلامية | | الأستاذ أحمد محمد جمال |
| * إلى ابنتي شيرين | | الأستاذ حمزة شحاتة |
| * رفات عقل | | الأستاذ حمزة شحاتة |
| * شرح قصيدة البردة | ( دراسة وتحقيق ) | الدكتور محمود حسن زيني |
| * عواطف انسانية | ( ديوان شعر ) | الدكتورة مريم البغدادي |
| * تاريخ عمارة المسجد الحرام | | الشيخ حسين باسلامة |
| * وفقة | | الدكتور عبد الله حسين باسلامة |
| * خالتي كدرجان | ( مجموعة قصصية ) | الأستاذ أحمد السباعي |
| * أفكار بلا زمن | | الأستاذ عبد الله الحصين |
| * علم إدارة الأفراد | | الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع |
| * الإبحار في ليل الشجن | ( ديوان شعر ) | الأستاذ محمد الفهد العيسى |
| * طه حسين والشيخان | | الأستاذ محمد عمر توفيق |
| * التنمية وجهاً لوجه | | الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي |
| * الحضارة تحدٍّ | | الدكتور محمود محمد سفر |
| * عبير الذكريات | ( ديوان شعر ) | الأستاذ طاهر الزمخشري |
| * لحظة ضعف | | الأستاذ فؤاد صادق مفتي |

| | | |
|---|---|---|
| * الرجولة عماد الخلق الفاضل | | الأستاذ حمزة شحاتة |
| * ثمرات قلم | | الأستاذ محمد حسين ز يدان |
| * بائع التبغ | | الأستاذ حمزة بوقري |
| * أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة | | الأستاذ محمد علي مغربي |
| * النجم الفريد | | الأستاذ عزيز ضياء |
| * مكانك تحمدي | | الأستاذ أحمد محمد جمال |
| * قال وقلت | | الأستاذ أحمد السباعي |
| * نبض .. | | الأستاذ عبد الله جفري |
| * نبت الأرض | | الدكتورة فاتنة أمين شاكر |
| * السعد وعد | ( مسرحية ) | الدكتور عصام خوقير |
| * قصص من سومرست موم | | الأستاذ عزيز ضياء |
| * عن هذا وذاك | | الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي |
| * الأصداف | ( ديوان شعر ) | الأستاذ أحمد قنديل |
| * الأمثال الشعبيه في مدن الحجاز | | الاستاذ أحمد السباعي |
| * أفكار تربوية | | الدكتور ابراهيم عباس نتو |
| * فلسفة المجانين | | الأستاذ سعد البواردي |
| * خدعتني بحبها | ( مجموعة قصصية ) | الأستاذ عبد الله بوقس |
| * نقر العصافير | ( ديوان شعر ) | الأستاذ أحمد قنديل |
| * السنيورا | ( قصة طويلة ) | الدكتور عصام خوقير |
| * التاريخ العربي وبدايته | | الأستاذ أمين مدنى |

## تحت الطبع :

| | | |
|---|---|---|
| * رسائل إلى ابن بطوطة | ( ديوان شعر ) | الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي |
| * تأملات في دروب الحق والباطل | | الشيخ عبد الله عبد الغني خياط |
| * قصص من طاغور | | الأستاذ عزيز ضياء |
| * أيامي .. | | الأستاذ أحمد السباعي |
| * ماما زبيدة ( مجموعة قصصية ) | | الأستاذ عزيز |
| * مدارسنا والتربية | | الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع |
| * دوائر في دفتر الزمن ( مجموعة قصصية ) | | الأستاذ سباعي عثمان |
| * جسور إلى القمة | | الأستاذ عزيز ضياء |
| * هكذا علمني وردزورث | | الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري |

| | |
|---|---|
| * عام ١٩٨٤ لجورج أورويل | الأستاذ عزيز ضياء |
| * مشواري مع الكلمة | الأستاذ حسن عبد الحي قزاز |
| * وجيز النقد عند العرب | الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي |
| * لن تلحد | الاستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري |
| * خواطر جريئة | الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ |
| * تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها | الشيخ حسين باسلامة |
| * الإسلام في نظر أعلام الغرب | الشيخ حسين باسلامة |
| * قضايا .. ومشكلات لغوية | الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار |
| * كلمة ونصف | الأستاذ محمد حسين زيدان |
| * ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز | الأستاذ محمد علي مغربي |

## الكتاب الجامعي

### صدر منها :

| | |
|---|---|
| * الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية | الدكتور مدني عبد القادر علاقي |
| * الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق ( باللغة الانجليزية ) | الدكتور فؤاد زهران<br>الدكتور عدنان زهران<br>الدكتور محمد عيد |
| * النمو من الطفولة إلى المراهقة | الدكتور محمد جميل منصور<br>الدكتور فاروق سيد عبد السلام |
| * الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا | الدكتور عبد المنعم رسلان |
| * النفط العربي وصناعة تكريره | الدكتور أحمد رمضان شقلية |
| * الملامح الجغرافية لدروب الحجيج | الأستاذ سيد عبد المجيد بكر |
| * علاقة الآباء بالأبناء ( دراسة فقهية ) | الدكتورة سعاد ابراهيم صالح |
| * مبادىء القانون لرجال الأعمال | الدكتور محمد ابراهيم أبو العينين |
| * الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية | الأستاذ هاشم عبده هاشم |
| * مشكلات الطفولة | الدكتور محمد جميل منصور |
| * شعراء التروبادور | الدكتورة مريم البغدادي |
| * الفكر التربوي في رعاية الموهوبين | الدكتور لطفي بركات أحمد |

* النظرية النسبية — الدكتور عبد الرحمن فكري
الدكتور محمد عبد الهادي كامل

## تحت الطبع :

* **أمراض الأذن والأنف والحنجرة** — **الدكتور أمين عبد الله سراج** / **الدكتور سراج مصطفى زقزوق**
* **الأدب المقارن** — الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
  ( دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية )
* **هندسة النظام الكوني في القرآن** — الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
* **الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية** — الأستاذ نبيل عبيد الحي رضوان




## صدر منها :

* **حارس الفندق القديم** — الأستاذ صالح إبراهيم
* **دراسة نقدية لفكر زكي مبارك** ( باللغة الانجليزية ) — الدكتور محمود الشهابي
* **التخلف الإملائي** — الأستاذة نوال قاضي
* **ملخص خطة التنمية الثالثة**
  **للمملكة العربية السعودية** ( باللغة العربية )
* **ملخص خطة التنمية الثالثة**
  **للمملكة العربية السعودية** ( باللغة الانجليزية )
* **تسالي** — الدكتور حسن يوسف نصيف
* **مجلة الأحكام الشرعية** — الشيخ أحمد بن عبد الله القاري
  ( دراسة وتحقيق ) — الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان / الدكتور محمد ابراهيم أحمد علي
* **النفس الإنسانية في القرآن الكريم** — الأستاذ ابراهيم سرسيق
* **خطوط وكلمات** ( رسوم كاريكاتورية ) — الأستاذ علي الخرجي
* **واقع التعليم في المملكة العربية السعودية**
  ( باللغة الانجليزية ) — الدكتور عبد الله محمد الزيد

* صحة العائلة في بلد عربي متطور — الدكتور زهير أحمد السباعي
* مساء يوم في آذار — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
* النبش في جرح قديم — الأستاذ السيد عبد الرؤوف

## تحت الطبع :

* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكاندي
* ألـوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطر وموسيقى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون ( مجموعة قصصية ) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — الدكتور اسماعيل الهنباوي
* جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الأستاذ محمد أمين ساعاتي
* القرآن .. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
* الموت والابتسامة — الاستاذ عبد الله باقازي
* مواسم الشمس المقبلة — الأستاذ محمد علي قدس

# رسائل جامعية

## صدر منها :

* صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية — الدكتور بهاء حسين عزي

## تحت الطبع :

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
* نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
* افتراءات فليب حتى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز

## كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب اسحاق

**صدر منها :**

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر ..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

## كتاب للناشئين

وطني الحبيب

**صدر منها :**

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

**تحت الطبع :**

- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

## English Books Published By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Bahha Bin Hussain Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.

طبعت بمطابع دار البلاد – جدة
DAR AL.BILAD دار البلاد
طباعة – نشر – توزيع
Printing, Publishing, Distribution